لم الاجتماع وقضايا الانسان والمجتمع

الكتاب الخامس

تاريخ الفكر الاجتماعى

الأستاذ الدكتور
غريب محمد سيد أحمد
أستاذ علم الاجتماع
ووكيل كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت: ٤٨٣٠١٦٣

علـــم الاجتماع وقضايا الانسان والمجتمع
الكتـــاب الخامس

تاريخ الفكر الاجتماعي

دكتور غريب سيد أحمد
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الاسكندرية

تصديــر

لم يكن علم الاجتماع وليد لحظة يمكن تحديدها ، فقــد بــدأ التفكير فى المجتمع وشئونه منذ أن بدأ الانسان يفكر فى أسلـوب حياته وكيفية تعديل البيئة لكى تتواءم مع ظروفه ، ومنذ أن بدأ ــ الانسان أيضا ــ يعمل على تكييف ظروفه لتتفق مع مايدور حوله فى عالمه الذى يعيشه .

واذا تعمقنا تاريخ الحضارات القديمة ، فباستطاعتنا الوقــوف على صور الحياة الاجتماعية وملامحها فى الشرق القديم ، وماتذخــر به الاثار من تصوير لهذه الحياة ، وما كان يمارس من نظم وقواعد أخلاقية ، عملت على ضبط السلوك وتوجيهه . كذلك الحال بالنسبــة للحضارات الهندية والصينية القديمة ، حيث سادت فلسفات عالجت مختلف أمور الحياة الاجتماعية .

الا أن التفكير المنظم فى الانسان والمجتمع ، بدأ فى فلسفــات اليونان القديم . منذ سقراط وتلامذته وحتى فلسفات العصـــور الوسطى ومابعدها . ولهذا نجد من المناسب التأريخ لعلم الاجتمــاع بداية من الفلسفات اليونانية القديمة .

كما أن البذور الاساسية لهذا العلم بدأت تتخذ صورة قضايــا علمية تقوم على المشاهدة والتحرى الدقيق للحقائق ، عندما بــــدأ العرب دراساتهم لدى الرحالة والمفكرين المسلمين ، بالرغم مــن أن تسمية العلم قد أختلفت مع ثبات وأستمرار مضمون موضوع العلــم ومنهجه ، ومالحق هذا من تعديل أو أضافة أو أسهام فى التطبيــق العلمى فى العصور الحديثة . ولهذا ، فمن المناسب ــ أيضا ــ عرض أهم أسهامات مفكرى العرب فى هذا الصــدد ، وبيــان مولــد علم الاجتماع الحديث فى فرنسا والمانيا وبريطانيا ، ومن ثم عرض بعض رواد العلم الذين كان لهم الاثر فى تطوير وصياغة الاتجاهاتالفكرية والنظرية لعلم الاجتمــاع .

ان المتعمق لتاريخ الفكر الاجتماعى يلحظ على الفور أن كـــل مفكر أو فيلسوف كان يتأثر بالظروف المجتمعية التىعاشها من ناحية، وبتجربته الشخصية من ناحية أخرى • كمايلحظ أن الفكر الاجتماعى فى كل حقبة تاريخية كان يتخذ طريقين محددين ، أولهما فكر مثالـــى خيالى يوتوبى ، وثانيهما فكر واقعى موضوعى •وبين هذين الطريقين اتخذ كل فيلسوف أو مفكر اجتماعى مساره ، محاولا اثبات وجهـة نظره ، ومؤكدا قضاياه سواء بالمنطق العقلى أو بالدليل الواقعى •

وعلى مسار الفكر الاجتماعى علامات وأعلام ، كان لها تأثيرها فى توجيه هذا المسار — مثاليا وواقعيا — نحاول فى الصفحاتالراهنة عرضها من خلال خمسة فصول • يعالج أولها الفكر الاجتماعـى فى الفلسفة اليونانية ، لدى أفلاطون وارسطو ، ويتناول ثانيها الفكـر الاجتماعى فى الشرق لدى الفارابى وابن خلدون والمقريزى •ويعرض ثالثها الفكر الاجتماعى فى أوربا لدى اوغسطينوالاكوينى وماكيافيللى وتوماس مور وجان بودان ومونتسكيو وفولتير وجان جاك رســو • ويتناول الفصل الرابع مولد علم الاجتماع الحديث لدى أوجســـت كومت وكارل ماركس وهربرت سبنسر ، ويعرض الفصل الخـامس لاربعة من رواد العلم وهم دوركايم وفيبر وسمنر وكولى • وسوف يلاحظ القارىء أن ميلاد هذا العلم كان على يدى ابن خلدون ، وان تسميته كانت بطريق أوجست كومت ، وأن ارساء قواعد منهجه كانت على يــدى دوركايم •

وأرجو بهذا الكتاب أن أكون قد قدمت للمكتبة العربية اسهاما يفيد دارس علم الاجتماع • والله الموفق •

رشدى — الاسكندرية غريب سيد أحمد

يناير ١٩٨٦

الفصـــل الأول

الفكر الاجتماعى فى الفلسفة اليونانيـــة

مقدمـــة

المبحث الاول : افلاطـــون

المبحث الثانى : ارسطـــو

تقويم الفكر اليونانى الـقديم

الفكر الاجتماعى فى الفلسفة اليونانية

بدأ الشعب اليونانى فى القرن السابع قبل الميلاد عهدا جديدا من التفكير العقلى الحقيقى ، كماشاء لذلك التفكير أن يثبت ويتابع نماءه وتطوره • ولم يكن القرن الخامس قبل الميلاد يدرج بخطاه فى مجرى الزمن الا والبيئة اليونانية تزخر بمختلف ضروب الثقافات العقلية والفنية ، لها مدارسها وزعماؤها وأتباعها المتحمسون المجدون•

وكان حملة لواء الفكر فى ذلك العصر فريقين من الفلاسفة : الميتافيزيقيون والسوفسطائيون ، كان الأولون يجرون وراء مطلوبات بعيدة المنال ، ويحاولون الوصول الى أسرار الطبيعة المغلقة عن أصل العالم وكيف وجد ، والى أى شىء سيصير ؟ وكان السوفسطائيون يتجرون بالعلم ويتلاعبون بمبادىء الاخلاق، ويطمسون معالم الحق، ويبذرون بذور الشك فى كل مكان ، حتى انكروا حقيقة الفضيلة والعدالة فيما انكروه من حقائق الاشياء • وجعل بعضهم الحق فى جانب القوة دائما ، يدور معها وجودا وعدما ، فكان هذا المبدأ شر ماشرع من البدع ، وأسوأ ما اخترع من الضلالات ، وأقسى نكبة يستهدف لها الضعفاء فى كل مكان وزمان •

فى هذا القرن ولد سقراط ، مؤسس الفلسفة ومعلمها الاول ، فنما فى هذه البيئة وترعرع وشب واكتمل • وكان له من مواهبه الفطرية ، ماجعله هو نفسه هبة من هبات الانسانية التى قلما يسمح بمثلها الزمان •زهد سقراط فى أسلوب الميتافيزيقيين ، كما أحتقر أسلوب السوفسائيين الذين يستغلون فساد روح هذا العصر ليزيدوا الامور فسادا • ولذا أعرض عن طريق الميتافيزيقيين ، كما أعلن الحرب على السوفسطائيين حتى انتصر عليهم ، وأصبح زعيمفلاسفة أثينا بلا منازع • رأى أن يكون منهجه الثقافى دائرا حول هذا الكائن الانسانى قبل كل شىء لكى يحقق له حياة سعيدة : فذلك أولى من عبث الميتافيزيقيين وضلالات السوفسطائيين • وكان السوفسطائيون

يقولون باللذة غاية لأفعال الانسان اعتقادا منهم بأن الطبيعةالبشرية لاتعدو أن تكون شهوة وهوى ، فقالوا : لن تكون سعيدا متىخضعت لقانون ، فمن حقك أن تستخدم ذكاءك فى اشباع شهواتك وتحقيق سعادتك ، وان اقتضاك الحرص على مصلحتك أن تتخفى وتتظاهـر بالتقوى والاستقامة • أما سقراط فقد رفض هذا الموقف برمتـه ، ونفر من القول باللذة غاية لأفعالنا ، وطالب بالسعادة التى تقـــوم عنده فى سيطرة العقل على دوافع الشهوة ونوازع الهـــوى • ورد الانسان الى حياة الاعتدال ، وحتى عرف الانســان ماهيتـه وأدرك خيره أتاه لامحالة • لان الفضيلة وليدة المعرفة • فمتى عرفت الخير حرصت على فعله ومتى ادركت الشر توخيت أن تتجنبه • ولايأتــى الشر الامن جهلة • وهكذا بدت العلاقة وثيقة بين الفضيلة والمعرفة ، وهى علاقة ميزت سقراط وافلاطون وكادت تشيع فى الفكر اليونانى كلـــه •

رسم سقراط طريق السعادة الانسانية ، وجمع عناصر السلوك الذى يؤتيها جمع حكيم نافذ البصيرة • فرأى فى معرفة المرء بنفســه وبالعالم الخارجى عنصرا هاما ، اذ أضيف اليه عرفان المرء كيـــف يوفق بين مطالبه وبين ظروف بيئته ، كان حريا أن يكون كنزامـن الحكمة لايخشى من يحتازه أية كارثة من كوارث الدهـر • رأى أن يبحث فى الحقائق التى تحويها نفس كل انسان باستعداد فطـرى • وهى بين جنبيه دائما ، فماعليه الا أن يتنبه لها • ومن ثم أخذنفسه بالبحث لتحديد معنى العدالة ــ والعادل ــ والصلاح ــ والصالح ــ والباطل ــ والفضيلة ــ والرذيلة ــ والسعادة ــ والقناعة ــ وغير ذلك من كل مايجلى فكرة الخير والشر فى أظهر صورها •

جعل سقراط للفلسفة موضوعا هو الانسان ، وغرضا هو تنظيم الحياة الخلقية والاجتماعية • ولم يكتب سقراط شيئا ،بيد أنتعاليمه تستخلص مماكتبه تلميذاه زينوفون وأفلاطون • فالاول ذكر تاريـخ

حياته ودحض مطاعن خصومه ، والثانى شرح آراؤه السياسية والاجتماعية ، ولكنه صاغها بأفكاره الشخصية •

ولسقراط أسلوبان : احدهما جدلى خاص بالتعليم ، والثانى نظرى يتعلق بالعلم ذاته ، ويعد سقراط مؤسس علم الاخلاق• ومن أقواله : « ان السعادة غاية أعمالنا وميولنا » • وقد كان سقراط يعتقد بوجود اله واحد أزلى ، ووجود الله ثابت عنده ، بدليل أن لكل معلول علة ، فلكل فعل فاعل ، ولكل فاعل غاية (١) •

وقد أكد سقراط أن الانسان يفعل بطبيعته « الصواب » الذى تنطوى عليه هذه المبادىء العامة — عندما يعرفه : لانه سيدرك أن عدا «الصواب» فيه أكبر قدر من المنفعة له (وهو بذلك يتفق مع السوفسطائيين فى أن الانسان أنانى بطبيعته يبحث أولا عن منفعته الخاصة ، ولكنه لم يتفق معهم فى تحديد هذه المنفعة) (٢) •

ومن ناحية أخرى ذهب سقراط أيضا الى أن الانسان اجتماعى بطبيعته ولايستطيع أن يعيش بمفرده ، وأن الدولة وجدت كنتيجة ضرورية لحاجات الانسان الاجتماعية ، ومن ثم فأن الانسانوالدولة يكونان معا كلا اجتماعيا ولايمكن أن يكون لأحدهما أهداف تناقض أهداف الآخر • فالصواب بالنسبة للانسان هو نفسه «صواب» بالنسبة للدولة • ولما كان هذا الصواب كلى — الذى يشمل مصلحة الانسان ومصلحة المجتمع معا — هو جوهر «الفضيلة» وكانالانسان بطبيعته يفعل الصواب عندما يعرفه ، فان سقراط ذهب الى أن «المعرفة» هى «الفضيلة» ذاتها ، وبالتالى فان (الفضيلة هى المعرفة)

---

(١) د . احمد عبد القادر الجمال ، مقدمة فى اصول النظم الاجتماعية والسياسية ،مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ١٤٧ — ١٤٨ •

(٢) د . عبد الكريم أحمد ، النظرية السياسية ، ص ٢٦ •

وهو الشعار الذى جعله أفلاطون ـ تلميذ سقراط ـ أساس نظريته السياسية (١) .

ومن الناحية السياسية البحتة لم يكن لسقراط آراء ســـوى ما يستنتج من المبدأ العام الذى يربط بين «الفضيلة» و «المعرفة» . أولئك الذين يتولون مهام الحكم يجب أن يكونوا أكثر الناس معرفـة أولئك الذين يتولون مهام الحكم يجب أن يكونوا أكثر الناس معرفة بالسياسة . ولكن المفهوم الديمقراطى الاثينى الذى يجعل «القرعة» أحد الاسس الرئيسية فى أختيار الحكام ينطوى على مبدأ ان كـل شخص يعتبر صالحا كسياسى ولو لم تكن لديه أية معرفة بالمبادىء الاولى للسياسة . ولذلك هاجم سقراط أسلوب الديمقراطية الاثينية فى الحكم ووصفه بأنه غير علمى . وطالب بتربية المواطنين سياسيا وأختيار الحكام من بين من يثبت أنهم أقدر من غيرهم على القيــام بمهام الحكم علميا . وسيبلغ هذا المفهوم ذروته عند أفلاطـون فى صورة الملك الفيلسوف « الذى جعلـه قمـة التنظيم السيـاسى فى الجمهوريـة » .

أما تعاليمه الاخلاقية ، فمع أنها كانت أولى التجارب فى فلسفة الاخلاق ، فما من شك فى أنها شاهد حق بحكمته وكفايته . كان من الحقائق الاخلاقية التى كشفت عنها ذلك المبدأ الهام (مبدأ المعرفة) معرفة المرء بنفسه قبل كل شىء ، ومعرفته بحقائق الاشياء : بالاولى يتجنب التهور والاندفاع فيما لاطاقة له به ، وبالاخرى يتم له الحكمة والتمييز . وكان من الطبيعى أن يكون له ناقدون فى هذا الرأى حتى من تلاميذه . وكان أفلاطون تلميذه المخلص يرى أن يضيف الى تلك المعرفة لذائذ الفنون الصافية لكى تتم السعادة . أما أرسطو تلميذ أفلاطون فقد رأى أن المعرفة ليست الا أمورا نظرية لاتحقق السلوك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ـ٢٧ .

الفاضل ، وأنه كم من عارف عالم ولا فضيلة له ، بل كم من عارف عالم وهو غارق فى الرذيلة ، أما عن آراء سقراط فى السعادة فأنها تصور جهوده فى البحث والاستقراء خير تصوير ، فالسعادة عنده قبل كل شىء هدف الطبيعة الانسانية ، ومن السعادة ماهو منحة يتلقاها بعض ذوى الحظ دون كد أو كفاح ، وهى عند سقراط الكادح المكافح لاتزيد فى قدر الذين يقسم لهم الحظ أن ينالوها ،

وكان سقراط حريصا على أن يحوط (هذه السعادة) بسياج حصين لايعرضها للزوال بتقلبات الدهر ، وكان من جهة أخرى يريد أن يقرب نبعها الى المحرومين من هبات الحظ الدنيوى ، لذلك لم يجعل من أسبابها المال والجاه والنسب وشرف المولد والجمال والصحة ولا شيئا ماديا آخر ، أنها عنده لاتعدو طاقة كل عاقل متبصر يستطيع أن ينسجم مع بيئته التى يعيش فيها ، يستطيع أن يوفق بين ارادته وبين ظروف حياته المحيطة به ، يستطيع أن يفكر كلما وقعت به واقعة ، حيث يرضى ذو العاهة عن عاهته ، والفقير عن فقره والدميم الخلقة عن دمامته ، ومتواضع المنبت عن أصله ومنبته ، لذا كان ذلك هو ماكان ، ولن يكون غيره ، ليست السعادة عند المتبصر أمراً بعيدا عن نفسه ، انها فى داخل نفسه ، يستطيع أن يلمس مكانها منه متى عرف كيف يكيف ارادته وفق الظروف ، وكيف ينظر الى الامور على ذاتياتها دون عرضياتها الزائلة ، أن المال للزوال ، والجمال للزوال ، وشرف المنبت للزوال ، والصحة والشباب بل والحياة كلها الى زوال ، أما الباقيات الصالحات فهى فضائل النفس التى تجعل صاحبها راضيا عن نفسه وعن حظه المقسوم : أن يكون متبصرا ، قانعا بحظه ، لهذا كانت القناعة عند سقراط سيدة الفضائل العملية، كما خص العدل بنصيب من عنايته ، لأنه قوام الحياة الاجتماعية ودعامتها ، ولم ينس أخيرا أن يعمل على دعم العقيدة فى الله لأنها من الاسس الهامة للسعادة ،

رد سقراط الاحكام الخلقية على الافعال الانسانية، الى مبادىء

عامة تتخطى الزمان والمكان ، وأنه كان أول من توخى ايجاد مقياس ثابت تقاس به خيرية الافعال وشريتها ، وأنه أقام موقفه علىأنقاض الرأى السوفسطائى الذى جعل الاحكام الخلقية جزئيـة متغيرة ، ومقاييس الاخلاق وليدة ظروفها وأحوالها .

ومن عجب أن تلك المعرفة التى نقدها أرسطو تلميذ تلميـذه ، وحاول أن يبين عن زيفها ، قد سارت مسافة أثنين وعشرين قرنا من الزمان لكى يتلقفها (سبينوزا) أحد فلاسفة القـرن السابـع عشر ، فيضفى عليها من بيانه وروائع عبقريته مايرفعها الى أوجهابين جميع المبادىء الاخرى السامية .

المبحث الاول

أفلاطون

١ ـ حياته .
٢ ـ المؤثرات الفكرية .
٣ ـ مؤلفات أفلاطون .
٤ ـ نشأة الدولة .
٥ ـ نظم الحكم .
٦ ـ المدينة الفاضلة (الجمهورية) .
٧ ـ دولة القوانين .
٨ ـ نظام الطبقات .
٩ ـ الاضطرابات الاجتماعية .

أفلاطــون

هناك خلاف حول الشهر والسنة التى ولد فيها (أفلاطـون) ، فهناك من يذهب الى أنه ولد فى سنة ٤٢٧ ق٠م ٠ أو ٤٢٨ق٠م٠ أو ٤٢٩ ق٠م٠ أو قبيل ذلك ٠ وكذلك فهناك خلاف هل ولد فى شهـر مايو أم يونيو وحسب اتفاق معظم المؤرخين فان (أفلاطون) قدولد فى شهر مايو عام ٤٢٧ ق٠م٠ فى جزيرة قريبة من شاطىء اتيكـــا بالقرب مـن أثينـــا ٠

أخذ (أفلاطون) بنصيب وافر من الادب اليونـانى والعلـوم الرياضية ٠ ثم قرأ كتب الفلاسفة واستمـع الى أحـد أتبـــاع (هيراقليطس) ، ولما ناهز العشرين عرف سقراط ، فأعجب به ولزمه الى النهاية ثمانى سنين ٠ وكان من شهود المحاكمة ومـن رواده فى السجن ٠ بعد ذلك لحق باقليدس فى ميفارى ومكث هناك حـوالى ثلاث سنين ، ثم سافر الى مصر فقضى فيها مايقرب مـن العام ، واتصل بالمدرسة الكهنوتية فى عين شمس ٠ وعاد الى وطنه وبقـى فيه نحو سبع سنين ، وفى تلك الفترة بدأ يكتب وينشر ٠ ثم رحـل الى جنوبى ايطاليا ، وعرف هناك بعض كبار الفيثاغوريين ٠ وعبر المضيق الى صقلية اجابةلرغبة ملك سراقوطة٠ ولكن نشأ بينهما خلاف فلم تطل اقامته عنده فرجع الى أثينا ٠ أنشأ فى عـام ٣٨٧ ق٠م٠ مدرسة على أبواب المدينة فى أبنية تطل على بستان اكاديموس فسميت لذلك الاكاديمية ٠ وكانت أشبه شىء بجامعة تدرس فيها جميع علوم العصر ٠ يقوم بتدريسها جماعة من العلماء باشراف (أفلاطون) وظل وهو يعلم ويكتب أربعين سنة حتى توفى عام ٣٤٧ ق٠م٠ أو عـــام ٣٤٨ ق٠م٠

المؤثــرات الفكريــة :

عاش (أفلاطون) فيما بين عامى ٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م. فى زمن كان وطنه أثينا يعانى من أزمة قاتلة . اذ كان عهد بركليس الزاهر قـد ولى ، وتمكنت أسبرطه من الفوز على عدوتها أثينا بعد كفاح طويل مرير . فشاهدت أثينا فترة من حكم الطغاة ، استعادت بعدهـــا النظـام الديموقراطى .

وان أنتسب (أفلاطون) الى الطبقة الارستقراطية ، الاأنه كـره المجتمع الاثينى ،وعاب عليه تفانيه فى حب المادة . وكان قـــوام المجتمع نظام الرق ، فكان الأرقاء يقومون بالاعمال الزراعيـــــة والصناعية ، أما النبلاء فتولوا الواجبات الادارية والحربية،فأنعدمت بذلك من المجتمع روح البحث الحر فى المشكلات الاقتصادية (١) .

لم يكن (أفلاطون) من الفلاسفة الذين كانوا يعيشون فى برج عاجى ، أو يفهمون الفلسفة على أنها البحث عن الحقائق الميتافيزيقية المجردة بصرف النظر عن صلتها بالحياة العملية وأنماكان ينظر دائما ويصور الاحوال السياسية التى ساءت فى أيامه وموقفه منهـــا ، واشمئزاز نفسه من مفاسدها سواء من جهة الحكام ، أو من جهـة القوانيـن والتقاليـد .

وكانت أثينا فى ذلك الوقت مسرحا لصراع ضخم بين حزبيـن سياسيين كبيرين ، بين أنصار الديموقراطية ، وأنصار حكم القلـة «الاوليجاركية» ، يستعين كل فريق منهم بالاحزاب المماثلة فى الدول والمدن الاخرى فى بلاد الاغريق وخارجها . وقد عزا (أفلاطـون) هذا الصراع أساسا الى الاختلاف الكبير بين الناس فى المصالــــح الاقتصادية بين أغنياء يملكون وبين فقراء لايملكون ؛ وأكد أن مجتمع

---

(١) فؤاد محمد شبل ، المدينـــة الفاضلـــة : بحـــث فى النظـــــام الاقتصادى عند الكتاب المثاليين ،مكتبة النهضة المصرية ،ص ١١—١٢

المدينة (الدولة) ينقسم فى الحقيقة الى مدينتين تتعارض مصالحهما • وان ذلك لابد أن يؤدى الى صراع وشقاق يستحيل معهما «الحياة المتناسقة » التى أعتبرها مفكروا الاغريق الهدف الاصلى من المجتمع السياسى فضلا عن أن تطبيق نظام الديموقراطية الاثينية كان فى هذه الفترة قد أثبت مالاحظه سقراط من أن أسلوبه يؤدى فعلا الــى أستيلاء الديماجوجيين من محترفى اثارة الجماهير واستغلالهـــا لمصالحهم الخاصة على أهم مناصب الدولة ، ومن ثم انحط مستوى الاداء فى الخدمة العامة وأدى عدم كفاية الموظفين عموما الى تسرب الخلل فى المجتمــع الاثينى ، فعمت الفــوضى واستشرى الصراع وانحلت الاخلاق وصار الامر يتطلب — فى نظر أفلاطون — تغييرا جذريا فى الاوضاع والمؤسسات القائمة ، وهذا ، كرس له جهوده(١)

ولفت انتصار اسبرطه نظر (أفلاطون) الى نظمها ، فتأثر بها فى كتابه «الجمهورية» اذ عمل الى اقتباس الكثير من نظم اسبرطة فى الحكم مخلفا وراء ظهرانيه النظم الحرة التى ألفتها المدن اليونانيــة الاخرى وفى طليعتها اثينا • وقادته أفكاره تلك الى معارضة المدرسة السوفسطائية لانها رنت الى أن يحيا الافــراد فى الدولة متمتعين بكامل المساواة والحرية ، ووضعت نظرية مضمونها أن الفرد فقــد حريته وسعادته بقيام النظم السياسية ، وطالبت بالعــودة الــى الحياة الاولى ، حياة الطبيعة والحرية المطلقة •

ولقد أعتنقت المدرسة الرواقية هذه الافكار فيمابعد • فأنكرت الاختلافات الطبقية والوطنية ، ونادى كبير فلاسفتها (زينو) بالغاء الدولة والاوضاع السياسية والقانونية والقيود الاجتماعية ، تحقيقا للمساواة التامة بين أفراد الجنس البشرى (٢) • وعليه تعتبر آراء

---

(١) عبد الكريم احمد ، النظم السياسية ، ص ٢٨ •
(٢) المرجع قبل السابق ، ص ١٢—١٣

(أفلاطون) رد فعل ضد الاتجاهات الفلسفية التى اتسم بها عصره •

ويلاحظ أن (أفلاطون) كان يذكر بعض أفراد أسرته افتخـارا أو عبثا ، فقد عاش طيلة حياته مؤمنا بأن صلاح الدولة فى اقتران الفلسفة بالسياسة واتصاف الحاكم بالحكمة • وقد نشأ فى بيت من الحكام ، وكان أجداده من الملوك والمشرعين ، فلاغرابة أن ينسـج على منوالهم ، ولكنه أضاف الى السياسة المأثورة شيئا جديدا هـو الفلسفة (١) •

وأهم شخصية أثرت فى تفكير (أفلاطون) هو سقراط الذى ورد فى أغلب محاوراته ، ويعرض مذهبه الفلسفى والسياسى والاجتماعى على لسانه ، كما نرى أخوى أفلاطون ، (غلوكون) و (اديمانتوس) يظهران فى «الجمهورية» •

وجاء (أفلاطون) مقتفيا آثار استاذه سقراط، مخلصا لتعاليمه، حتى جعل سقراط البطل الاول لقصصه الفلسفية ، وعلـى الاخص فيمايتعلق منها بالسلوك الانسانى • وعلى لسانه حكى (أفلاطـون) أكثر ماأراد أن يعلمه للناس من علم وحكمة وصعد بأخلاق سقـراط الى سماء الميتافيزيقا ، وربط بين الاخلاق الارضيـة والاخـلاق السماوية برباط كان يرى أنه كفيل بتحقيق سعادة الانسانية ، رأى الخير فى معرفة الانسان بعالم المثل العليا والايمان به • كمارآه فى معرفة المرء بطواياه نفسه ، وكيف يوفق بين عقله وشهواته ،فلايعطى أحد الطرفين أكثر ممايجب •

وأن نظرة فاحصة لترينا أن تلميذ سقراط لم يكن أقـل مـن أستاذه نضوجا وأعتمادا على النفس وأصالة فى التفكير • واذا كان

---

(١) احمد فؤاد الاهوانى (افلاطون) مجموعة نوابغ الفكر الغربى ، العدد الخامس ، دار المعارف ، ص ١٠ •

(أفلاطون) أول فيلسوف غزا انتاجه الفلسفى العالم فى مؤلفـــات كاملة بلغت حد الروعة ، فان تواضعه واخلاصه يأبيان عليه الا أن ينسب أكثر أفكاره وأنضرها الى أستاذه ، سقراط الذى لم تمكنـه ظروف حياته ، وجهاده الحار فى سبيل المثل العليا من التأليف ... نعم ، اذا كان أستاذه قد فاته مجد التأليف وفخره ، اما لشواغله، واما لزهده حتى فى مظاهر المجد كماكان شأنه ، فأن تلميذه قد خلده أروع الخلود، كماخلد هو نفسه بأروع مثلمن مثل البطولةوالتضحية

هذا ويعرض (أفلاطون) مذهبه وحلوله لمشكلات العصرواصلاح المدينة من جميع نواحيها سياسية كانت أم ثقافية أم فنية ... فى محاورات عدة ، تبدأ بالجمهورية وتنتهى بالقوانين (١) .

واذا كانت الفضيلة غاية الفرد ، فهى أيضا غاية الدولة .واذا كان النظام والانسجام بين أجزاء النفس غايـة النفس الانسانية ، فهو أيضا غاية الدولة . وقد شرح (أفلاطون) نظريته فى الدولة فى عدة محاورات أشهرها «السياسى» و «الجمهورية» ثم (النواميس). والمحاورتان الاولتان تتشابهان تقريبا فى النظرية العامة التى يقدمها عن المدينة الفاضلة . أما «النواميس» فتختلف أشد الاختلاف عن «الجمهورية» و «السياسى» (٢) .

مؤلفاتـــه :

لايهمنا فى مجال البحث عن التفكير الاجتماعى الا مرجعـــين أساسيين لافلاطون وهما الجمهورية والقوانين .

أما عن «الجمهورية» فعنوانها باليونانية Politeia أى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢) عبد الرحمن بدوى ، افلاطون ، خلاصة الفكر الاوربـــى ، سلسلة الينابيع ، الطبعة الثالثة ، مطبعة لجنة التاليـف والترجمـــه والنشر ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٤ ، ص ٢١٨ .

سياسة المدينة ، وهذا هو أيضا عنوان كتاب «السياسة» لارسطو . وقد ترجم العرب « بوليتيا» أفلاطون بالمدينة الفاضلة . أماالترجمة السائدة فى الغرب اليوم فهى «الجمهورية» . وقد وضع القدمـــاء تحت العنوان اليونانى عنوانين آخرين يفسران موضوع المحاورة ، أحدهما «الجمهورية»والآخر «فى العدالة» والأول يوحى بأنموضوع المحاورة (السياسة) ، والثانى يوحى بأن موضـوعها (الاخـــلاق) والواقع أنه من المجازفة تحديد موضوع «الجمهورية» . أنها تشمل كل شىء يتعلق بالانسان من أخلاق وسياسة وتربية وفلسفةوأجتماع وتاريخ . واذا كانت تبدأ بالسؤال عن العدالة ماهى ؟ فالجواب عن ذلك فى المدينة الفاضلة كلها (١) .

أما محاورة «القوانين» فتبدأ بالسؤال عن مشرع القوانـين من هو ؟ والجواب عن ذلك أنه الله . فهو عند أهل كريت زيوس ، وعند أهل مقدونيا آبوللون ، والذى يرمى اليه (أفلاطون) من ذلك أن القانون الهى . أى خالد أزلى له طبيعة ثابتة والانسان الهـى كذلك بالعقل المودع فيه ، والعدل هبة من السماء كماقال فى ملحـق (القوانين) . فالله هو النموذج الذى يتشبه بـه الانسان ويحاكيه امافى سلوكه الفردى أو الاجتماعى . ان أفلاطون لايفصل بـــين الاخلاق والسياسة ، ولاكذلك أرسطو (٢) .

وتختلف سياسة (أفلاطون) فى «القوانين» عما كانت عليـه فى «الجمهورية» وتدل على عمق فىالتفكير وخبرة واسعة . فتراهيتخلى عن الشيوعية والشراكة فى الاملاك والنساء . انما مايشترك فيـه الكتابان هو ضرورة التربية تحت اشراف الدولة ، وضرورةالخضوع للآلهة والتمسك بأهداب الدين ، لان البشر هم «ملك للآلهة»فالغاية

---

(١) احمد فؤاد الاهوانى ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣

الاولى من التربية هى غرس المبادىء الدينية فى قلـب الشبيبـة ، واعتبار الكفر جناية لاتغتفر •

نشأة الدولة عند أفلاطون :

يرى (أفلاطون) أن الجماعات ظهرت نتيجة للحاجات البشريـة التى لايمكن اشباعها الابتعاون الافراد •اذ لايوجد انسان كامـل ، بمعنى أنه لايوجد انسان يستطيع أن ينتج جميع احتياجاته الضرورية بمفرده • وهذا يعنى أن أساس قيام المجتمعات المتمدينـة هـو الحاجات الاقتصادية وتبادل الخدمات بين الافراد فى المجتمعووظيفة الدولة هى ايجاد أوفق الطرق لتسهيل عملية التبادل بـين الافـراد وتحقيق اشباع الحاجات المختلفة • ووظيفةالافراد هى القيامبتنفيذ الاعمال التى تفرضها عليهم مراكزهم الاجتماعية • وتتوقف أهميـة الفرد الاجتماعية على قيمة العمل الذى يقدمه للمجتمع (١) •

أى أن الدولة تنشأ لعدم أستقلال الفرد بسد حاجاته بنفسـه وافتقاره الى معونة الآخرين • ولما كان كل انسان محتاجا الىمعونة الغير فى سد حاجاته ، وكان لكل منا احتياجـات كثيرة ، لـزم أن يتألب عدد عديد منا ، من صحب ومساعدين فىمستقر واحد •فنطلق على ذلك المجتمع أسم مدينة أو دولة • فيتبادل أولئك الاشخـاص الحاجات وكل منهم عالم أنه سواء كان آخذا أو معطيا ، فى ذلـك التبادل فالأمر عائد الى فائدته الشخصية (٢) • وعليه فان الدولـة انشأت مسدا لحاجاتها الطبيعية •

وبناء على ماسبق حاول (أفلاطون) جاهدا أن يشيد معالمدولة مثالية فى ضوء القدرات الفطرية والغريزية • اذ بـين أن الناس فى

---

(١) بطرس بطرس غالى ، ومحمود خيرى عيسى ، المدخـل الى علم السياسة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٥٥—٥٦ •

(٢) افلاطون ، الجمهورية ، ص ٤٤

المجتمع ، يدخلون فى علاقات مشتركة ، حيث يقسم العمل بينهم ، ويقتضى ذلك أن يكون لكل انسان نماذج من العمل معروفة ، اذ أنه يعتقد أن الفرد والمجتمع المحلى يتحددان اذا ما أقتصر كل انسـان على مايجيده (١) • وكذلك فان وجهة نظرة هذه انما تنطوى عـلى مبدأ أقتصادى هام ، وهو مبدأ تقسيم العمل والتخصص حيث لدى كل فرد من البشر استعداد خاص لنوع من الاعمال ، وفى غـــيره أستعداد لعمــل آخــر •

وحيث أن الدولة انشأت لسد الحاجات ، فأول تلك الحاجـات وأهمها القوت ، وثانيها المسكن ، وثالثها الكسوة ••••• وهكذا • ولذلك نراه يبدأ بالزارع ثم البناء ، فالحائــك ، ثم الاسكاف (٢) وقد يمكن أن ننظر الى تصنيف الناس على هذا النحو على أنــه تصنيف على أساس مهنى ، ولكن هل أراد (فلاطون) أن يكون ثمــة تفاضل بين تلك المهن ، أم أنها ذات طبيعة طبقية واحدة ؟

واذا كان (أفلاطون) قد آمن ونادى بالتخصص وتقسيم العمل ــ كماسبق أن أشرنا ــ فانه يرى أن العدالة تتحقق بوضع الافراد فى مراكزهم الاجتماعية الملائمة ، وكذلك وفقا لخبراتهم •أماوسيلــة تحقيق ذلك فهناك طريقتين : الشيوعية والتربية (٣) •

---

1) Reinhard Bendix & Seymour Lipest, Class, Status & Power : A Reader in Social Stratification, The Free Press, Glencoe, Illinois, 1953, p. 7.

(٢) افلاطون ، الجمهورية ، مرجع سابق ، ص ٤٤ــ٤٥ .

(٣) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، مرجع سابــق ، ص ٦٠ــ٦١

نظم الحكم عند أفلاطـون :

يبدأ (أفلاطون) من المبدأ الذى آنتهى اليه سقراط «الفضيلـة هى المعرفة» ، وينتهى الى وجوب أن يتولى الحكم أكثـر النـاس «معرفة» — أى أفضلهم — المناصب العامة •والمعرفة هنا عند أفلاطون هى القدرة على أستخلاص أفضل الاوضاع للتنظيم الاجتماعى بين «المبادىء العامة» لتطبيقها بهدف وصول المجتمع الى « الكمـال» • وأولئك الذين لديهم القدرة المطلوبة على ذلك هم بالضرورة قلة من الناس هم الفلاسفة • وهذه القلة هى التى يجب أن يترك لهاتنظيم المجتمع والقيام بعمليات الحكم فيه • فالدول لاتنصلح حالها حتـى يصير الفلاسفة ملوكا ، أو تتوفر لدى الملوك والامراء قدرةالفلاسفة وروحها (١) •

بين (أفلاطون) فى «الجمهورية» أنواع الدول أو أنظمةالحكم، وجعل أفضل أنظمة الحكومة الدولة المثالية ثمتليها الدولة التيموقراطيه وهى فى الواقع تمثل الدولة المثالية حين فسادها ، ثم تليها الدولـة الاوليجاركية أو حكومة الاغنياء ، وتمثل الدولة التيموقراطية حـين تنحط ، ثم تتطور الاوليجاركية الى ديموقراطية ثم الى حكم الطاغية وهذا هو أسوأ أنواع الحكم (٢) •

وعليه ، فهو يقسم الحكومات الى خمسة أنواع كبرى ، هـى الاريستوقراطيـة والتيموقراطية والاوليجاركيـة والديموقراطيـة والاستبدادية ، ومن ثم كان هناك خمسة أنواع عظمى من صفـات الافراد تطابق أنواع الحكومة الخمسة ، لان الدولة نتاج أفـراد أهاليها ، فيرجع فى درس سجيتها الى درس سجيتهم (٣) •

---

(١) عبد الكريم احمد ، مرجع سابق ، ص٣٠

(٢) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، مرجع سابـق ، ص ٦٨

(٣) افلاطون ، الجمهورية ، مرجع سابق ، ص ٢١٠٠

أما فى «السياسة» فيضع تقسيما آخر يتلخص فيما يلى :

١ ـ **الدولة المثالية** : وهى التى يرأسها الحاكم الفيلسـوف وتتميز بالمعرفة الكاملة ، ولذلك لاتتقيد بالقوانين ، وهى دولة الهية الا يتيسر وجودها فى هذه الدنيا .

٢ ـ **الدولة الزمنية** : وهى ستة أنواع ، ثلاثة منها تتقيـد بالقوانيـين وهـى :

أ ـ حكم الفرد الذى يتمثل فى الملك المستنير .
ب ـ حكم الاقلية الاريستوقراطية .
جـ ـ حكم الاقلية المعتدلة .

وثلاثة منها لاتتقيد بالقوانين وهى :

أ ـ حكم الفرد الاستبدادى أو الطاغية .
ب ـ حكم الاقلية الاوليجاركية .
جـ ـ حكم الديموقراطية المتطرفة أى الغوغاء .

وهو يحبذ أنواع الدول التى تتقيد بالقوانين ، ويصف القانون بأنه قوة تقدمية بدونه ينحط المرء الى مرتبة الحيوان (١) .

أما فى «القوانين» فيقترح (الدولة المختلطة) لكى يحقق بهـا الانسجام العام عن طريق توازن القوى . والدولة المختلطة تجمـع بين مبدأ الحكمة فى النظام الملكى ، ومبدأ الحريـة فى النظـام الديموقراطى (٢) .

وفى هذا الصدد يعرض (أفلاطـون) فى «الجمهوريـة» ثـلاث

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٦٨ـ٦٩.
(٢) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ،مرجع سابق ،ص٦٩

وجهات نظر فى «العدالة» احداها هى وجهة النظر التى تذهب الى أن العدالة هى مجموع المعايير التى يحددها الناس فى ظروفهم التى يعيشون فيها وكماتمليهطبيعتهم البشرية ، ولما كانت هذه الطبيعة أنانية ، فان العدالة فى هذه الحالة لابد أن تكون مايفرضه القوى على الضعيف .

ووجهة النظر الثانية ، هى ذلك المفهوم الذى كان سائدا فى الفكر الاغريقى قبل السوفسطائيين، وهو أن للعدالة مفهومًاموضوعيا مطلقا لايتغير بتغير الظروف التى يعيش فيها الناس . وأن هذا المفهوم تتضمنه مبادىء عامة أزلية يمكن أكتشافها بالفعل . والثالثة وجهة نظر بين الاثنين ، تقوم على أن العدالة ليست حقيقة أزلية مطلقة كماقال سقراط وهى حكم القوى على الضعيف الذى يصوره السوفسطائيون ، بل هى فى الواقع مايقرره الناس فى صورة تفاهم بينهم جميعا على ألا يتعدى أحد مهما كان قويا على الآخر مهما كان ضعيفا (١) .

المدينة الفاضلة عند افلاطون :

عند معرض حديثنا عن منشأ الدولة — لدى أفلاطون — تعرضنا الى أن الانسان محتاج الىغيره كيما يستمر فى الحياة . وأشرنا الى أن (أفلاطون) فى حديثه عن تلك الفلسفة انماكان يشير الى التخصص وتقسيم العمل ، اللذان يعتبران أساسين فى المدينة الفاضلة أو المدينة السعيدة .

وبذلك تحتوى الدولة فى بدء نشأتها على الزراع والبنائين والحاكة والاساكفة ، يضاف الى هؤلاء — لاول وهلة — النجارون والحدادون والرعاة . ومع الزمان تنشأ التجارة الخارجية التى

---

(١) عبد الكريم احمد ، مرجع سابق ، ص ٣٢—٣٣.

تستلزم زيادة المنتوجات فى الوطن ، لدفع بدل الواردات من الخارج. وازدياد المنتوجات يستلزم وجود طبقات من الباعة وأصحاب المخازن والصرافين . وتحتاج الامة الى تجار وبحارة ومستخدمين وعمال . واذا نشأت الامة على هذا النسق حصلت على حاجاتها ، اذا لم يزد عددها على ثروتها نسبيا . على أنها اذا جهزت بالكماليات مع الحاجيات لزمها طهاة وحلوانيون وحلاقون وممثلون وراقصون وشعراء وأطباء . وذلك يستلزم طبعا مجالا شاسعا . وقد يفضى الى أشتباكها فى الحرب مع جيرانها ، فتحتاج الى جيش دائم وطبقة حكام (١) .

وتقوم «المدينة الفاضلة» على التربية من ناحية والشيوعية من ناحية أخرى . أما عن «التربية» ففى الكتاب الثانى والكتاب الثالث يحدثنا (أفلاطون) عن تربية الحكام ، وماهى الدروس التى ينبغى أن يتلقاها الشباب حتى يصلوا الى مرتبة الحاكم الفيلسوف . وكذلك طرق التربية لسائر أعضاء المدينة . وأما عن «الشيوعية» فهى قاعدة تطبق على طبقة (الحراس) — الجند — فقط ، أما الشعب فلهم أن يمتلكوا مصادر الانتاج وآلاته تملكا شخصيا ، وأن يستغلوها ويتاجروا بنتاجها كمايرون . ولهم أن ينشئوا أسرة دون أن يقيدهم الحكام بغير تحديد النسل (٢) . وتدوم المدينة الفاضلة مادام الحكام معنيين بتربية الاطفال .

والمدينة الفاضلة هى التى تمتاز بالفضائل الاربع الرئيسية . الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . فالمدينة حكيمه بحكامها ، مقدامه

---

(١) افلاطون ، الجمهورية ، مرجع سابق ، ص ٣٢—٣٣.

(٢) ابراهيم بيومى مدكور ويوسف كرم ، دروس فى تاريخ الفلسفة، المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢١ .

بجيشها ، معتدلة بعفة أهلها ،وعادلة حين يقوم كل فرد بالعمل الذى يصلح له (١) .

وللحفاظ على الوحدة فى الدولة لابد من سن قوانين تتضمن أربعة أمور مهمة هى : اشتراكية النساء والاولاد ، والتمارين الرياضية والخلقية للرجال والنساء على السواء ، والتربية العلمية والسياسية وتأمين قيادة الدولة من قبل الفلاسفة . أما الجماع فيكون بالقرعة تحت رقابة أولى الامر لانجاب نسل منتخب (٢) .

دولة القوانين عند افلاطون

تختلف دولة «القوانين» عن دولة «الجمهورية» فى كثير من الاوضاع . فالروح العامة فى «القوانين» روح دينية مسالمة واقعية ، ويظهر هذا واضحا أولا فى اختيار المكان الذى ستنشأ فيه الدولة . فهو يقول أن الواجب أن يختار المكان بعد أستشارة الآلهة . وتظهر هذه الروح أيضا فى العقاب فى الدولة الجديدة . فالجريمة هى تلك التى تكون ضد الدين ، والعقوبة الكبرى هى العقوبة على هذه الجريمة . ويجب أن يكون كل شىء مرتبا على هذا الاساس، فليقن الدين للناس جميعا ، ويكون هو الروح السائدة فى منشآت الدولة (٣).

ومن الناحية الاقتصادية تلاحظ أن الملكية لن تستبدل بها الشيوعية ، بل سيحافظ على الملكية الى حد ما . فليس ثمة ملكية مطلقة ، وأنما يجب أن توزع الثروة العامة على جميع الافراد على السواء (٤) .

---

(١) احمد فؤاد الاهوانى ، افلاطون ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .
(٢) حنا الفاخورى وخليل الجر ، تاريخ الفلسفة العربية ، الجزء الاول : مقدمات عامة ، دار المعارف ، بيروت ، ١٩٥٧ ص٧٠
(٣) عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ، ص٢٢٧
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٧—٢٢٨

ومن الناحية الاجتماعية، نجد أن الزواجلم يعد زواج الشيوع وأنما أصبح الزواج حقيقيا • بمعنى الزواج الاحادى ، لكن يجب أن يقيد هذا الزواج تقييدا تاما ، بمعنى ألاتتم مراسيم الـــزواج الا بأستشارة من الدولة (١) • أما الاولاد فهم لايزالـون أولادا للدولة ، وهم ملك للدولة من البداية ، فعليها أن تعنى بتربيتهم•وهنا تختلف التربية فى «القوانين» عنها فى «الجمهورية» بعض الاختلافات فقد كانت التربية فى «الجمهورية» مقسمة بحسب من يتلقون التربية من حيث الطبقة التى ينتسبون اليها ، أما هنا فالتعليم عام •

ومن الناحية السياسية ، وجدنا أنه بدلا من هذه الطبقـــة الاريستوقراطية الاولى ، طبقة الحكام من الفلاسفة، نجد(أفلاطون) يضع على رأس الدولة الجديدة مشرعين • والمشرع يختلف عـــن الفيلسوف فى أن الاول رجل قد أكتسب الحكمة العملية وبعد النظر فى الواقع فقط ،وأما المعرفة الفلسفية فهو خلو منها •وهؤلاء الحكام يكونون مجالس تشرف على تنفيذ القوانين (٢) •

نظام الطبقات عند افلاطون

يفترض (أفلاطون) وجود تناسق كامل يربط الطبيعة البشريـة بالمجتمـــع ، ويربـط المجتمـــع بالطبيعـــة البشـريـــة • فليس ثمة هوه ساحقة تفصل بين الميول الطبيعية والواجب ،أوتفصل مصالح الافراد عن مصالح المجتمع الذى ينتمون اليه •

ومحاولة (أفلاطون) ايجاد تحليل واحد يفسر به الدولة والفرد معا ، أوصله الى أن كل دولة تحتوى على ثلاث وظائف ضروريـــة هـــى (٣) :

(١) المرجع السابق ، ص٢٢٨—٢٢٩
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٩
(٣) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى،مرجع سابق،ص٥٨

١ — سد الحاجات
٢ — حماية الدولة
٣ — حكم الدولة

ومن ناحية ثانية ، فان (أفلاطون) يرى أن ثمة مبادىء أربعة تضفى على الدولة فضيلتها ، وهذه المبادىء هى :

١ — الحكمة	٢ — الشجاعة
٣ — العفة	٤ — العدالة

وهو لاينكر أن فى كل منا نفس المبادىء الأصلية والاوصاف التى فى الدولة • ولايرى أنها تسربت الى الدولة من غير هذا الاصل (١) • وبناء على ذلك يعتبر الدولة فرد مكبر •

وهنا تبرز أمام (أفلاطون) صعوبة مؤداها ، هل تتم كل الاعمال بقوة واحدة سائدة فينا ، أو أن هنالك ثلاث قوى تعمل كل منها على حدة فى أعمالنا المختلفة ؟ فنتعلم بأحداها ونغضب بأخرى ، وبثالثة تتوق نفوسنا الى لذائذ الطعام والشراب ، والتوليد ؟ أو أننا نعمل كلا من هذه الافعال بمجموع قوى النفس كتلة واحدة ؟ (٢) •

وبهذا يقسم (أفلاطون) النفس الى ثلاثة أقسام : فهى تتكون من الرغبة (الرغبة فى الاشياء المادية) ومن القلب ومن العقل•والمهارة فى التحكم بين موازنة هذه الاتجاهات الثلاثة ، وتوازن بين الفضائل الثلاث التى تتصل بهذه الاتجاهات ، الاعتدال والشجاعة والحكمة ، ويلزم أن يتمثل هذا التوازن للروح الانسانية فى المجتمع الذى يجب

---

(١) افلاطون ، الجمهورية ، مرجع سابق ، ص١١٠
(٢) افلاطون ، المرجع السابق ، ص ١١٠

أن يتشكل من ثلاث طبقات على حسب صورة الروح (١) .

فكما أن للنفس قوى ثلاث ، كذلك فى المدينة طبقات ثـــلاث الطبقة الذهبية ، وهى طبقةالحكام القائمين على تدبير المدينةوالطبقة الفضية أى طبقة الجنود الساهرين على حراستها ، والطبقة النحاسية أى طبقة العمال المنتجين . ومن البديهى أن تكون الطبقة الذهبيـــة مؤلفة من أناس يسيطر عليهم العقل ، والطبقة الفضية من أنـــاس يتصفون بالشجاعة ، أما الطبقة الثالثة فقوامها جميع الذين تسيطر عليهم الشهوات ، وفضيلتهم الاولى هى العفة .ولن يكون للمدينـــة صحة وسعادة ، ولن تسود فيها العدالة ، الا اذا كانت القيادة بين أيـدى العقلاء . واذا خضع لهم ولاحكامهم جميع مـن سواهم . فمشكلة العدالة تعود اذن الى الطريقةالمثلى لاختيار هؤلاء الحراس وتـدريبهم (٢) .

واذا ماسايرنا مبدأ التخصص وتقسيم العمل الذى يسلم بـه (أفلاطون) من ناحية ، ومن ناحية أخرى تقسيم النفس الى ثـلاث قوى . وجدنا أن ذلك يقودنا الى بيان ثلاثطبقات تسود المجتمع .

١ — طبقة الحكام
٢ — طبقة الجنـد
٣ — طبقة العمال

١ — أما عن طبقة الحكام فهى مكونة من «الفلاسفة» الذيـن ولد معهم الاستعداد للحكمة والحكم . ثم اعدوا اعدادا خاصـــا ليتولوا حكم المدينة واحدا بعد واحد . ولا يسمح لاحد هـــؤلاء

(١) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة وتعليق غنيـم عبدون ، مراجعة د . جلال حسن صادق ، مجموعة مـــن الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، العدد ٧٨ ص ١١

(٢) حنا الفاخورى وخليل الجر ، مرجع سابق ، ص٦٩

الفلاسفة المعدين أن يصبح حاكما الا اذا جاوز الستين من عمـــره وحينئذ يصبح مطلق الحكم والتصرف • ويرفع عن عاتقه أمر الاهتمام بالاسرة والاولاد • فكل بيت فى المدينة بيته : فيه يأكـل ويشـرب وينام ويطلب السعادة اذا شاءها (١) •

وتبعا لمبدأ التخصص وتقسم العمل ، فالحكام هم الطبقـــة المختصة بادارة الدولة وحكمها ، وتبعا لمبدأ انقسام النفس فان القوة العاقلة (الفكرية) بمالها من مزية الحكمة أنتجت طبقة الحكام •

٢ ــ وأما عن طبقة الجند أو المحاربون فهم الذين يدفعـــون العدو الخارجى عن المدينة ، لان المدينة مدينة فلاسفة فى الدرجــة الاولى فلا خلافا داخليا فيها ، وهم معسكرون حول المدينة • وقــد رفع عن عاتق هؤلاء ، أيضا السعى فى سبيل العيش ، ومنعوا مــن انشاء الاسرة حتى لايكونوا هم فى مكان وأسرهم فى مكان آخر، وحتى لاينشأ بينهم غيرة تصرفهم عن واجب الدفاع عن المدينة • من أجل ذلك حرص (أفلاطون) على أن يصحب هؤلاء الجند فى مراكزهم حول المدينة نساء ينفسن عنهم من غير أن يكن فى عصمة أحد منهم حتــى لاتنشأ أسر خاصة فتلقى على عاتق الجند واجبات جديدة ، وتوقــد قلوبهم غيره وهما (٢) •

وتبعا لمبدأ التخصص وتقسيم العمل فان على طبقة الجنــــد القيام بحماية الدولة ، وتبعا لمبدأ انقســام النفس ، فان القـــوة الغضبية بما لها من مزية الشجاعة انتجت تلك الطبقة •

٣ ــ وأما عن طبقة العمال فهم الصناع والزراع والتجار الذين

---

(١) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى الى أيام ابن خلدون بيروت، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٢ ، ص ٦٠

(٢) عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص ٦٠

يقدمون للحاكم وللجندى أسباب العيش المادى من مطعم ومسكـن وملبس ومال • ولكن بما أن هؤلاء ليسوا فلاسفة ولايمكن أن يهتموا بأعمالهم اهتماما صحيحا لا اذا شعر كل واحد منهم أنه رب أسرته ومالك ثروته ، فقد سمح لهم (أفلاطون) بأن ينشئوا أسرا خاصا ، وأن يجمعوا الثروات ، الا أنهم لايشتركون فى الدفاع والحكم (١)

وتبعا لمبدأ التخصص وتقسيم العمل ، فان طبقة العمال عليهـا القيام بسد الحاجات والانتاج ، وتبعا لمبدأ انقسام النفس فان القوة الشهوية بمالها من مزية انتجت تلك الطبقة المتخصصة فى شئـــون الانتاج الاقتصادى والمـادى •

وهناك طبقة تساهل (أفلاطون) فى قبولها ، هى طبقة الارقاء ، على شرط أن يكون الرقيق بربريا (غير يونانى) •

الاضطرابات الاجتماعية عند افلاطون

كما وقد رسم (أفلاطون) خطوط نظرية خاصة بالاضطرابـات الاجتماعية • وفى رأيه أن هذه الاضطرابات تنشأ من تعاقب الدورات السياسية المتتالية التى تنتج بدورها عن أختلاف المفاهيم السيكولوجية بين الاجيال المتعاقبة • وهو يرى أن التطور الاجتماعى قائم علـى التسلط المتعاقب لدى عدد من النماذج السيكولوجية الدائمة وهى : المنصفون والطامعون والمستبدون (٢) •

أن خلاصة أفكار (أفلاطـون) نجدهـا فى مؤلفـه الـرئيسى «الجمهورية» الذى يعرض منهجا حقيقيا للفلسفة الاجتماعية •

ومن أجل هذا فأن (أفلاطون) لايرسم تخطيطا اجتماعيا للمدينة

(١) المرجع السابق ، ص٦٠
(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١١

على ماهى عليه ، بل على مايجب أن تكون عليه . وهناك مشكلة أخرى شغلت بال (افلاطون) ألا وهى كيف يمكن تجنب الاضطرابات والقلاقل التى لاتحتمل ، والتى تسبب تخريبا ودمارا مايؤدى الى شقاء بلده وبؤسه ؟ .

وهو يقول فى هذا المقام :

«يجب علينا أن ننظم بلادنا بطريقة مدروسة وثابتة»

وبهذا يمكن القول أنه منذ عصر (أفلاطون) كانت تغلب على طابع الفلسفة الاجتماعية دراسة مظاهر الاضطرابات فى المجتمع ومحاولة البحث عن علاج لها . ولكى نتجنب هذه الاضطرابات وتلك القلاقل ، يوصى هذا الفيلسوف بالرجوع الى المنظمات القديمة لبلاد اليونان، ومثله الاعلى فى ذلك التكوين الذى لايتغير لمدينة «اسبرطه» من حيث صرامته وارستقراطيته وعسكريته ، وهو يضيف — كيما يكتمل مثله الاعلى — الى ذلك التقليل من التبادل بين المدن الاغريقية وعدم الثقة فى المثقفين وفى الشعراء ذوى الحساسية الشاعرية وأصحاب التجديد المستمر ، ويدعو كذلك الى اقامة نظام من الطوائف وأخيرا فلتلافى أى تصدع فى التوازن الاقتصادى والسياسى ، يلزم تحديد عدد السكان فى المدينة التى تتخذ نموذجا لهذا النظام ، ولكى تحافظ على عدم زيادة السكان بتلك المدينة النموذجية ، يشير الى أن على القضاة أن ينظموا عدد الزيجات بحيث لاتتخلف من فوضى الزواج زيادة فى عدد المواليد . ويؤاخذ المواطنون الذين ينجبون أطفالا بعد تعديهم السن المقررة والذين لايتبعون الشروط التى نظمها القانون (١) .

ويقوم التغيير الثورى عند (افلاطون) على العامل الشخصى أو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠

السلوكي عند المواطنين •ولكنه لايلبث أن يتأثر بالعوامل اللاشخصية المتمثلة فى الاشياء التى يتفاعل معها الانسان ، ويمكن بيان نظريته عن التغير الثورى فى نظم الحكم فى النقاط الآتية (١) •

١ — تخضع الدولة للتغير ، شأنها شأن كل شيء • فلابد من أن كل شيء ظهر الى الوجود سوف يفنى ، وأن الدولة على هذا القياس سوف تتعرض للانحلال •

٢ — الدولة ليست منفصلة عن الطبقة الحاكمة ، وسلوك الحاكم هو الذي يطبع الدولة بطبعة ، والاخلاق أساس الحكم ، والاخلاق أثر من آثار الاسرة والبيئة الاجتماعية •

٣ — ويسير التطور فى الدولة فى مجرى يكاد يكون حتميا من مرحلة مثالية الى مرحلة ارستقراطية مثالية ، ثم تيموقراطيه ، فاوليجاركية ، فديموقراطية ، وأخيرا استبدادية •

وبهذا بين (افلاطون) أهمية الطبقة كأداة للتطور الاجتماعى والسياسى ، قبل أن يشير الى ذلك (كارل ماركس) (٢) •

فالتغير من سنن الحياة يعترى كل ماهو مركب ، وهكذا قاعدته لاتبقى على حال ، بل ينشب فيها الصراع بين الطبقات ، فتسود طبقة الجنود ، ويهمل تحصيل المعرفة ويتفشى حب الكسب • ثم يعقب ذلك حكم الغنى ، ويصبح داخل المدينة مدينتان : مدينة المعوزين ومدينة الاغنياء ، فيثور المعوزون ويفرضون حكما جديدا هو الحكم الديموقراطى فيطلق الحرية التى تنشأ منها المساواة ، والمساواة بين أناس غير متساوين طبعا غير ممكنة الا عند تزعزع السلطة وفقدانها ، لكن حب الحرية المتزايد يؤدى حتما الى فقدان

---

(١) محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، اسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ١١ — ١٢

(٢) المرجع السابق ، ص١٩

هذه الحرية وتسليم مقاليد الحكم الى طاغية فيقضى على المدينــة ، لان الطاغية يفسح المجال للشهوات ، ولايعيش الا عبدا أو مستبــدا يجهل الحرية الحقة والصداقة الخالصة (١) •

(١) حنا الفاخورى وخليل الجر ، مرجع سابق ، ص ٧٠ــ٧١

المراجـع المستخدمـة

١ ــ ابراهيم بيومى مدكور ويوسف كرم ، دروس فى تاريـخ الفلسفة ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

٢ ــ افلاطون ، الجمهورية ، ترجمـة حنـا خباز ، مطبعـة المقتطـف والمقطم ، ١٩٢٩ ٠

٣ ــ أحمد فؤاد الاهوانى ، افلاطون ، مجموعة نوابغ الفكـر الغربى ، العدد الخامس ، دار المعارف بمصر ٠

٤ ــ بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل الى علم السياسة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ٠

٥ ــ جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمـــة غنيم عبدون ، مجموعة من الشرق والغرب ، العدد ٧٨ ، الدار القوميـة للطباعـة والنشر ٠

٦ ــ حنا الفاخورى وخليل الجر ، تاريخ الفلسفة العربيـة ، الجزء الاول : مقدمات عامة ، دار المعارف ، بيروت ، ١٩٥٧ ٠

٧ ــ عبد الرحمن بدوى ، افلاطون ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٤ ٠

٨ ــ عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى الى ايام ابن خلدون ، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ٠

٩ ــ فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة ، بحث فى النظـــام الاقتصادى عند الكتاب المثاليين ، مكتبة النهضة المصرية ٠ ب٠ت ٠

١٠ ــ محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكـى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦ ٠

11) Reinhard Bendix & Seymour Lipsef, Class, Status & Power : A Reader in Social Stratification, The Free Press, Glencoe, Illinois, 1953.

المبحث الثانى

أرسطو

١ ــ حياته •
٢ ــ مؤلفاته •
٣ ــ الانسان مدنى بالطبع •
٤ ــ اشكال المدينة وأنواع الحكم •
٥ ــ الملكية الخاصة •
٦ ــ الرق •
٧ ــ التغير •

أرسطـــو

ولد فى اسطاغيرا ، وهى مدينة يونانية ، عام ٣٨٤ ق.م. وكان أبوه (نيقوماخوس) طبيبا ، توفى ومازال أرسطو حدثا . ولما بلــغ الثامنة عشر ذهب الى أثينا والتحق بالاكاديمية (مدرسة افلاطـون) ومكث بها عشرين سنة ، أى الى وفاة صاحبها . وتأثر بافلاطـون تأثيرا عميقا حتى انتكس بتفكيره الى صباه وماتلقنه من أبيه مــن اتجاه الى الواقع التجريبى الملموس .

ولما توفى (افلاطون) غادر ارسطو أثينا ، قاصدا آسيا الصغرى ومكث فيها مدة وتزوج . وفيما هو هناك استقدمه (فيليب) ليعهـد اليه بتثقيف ابنه الاسكندر ، وظل ارسطو على العناية به اربع سنوات متصلة . وعاد ارسطو الى أثينا فى أواخر سنة ٣٣٥ ق.م. وكانـت قـد خضعت لقـوة فيليـب .

فلما استقر بها أنشأ مدرسة فى ملعب رياضى يدعى (لوقيـون) فعرفت بهذا الاسم وسموا بالمشائين وبعد اثنتى عشرة سنة اضطر ارسطو أن يبرح أثينا مرة ثانية ، فان الاسكندر مات بالحمى سنة ٣٢٣ ق.م . وكذلك انقلب الاثينيين على المقدونيين وأتهم ارسطـو بالالحـــاد فانسحب الى اسطاغيرا كيلا يصيبه ماأصاب سقراط . وهنالك توفى بعد ذلك بقليل نتيجة لمرض معد فى عام ٣٢٢ ق.م. وذلك فى بلـدة «خلقيس» فى «ايوبيا» (١) .

كانت السلطة موزعة بين الفرس واليونان ، ثم زالت دولـــة الفرس ، وخفت صوت اليونانيين ، وأصبحت السلطة بـين يــدى

---

(١) راجع فى ذلك :
— يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، مطبعه لجنة التاليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٣ م. ص ١١٢—١١٣
— د . محمد على ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى ، الجــزء الثانى : ارسطو ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر . ١٩٦٦ ، ص ٤—٨

الاسكندر ، وتقويت شوكة مقدونيا ، وكان لجوار المقدونيين بأهـل أثينا أثره فى الاخذ بألوان الحضارة اليونانية التـى كـانت فى أوج عظمتها فلسفيا وأدبيـا •

شب أرسطو فى هذه البيئة وكان والده — كما سبق أن أشرنا — طبيبا لملك مقدونيا فتأثرت شخصية ارسطو بخصال المقدونيين من جهة وبالحضارة اليونانية من جهة أخرى • وبذا توجه الى دراسـة الطبيعة والاهتمام بالواقع المحسوس • كما أنه تعرف على الدراسات الفلسفية منذ نعومة أظافره ، اذا كان والده طبيبا ، والطب اذ ذاك فلسفة • ثم أن ذهابه الى أثينا — كما أشرنا سالفا — وتلمذته على افلاطون أثرت فيه أيما أثـر •

والواقع أن أهم ماأسهم به أرسطو هو «المنهج» الذى اتبعه فى الوصول الى الحقائق العلمية • وقد كان هدفه — مثل افلاطـون قبله — هو وضع الاسس والتوجيهات التى يستطيـع بواسطتهـا المشتغلون بالسياسة ان يحققوا الاهداف التى يتضمنها مفهوم الدولة• وقد ذهب افلاطون متأثرا بالفكر الاغريقى السابق علـى الموجـة السوفسطائية ، الى أن هناك أنماطا مجردة للدولة المثالية تتمثل فيها مبادىء عامة مطلقة يمكن أكتشافها بالعقل • أما ارسطو فبرغم أنـه تأثر باستاذه الى حد كبير ، فانه رفض هذا المفهوم من أساسـه ، وأصر على أن الامر يتطلب ماهو أكثر من استخدام العقل المجـرد ، وأن الوصول الى الحقائق الموضوعية لايمكن أن يتحقق الا باتبـاع أسلوب معين يقوم على الملاحظة الدقيقة للاوضاع القائمة فعـلا ، ودراسة الحقائق التاريخية دراسة موضوعية مقارنة بدون تصورات مثالية مسبقة ، واستخلاص المبادىء من هذه الوقائع ثم وضعهـا موضع التجربة العلمية للتأكد من سلامتها • وهذا هو ماأطلقت عليـه الاجيال التالية مصطلح «الاسلوب العلمى» •

وبرغم أن معظم الحلول والاقتراحات التى وصل اليها ارسطو،

لاتنطبق على ظروف العصر الحديث ، فان كثيرا من التعريفات التى وضعها للمصطلحات السياسية مازالت تتردد على صفحات كل كتاب يتناول هذا العلم حتى الوقت الحاضر ، ولايزال «المنهج» الـــذى اتبعه والتقسيم الذى وضعه لمختلف العلوم من المراجع الاساسيـــة فى المعرفة البشرية الحديثة ، كماظل كتاب «السياسة» حتى الان من أهم المؤلفات التى لاغنى عنها لطالب هذا العلم (١) .

مؤلفاتـــــه :

تعتبر مؤلفات ارسطو كدائرة معارف تتناول جميع العلـــوم البشرية ، التى كانت معروفة فى القرن الرابع قبل الميـلاد ، فوضع لكل علم كتابا خاصا ماعدا العلوم الرياضيـــة .

تنقسم هذه المؤلفات الى ثلاثة أقسام : (٢)

١ — العلوم النظرية أو العلمية ومؤلفاته فيها هى : كتـــاب السماء والاجرام السماوية ، وكتاب تاريـــخ الحيوانات ، وكتـاب النفس ، ويلحق به نبذ فى الاجناس والذاكرة والنـوم ، وكتـــاب الفلسفة الاولى أو ماوراء المادة .

٢ — العلوم الادبية والعلمية : وله فيها كتب الاخلاق والتدبير المنزلى والسياسة المدنيـــة .

٣ — العلوم العقلية والشعرية ومؤلفاته فيها : كتاب الشعـــر وكتـــاب المنطـــق .

وأهم هذه الكتب فيما يتصل بموضـــوع دراستنـــا كتـــاب

---

(١) د . عبد الكريم احمد ، النظرية السياسية ، ص ٣٨—٣٩
(٢) احمد عبد القادر الجمال ، مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية ، ص١٣

«السياسة» أو «سياسات ارسطو» وبالرغم من أهمية هذا الكتـاب الا أن ارسطو لم يتمه لانه توفى قبل أن ينتهى منه • ويذكر بعض المؤرخين ان لارسطو كتب أخرى فى السياسة والدساتير ، وهـذه الكتب قد فقدت جميعا ولم يبق منها الا كتابا واحدا يمثل دستـور الاثينيين الذى كان موجودا بمصر عـلى ورق البردى ، وبحثـه المستشرقين ، وترجم الى الفرنسية ، وترجمه طه حسين الى العربية عـن الفرنسيـة •

وفى كتابه المشار اليه (السياسة) يقوم بدراسة مقارنةللدساتير السياسية والمنظمات بوجه عام لجميع المدن الاغريقية وبعض الدول المشابهة لها مثل قرطاجة ، وقد حاول دراسة الظواهر الاجتماعيـة بالطريقة التى أراد أن يدرس بها الظواهر الطبيعيـة والظواهـر النفسية وما بعد الطبيعة (١) •

(أ) الانســان مدنى بالطبع :

وجدنا أن افلاطون يرد قيام المجتمع الى الضرورة الاقتصادية فى حين نجد أن ارسطو يعزو ذلك الى النزعة الطبيعية الكامنـة فى الانسان لمشاركة اخوانه • فيصف الانسان بأنه حيوان مدنى والدولة بأنها خلق الطبيعة • وبينما تمسك افلاطون بالمثالية ، فان ارسطـو تقبل الدولة على أنها «جهاز طبيعى» ونظر الى المسائل الاقتصادية والاخلاقية من زاوية عملية (٢) •

فالانسان يحتاج الى غيره من البشر لكى يبلغ بالتعاون معهـم غاياته العملية فى الحياة ، ولا يبلغه هذه الغايات الا «الدولة»وهكذا

---

(١) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة وتعليق ، غنيم عبدون ، مراجعة د. جلال حسن صادق ، مجموعة من الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، العدد ٧٨ ، ص١٣

(٢) فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة : بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين ، مكتبة النهضة المصرية ص ٢١

فرضت الطبيعة على الانسان أن يكون مدنيا (١) .

يقول «ارسطو» ان الدولة من الامور الطبيعية، وان الانسان، من طبعه حيوان مدنى . وان لم يكن مدنيا ، لا اتفاقا ولكن بالطبع، اعتبر أسمى من البشر او عد رجلا سافلا ، شأن ذلك اللئيم الذى قرعه هوميروس ، اذ قال عنه : «انه متوحش جبان مشرد» فمن طبع على هذا الغرار لم يرتح الا الى الحرب ، لأنه أشبه بالطير لايعرف الخضوع للغير . (٢)

ولقد كان الاجتماع الاول فى التاريخ «الاسرة» ، فالاب رأس البيت وهو المشرف على شؤونه ، لانه صاحب العقل والتدبير . أما المرأة فعملها يقتصر على تربية الاولاد والعناية بالمنزل (بخلاف رأى افلاطون) واذا اتسعت الاسرة أصبحت قرية ، واذا اجتمعت القرى كانت المدينة «الدولة» (٣) .

ونحن نجد فى اجتماعية ارسطو عددا كبيرا من التعبيرات ومن الافكار التى أصبحت تعبيرات وافكار كلاسيكية : مثل هذا التعبير المشهور «الانسان حيوان سياسى» أى أنه مرتبط تمام الارتباط بالحياة فى مجتمع ، فلايمكن فهم الانسان بمفرده معزولا عن الاطار الاجتماعى الذى يعيش فيه ، وهذه الحقيقة صحيحة سواء بالنسبة لخلود الجنس ، أو الدفاع عن الحياة والمحافظة عليها ، أو تطور الآراء والقوى الاخلاقية التى تعتبر نهاية كمال الانسان . وهو يبرز تأثير المناخ على السيكولوجية الاجتماعية . ويقول أن الاسرة هى

---

(١) د. عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى : الى ايام ابن خلدون، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٢ ، ص٧٠
(٢) ارسطو «السياسات» ، نقلة من الاصل اليونانى وعلق عليه الاب اوغسطينس برباره البوليسى ، بيروت ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية ، ١٩٥٧ ، ص ٨ــ٩
(٣) المرجع قبل السابق ، ص ٧٠ــ٧١

الوحدة الاجتماعية ، أى أنها الذرة التى لاتقبل القسمة والتى تكون مع ذرات أخرى بسببها الجسم الاجتماعى • على عكس فلسفةافلاطون الاجتماعية التى تقوم على هدم الزواج والقضاء على الاسرة • (١)

ب ـ اشكال المدينة وانواع الحكم :

وحينما يبحث ارسطو ، فى تكوين الدولة الكاملة ، فهو يرىأنها «نشأت عن ائتلاف قرى كثيرة ، وهى التى تنطوى علـى عنـــاصر الاكتفاء الذاتى كله ، ان صح تعبيرنا • فقد تألفت اذن عن رغبة فى العيش وتلبث طمعا فى طيبه • فالدولة اذن طبيعيـة اذا ما كـانت الجماعات السابقة طبيعية • لان الدولة غاية تلك الجماعات • وانما الطبيعة غاية ، اذ كل شىء لمصير كامل ، ندعوه طبيعة الشىء ،كطبيعة الرجل مثلا وطبيعة الفرس وطبيعة البيت ، هذا ، وان ما جعلـــت الغاية نفسها لاجله هو خير الامور • ومن ثم فالاكتفاء الذاتى غايـة وأسمى الخيرات • » (٢)

يقول أرسطو «وقبل كل شىء يتركب الانسان من نفس وجهـد وهما عنصران أحدهما آمر بالطبع والآخر مأمور • ويجب التنقيـب عن هذه الحقيقة ، فيمن حازوا من الطبيعة قسطا أوفر من الهبـات الطبيعية ، لا فيمن فسد طبعهم • ولذا ، يترتب علينا أن نتأمل فى الانسان الحاوى أطيب الاستعدادات الجسدية والنفسية ، ففيـــه تظهر هذه الحقيقة ، لان من ساء خلقهم كانوا ميالين الى السوء بدا جسدهم مسيطرا على النفس وذلكفى غالب الاحيان ، لخسة ماطبعوا عليـه وانحرافهم عن سنة الطبيعة •

فيتاح اذن على حد قولنا ، أن نرى فى الكائن الحى أولا سلطة سيدية وسلطة مدنية • فالنفس تسود الجسـد سيـادة سيديـة ،

---

(١) جاستون بوتول ، مرجع سابق ، ص ١٣ــ١٤
(٢) أرسطو «السياسات» ، مرجع سابق ، ص ٨

والعقل يسود الشهوة سيادة سياسية وملكية • وفى هذه الاشيـــاء يتبين أن الطبيعة تقضى بأن تتسلط النفس على الجسد ، وان تتسلط القوة المدركة والقوة العاقلة على الهوى والميل ، وان فى ذلك فائـده للطرفين • ولكن اذا تساوت فيهما حقوق أو توليا السيـادة علـــى نقيض ماتفرض الطبيعة ، عاد ذلك عليهما بالضرر » • (١) •

وتختلف أشكال الحكومة باختلاف الغاية التى ترمى اليهاوعدد الحكام • فمن الوجهة الاولى : الحكومة صالحة متى كانت غايتهـا خير المجموع ، وفاسدة متى توخى الحكام مصالحهم الخاصة فيخرج لنا جنسان تحتهما أنواع تتعين من الوجهة الثانية أى بعدد الحكام :

الحكومات الصالحة	الحكومات الفاسدة
١ ــ الملكيـــة	١ ــ الطغيـــان
٢ ــ الارستقراطية	٢ ــ الاوليجاركية
٣ ــ الديمقراطية	٣ ــ الديماغوغية

فالملكية حكومة الفرد الفاضل المناضل ، والارستقراطية حكومة الاقلية الفاضلة العادلة • والديمقراطية حكومــة الاغلبيــة الفقيرة تمتاز بالحرية والمساواة واتباع دستور ، أما الطغيان فهو حكومـــة الفرد الظالم ، والاوليجاركية حكومة الاغنياء والاعيان والديماغوغية حكومة العامة تتبع أهواءها المتقلبة • وتبدوا الملكية لاول نظرة أنهـا الحكم الامثل ولكن الفرد الممتاز بالفضل لايوجـد الا نـادرا ، أو لايوجد أصلا • والملك يرغب طبعا فى أن ينتقل سلطانه الى أعقابه ، وليس هناك مايضمن ان يكون هؤلاء جديرين بالحكم • والسلطـــة المطلقة تميل بالطبع الى الاسراف ، وللملك حرس خاص ، فمـــن السهل عليه أن يستبد اعتمادا على قواته • والواقع ان حكم الجماعة

---

(١) ارسطو «السياسات» ، مرجع سابق ، ص ١٤-١٥.

الفاضلة خير من حكم فرد لا يفوقهم فضلا . ولكن الارستقراطيـة غير ممكنـة التحقق كذلك .

ويطبق أرسطو مبدأه «ان خير الامور الوسط» فيجد طبقة من الشعب تكون مزيجا من ضدين ، ووسطا بين طرفين : هذه الطبقـة هى الوسطى ، ويسميها ارسطو «بوليتية» . (١)

أما أحسن اشكال المدينة (الدولة) فالشكل الذى يتيح أكبـر الخير للمجموع وللفرد ، وفيما عـدا ذلك فالملكيـة الارستقراطيـة والبولوتيا (وهو شكل مزيج من سيطرة الوجهاء والعامة) سواء . على أن الشكل الاستبدادى أو الاوليجاركـى (سيـادة الوجهـاء) ، أو الديمقراطى (سيادة العامة) أنما هو تشويه للحكم الصالح . ولاريب فى أن الاستبداد هو أسوأ هذه الاشكال المشوهة . على أن صـلاح الحكم أو فساده لايعرف من الاسم الذى يطلقه الحاكم على شكـل حكمه ، بل على الغاية التى يحاول الوصول اليها فى حكمه ، فـاذا قصد من حكمه النفع العام فحكمه صالح ، واذا استغل حكمه لمصالحه الشخصية فان حكمه سىء فاسد مهما أطلق عليه من أسماء . (٢)

وعليه فان افضل شكل عملى للدولة هـو مايطلـق عليـه اسم البولوتيا The Polity أى الحكومة الدستورية ، وتتميز بـأن دستورها بشكل مختلط يجمع بين العناصر الصالحة فى الديمقراطيـة والاوليجاركية معا . وأساسها الاجتماعى هو وجود طبقة متوسطـة قوية تتألف ممن ليسوا مفرطين فى الغنى أو فى الفقر ، وهـذه هى الطبقة التى ترتكز عليها الدولة ، فاذا ماوجدت هذه الطبقة فانهـا تكون متسعة تجعل للدولة قاعدة شعبية ، وأهم مميزات هذه الطبقة

---

(١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، لجنه التاليـف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ص ٢٠٥ـ٢٠٦

(٢) د . عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى : الى أيام ابن خلدون، بيروت المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٢ ، ص ٧٠

أنها من الاتساع بحيث تجعل لنظام الحكم قاعـدة شعبيـة ، وأن مصالحها الاقتصادية محدودة • لذلك تستطيع الاشراف على الموظفين العموميين اشرافا تاما • وأنها ليست طبقة جاهلة ولكنها ممتازة الى حد ما • وبذلك تجنب الدولة مساوىء حكم الدهماء • وبهذا تتميـز الدولة الفاضلة من الناحية العملية بالتوازن بـين الكيـف والكم •• الكيف أى النفوذ السياسى والكم أى الكثرة العددية (١) •

والحكم الدستورى كمايفهم ارسطو عناصر رئيسية ثلاثـــة : أولها أنه حكم يستهدف الصالح العام ، وبذلك يتميـز عـن الحكم الطائفى الذى يستهدف صالح طبقة واحدة ، وعن الحكم الاستبدادى الذى يستهدف صالح فرد واحد • وثانيها أنه حكم قانونى ، أى أن الحكومة تدار فيه بمقتضى قوانين عامة لابمقتضى أوامر تحكميـة • وثالثها أن الحكومة الدستورية حكومة رعية راضيـة ، فتتميز بذلك عن الحكومة الاستبدادية التى تستند الى محض القوة (٢) •

ويتفق ارسطو مع افلاطون فى تحريم مساهمة زراع الارض والعمال اليدويين وصغار التجار فى ادارة شئون المدينـة ، نظـــرا لانحطاطهم بسبب طبيعة أعمالهم ، وافتقارهم الى الفراغ الـــذى يجعل منهم مواطنين صالحين (٣) •

كان من الطبيعى وقد عدل ارسطو عن مفهوم الدولة المثاليـة التى تتضمن المبادىء الازلية والمعايير المطلقة ، أن يرفض المفهـوم الرئيسى الذى عقد عليه افلاطون آماله فى تحقيق المدينة الفاضلـة ، وهو مفهوم الملك الفيلسوف • فضرورة الفيلسوف فى الحكم عنـد

---

(١) بطرس بطرس غالى، ومحمود خيرى عيسى، المدخل فى علم السياسة القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٧٨ — ٧٩.

(٢) عبد القادر الجمال ، مرجع سابق ، ص ١٥٢

(٣) فؤاد شبل ، المدينة الفاضلة: بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٠١.

افلاطون تنبثق من أن الفلاسفة وحدهم يستطيعون اكتشاف المبادىء الازلية والمعايير المطلقة التى يجب أن يخضع لها التنظيم السياسى •

ولذلك فان ارسطو لم يكن فى حاجة الى حكام فلاسفة لأنه لم يقبل مفهوم المبادىء الازلية المطلقة فيما يتصل بالتطبيق العملى ، فالحكم عنده ليس مهمة قلة محدودة من الناس تتميز عن غيرها فى الفضيلة — أى — «المعرفة» • (١)

أما سبب تعدد السياسات ، فهو كونكل دولة مركبة من عناصر كثيرة العدد • اذ أننا نرى أولا أن الدولة كلها تتألف من أسر • ونلاحظ ذلك أنه لابد من أن يكون قسم من ذلك الجمهور موسرا ، وقسم آخر معسرا ، وجزءا لايحمل سلاحا • ونشاهد شطرا من الشعب يتعاطى الزراعة والفلاحة ، وشطرا يتعاطى التجارة وأخيرا يحترف الصناعة • وللنبلاء أنفسهم فوارق مبنية على غناهم وضخامة ثروتهم (٢) •

فالدولة لاتتألف من أناس كثيرين فحسب ، ولكن من أناس مختلفين بنوعهم : لانها لاتتكون من اشباه ونظراء • اذ الحلف غير الدولة • فنفعه بعدده لا بتنوعه • لان المحالفة تنشأ قصد المؤازرة، فكأنها وزن يرجح بثقله (٣) •

مما نسلم به اذن ان الدولة تضم عناصر عدة لاعنصراً واحداً• فكما أننا ان اردنا ان نحصى انواع الحيوانات ، نبدأ أولا بتحديد ماينطوى عليه ضرورة كل حيوان ، كبعض الحواس ، والعضو الذى يعد الغذاء ، ويتقبله ، — نظير الفم والبطن — أضف الى ماسبق الاعضاء التى يتحرك بها كل الحيوانات • فان افترضنا أن الانواع

---

(١) عبد الكريم أحمد ، مرجع سابق ، ص ٤٢ •
(٢) ارسطو ، «السياسيات» ، مرجع سابق ، ص ١٨٥
(٣) ارسطو «السياسات» ، مرجع سابق ، عن مقدمة المترجم ، ص ٤٩

المشار اليها هى كل أنواع الاعضاء وان الفوارق تنتج عنهـا ، انشأ من باب الضرورة تآلف تلك الاعضاء ، على اختلاف تعدد انـــواع الحيوانات ، اذ يستحيل ان تتوفر لحيوان واحد أنواع عـدة مـن الافواه أو من الآذان (١) •

فعلى هذا النحو عينه ، ان رمنا أن نحصى أنـواع السياسات التى ذكرناها نبدأ باحصاء عناصر الدولة • لان الدول لاتتألف من قسم واحد ، وانما من أقسام كثيرة ، كما قيل مرارا • وأول تلـك الاقسام هو الجماعة القائمة على اعداد القوت ، أى جماعةالمدعوين حراثا وفلاحين ، والقسم الثانى هو المدعو طبقة العمال • وهـــذه الطبقة تعنى بالصناعات التى لاتعمر مدينة بدونها • ومن الصنائـــع مالاغنى عنه ، ومنها مايرمى الىالترف ورغد العيش • والقسمالثالث هو طبقة أهل الاسواق ، التى تصرف عمرها فى البيع والشراء وتجارة الجملة وتجارة الكسر • والقسم الرابع هو طبقة الاجراء • والقسم الخامس هو طبقة المحاربين الذين يزودون عن البلاد • وهذهالطبقة ليست بأقل ضرورة من الطبقات السابقة ، ان رام أهـل الدولة أن لايستعبدوا للعدو المجتاح ، مالم تتحقق احدى المستحيلات ، وهى أن نتنازل وندعو دولة جماعة من طبعها الرق : لان الدولة مكتفيـة مستقلة بذاتها ، فيما أن الرقيق غير مكتف ولا مستقل بذاته (٢) •

ومن ناحية أخرى ، ينطوى الشعب وجماعة الذين يدعونوجهاء على أصناف كثيرة • فالشعب مثلا يشمل طبقات متنوعة : أولاطبقة الزراع ، ثم طبقة أهل الصناعات ، ثم طبقة أهل الاسواق ، ثـم طبقة أهل البحر ، وهذه الطبقة تتفرع الى فئات • منها فئة المحاربين وفئة التجار ، أو فئة الملاحين ، وفئة الصيادين • ويضاف الى تلك

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل فى علمالسياسة، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٧٨—٧٩

(٢) المرجع السابق ، ص١٩٠

الطبقات طبقة الكادحين العاملين بأيديهم ، وطبقة الذين رقت حالهم جدا ، بحيث لايتاح لهم معها التفرغ من العمل • وطبقة من ليس بحر من هاتين الجماعتين • وما شاكل هذا الصنف من جماعـة أخرى وأما أنواع الوجاهة فهى الغنى والحسـب ، والفضيلة ، والثقافـة والصفات الاخرى المبنية على فوارق مماثلة (١) •

ويختلف ارسطو عن افلاطون وخاصة فيما يدور حول «الدولة المثالية» فدولة ارسطو المثالية هى التى يضعها افلاطون فى المرتبـة التالية للدولة المثالية • والدولة الدستورية هى المثل الاعلى عنـــد ارسطو ، فهو لايؤمن بالحكم المطلق ، أيا كانت صفات الحـاكم ، ولايثق به ولوكان هو الحاكم الفيلسوف .ان ارسطو يرى أن القانون هو الضمان الوحيد لنظام الحكم الصالح • فهو يرى أن الدولـــة المثالية «مجتمع يتكون من أفراد متساوين يرمون الى تحقيق أفضــل حياة ممكنة» • ويرى ارسطو ان القانون «هو العقل المجرد عـــن الهوى» • ولذلك فلاغنى لأحكام الحكام عن القانون • ويمتاز الحكم الدستورى عنده بثلاثـة عناصر رئيسية : (٢)

١ — أنه حكم يستهدف الصالح العام ، أو صالح الجمهور ، وهو فى هذا عكس الحكم الطائفى أو الحكم الاستبدادى ، فان كلا منهما يستهدف صالح طبقة واحدة ، أو فرد واحد •

٢ — أنه حكم قانونى تديره الحكومة وفقا لقواعد عامةلابموجب أوامر تحكمية ، ولاتستطيع الحكومة معـه أن تتجاهـل العـادات المرعية ، أو العرف الدستورى •

٣ — الحكومة الدستورية تؤدى معنى حكومة المواطنين الراضين

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٣—١٩٤

(٢) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل فى علم السياسة مرجع سابق ، ص ٧١—٧٣

عن الحكم لا المرغمين عليه كماهو الحال في حكم الطاغية .

بهذا نرى أن ارسطو ابتدأ واقعيا وانتهى واقعيا في تفكيره ومنهجه وفلسفته السياسية، اذ دافع أول الامر عن اسناد السلطة السياسية الى الكثرة ، وعليه ارتأى ان يشترك الشعب فى وظائف التشريع والقضاء. ولكنه ادخل فى مشكلة السيادة عاملا آخر غير شخصى ، وهو القانون حيث يعطى للقانون السلطة العليا التى تسمو عن سلطة أشخـــاص الحكام سواء كانوا فرادى أو هيئات (١) .

أن اهتمام ارسطو بالسياسات جعله يكرس الباب الثانى مـــن كتابه «السياسيات» لمناقشة بعض الدساتير ، فيعرض الى شيـــوع النساء والابناء ومساوئه ، ثم يعرض الى شيوع المقتنيات ومصاعبه، وكذلك يعرض الى مواطن الضعف فى كتاب «القوانين» ـــ الشرائع ـــ الذى الفه (افلاطون) بعد كتاب الجمهورية . ويعرض ارسطو كذلـــك الى نظام (فلئاس) السياسى ، وكذلك نظام (هيوذس) ثم نظـــام اسبرطه السياسى ، وكذلك نظام الكريتين . ويعرض الى دستـــور (خذون) ودستور (هولن) وغيره من المشرعين .

جـ ـــ الملكية الخاصة :

ويقرر ارسطو استحالة تطبيق نظام افلاطون على علاته، وعاب عليه تحامله على نظام الملكية الخاصة . فيذكر أن القضاء عليها مـــن شأنه انتهاك حرمة الغرائز الانسانية ، وأنه لا محيص من نشـــوب المنازعات بين هؤلاء الذين يملكون قليلا ويعملون كثيرا ، وبين مـــن يحصلون على الكثير ويعملون قليلا . وهذا مادعا ارسطو الى الدفاع دفاعاً حاراً عن الملكية الخاصة ، وان كان يوافق على تكافؤ افـــراد

---

(١) د . محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، اسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢ ـــ ٢٥

المجتمع فى استخدام المرافق التى لامناص من ملكية المجتمع لها ٠(١)

وهو لايعتبر العيوب التى تصاحب الملكية الخاصة نتيجة لها ، ولكن مردها الطبيعة البشرية ، وليس ثمة ترجى من بقاء أو الغـــاء الملكية الخاصة ، مادامت الطبيعة البشرية على ماهى عليه ٠ ويحبـذ ارسطو جمع الثروة ولكن بحيث تصبح جزءا من الاقتصاد المحلى ٠ ويحرم الفائدة ويعتبرها شر أشكال المال ٠ لان النقود تستخدم فى غير ماخلقت له ، وهو تيسير عملية الاستبدال ، اذ تستخدم بنفسها الحصول على نقود ٠ لذلك نجدم يفرق بين قيمة المنفعـة وقيمـة الاستبدال ٠ فلكل سلعة نوعان من الاستعمال ، فالحذاء يستخـدم كواق للقدمين كما أنه سلعة للتبادل ٠ ويصر على أن تكون النقود أداة للتبادل ٠ ونجده يبغض الربا لأن النقود تستخدم لانتاج الثـروة وتخرج عن وظيفتها كوسيلة للتبادل (٢) ٠

د ــ الـــرق :

وارسطو مثل افلاطون يجيز الرق على ألا يكون الرقيقيونانيا٠ فقد دافع عن الرق بقوله «ان مبدأ السيطرة والخضوع نافـــع ، ولامناص من بقائه ، وأن ثمة أرقاء بطبيعتهم وأولئك هم المنحطـون بالنسبة لغيرهم ، كانحطاط البدن بالقياس الى الروح أو الحيـوان بالنسبة للانسان» ولم يغب عن ذهن ارسطو أنه ضد رغبـة الطبيعة اولئك الذين يحوزون الاجساد وليست لديهم أرواح رجال احـرار والعكس بالعكس ٠ ولايمكن الركون الى أحداث الحياة لنفرق بين الارقاء بطبيعتهم وغير الارقاء» ٠ ومن ثم نجد ارسطو يميز بيـن الارقاء الطبيعيين والارقاء الشرعيين ، وبين مدى شرعية استرقـاق

---

(١) فؤاد شبل ، المدينة الفاضلة : بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين ، مكتبة النهضة المصريه ، ص ٢١ــ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ــ٢٣

الدولة المنتصرة فى الحرب لرعايا الدولة المغلوبة (١) •

هـ — التغيـــر :

يعتبر ارسطو ان المجتمع عبارة عن مخلوق حى خاضع لقانون الولادة والنمو والموت ، وهو يشير الى أن التغيير هو الشرط الوحيد لحياة المجتمعات • وتشكل هذه المجتمعات من عناصر متباينة ينتـج عنها التسلسل فى المراتب والحكومة وتقسيم العمل • وينتج عن ذلك كله نظام من التوازن ، وقد ينقد هذا التوازن نفسه •

أولا — عندما يزداد عنصر من عناصر المدينة فى عدده عـــن العناصر الاخرى •

ثانيا — عندما ترتفع نسبة السكان بطريقة لاتحدها حـدود • ويقول ارسطو فى هذا الصدد : ان الدستور القـديم يصبح غير ملائم للاوضاع الجديدة ، فكل دستـــور يتلائم مع عدد معين من السكان (٢) •

ويعرض ارسطو الاسباب العامة التى تحدث التغير فى النظـم ويفحص عددها وطبيعتهـا :

١ — فهو يفترض أن سبب تعدد النظم يقوم على حقيقـة أن الناس يعجزون عن تحقيق الولاء للعـدل فى الواقـــع ويختلفون فى تفسيراتهم الفعلية له •

٢ — كماأنه يرجع سبب الثورة الى عدم المساواة •

٣ — ويرى ان حكم الطبقات الوسطى هو المثل الاعلى للحكم•

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ص ١٤ — ١٥

٤ — ويؤكد منهجه العلمى ، وتأكيد أهمية المساواة فى تحريك الجماعات نحو تغيير نظم الحكم القائمة بالقوة • (١)

وتتلخص أسباب الثورة فى رأيه فيما يلى :

١ — طلب الربح والشرف •
٢ — الوقاحة أو الخوف •
٣ — المؤامرات •
٤ — الاهمال المقصود •
٥ — اغفال التغيرات الصغيرة •
٦ — عدم تجانس عناصر الدولة (٢) •

واذا كان العامل الشخصى أو السيكولوجى هو أساس الاضطراب أو الصراع لدى افلاطون ، فان العامل الاقتصادى من ناحية ، والعامل المهنى من ناحية أخرى هما الاساس فى ذلك • وان كان للتفاوت المهنى طبيعة خاصة عنده ، ممادعا أرسطو الا يوافق على مبدأ شيوعية المال الذى قال به افلاطون من قبله • بينما يؤكد ارسطو على الملكية الخاصة بالرغم من العيوب التى تصاحبها ، تلك العيوب التى لاينظر اليها باعتبارها نتيجة للملكية الخاصة وانمامردها الطبيعة البشرية (٣) •

بالاضافة الى العاملين السابقين — الاقتصادى والمهنى — فى الثورات والصراعات الاجتماعية يضيف ارسطو بعدا ثالثا حينما يوضح نوعا جديدا من الصراع وهو صراع الفضائل أو «صراع القيم» • فيقول : بما أن الدولة مؤلفة من أناس متغايرين كما أن

---

(١) د. محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكى ، مطبعة دار سابق ، ص ٢٩—٣٣
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣
(٣) فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة ، مرجع سابق ، ص ٢١ — ٢٣

الحى يتألف مباشرة من نفس نفس وجسد • والنفس من عقل ورغبة ، والاسرة من رجل وامرأة ، وكما يحصـل الاقتناء بتضافر السيـد والعبد ، فعلى هذا النحو عينه بمأن الدولة تتألف من هؤلاء كلهم ، وفضلا عن هؤلاء من أنواع اخرى متباينة ، تحتم ان تكون فضيلـة المواطنين أجمعين فضيلة واحدة (١) •

(١) ارسطو ، السياسيات ، مرجع سابق ، ص ١٢٤

المراجـع المستخدمة :

١ — أحمد عبد القادر الجمـال ، مقدمـة فى أصـول النظم الاجتماعية والسياسية • مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧

٢ — ارسطو ، السياسات ، ترجمة الاب اوغسطينس بربـارة البوليسى ، بيروت ، اللجنة الدولية لترجمـة الروائــع الانسانيـة ، ١٩٥٧ •

٣ — بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخـل فى علم السياسة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ •

٤ — جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة وتعليق غنيم عبدون ، الدار القومية للطباعة والنشر •

٥ — عبد الكريم أحمد ، النظرية السياسية • ب•ت •

٦ — عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى الى ايام ابن خلدون ، بيروت ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ •

٧ — فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة ، مكتبة النهضة المصريةبت

٨ — محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكــى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦ •

٩ — محمد على ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفى : الجــزء الثانى (ارسطو) الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ •

١٠ — يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنـة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ •

تقويم الفكر اليونانى القـديم :

يعد المحوران الاكاديمى الافلاطونى والمشـائى الارسطى أهم محاور الاتجاه اليونانى بصفة عامة ، ولذلك انحصر عرضنا لهـذا الاتجاه فى استعراض آراء رائد كل اتجاه منهما ، ونحاول فى هـذا الصدد تقويم آراء كل من الرائدين فى ضوء الظروف الاجتماعيـة التى عاشاها من ناحية ، والمؤثرات الفكرية من الناحية الاخـرى باعتبار ان الفكر نتاج الواقع الاجتماعى من جانب ، ومن الجانـب الآخر باعتبار الافكار تراكما معرفيا ينمو كل منهما على الآخر ويبنى عليـه .

انقسم الفلاسفة والعلماء بصدد مذهب افلاطون الى ثلاثـة أقسام . قسم يتبع رأى ارسطو الذى يعد نظرية المثل لب فلسفـة افلاطون ، وقد يرى أن محاورات الشيخوخة تدل على عدول افلاطون عن فلسفته فى الشباب والكهولة ، وفريق ثالث يذهب الى أن فلسفة افلاطون سواء فى شبابه أو فى شيخوخته ان هى الا منهج أو هـى أسلوب فى التفكير (١) .

١ — يرى هودجز M. Hodges أن افلاطون فيلسوف مثالـى كان مهتما بمعرفة الحقيقة السياسية والاجتماعية ، رأن هناك مجتمعا لاطبقيا حيث فكر فى مجتمع مثالى مستبعدا الثروة والفقر والعبودية وذلك بالرغم من أن التقسيمات الطبقية كانت السمة الاساسيـة فى جمهوريته . (٢) لكن ينبغى أن نلاحظ أن هذا التقسيم الطبقى لايعنى وجود نظام طبقى كالموجود فى الهند مثلا ، ذلك لان الانتساب الى هذه الطبقات أو الفئات ليس وراثيا . بل على العكس من ذلك نجد افلاطون يرمى الى مثل أعلى هو ايجاد جماعة يباح لكل طفل فيهـا

---

(١) احمد فؤاد الاهوانى ، افلاطون ، مرجع سابق ، ص ٢٩

2) Harold M. Hodges, Social Stratification, Cambridge, 1964, p. 39.

الانتفاع بأرفع أنواع التربية التى تتلاءم مع ميوله ، ويرتقى فيهـا كل فرد الى أعلى مراكز الدولة التى تؤهله أعماله ليشغلها عنجدارة وبهذا نجد أن افلاطون كان متحررا من التعصب الطبقى تحـررا تاما (١) • فلم يكن نظام الطبقات لديه وراثيا بالضرورة ، بل أنـه اذا لاحظ على الشاب الذى ولد مـن أبوين فى الطبقة الثانية أنـه نشأ غبيا أو جاهلا أو وضيع النفس ، وجب ان يلقى بهالى الطبقة الثالثة ، وعلى العكس من ذلك اذا ألفى المربون بين أبناء الطبقـة الثالثة شابا ذكيا عالما سامى الخلق ، أصعدوه الى الطبقة الثانية (٢)•

٢ — ان شيوعية المال لدى افلاطون هى اليوتوبيا الاولـى فى التراث ، والتى تجيب على سؤال لاثنيين : ماهى العدالة ؟ انها فى الحياة الفاضلة ، تلك الحياة التى عن طريقها يبذل كل من الناسومن الدولة طبيعتهم الفاضلة بغية الكمال • والعدالة جزء جوهـرى فى محاورات افلاطون ، اذ تبين الموازنة والتجانس الداخلى (الشخصى) والخارجى (الاجتماعى) وعليه فأن ساكنى «جمهورية افلاطون» انما يمتثلون للاتجاه الافضل ، وباختصار يتبعون الطبيعة (٣) • بيد أن ذلك قد يقودنا الى كشف مغالطة فكرية مؤداها ان آراء افلاطـون كانت رد فعل ضد الآراء السوفسطائية التى ذهبت الى حرية الفرد، وعودته الى الحياة الاولى،حياة الطبيعة والحرية المطلقة ، فكيف يذهب هو نفسه الى الرجوع بالفرد الى حياة الطبيعة ذاتها ؟ •• قد تبدو اجابة هذا التساؤل فيما أكده افلاطون من أن الناس «معادن» ولدى كل منهم الاستعداد للقيام بعمل معين دون آخر،بيد أن ذلكلايمنعهم من احداث نقلة اجتماعية داخل الطبقات عن طريق «التربية» التـى

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل فى علمالسياسة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٥٩

(٢) محمد غلاب ، الفلسفة الاغريقيه ، الجزء الاول ، الطبعه الثانيـه القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ،مكتبه الانجلو المصريه ، ١٩٥٠، ص ٢٨٧—٢٨٨ .

3) Harold M. Hodges, op. cit, p. 40.

عدها افلاطون سبيل تكوين الطبقات فى جمهوريته • والملاحظ أنـه حينما نظر أفلاطون الى اختلافات فضائل الناس باعتبارها سببـا جوهريا لاحداث النقلة الاجتماعية ، نظر أرسطو الى هذه الفضائـل المتباينة باعتبارها السبب الجوهرى فى الصراع الاجتماعى •

٣ — وحينما يذكر أفلاطون نشأة الدولة يتحدث عن ذلك العصر الذهبى الذى لم يكن فيه الناس فى حاجة الى الاجتماع ، وعـن طريق التقهقر الذى أصاب الانسانية شيئا فشيئا ، وصلت البشرية الى الدرجة التى يسود فيها نظام الحكم القائم فى أيامـه •• أليس معنى هذا أننا اذا أخذنا قضيته هذه موضع التمحيص — أن الاصل فى نشأة الدولة هو اشباع الرغبات المادية ، لاتحقيق الفضيلـة — أليس معنى هذا أن الطبقات التى يضعها أفلاطون على قمـة سـلم التدرج الطبقى وليدة فضول الحاجات لانها وليدة الترف ؟ فهى أذن فضول على الدولة وليست أساسا لها • ألن تكون الدولة حينئـذ مصدرا من مصادر الشر ، وليست من مصادر تحقيق العدالة ؟ ان الرد على كل هذه التساؤلات — التى قد يوجهها البعض لافلاطون — يكمن فى الرجوع الى فكرة الدولة — لديه — من حيث الغاية والمهمة الملقاة عليها • ان غاية الدولة هى العلم ، والعلم لايتحقق الا عـن طريق التعليم والتربية ، والتربية لايمكن أن تترك للفرد وحده ، بل لابد من شىء يعلوه هو الدولة • فالغاية من الدولة اذن تحقيـق الفضيلة التى هى العلم عن طريق التربية التى ذكرها أفلاطون •وقد سبق الاشارة الى كيفية قيام «الجمهوريـة» لديـه على مبـدأى الشيوعية والتربية بل أنه لايقصر التربية على طبقة واحدة ، اذ أكد على ضرورة التربية حتى لطبقة الحكام وتدربهم على الحكم وعلـى الفلسفة • ومن ناحية ثانية ، فاذا كانت الدولة يجـب ان تفسر فى ضوء الغاية منها وهى ان تكون دولة مثالية أو جمهورية فاضلة فـان افلاطون لم يقتصر على القوى الشهوية وحسب ، وانما أوضـح أن

ثمة قوى ثلاث فكرية وغضبية وشهوية ، تعمل سويا كيما تكون طبقات الدولة الثلاث الحكام والجند والعمال .

٤ — ويذهب البعض الى أن فلسفة افلاطون لاتعبر تعبيرا صادقا عن فلسفة دولة المدينة ، ولهذا فانه قد حاول ان يكمل هذا النقص فيما كتب بعد ذلك ، فقد عمل على أن يعيد للقانون مركزه الممتاز فى الفلسفة السياسية . والفرق الرئيسى بين نظريته فى «الجمهورية» وفى «القوانين» هو أن حكومة الجمهورية حكومة أقلية مختارة لاتقف فى طريقها أية قواعد أوقوانين ، أما حكومة«القوانين» فتسيطر عليها قواعد تقيد كل من الحاكم والمحكومين على السواء . ومع هذا يجب ألا نفهم أن افلاطون نسخ فكرة الدولة المثاليةوتخلى عنها ، بل كان دائما يصر على وجود هذه الدولة ويعتبرها خير صور الدولة المثالية .ولم ينظر الى دولة القوانين الا على أنها فى المرتبة التالية للدولة المثالية ، فهو يرى أن القانون فى مرتبة تلى المعرفة (١) .

وان كان افلاطون قد حاول انشاء دولة مثالية ، الا انه فى ملاحظاته الواقعية الكثيرة ، وفى الكتابين الثامن والتاسع من «الجمهورية» وحتى فى بعض اقتراحاته المتطرفة كان مدفوعابتجربته السياسية العملية التى كانت تجرى حوله فى بلاد اليونان . لكن افلاطون الثائر على القوانين والقيود والذى يريد أن يخلق المجتمع الاثينى خلقا جديدا على مبادىء جديدة أعلن أن النظام الكامل الذى ارتآه فى الحكم ليس ممكنا فى كل مكان وزمان ، ولذلك أقر — فى النهاية — بتشريع القوانين المكتوبة (٢) .

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل فى علم السياسة مرجع سابق ص ٦٥—٦٦ وكذلك عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ص ٢١٩—٢٢٠

(٢) محمد عبد المعز نصر ، الثورة والمجتمع الاشتراكى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، اسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٦—١١

٥ — ويجب ملاحظة أن افلاطون اذ يحرم الملكيـة والتـرف وحيازة الذهب على الطبقة الحاكمة ، يضع فى ايديها زمام النفـوذ السياسى • بينما يحرم الطبقة المنتجة من هذا النفوذ ، ويدع لهـا القوة الاقتصادية بأسرها • وهذا ماانتقده ارسطو فيه بقوله : «ان نتيجة ذلك خلق دولتين متعاديتين فى نطاق دولة واحدة» • فى نفس الوقت الذى يتفقمعه فى تحريم مساهمة زراع الارض والعمـال اليدويين وصغار التجار فى ادارة شئون المدينة ، نظـرا لانحطاطهم بسبب طبيعة أعمالهم وافتقارهم الى الفراغ الـذى يجعـل منهم مواطنين صالحين •

وبالرغم من هذا فان افلاطون هـو بلامراء استاذ المـذاهب الجماعية التى ظهرت فى العصور الحديثة • فانه وان كانت دولتـه التصورية يحكمها الفلاسفة ، الا أنه تضيق بها الحرية ، اذ توجـه كل شىء وفقا لبرامج مرسومة جامدة سواء فى الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع أو الآداب أو الفنون • وأيا ما كان الحـال ، فقـد أسهمت آرائه كثيرا فى مفكرى المـذاهب الاقتصاديـة ولاسيمـا الاشتراكين منهم (١) •

٦ — ويتخذ التدرج الطبقى فى الاتجاه اليونانى اشكالا ثلاثـة هـى :

أ — التدرج الاقتصادى :

ويتضح ذلك فى اتجاه ارسطو بصفة خاصة حيث كـان تقسيم طبقات المجتمع لديه على أساس البعد الاقتصادى ، وحيث دفاعـه عن الملكية الخاصة ، بعكس الاتجاه الافلاطونى الذى ألغى الملكيـة الخاصة واتجه الى شيوعية المـال ، بالرغم من تبيين افلاطون أن

---

(١) فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة ، مرجع مذكور ، ص٢٠

الطبقة النحاسية — العمال والمزارعين — يحق لها جمع الثروات والاموال .

ويرى ارسطو أن العدالة الاقتصادية موقوفة على الحكومة بوسيلتها الذهبية (١) ففى «السياسات» يقول « ان المجتمع الامثل هو الذى يتشكل من أفراد الطبقة الوسطى» كما وأن المدينة المثالية — لديه — ينبغى ان تشمل المساواة والمماثلة ، وهذا مايوجد بصفة عامة فى الطبقة الوسطى» (٢) ولهذا يرى أرسطو أن الطبقة الوسطى هى اساس المساواة والاخاء فى الدولة المثالية .

ب — التدرج المهنى :

ويتفق الفيلسوفان حيثما يتضمن التدرج الطبقى لدى كل منهما سرداً لمختلف المهن السائدة فى عصرهما . ولربما يرجع ذلك الاتفاق بينهما — فى التدرج المهنى والتفاضل بين المهن — الى الوجود الاجتماعى الذى عاشه كل منهما ، بالرغم من استمرار حياة ارسطو بعد افلاطون فترة — ربما — جعلته يضيف الى تدرجه المهنى «طبقة الاجراء» ذا صفات لم يذكرها افلاطون لطبقة العمال والمزارعين ، ونرى اختلاف طبقى الاجراء والعمال عند كل من الفيلسوفين . فبالاضافة الى أن ارسطو قد فرق بينهما ، الا أن وجود تلك الطبقة الجديدة ربما يرجع الى ظهورها فى الفترة التى عاشها ارسطو بعد وفاة افلاطون ، والقضية التى يمكن استخلاصها هى أن الوجود الاجتماعى حينذاك كان متسما بالتمايزات المهنية واختلاف الاوضاع الاجتماعية للفرد وفقا لاختلاف مهنته .

---

(١) تعد أعمال ارسطو — وخاصة السياسية والاقتصادية منها — اكثر أعماله الحافلة بنتائج هامة ،فهو اول من وضع مفهوم الوسيلة الذهبية Golden - Mean ويعنى بها شكل الحكم واجراء الادارة فى الدولة

2) H.M. Hodges, op. cit., p. 41.

جـ ـ التدرج حسب مراكز القـوى :

فالتقسيم الطبقى على أساس طبقة حاكمة وأخرى محكومة انما يعطى يعدا ثالثا من الطبقة لدى كل من الفيلسوفين وهو «مركـز القوى » •

هذا ولقد أوضحنا فيماسبق ، الصراع الطبقى وأسبابه لدىكل من الفيلسوفين ، فأسباب الصراع لدى افلاطون هو البعد النفسى بينما هو لدى ارسطو صراع بين الفضائل أو صراع القيم • وبينما وجد افلاطون الصراع بين جيلين لاختلاف المفاهيم السيكولوجية ، وجد ارسطو ذلك الصراع بين أفراد الجيل الواحد على أســاس أختلاف الفضائل الى أن مبدأ التربية ـ لدى افلاطون ـ انما هـو أساس النقلة الاجتماعية Social Mobility من طبقة الى أخرى • وبدون شك فان افلاطون يعد بحق أستـاذ المـذاهب الجماعيـةـ سياسية ـ التى ظهرت فى العصور الحديثة فأنه ، وان كانت دولته التصورية يحكمها فلاسفة ، الا أنه تضيق بها الحريه ،ممانجم عنه ان يحددها فيما بعد بالقوانين كما أن آراء ارسطو يمكن اعتبارهـا جذورا للاتجاه المتعدد الابعاد فى النظر الى التدرج الطبقى حيـث اعتماده على العامل الاقتصادى والمهنى ومراكز القوى •

ان آراء كل من الفيلسوفين واتجاههما الى دولة مثالية كـانت محكومة بالوجود الاجتماعى الذى عاشه كل منهما • فالمدينةاليونانية كانت مستقلة فى ادارة شئونها استقلالا ذاتيا من ناحية ،ومن الناحية الاخرى كانت ثمة مقارنات بين دساتير تلك المدن ـ كمااتضح لـدى الفيلسوفين ـ فلقد حتم الوجود الاجتماعى ان يكون كل منهمـا مثالى ، متخيلا دولة تصورية تكفل العدالة والفضيلة لمن فيها • ولم يكتب أحد منهما بصراحة فى نقد المجتمع الذى يعيشه ، نظرا للعقاب المتوقع ازاء ذلك ، ونحن نعلم عن هروب ارسطو ـ مثلا ـ الـى اسطاغيرا حينما اتهم بالالحاد ، واعدام سقراط من قبل حينما اتهم بافســاد عقـول الشباب •

الفصــل الثانــى

الفكر الاجتماعى فى الشــرق

مقدمــــة :

المبحث الاول : الفارابى •

المبحث الثانى : ابن خلدون •

المبحث الثالث : المقريزى •

تقويم الفكر الشرقى •

الفكر الاجتماعى فى الشرق

ان مقام العلم العربى لهو بالمكانة الاولى من الاهمية فى تاريخ العلوم ، لأن هذا العلم العربى يكون حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد • واذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربى ولم نتفهمه ، فسنجد فراغا يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين الحضارة الحديثة (١) • وعليه ظهر فى الوقت الحاضر اهتمام متجدد لصالح الدراسات العربية والاسلامية هذه •

ولقد بدأ عمل الشعوب الاسلامية بالنظر الى جماع العلم العربى بعد مضى قرن ونصف قرن على هجرة محمد صلى الله عليه وسلم سنة ٦٢٢ م من مكة الى المدينة • وقد تلا ذلك ازدهار علمى لفت الانظار بالمشرق (العراق ، ايران ، الشام ، سورية ، مصر) وبالمغرب (الاندلس — ايبيريا) فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، ثم أخذ ذلك الازدهار فى الزوال ، ، فانطفأت شعلته فى الاندلس بسقوط آخر مملكة عربية فى غرناطة ، وتضاءلت أهميته بصورة ملحوظة فى المشرق تحت وقع الصدمات التى الحقتها غزوات الترك والمغول بالحضارات المسماة بالعربية من جانب ، وبسبب مجال التفكير المحدود الضيق ، والسيطرة الكاملة تقريبا لمذهب محافظ متزمت ، متعارض مع الازدهار المطلق الحرية للبحث والنقد العلميين من جانب آخر (٢) •

ومن حيث التراث الاسلامى ، فقد اشتهر الصحابة بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث وبالفقه كأبى بكر وعمر وطلحة

---

(١) الدوميلى ، العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، مراجعة د. حسين فوزى ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ١٠—١١ .وقد نشر كتاب الدوميلى ، Aldo Miell فى ١٠ سبتمبر ١٩٣٨

(٢) المرجع السابق ، ص٩

والزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عـوف وابى الدرداء — وعبد الله بن مسعود وعائشة وأبى هريرة وانس بن مالك • أشتهـر أبو بكر خاصة بعلم الانساب ، وعمر بآداب السفارة ومعاذ بن جبل بالقضاء ، أما الشعراء والخطباء فكانوا كثيرين وكذلك كان حفـاظ اللغة والعارفين بلهجات القبائل (١) •

ومن العلماء والمؤرخين أبو القاسم صاعد بن أحمد ابن صاعـد الاندلسى الطليطلى المتوفى عام ٤٦٢ هـ أى ١٠٦٩ م • وكان بارعا فى علم الفلك ، وله كتاب «اصلاح حركات النجوم» فقد أشتهر بكتاب له صغير موجز اسمه «طبقات الامم» وتكلم فيه على العلوم الرياضية والفلكية عند الامم القديمة ، وعلى العلماء فى هذين الفنين من العرب وفى مقدمة هذا الكتاب كلام موجز مفيد فى خصائص الامم (٢) •

ومن قيام الدولة العباسية (١٣٢ — ٧٥٠م) الى سقوطها ٦٥٦هـ ـ١٢٥٨ م) خمسمائة عام أو تزيد ، تقلبت الاحوال صعودا وهبوطا من الناحية الاجتماعية والسياسية والادارية • ولكن الفكر كـان فى معظم الاحيان يرقى مبتديا فى صور متعددة من العلوم الرياضيـة والطبيعية ، ومن علم الكلام والمنطق والفلسفة الخالصة ، وعلم الطب والفلك والكيمياء ، ومن الفن المعمارى والملاحة والوراقة والزخرف، وسائر أوجه الثقافة والحضارة (٣)

وتنوع التاريخ عند العرب ، فكان عندهم المغازى (تاريـخ غزوات رسول الله وسراياه) والفتوح (توسع العرب والاسلام بالفتح فى أيام الخلفاء الراشدين والدولة الاموية) والطبقات (ذكر تـراجم الصحابة أو العلماء أو الادباء مرتبة على تاريخ وفياتهم الاقدم فالاقل

---

(١) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى : الى ايام ابن خلدون ، بيروت، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٢ ، ص ١٣٥
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨١
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦

قدما ، والسير (العناية بترجمة شخص واحد) ثم التاريخ على السنين (سر الحوادث مفردة سنة فسنة) (١) •

واذ كان الوجود الاجتماعى السائد فى مجتمع اليونان قد صبغ تفكير فلاسفته بطابع مثالى يحاول الهروب من ذلك الوجود فى صورة مجتمعات يوتوبية يتصورها أصحابها كل حسب وجهة نظره ، فـأن الوجود الاجتماعى الذى ساد مجتمعات الاسلام كان متقلبا بـــين سيطرة وتزمت وبين حرية وديمقراطية (٢) فانقسم مفكروا الاسلام بصدد البحث السياسى والاجتماعى قسمين : قسم كان متأثرا بالدين وخلط جوهر الموضوعات بالتأملات الدينية وكان ضعيفا فى تحليـل الحقائق تحليلا علميا • فجاءت آراءه أقرب الى التأملات والوصايا والحكم منها الى النظريات والمذاهب • وقد يذهب بعض أعضاء هذا القسم الى آراء يوتوبية على نحو ما فعل الفارابى فى «آراء أهـل المدينة الفاضلة»•والقسم الثانى كان أدق تحليلا وأسبرغورا فى الحقائق وعالج الموضوعات علاجا تاريخيا فى ضوء المناهج الاقرب الى العلمية ولو أنه لم يتجرد بحكم طبيعة العصر والظروف من أثر الديـن • ويمثل هذا القسم أصدق تمثيل ابن خلدون (٣) •

كان اتخاذ الرقيق منتشرا عند اليهود والنصارى والمسلمين على أن ضمير الكنيسة كان يسخط على الرقبين حين وآخر ، وكان رجالها يقولون أن المسيح لافرق عنده بين حر وعبد • فقد حاولت الكنيسة

---

(١) المرجع السابق ، ص١٨٢

(٢) اما ماعرف فى بعض مراحل الاسلام من وجود الاضطهاد — مع قلته وخفة تبعاته — فان مرجعه الى اسباب سياسية او دوافع شخصيه أو بواعث عقليه . وهى أسباب لايحمل الدين وزرها فى كثير أو قليل ، (توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسـلام ، الاسكندرية ، دار الفكر العربى ، مطبعة دار نشر الثقافة ، ١٩٤٧ ، ص ١٧٠) •

(٣) مصطفى الخشاب ، النظريات والمذاهب السياسية ، ص ١٢٥—١٢٦

— على الاقل — ان تحارب تجارة الرقيق ، ففرضت على من يشتغل بها عقوبة الحرمان • وقد استلفت نظر المسلمين ان اليهود والنصارى لايجوز لهم ان يتمتعوا بامائهم ، وذلك لأن القانـون المسيحـى فى الشرق كان يعتبر اقتراب الرجل من أمته زنا عقابه المنع من البيعة ، ويحق للزوجة فى هذه الحالة أن تبيع الجارية وتقصيها عن البيت واذا حملت الجارية من سيدها المسيحى طفلا فانه ينشأ رقيقا «يحمـل عار والده الزانى» (١) •

وقبل الاسلام كان الرق نظاما اجتماعيا مقررا ، وظل هـذا النظام فى ابشع صوره فى العالم المسيحى معترفا به ، على الرغـم من رسالة المحبـة •

بيد ان الاسلام وهو رسالة السلام كان أول دعوة لتحريـر الارقاء ، وجعل هذه الحرية كفارة وعملا يثاب عليه الفرد • (٢) ففى الاسلام فان الطفل الذى يولد للمسلم من امته يكون حرا ولايجوز للرجل ان يبيع الامة أم الولد ، ثم هى تصبح حرة بعد موت زوجها ، ولايجوز فى الشرع الاسلامى ان يشترك رجلان فى أمة فى وقت واحد وقد حدث ان رجلين اشتريا أمة فوطئاها فأمر الخليفة بعقابهما •وفى القرن الرابع الهجرى ، كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمـال افريقية أكبر اسواق الرقيق الاسود ، وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب • واذا كان المجتمع يعنى بالشعر الجيد وبالموسيقى الجميلة أكثر ممايعنى بغيرهما من الوان الفن ، عظمـت فيه قيمة الغلمان والجوارى الموهوبين المتعلمين ، وكان ثمن العبيـد

---

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمـه محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الجزء الاول ، مطبعة لجنه التاليـف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ص ٢٢٣

(٢) مصطفى الحفناوى «فكرة الدولة فى الاسلام» ، المحاضرات العامـة الموسم الثقافى الاول ، الجامع الازهر ، القاهرة ، مطبعة الازهر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٧ •

البيض يزيد على ماتقدم لانهم ارستقراطية العبيد. وقد جرت العادة منذ العصر الاول للاسلام بألايسمى العبيد عبيدا ، بل يسمى العبد فتى والامة فتاة ، وقد نسب هذا — كمانسب كثير غيره — الى أمر النبى عليه السلام ، وكان من التقوى وشرف النفس الايضرب الرجل عبده (١) . وبهذا سوى الاسلام بين الناس على اختلاف أجناسهم ، فسوى بين الابيض والاسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء ، كماسوى اليهود والنصارى بالمسلمين ماداموا فى سلم معهم . فقد جعل الله المؤمنين اخوة لاتفاوت بينهم الابقدر مايتفاضلون به من الحق . كمايظهر من قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع «ايها الناس انما المؤمنون اخوة ، ان ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى» (٢)

أبطل الاسلام الرق اذن ، فكل رقيق يدخل فى الاسلام يصبح حرا رأسا ، كما يصبح حرا بالعتق ، ولكن بما أن الرق كان نظاما شائعا قبل الاسلام متغلغلا فى الحية الاقتصادية ، فان ابطاله مرة واحدة يفضى الى تخلخل البيئة الاجتماعية . من أجل ذلك بقيت من الرق رواسب ترجع الى عوامل نفسية واقتصادية بحتة (٣) .

هذا وكان من المظاهر البارزة فى العصر العباسى نشوء طبقة الرقيق وطبقة الجوارى خاصة . أبطل الاسلام الرق ، ولكن الرق نفسه لم يزل بل تبدل معناه . لقد استمر نفر من المسلمين فى

---

(١) آدم متز ، المرجع قبل السابق ، ص ٢٢٤—٢٣١.
(٢) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام : السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الاول ، الطبعة الخامسه ، القاهرة ، مكتبه النهضة المصريه ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٦
(٣) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ١١٩.

استرقاق الافراد والجماعات وامتهانهم فى الاعمال الشاقة العادية ، خلافا لاوامر الدين ونواهيه • لقد نشأ فى العصر العباسى طبقة من الرقيق ذكورا أو اناثا لم يكن ينالهم من أذى الرق الا أنهم كانوا يباعون ويشترون • أما فيما عدا ذلك فانهم كانوا ينالون قسطـــا كبيرا من التثقيف بالعلوم والفنون ومـن الثروة والجاه والسلطـة والتعليم • ثم ان طبقة الجوارى القت على البيت العباسى وعلـى البيئة العباسية لونا من النشاط الفنى فى الغناء والموسيقى ولونا من الترف الاجتماعى ، كما مزجت الدم العربى بدم غير عربى فينتج من هذا المزيج حضارة وثقافة نافعتان الى جانب ماكان لذلك من المساوىء التى ناءت بها الحياة العباسية حقبة طويلة من الزمن (١) •

ولقد اعتمد بعض مفكروا الاسلام وفلاسفته على السرد الوصفى للواقع الاجتماعى الذى يحيوه من جانب ، ومن الجانب الاخر اعتمد بعضهم على التاريخ فى وصف الحياة الاجتماعية السائدة • فالناس عند ابن رشد — مثلا — خاصة وعامة ، كماهم لدى جميع الفلاسفة • فهو يرى أن الخاصة هم أهل البرهان من الفلاسفة ، أما الجمهـور (العامة) فطبقات كثيرة متنوعة يدخل فيها ابن رشد أكثر علمـــاء الكلام (٢) أما ابن الفقيه فيرتب السكان على هذا النحـو ، الملك ، وولاة الاقاليم أو جبـاة الضرائب ، الوزيـر ، ومـلاك الاراضى الاقطاعيون ، والفلاحون التابعون لهم ، والقضاة والوعاظ والشرطة وهكذا (٣) ، فنجد أن تقسيمه هذا على أساس البعد المهنى وبعـد السلطة أو مراكز القوة ، وعندما يناقش ابن الفقيه واشباهه مــن الكتاب طبقات الجماعات البشرية ، فانهم يمتنعـون عـن تخصيص مكان شريف فى الدرج الاجتماعى للتجار وأرباب الحرف • وربما أمكن فى يسر ادخال التاجر الثرى فى طبقة الاغنياء ، ولكن لانزاع فى أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧١ •
(٢) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع مذكور ،ص ٥٦٥
(٣) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٧١

الاديب كان على وجه العموم يضع طوائف التجار والصناع فى مصف الدهماء ، التى لا اسم لها ولا وزن (١) •

واذا حاولنا عرض أعمال من فلاسفة الاسلام وعلمائه فسيكون ذلك من العسير ، وليس مجاله هنا ، وخاصة ونحن بصدد عـرض اطار نظرى موجه • وانما سنحاول عرض مالمسه كل من الفارابـى وابن خلدون والمقريزى ، بطريق أكثر تعمقا ، قد يفيد عماذا أخذنا قطاع عرضى من العلماء دون تعمـق •

---

(١) جوستاف جرونيباوم ، حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيـق جاويد ، مراجعة عبد الحميد العبادى ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، ص ٢٧٤ •

المبحـــث الاول

أبو نصر الفارابـــى

١ ــ حياتـــــه ٠
٢ ــ المؤثرات الفكرية ٠
٣ ــ مؤلفات الفارابى ٠
٤ ــ المدينة الفاضلة ٠
٥ ــ المدن المضـــادة ٠
٦ ــ احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون ٠
٧ ــ الرئيس وخصاله ٠
٨ ــ السلطة فى المجتمع ٠
٩ ــ تماسك المجتمع ٠
١٠ ــ السعـــادة ٠
١ ــ التدرج الطبقى ٠
١٢ ــ اتجاهاته النفسية ٠

أبو نصر الفارابـى

ولد أبو نصر محمد بن محمد بن طرفان بن أولغ الفارابـى فى بلدة وسيج بولاية فاراب ، على نهر سيحون من بلاد الترك عـام ٢٦٠هـ (٨٧٤م) فاشتهر بنسبته الى هذه الولاية (١) ولانكاد نعرف يقينا عن طفولته وشبابه ، غير أنه يظهر من سيرته أنه قد عكف فى مسقط رأسه على دراسة مجموعة من مواد العلوم والفلسفة واللغات وعلى الاخص التركية والفارسية والعربية واليونانية (٢) .

انتقل الفارابى مع والده الى بغـداد ، وفيها تعلـم العربيـة ودرس النحو على أبى بكر محمد بن السرى بـن سهـل النحـوى المعروف بابن السراج . كمادرس العلم الحكمى على الطبيب يوحنا ابن هيلان ، والمنطق على أبى بشر متى بن يونس . وفى عام ٣٢٩ هـ دخل القائد الديلمى توزن الى بغداد وقتل الخليفة المتقى ، فاضطربت الأحوال وكثرت الفتن ، فآثر الفارابى السلامة فجاء الى دمشق عام ٣٣٠هـ ثم غادرها بعد قليل الى حلب ولزم بلاط سيف الدولة مكتفيا بأربعة دراهم فى كل يوم ينفقها فى وجوه معاشه ، بينما كان سيف

---

(١) ويرى الدكتور على عبد الواحد موافى ان منطقة فاراب — هى منطقة كبيرة وراء نهرى جيحون (اموداريا) وسيحون (سرداريا) ، وتقـع على جانب الفرع الاكبر لنهر سيحون فى طرف بـلاد تركستان . كمايرى ان الفارابى ولد حوالى سنه ٢٥٩هـ الموافقة لسنتى ٨٧٢، ٨٧٣م . (انظر : على عبد الواحد وافى ، المدينة الفاضلة للفارابى) دار عالم الكتب للطبع والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٧

(٢) على عبد الواحد وافى ، منقول من «آراء أهل المدينة الفاضلـــه» للفارابى ، مؤلفات الجمعيه المصرية لعلم الاجتماع القاهرة ، ١٩٥٠ ص ٣،ويرى الدكتور ابراهيم بيومى مدكور أن الفارابى لم يعـرف اليونانية كما يظهر ذلك من تحليله لكلمة (السفسطة) ، وانما يعرف فقط العربيه والتركية والفارسيه «ابو نصر الفارابى» مجله كليـه الاداب ، جامعة القاهرة ،المجلد ١٩ ،العدد الثانى ، ديسمبر ١٩٥٧ مطبعه جامعه القاهرة ، ١٩٦١ ،ص ٧٠ . ويذكر انه تعلم الفلسفة على معلم مسيحى هو يوحنا بن هيلان (احمد امين ، ظهور الاسلام، الجزء الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ١٣٠) .

الدولة يعطى المتنبى ــ مثلا ــ الف دينار على القصيدة الواحدة (١)

ورحل الفارابى رحلة قصيرة الى مصر (عام ٣٣٧ــ٣٣٨هـ) ثم عاد الى حلب ، وفى سنة ٣٣٩هـ سار سيف الدولــة الــى دمشــق فاصطحب الفارابى الى أن توفى الاخير فى دمشق (رجب ٣٣٩ هـ ــ الموافق آخر عام ١٩٥٠ م) ودفن فى مقبرة الباب الصغير .

كان الفارابى فقيرا ، ميالا الى الزهد والتقشف ، لايحفل بأمر مكسب ولامسكن ، ولم يكن يعتن بزيه وهيئته ، لميتزوج ولم يقتن مالا ؛ كان يؤثر العزلة والوحدة ليخلو الى التأمل والتفكير ، وكــان حاد الزهن ، رياضيا شاعرا بعيد الهمة ، عزيز النفس ، وكذلك كان موسيقيا (٢) . وقد طبقت شهرته الآفاق فى الفلسفة حتى أعتبر أكبر الفلاسفة بعد أرسطو ، فاطلق عليه «المعلم الثانى» كماكان يطلق على أرسطو «المعلم الاول» كماأنه عرف بفيلسوف المسلمين ، فهو أولمن حمل المنطق اليونانى تاما منظما الى العرب .

ومما لاشك فيه أنه قامت فى فاراب حركة فكرية نشيطة واسعة على أثر امتداد الاسلام اليها فى أوائل القرن الثالث الهجرى .ومما يشهد لذلك ظهور أعلام آخرين بها معاصريــن للفارابى ، أمثــال الجوهرى اللغوى ، المشهور صاحب الصحاح (٣) .

(١) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى حتى ايام ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٦٢، ص ٢٦٩ . وكان الفارابى يعيش عيشة التصوف ويعلمطلابه فى الحدائق التى حول حلب ، ويؤلف كتبه (انظر : احمد امين ، ظهر الاسلام ، الجزء الاول ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ١٨٦)

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٠

(٣) ابراهيم بيومى مدكور ، مرجع سابق ، ص ٧٠

المؤثرات الفكريـــة :

كان للفارابى ثلاثة منابع يستمد منها فلسفته ، فالفلسفـــة اليونانية ـ وخاصة مذهب افلاطون وأرسطو ـ والديانة الاسلامية والعقل الذى يوفق بين الفلسفة اليونانية ، بعضها مـع بعض مـن جهة ، وكلها مع الاسلام من جهة أخرى . وهذا التوفيق يحتـاج الى عقل قوى كبير . لأن للفلسفة اليونانية مذاهب مختلفة جدا ، يصعب التوفيق بينها ، ولأن عماد الفلسفة العقل المطلق . وعمـاد الدين القلب ومن أظهر أمثلة ذلك من النوع الاول كتابه «الجمع بين رأى الحكيمين» يعنى أفلاطون وآرسطو ، ومن النوع الثانى كتابـه «آراء اهل المدينة الفاضلة» . فحاكى فى أجزاء كثيرة منها افلاطون فى جمهوريته ، وأبعد منها مالايتفق مع الاسلام اتفاقا واضحا وزاد عليه أشياء كثيرة مـن تعاليم الاسلام (١) .

وقد كان الفارابى متأثر باتساع الدولة الاسلامية المكونة من عدة شعوب ، فرأى أنها الاجتماع الكامل ، بعكس الفلاسفةالاغريق الذين كانوا وفقا لمجتمعاتهم المكونة من مدن صغيرة يرون أن المجتمع الطبيعى الكامل هو مجتمع المدينة أما الدول الكبيرة أو الامبراطوريات فقـد كانت فى ظنهم مجتمعات فاسدة (٢) .

مؤلفـات الفارابى :

لقد ظلت شئون السياسة والاجتماع من أبرز مسائل الفلسفة من فجر نشأتها على يد سقراط وأفلاطون الى العصر الحاضر .فكان لزاما أنتستأثر بقسط كبير من نشاط الفارابى، وأن يقف عليها طائفة من مؤلفاته . وقد وصل الينا مماكتبه فيها مؤلفان قيمان : أحدهما

---

(١) احمد امين ، مرجع سابق ، ص ١٣١ — ١٣٢

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم ، تطور الفكر الاجتمـاعى ، مكتبة الانجلـو المصرية ، ص ١٢٧ـ١٢٨

«كتاب السياسات المدنية» والاخر «آراء أهل المدينـة الفاضلـة » والكتاب الاخير هو أشهر مؤلفاته فى هذه الناحية ، وأصدقها تعبيرا عن مذهبه الفلسفى ومايطمح اليه عالم الاجتماع (١) • ويتألف هذا الكتاب من قسمين يكادان أن يكونا مستقلين (٢) : القسم الاول ، فلسفى ماورائى عرفنيه الفارابى بجانب من الفلسفة العقلية على مذهب ارسطو ، ممزوجة بالكثير من مذهب افلاطون • أمـا القسـم الثانى فهو الفلسفة السياسية ، اذ تعرض فيه الفارابى للكلام على التعاون بين البشر وعلى أصناف المدن (الدول) • وقد ابتدأ الفارابى هذا الكتاب فى بغداد سنة ٣٣٠هـ ثم أتمه فى دمشق فى العام التالى • ويبدو أن الفارابى لما ذهب الى مصر أدخل على هذا الكتاب أشيـاء تتعلق بترتيبه وتقسيمه ، ثم بمادته وأتجاهه •

ولقد نشر ديتريسى Pried Dieterici النص العربـى لرسالة الفارابى فى مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة : التى تعالـج تنظيم دولة مثالية (ليدن ١٨٩٥) • وترجمة هذا النص الى الالمانية (Der Musterstoad Leiden) عام ١٩٠٠ التى تحتوى على مقدمة عامة • وكذلك نشر ديتريسى أيضـا ثمانى رسائـل قصيرة فى الفلسفـة للفارابى (٣) •

وظهرت أصول فلسفة الفارابى الاجتماعية فى كتابه الموسـوم «احصاء العلوم» فى اشارته عن «العلم المدنى» الذى يبحث تـدبير المدينة ، وهو يعنى بربط السياسة بالاخلاق ، حتى تتحقق السعـادة لاهل المدينة الفاضلة • وعنده أن «الرئيس» محورا لكل السياسات

---

(١) على عبد الواحد وافى ، ١٩٥٠ ، مرجع مذكور ، ص ٥ — ٦
(٢) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص٢٧٣
(٣) الدومييلى ، العلم عند العرب ترجمة د. عبد الحليم النجـار ، ود. محمد يوسف موسى ، مراجعة د. حسين فوزى ، دار العلم ١٩٦٢ ، ص ١٨١ .

المدينة الفاضلة والسيئة (١) . وقد نشر هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٣١ وأعيد طبعه عام ١٩٤٩ . وفى هذا الكتاب يقسم الفارابى العلوم ثمان مجموعات درسها فى خمسة فصول . احداها مجموعة «علوم اللسان» وهى سبعة أجزاء ، علم الالفاظ المفردة ، وعلم الالفاظ المركبة ، وعلم قوانين الالفاظ عندما تكون مفردة ، وعلم قوانين الالفاظ عندما تركب ، وعلم قوانين تصحيح الكتابة ، وعلم قوانين تصحيح القراءة ، وعلم قوانين الاشعار . وثانيتها «علم المنطق» بجميع فروعه . وثالثتها «علم التعاليم» وأراد به أن يشمل : علم العدد ، وعلم الهندسة ، وعلم المناظر (البصريات) وعلم النجوم (الفلك) ، وعلم الموسيقى ، وعلم الاثقال ، وعلم الحيل (أى الميكانيكا التطبيقية) ورابعتها مجموعة العلوم الطبيعية . وخامستها مجموعة العلوم الالهية . وسادستها مجموعة العلوم المدنية (الاخلاق والسياسة) وسابعتها علوم الفقه . وثامنتها علم الكلام بفروعه (علم التوحيد وملحقاته) (٢) .

ولو جمعت كتب الفارابى ورتبت وبوبت لكان منها دائرة معارف فلسفية واسعة . فماوضعه الفارابى من أسس فلسفية أكثر مما وضعه ابن سينا وابن رشد وأمثالهما (٣) . وعلى هذا يمكن تصنيف بقية كتب الفارابى ورسائله — بالاضافة الى ماسبق توضيحه — الى مجموعتين . الاولى وتضم كتبه الفلسفية ومنها : كتاب الواحد والوحدة ، كتاب الجوهر ، كتاب الزمان ، كتاب المكان ، كتاب الخلاء ، مقالة فى معانى العقل ، رسلة فيما ينبغى أن يقدم تعلم الفلسفة ، عيون المسائل ، فصوص الحكم ، رسالة فى جوانب مسائل سئل عنها ، نكت أبى نصر الفارابى فيمايصح ولايصح من أحكام النجوم ، رسالة

---

(١) أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣٨
(٢) على عبد الواحد وافى ، ١٩٧٣ ، ص ١٥ — ١٦
(٣) أحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ١٣٧

فى فضيلة العلوم والصناعات ، كتاب التنبيه على سبيل السعـادة ، كتاب تحصيل السعادة ، رسالة فى اثبات المفارقات .

وتضم المجموعة الثانية شروحه وتعليقاته ، ومنها : كتـــاب المقولات (قاطيغورياس) ، كتاب القول الشارح (القضايا والتعريف) كتاب أنالوطيقا الاولى والثانية (تأليف القياس المنطقى) كتاب طوبيقا (الجدل) ، كتاب سفسطيا (السفسطة) ، وكتاب ريطوريقا (الخطابة كتاب بوطيقا (الشعر) ، كتاب الاخلاق الى نيقوماخوس ، كتـــاب العلم الطبيعى ، كتاب الآثار العلوية ، رسالة النفس والعالم ،كتاب الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، كتـاب فى أغـراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب المرسوم بالحروف (يقصد كتـــاب ميتافيزيقا أرسطو) .

المدينــة الفاضلة :

قصد الفارابى من كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» الى تكوين مجتمع صالح (يوتوبى Utopia)من نوع المجتمعات التى فكر فيها من قبله فلاسفة اليونان ، وفقا للمبادىء الرئيسية التى تقوم عليها فلسفته . وكماسبق أن أشرنا عند الحديث عن مؤلفاته ، فقد قســم كتابه قسمين : لخص فى القسم الاول مبادئه الفلسفية التى يدين بها، والتى يريد أن يقيم عليها مدينته ، وشرح فى القسم الثانى شئـون هذه المدينة وماينبغى أن تكون عليه فى مختلف نواحى حياتها حتـى تجىء موائمة للمبادىء التى عرضها فى القسم الاول . وقد عرض فى القسم الفلسفى . الاول ـ الذى بدأ به كتابه للموجـود الاول وهو «الله» وصفاته ، وكيفية صدور الموجودات عنه،ومراتب الموجودات الروحية والمادية وصفاتها وأجزاء النفس الانسانية وقواها ، وعلاقة هذه القوى بعضها ببعض والارادة والاختيار والسعادة والمنامـات والوحى . وآراؤه فى هذا القسم تمثل مزيجا من آراء افلاطـون وأرسطـو ومن الافلاطونية المحدثـة ومبادىء الدين الاســـلامى

واتجاهاته ، مع محاولة لاتخلو من تعسف أحيانا للتوفيق بين هـذه العناصر وابرازها فى صورة نسيج واحد ملتئم الاجزاء • وأماالقسم الثانى من مؤلفه ، فقد وضع فيه مايصح تسميته «تصميما لمدينتـه الفاضلة» وقد جاء تصميمه هـذا مشابها فى معظم نواحيـه لتصميم أفلاطون لجمهوريته مع بعض فروق يسيرة تأثر فيها الفارابى بمبادىء الدين الاسلامى على الاخص • وقد بدأ قسمه هذا بالكلام عـــن احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون • فقرر أن الانسان اجتماعى بطبعه من جهة ، ومضطر الى هذا الاجتماع اضطرارا لسد حاجاتـه من جهة أخرى • ومن اجتماع الناس بعضهم ببعض تنشأ المجتمعات المختلفة • وهذه المجتمعات ترجع الى قسمين : مجمتمعات كاملة ، وهى مايتحقق فيها التعاون الاجتماعى بوجه كامل • ومجتمعات ناقصة وهى مالايتحقق فيها التعاون الذى ذكره بصورة كاملـة ، ولاتستطيع أن تكفى نفسها بنفسها (١) •

والمدينة الفاضلة فى نظره هى ماتتحقق فيها سعادة الافرادعلى أكمل وجه ، ولايكون ذلك الا اذا تعاون أفرادها على الامور التـى تنال بها السعادة ، واختص كل منهم بالعمل الذى يحسنهوبالوظيفة المهيأ لها بطبعه • وأهم وظائف المدينة وأكبرهـا خطرا فى نظـــر الفارابى ، هى وظيفة الرئاسة ذلك لأن رئيس المدينة هو السلطـــة التى تستمد منها جميع السلطات وهو المثل الاعلى الذى ينظم جميع الكمالات • فهو مصدر حياة مدينته وقوام نظامها • ومنزلته مـن سائر أفرادها كالقلب من أعضاء الجسم ، بل ان منزلته منهم كمنزلة الله عز وجل من سائر الموجودات (٢) • فهو يرى أن نسبة السبب

---

(١) على عبد الواحد وافى ، ١٩٥٠ ، مرجع مذكور ، ص ٧—٩

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ • وتذكرنا هذه الصفات برئيس جمهوريـــة افلاطون • وتزيد عليها الاتصال بالعالم العلوى وكاننا أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبى (ابراهيم بيومى مذكور ، مرجع سابق ص ٨٥) •

الاول «الله» الى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة الــى سائر أجزائها «طبقاتها وأهلها» (١) .

وملوك المدينة الفاضلة يتوالون فى الازمنة المختلفة واحدا بعد واحد ، سواء أكانوا فىمدينة واحدة أو فى مدن متعددة متعاصرة أو غير متعاصرة ، فأنهم كنفس واحدة ، أو كأنهــم ملك واحد يبقــى الزمان كله . ان هؤلاء الملوك قد كملوا فى العقل وفى التخيل . وبما أن الكمال واحد فيهم فانهم لايختلفون فى شىء (٢) .

ويفترض الفارابى أن أهل المدينة الفاضلة يعرفون الآراء التى أوردها فى القسم الأول من كتابه ويعتقدونها . وهكذا نرى أنالمدينة (الدولة) عند الفارابى وجودا طبيعيا فى الدرجة الاولى ،وأن الجانب الاجتماعىفيها قليل جدا . وبعد أن يتكلم الفارابى عن أعضاء البدن وعن صلة بعضها ببعض يقول : «كذلك الحال فى المدينة . وكذلك كل جملة كانت أجزاؤها مؤتلفة منتظمة مرتبطة بالطبع ، فأن لها رئيسا حالــه من سائر الاجزاء هــذه الحال » .

ويرى الفارابى أن «الهيئات النفسية التى اكتسبها أهل المدينة الفاضلة من آراء أسلافهم ، فهى تخلص أنفسهم من المادة والهيئات النفسانية الرديئة التى أكتسبوها من الافعال الرذيلة فتقتــرن الــى الهيئات الاولى فتكدر الاولى وتضادها ، فيلحق النفس من مضــادة هذه لتلك أذى عظيم وتضاد تلك الهيئات هذه فيلحق هذه من تلــك أذى عظيم فيجتمع من هذين أذيان عظيمان للنفس» (٣) .

---

(١) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٣

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحــة . وكذلك ابى نصر الفارابى،آراء أهل المدينة الفاضلة ، تصحيح عبد الوصيف محمد الكردى، مكتبــه الحسين التجارية ، ١٩٤٨ ، ص٩٣ . وهذا يذكرنا بفكرة افلاطــون عن تعاقب الدورات السياسية وكيفية تغير نظم الحكم.

(٣) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٢٤١ــ٢٤٢

ويعدد الفارابى الاشياء المشتركة لاهل مدينته الفاضلة فيقول: «أولها معرفة السبب الاول وجميع مايوصف بـه • ثم الاشيـاء المفارقة للمادة ومايوصف به كل واحد منها بما يخصه من الصفـات والمرتبة الى أن تنتهى من المفارقة الى العقل الفعال وفعل كل واحد منها • ثم الجواهر السماوية ومايوصف بهكل واحد منها ثم الاجسام الطبيعية التى تحتلها كيف تتكون وتفسد ، وأن مايجرى فيها يجرى على احكام واتقان وعناية وعدل وحكمة وأنها الاهمال فيها ولا نقص ولاجور ولابوجه من الوجوه • ثم كون الانسان وكيف تحدثقـوى النفس وكيف يفيض عليها العقل الفعال الضوء حتى تحصل المعقولات الاول والارادة والاختيار ، ثم الرئيس الاول وكيف يكون الوحى • ثم الرؤساء الذين ينبغى أن يخلفوه اذا لم يكن هو فى وقت مـن الاوقات • ثم المدينة الفاضلة وأهلها أو السعادة التى تصير اليهـا أنفسهم • والمدن المضادة لها وماتؤول اليه أنفسهم بعد المـوت اما بعضهم الى السعادة واما بعضهم الى العدم • ثم الامم الفاضلـة والامم المضادة لها» (١) •

المـدن المضادة :

يرى الفارابى أنواع أربعة من المدن المضادة للمدينة الفاضلة، وهى : المدينة الجاهلة ، والمدينة الفلسفة ، والمدينة المبدله ، والمدينه الضالـة •

أما المدينة الجاهلة فهى التى لم يعرف أهلها السعادة بل ظنوا أن الخير انما فى الملذات البدنية وأن الشقاء هو آفات بالبـدن • والمدينة الجاهلة فى الحقيقة أسم جامع لعدد من المدن التى تجهـل حقيقة السعادة ، وتميل الى الاوجه المختلفة من السعادة الظاهرة ، ومن هذه المدن الفرعية :

---

(١) الفارابى ، مرجع مذكور ، ص ١٠٢—١٠٣

أ — المدينة الضرورية التى يقصد أهلها أن ينالوا الحاجـات البدنية الضرورية من مأكل وملبس ومسكن •

ب — المدينة البدالة (التجارية) التى يقصد أهلها جمع ثروة ، ويجعلون الثروة غايتهم من الحياة ثم لاينتفعـون بهـا انتفاعا صحيحا •

جـ — مدينة الخسة والشقوة ، ويقصد أهلها التمتع بالطعـام والشراب والملذات البدنية المتعلقـة بجسمهم وخيـالهم والميـل الى الهـزل واللعب •

د — مدينة الكرامة (الوجاهة) التى يقصد أهلها أن يكونـوا مشهورين ممدوحين بين الأمم وعند أنفسهم •

هـ — والمدينة التغلب ومقصدهم التسلط على غيرهم ، ولـذتهم محصـورة فى ذلـك •

و — والمدينة الجماعية (الاباحية) التى يريد أهلها أن يعيشـوا على هواهم يفعلون مايريدون •

وكل ملك من ملوك هذه المدن يجعل همه التسلط على أهـل مدينته لينال هو الحظ الاوفر من الغايات التـى يسعى اليها أهـل مدينته (١) •

أما المدينة الفاسقة ، فهى التى يعرف أهلها الآراء الفاضلـة ولكنهم يسلكون مسلك أهل المدن الجاهلة • فى حين أن المدينةالمبدلة فقد كانت فاضلة ثم تبدلت • والمدينة الضالة هى التى تعتقـد أن السعادة تكون بعد الموت ، ثم تعتقد آراء فاسدة فى الله وفى العقول الثوانى •رئيسها الاول ممن اوهم أنه أوحى اليه من غير أن يكـون

---

(١) الفارابى ، مرجع مذكور ، ص ١١٩—١٢١

قد أوحى اليه وملوك هذه المدن مضادون لملوك المدن الفاضلة ،وأهل هذه المدن مضادون أيضا لاهل المدن الفاضلة لاختلاف الفريقـين فى الاعتقاد والفهم لحقائق الامور (١)

ويحدثنا الفارابى عن رابطة القهر والقوة والغلبة فى معـرض كلامه عن المدينة الضالة ، والآراء التى يذكرها فى هذا الصدد لاتختلف كثيرا فى جوهرها العام عما يذهب اليه أصحاب المذهب الحيوى من أنصار نظرية «الكفاح من أجل الحياة» والتى مؤداها أن الطبيعـة تعطى الكائن الحى الوسائل التى يحفظ بها وجوده ، ويدفع بها عن نفسه مايعاديه أو يعارض وجوده ، بل تجعله قادرا على اهـــلاك الكائنات الاخرى أو اخضاعها أو استخدامها بحيث يخيل لنا أن كل كائن يعتبر نفسه أهلا لان يكون له وحده الحق فى الوجود الافضل فاذا كان هذا اتجاه الجماعة صارت هذه الجماعـة جاهلة وضالة لان نظامها يكون على آراء قديمةوفاسدة تشبه المجتمع الانسانىبالمجتمع الحيوانى حيث يسود الكفاح دون رعاية للنظام الاجتماعى أومراعاة للقانون الالهى ، وحيث تكون الحياة للاقوى ؛ والبقاء للاصلح،كأن كل كائن قد طبع على ألا يرى لموجود غيره حقا فى الحياة (٢) •

ويرى الفارابى أن العدل من هذه الوجهـة يكمن فى التغلـب والكفاح • ويقول : «فان تميزت الطوائف بعضها عن بعض بأحـد هذه الارتباطات ، اما قبيلة عن قبيلة أو مدينة عن مدينة أو أحلاف عن أحلاف أو أمة عن أمة ، كانوا مثل تميز واحد عن كلواحـد ، فانه لافرق بين أن يتميز كل واحد عن كل واحد أو يتميز طائفة عن طائفة ، فينبغى بعد ذلك أن يتغالبوا ويتهارجوا • والاشياء التـى يكون عليها التغالب هى السلامة والكرامة واليسار ، الملذات وكـــل

---

(١) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٧—٢٨٩ . وكذلك الفارابـــى مرجع سابق ، ص ٩٠—٩٣

(٢) أحمد الخشـاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، وكذلك الفارابى فى القول فى آراء أهل المدن الجاهلة والضالة.

مايوصل به الى هذه • وينبغى أن يروم كل طائفة أن تسلب جميع ماللاخرى من ذلك وتجعل ذلك لنفسها ، ويكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال، فالقاهرة منها للاخرى على هذه هى الفائزة وهى المغبوطة وهى السعيدة • وهذه الاشياء هى التى فى الطبع • اما فى طبع كل انسان أو فى طبع كل طائفة • وهى تابعة لماعليه طبائع الموجودات الطبيعية• فمافى الطبع هو العدل •فالعدل اذا التغالب ، والعدل هو أن يقهر ما أتفق منها • والمقهور اما أن قهر على سلامة بدنه أو هلك وتلف وانفرد القاهر بالوجود • أو قهر على كرامته وبقى ذليلا ومستبعدا تستعبده الطائفة القاهرة ويفعل ماهو الا نفع للقاهر فى أن ينال به الخير الذى عليه الغالب ويستديم به • فاستعباد القاهر المقهور هو أيضا من العدل ، وأن يفعل المقهور ماهو أنفع للقاهر هو أيضا عدل•فهذه كلها هى اعدل الطبيعى وهى الفضيلة» (١)

بهذا يعدد الفارابى أسباب الصراع بين الافراد أو بين الجماعات ويحددها فى أربعة : السلامة والكرامة واليسار والملذات •ثم يحصر هذه الاسباب فى نتائج الصراع وقد لخصها فى اثنتين : البدن والكرامة• فكأن الكرامة أو «الشهرة» بالمعنى الحديث هى غاية الصراع من جانب وسببه من جانب مقابل • وكأن النواحى المادية ـ المتمثلة فى البدن ـ هى غاية وسبب فى نفس الوقت الا أن الجديد هنا أنه يرى أن الصراع عدل وفضيلة وكذلك القهر والاستعباد •

---

(١) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ١١٢–١١٣

احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون :

بدأ الفارابى بدراسة طبيعة المجتمع وذلك بتوضيح ضرورة الاجتماع الانسانى ، فأرجع ذلك الى أن الانسان مفطور على حاجته الى الاجتماع والتعاون ، ومعنى ذلك أن الفارابى يأخذ بفكرة أرسطو فى أن الانسان مدنى بالطبع وأن الاجتماع ضرورى لسد الاحتياجات الضرورية للافراد ، فضلا على أنه يشير الى أهمية تقسيم العمل والتخصص الجماعى كأساس لبناء المجتمع • ويشبه العلامة (كرادى فو) فى كتابه عن مفكرى الاسلام رأى الفارابى فى الاجتماع الانسانى بآراء المفكر الفرنسى جان جاك روسو فى العقد الاجتماعى(١)

يرى الفارابى أن لكل انسان حاجيات كثيرة كيما يبلغ كما لانه ، ولكنه لايستطيع أن يسد تلك الحاجيات بمفرده ، بل أنه يحتاج الى «قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج اليه ، ومن هنا تنشأ الجماعات المتعاونة ، ولهذا كثرت أشخاص الانسان فحصلوا فى المعمورة من الارض فحدثت منها الاجتماعات الانسانية فمنها الكاملة ومنها غير الكاملة» (٢) • أما من ناحية الاجتماعات — ولربما بقصد الجماعات أو المجتمعات — الكاملة فيقسمها الفارابى الى ثلاث :

١ — عظمى : وهى اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة •
٢ — وسطى : وهى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة •
٣ — صغرى : وهى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة•

---

(١) احمد الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ وكذلك دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى ابوريده ، مطبعه لجنه التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ ، ص ١٧٩

(٢) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ • وهو يرى ان أصغر الاجتماعات هى المنزل ، ثم يليها السكة (الشارع) ثم المحلة (الحى أو القسم) ثم المدينة ، ثم الامة ، وكل منها جزء من لاحقتها واجتماع بعضها يكون مايليها •

أما الاجتماعات غير الكاملة فهى أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع فى سكة ثم اجتماع فى منزل (١) • ويـرى أن الخـير الافضل والكمال الاقصى انما ينال أولا بالمدينة لا بالاجتماع الـذى هو أنقص منها •

والمدينة التى أساسها التعاون على الاشياء التى تنـال بهـا السعادة هى المدينة الفاضلة • فبلوغ السعادة سواء فى المدينة أو الامة أو المعمورة هو محك الفضيلة فى رأيه • ومن زاوية أخـرى يشبه الفارابى المدينة الفاضلة بالبدن التام الصحيح الذى تتعـاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وحفظها • وهنا يذهب الـى توضيح التفاضل والتمايز بين هذه الاعضاء ، فيقـول : «وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو واحـد رئيسى هو القلب ، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس الـى أعضاء تخدم ولاترأس أصلا ، كذلك المدينة اجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات • وفيها انسان هو الرئيس وأخر يقرب مراتبهـا من الرئيس فى كل واحد هيئة وملكة يفعل بها فعلا يقتضى به ماهـو مقصود ذلك الرئيس وهؤلاء هم أولو المراتب الاول • ودون هؤلاء قوم يفعلون الافعال على حسب اغراض هؤلاء ، وهؤلاء هم فى المرتبة الثانية ، ودون هؤلاء أيضا من يفعل الافعال على حسب أعـراض هؤلاء • ثم هكذا تترتب اجزاء المدينة الى أخر يفعلون افعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولايخدمون ويكونون فى أدنى المراتب ، ويكونون هم الاسلفين » (٢) •

وهكذا نرى أنه كلما كان الشخص أقرب الى الرئيس كـان أشرف وأكمل • الا أن هنالك فارقا بين أعضاء البدن وبين طبقـات أهل المدينة • ان أعمال أعضاء البدن طبيعية ، أما أعمال طبقـات

---

(١) عمر فروخ ، مرجع مذكور ، ص ٢٨٢
(٢) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٧٩ـ ٨٠

أهل المدينة فمصدرها الارادة أو الملكات الارادية التى تحصل لهم وهى الصناعات وماشاكلها • وبالفعل يرى الفارابى أن الهيئات والملكات التى يفعل بها أعضاء المدينة أفعالهم ليست طبيعة بل ارادية • وبذلك نجد أن «المهنة» تعبر عن النقلة الاجتماعية ـ لدى الفارابى ـ من مكانة أو مرتبة معينة الى مرتبة أخرى • كما وينظر الى أفعال أعضاء المدينة من ناحية ترتيبها وتدرجها على أساس الشرف ، فهناك أفعال ذات شرف تقترب من رئيس المدينة ، وهناك كذلك أفعال أخس • وتتحدد تلك المراتب عن طريق احتذاء كل عضو لاغراض رئيس المدينة الفاضلة • وبهذا يعقد الفارابى التفرقة بين البدن وأعضاء مدينته على أساس على سيكولوجى (١) •

الرئيس وخصاله :

ورئيس المدينة الفاضلة لايمكن أن يكون أى انسان أتفق ،لان الرئاسة انما تكون بشيئين : أحدهما أن يكون بالفطرة وبالطبع معدا لها ، والثانى بالهيئة والملكة الارادية • ويجب أن تكون صناعة رئيس المدينة الفاضلة صناعة من شأنها ألا تخدم صناعة أخرى ، بل أن تكون كل صناعة أخرى تتجه نحوها• ويجب أن يكون الرئيس نفسه انسانا قد استكمل ، فصار عقلا ومعقولا بالفعل • وأصبح مستعدا لان يتقبل من العقل الفعال أشياء كثارا يفيضها العقل الفعال الى عقله هو ، ثم الى قوته المتخيلة • وتكون هذه القوة منه معدة بالطبع لتقبل اما فى وقت اليقظة أو فى وقت النوم عن العقل الفعال الجزئيات (٢) • بمعنى أن الرئيس هو الانسان الذى حل فيه العقل الفعال • واذا حصل ذلك فى كلا جزئى قوته الناطقة وهما النظرية والعملية ، ثم فى قوته المتخيلة كان هذا الانسان هو الذى

---

(١) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٤ وكذلك احمد الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٤١

(٢) الفارابى ، مرجع سابق ، ص٨٤

يوحى اليه ، فيكون الله عز وجل يوحى اليه بتوسط العقل الفعال ، فيكون مايفيض من الله تبارك وتعالى الى العقل الفعال يفيضه العقل الفعال الى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ، ثم الى قوته المتخلية فيكون بمايفيض منه الى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا علـى التمام (١). وهذا الانسان هو فى أكمل مراتب الانسانية وفى أعـلى درجات السعادة ، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال (٢) وهذا الانسان هو الذى يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعـادة فهذا أول شرائط الرئيس ، ثم أن يكون له مع ذلك قدرة بلسانـه على جودة التخيل بالقول ولكل مايعلمه . وقدرة على جودة الارشاد الى السعادة والى الاعمال التى بها يبلغ السعادة . وأن يكون لـه مع ذلك جودة ثبات ببدنه لمباشرة أعمال الجزئيات (٣) . وينبغى أن يكون هو السبب فى أن تحصل المدينة وأجزاؤهـا . والسبب فى أن يحصل الملكات الارادية التى لاجزائها فى أن تترتب مراتبها . وان اختل منها جزء كان هو المرفد له بمايزيل عنه اختلاله (٤) .

وتبدو الآراء المثالية للفارابى فى معالجته للشروط الواجـب توافرها فى رئيس المدينة الفاضلة . اذ ينبغى أن يكون فيلسوفا أو نبيا ، وتكون نفسه متحدة بالعقل الفعال المنبعث عن الذات الالهية، فتخرج نفسه بالنفس الكلية وتصبح معرفته معرفة اشراقية الهية . وهذه النظرة تمثل أقصى النظريات المثالية الفلسفية التى لايمكـن تحقيقها تحقيقـا كليا (٥) .

---

(١) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٨٦

(٢) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٦—٢٨٧ وكذلـك الفارابـى ، المرجع السابق ،ص ٨١—٨٣

(٣) الفارابى ، المرجع السابق ، ص ٨٦—٨٧

(٤) المرجع السابق ، ص٨١

(٥) احمد الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ وكذلك ، دى بور، مرجع مذكور ، ص ١٧٢ .

وهنا بين الفارابى ، خصال رئيس المدينة الفاضلة ، ويـرى بوجود رئيس أول ، وان لم يوجد انسان بهذه الخصال ، يضـع الفارابى خصال الرئيس الثانى • ولابد أن تجتمع اثنتا عشرةخصلة للرئيس الاول ويكون قد فطر عليها ، وهى : ان يكون تام الاعضاء جيد الفهم ، جيد الحفظ ، جيد الفطنة ، حسن العبارة ، محبـا للتعليم ، غير شره ، محبا للصدق ، محبا للكرامة ، وأن يكـون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده ، محبـا للعدل ، قوى العزيمة . أما الرئيس الثانى للمدينة ، فله ست شرائط هى : أن يكون حكيما ، عالما حافظا للشرائع والسنن وسير الاولين وأنيكون له جودة استنباط عن السلف ، ويتميز بجودة روية لما فى وقت مـن الاوقات الحاضرة ، وجودة الارشاد بالقول الى شرائـع الاولين ، وجودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب (١) •

وهكذا نجد مدى مزج الفارابـى بين الخصائص الروحيـة والخصائص الاجتماعية والشرعية التى يجب أن تتوفـر فى شخص الرئيس • ويرى الفارابى أن أهم هذه الصفات هى الحكمة • وقد تتوفر فى واحد وتتوفر بقية الصفات فى آخرين ، فيكونون جميعـا الرؤساء الافاضل • أما اذا لم تتوفر الحكمة فى أى شخص مـن الرؤساء ، بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك ، وكان القائم بأمر هـذه المدينة ملكا بالاسم ، وكان علينا أن نبحث عن شخص حكيم نضمه الى القائم بأمر المدينة • فاذا لم نجد مثل هذا الشخص تعـرضت المدينـة للهـلاك ثم هلكت •

---

(١) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٨٧ـ٩٠

السلطة فى المجتمع :

يعرض الفارابى لنشأة السلطة فى المجتمع ، فيردها الى حاجة المجتمع الى القانون الاجتماعى ليحقق العدل ويمنع الظلم ، ويقهـر الغضب • فان مايسمى عدلا فى البيع والشراء أوأمانة فى رد الودائع وعدم الغضب وعدم الجور وما الى ذلك ، فان مستعمله انمايستعمله أولا لاجل الخوف والضعف وعند الضرورة الواردة من الخارج • فاذا تساوى فردان أو طائفتان فى القوة ، وكانا يتداولا القهر فيطول ذلك بينهما فيذوق كل واحد الامرين ويصير الى حال لايحتملها • فحينئذ يجتمعان ويتناصفان ويترك كل واحد منهما للآخر مما كانا يتغالبـان عليه قسطا ما ، فتبقى سماته ، ويشرط كل واحد منهما على صاحبه ان لايروم نزع مافى يديه الا بشرائط فيصطلحـان عليهـا • أو أن يكون الاتفاق ورد عليهما من خارج شىء على أنه لاسبيل الى دفعة الا بالمشاركة وترك التغالب فيتشاركان ريث ذلك أو يكون لكل واحـــد منهما همة فى شىء يريد أن يغلب عليه ، فيرى أنه لايصل اليـــه الا بمعاونة الآخر له وبمشاركة له فيتركان التغالب بينهما ريث ذلك ثم يتعاونان (١) •

يضاف الى هذا ، ماذكره الفارابى — وسبق أن أوضحناه — بصدد رئيس المدينة الفاضلة ، والصراع الذى يراه عدلا وأسبابـه ونتائجه • حيث نجد صورة الصراع بين الافراد أو الطوائف واضح فى فكر الفارابى ، الا أنه يستثنى حالات الصراع عند البيع والشراء والمشاركـة بقصد التعـاون •

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٣—١١٤

تماسك المجتمـــع :

يشير الفارابى الى عوامل تماسـك المجتمـع وترابط هيئاتـه فبالاضافة الى الضرورة العضوية والضرورة التشريعية ، يرى أن من عوامل التوحد فى الجماعة : الاشتراك فى الانحدار من أب واحد ، وقرابة التصاهر ووحدة الجنس والسلالة ، والاشتراك فى اللغـــة واللسان ، والاشتراك فى التناسل ، وتشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك فى الصقـع أو البيئـة الطبيعية(١) • كمـا أن ارتبـاط الموجودات وتآلفها لبعض الاشياء فى جواهرها ، وحتى ائتـلاف جواهرها هذه فى جوهر أول ، يجعلها جميعا فى انتظام وكمال وفضيلة ووجود واحد غير منقسم (٢) •

ويفسر ذلك بأن يعرض مختلف الآراء فى هذا الترابط والتماسك اذ يقول : فقوم رأوا ذلك أنه لاتجانب ولا ارتباط لا بالطبـع ولا بالارادة ، وأنه ينبغى أن ينقص كل انسان كل انسان ، وأن ينافر كل واحد كل واحد ، لايرتبط اثنان الا عند الضرورة ، ولا يأتلفان الاعند الحاجة • ثم يكون اجتماعهما على مايجتمعان عليه بأن يكون أحدهما القاهر والاخر مقهورا • وآخرون لمارأوا أن المتوحد لايمكنه أن يقوم بكل مابه اليه حاجة دون أن يكون له موازرون ومعاونـون يقدم له كل واحد بشىء مما يحتاج اليه ، رأوا الاجتماع • فقوم رأوا أن ذلك ينبغى أن يكون بالقهر ، بأن يكون الذى يحتاج الـى موتررين يقهر قوما فيستعبدهم ثم يقهر بهم آخريـن فيستعبدهـم أيضا ، وأنه لاينبغى أن يكون موازره مساويا له ، بل مقهـورا • وآخرون رأوا هنا ارتباطا وتحابا وائتلافا واختلفوا فى التى بها يكون الارتباط • فقوم رأوا أن الاشتراك فى الولادة من والد واحد هـو

---

(١) احمد الخشاب ،مرجع سابق، ص ٢٤٣ ،وكذلك الفارابى ، مرجـع سابق ،ص ١١٠–١١١

(٢) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٢٢–٢٣ .

الارتباط به وبه يكون الاجتماع والائتلاف والتحاب والتوازر علـى أن يغلبوا غيرهم وعلى الامتناع من أن يغلبهم غيرهم •• وقوم رأوا أن الارتباط هو الاشتراك فى التناسل وذلك بأن ينسل ذكورة أولاد هذه الطائفة من أناث أولاد أولئك ، وذكورة أولاد أولئك من أنـاث أولاد هؤلاء ، وذلك التصاهر ••وقوم رأوا أن الارتباط هوباشتراك فى الرئيس الاول الذى جمعهم أولا ودبرهم حتى غلبوا به ونالـوا خيرا من خيرات الجاهلية • وقوم رأوا أن الارتباط هـو بالايمـان والتحالف والتعاهد على مايعطيه كل انسان من نفسه ولاينافر الباقين ولايخاذلهم وتكون أيديهم واحدة فى أن يغلبوا غيرهم وأن يدفعـوا عن أنفسهم غلبة غيرهم لهم • وآخرون رأوا أن الارتباط هوبتشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك فى اللغة واللسان ، وأن التباين بباين هذه • وهذا هو لكل أمة فينبغى أن تكون فيمابينهم متجانبين ومتنافرين لمن سواهم • وآخرون رأوا أن الارتباط هو بالاشتراك فى المنزل ثم الاشتراك فى السكة ثم الاشتراك فى المحلة فلذلك يتواسون بالجار ، فان الجار هو المشارك فى السكة وفى المحلة ثم الاشتراك فى الصقع الذى فيه المدينة (١) •

السعـــادة :

وقد بحث الفارابى فيمابحث نظرية السعادة ، وهى نظريـة أهتم بها ارسطو من قبل ، فبحث فى السعادة وشروطها ودرجاتهـا وأبان كما أبان بعده الفلاسفة المحدثون أن اللذة العقلية والروحانية خير من اللذات المادية الجسمية • ونظرة الفارابى الى السعادة نظرة صوفية متأثرة بطرق معيشته • فاذا كان العقل أرقى من الجسم ، كانت السعادة الناشئة عن العقل خيرا من السعادة التى تنشأ عـن الجسم (٢) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٩ — ١١١

(٢) أحمد أمين ، مرجع مذكور ص ١٣٦

وهو يرى أن السعادة لاتتحقق الا فى المدينة الفاضلة التى تخيلها ، والمهم أن فكرة السعادة هذه فكرة أخلاقية كما أن مبدأ اللذة الذى تكلم عنه مبدأ أخلاقى أيضا • وهو بهذا دخل فى معالجة بعض موضوعات علم الاخلاق بالمعنى الحديث •

وعنده أن السعادات تتفاضل بثلاثة أنحاء : بالنوع (فهى أنواع مختلفة) والكمية (أى التفاضل فى نفس النوع) والكيفية (أى اذا كانت على نفس الدرجة لكنها تختلف من حيث قوة الاخذ بها)•وذلك شبيه بتفاضل الصنائع كماسيرد ذلك فى النقطة التالية • أما أهل سائر المدن فان أفعالهم لما كانت رديئة اكسبتهم هيئات نفسانية رديئة • وكلما واظب واحد منهم على تلك الافعال ازدادت هيئته النفسانية نقصا • فتصير أنفسهم مرضى ،فلذلك ربما التذوا بالهيئات التى يستفيدونها بتلك الافعال •• كذلك مرضى الانفس بفساد تخيلهم الذى أكتسبوه بالارادة والعادة يستلذون الهيئات الرديئة والافعال الرديئة ويتأذون بالاشياء الجميلة الفاضلة أو لايتخيلونها أصلا (١) •

ويمكن الاستشهاد بماورد فى الفقرة السابقة على اهتمام الفارابى بالاتجاه النفسى ، بالاضافة الى تأثره بآراء أفلاطون فى هذا الشأن ، حيث تحدث عن الانفس الفاضلة ، والجاهلة ،وحيث أوضح الاحلام ، وهذه ضمن موضوعات اهتمام علم النفس •

التدرج الطبقى :

يذهب الفارابى فى مبحثه عن مراتب الموجودات الى رسم صورة المجتمع بأسره ، بما به من سماوات وكائنات أرضية حتى يصل بالصورة الى الانسان • فهو يرى أن الموجودات كثيرة متفاضلة ،

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٩٦—٩٨ •

تفيض عن الجوهر ، فيبتدىء من أكملها وجودا ثم يتلوه ماهـــو أنقص منه قليلا ثم لايزال بعد ذلك يتلو الانقصـــ فالانقص الى أن ينتهى الى الموجود الذى انتخطى الى مالم يكن أن يوجد أصـــلا فتنقطع الموجودات من الوجود • ويترتب عن الجوهر موجودات لكل منها مرتبته ، حيث يأتلف ويرتبط وتنتظم بعضهامع بعض ائتلافـا وارتباطا وانتظاما ، تصير بها الاشياء الكثيرة جملة واحدة وتحصـل كشىء واحد (١) •

فهو حين يتكلم عن «مراتب الموجودات» فانمـا يقصد كيـف تصدر الموجودات عن الجوهر الواحد الحى • فيتحدث عن كيفيـة صدور الكثير ، ويرى أنه يفيض من الاول وجود الثانى وتكـــون سلسلة متلاحقة لوجود الثالث والرابع •• الخ • حيث يلزم عـن كل وجود مايلى ، السماء الاولى وكرة الكواكب الثابتة وكرة زحـل وكرة المشترى وكرة المريخ وكرة الشمس وكرة الزهره وكره عطارد وكرة القمر • أما الحادى عشر عنده «فينتهى الوجود الذى لايحتاج الى ما يوجد ذلك لوجوده الى مادة أو موضوع أصلا وهى الاشيـــاء المفارقة التى هى فى جوهرها عقول ومعقولات وعند كرة القمـــر ينتهى وجود الاجسام السماوية ، وهى التى بطبيعتها تتحرك دورا»(٢)

والعقل الاول ممكن فى ذاته واجب بغيره ، ويعقل الواحـــد كما يعقل نفسه ، فهو واحد فى ذاته ومتعدد بهذه الاعتبارات• وهنا يخطو الفارابى الخطوة الاولى نحو التعدد ، فمن العقل الاول مـن ناحية انه واجب الوجود بغيره وأنه يبقى الواحد، صدر عنه عقـل ثان ؛ ومن ناحية أنه ممكن الوجود فى ذاته وأنه يعقل نفسه ،صدر عنه الفلك الاعلى بمادته وصورته ، ذلك لان لكل فلك صورة خاصة به هو نفسه • وعلى هذا النحو تسير السلسلة الى أن تكتمل العقول

---

(١) الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٢١—٢٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤—٢٥

العشرة والافلاك والنفوس الفلكية . والعقل العاشر والاخير — أو العقل الفعال — هو الذى يحكم الارض وعنه تصدر النفوس البشرية والاركان الاربعة . وهذه العقول والنفوس متفاوتة الرتبة وأولها أسماها ، وتجىء النفوس الفلكية بعد العقول ، وتليها الافلاك وأخيرا الارض وعالم المادة فى المرتبة الرابعة . وقديما قال الاغريق بقدسية كل ماهو سماوى ، ودنس كل ماهو أرضى . وتعاليم الاسلام صريحة فى أن السماء قبلة الدعاء ومصدر الوحى وهدف المعراج وكل مافيها طاهر ومطهر . فالفارابى فى هذا يلتقى مع التعاليم الدينية والفلسفية ، الا أن صعوبته أنه استخرج عالم الارض الدنس من عالم السماوات المقدس (١) . وحينما يتحدث الفارابى عن الموجودات غير السماوية ، يرى أن ترتيب هذه الموجودات يقوم على أن « تقدم » أولا أخسها ثم الافضل فالافضل الى أن تنتهى الى أفضلها الذى لاأفضل منه ، فأخسها المادة الاولى المشتركة ، والافضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ثم الحيوان الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه (٢)

ويذهب الفارابى الى أن الموجودات قسمان : موجودات روحية وموجودات مادية . أما القسم الاول وهو الموجودات الروحية فيرتب طوائفه من الاعلى الى الاقل منه ترتيبا تنازليا فى ست مراتب على الوجه التالى (٣) .

١ — المرتبة الاولى : الكائن الاول أو السبب الاول وهو الله تعالى .

٢ — المرتبة الثانية : مرتبة العقول التسعة المحركة للاجرام السماوية .

---

(١) ابراهيم بيومى مدكور ، مرجع سابق ، ص٧٩
(٢) الفارابى ، المرجع قبل السابق ،ص ٢٨—٢٩
(٣) على عبد الواحد وافى، ١٩٧٣ ،مرجع سابق ، ص ٤٨ —٤٩

٣ ــ المرتبة الثالثة : مرتبة العقل الفعال فى الانسانية .

٤ ــ المرتبة الرابعة : مرتبة النفس الانسانية .

٥ ــ ٦ ــ المرتبتان الخامسة والسادسة : مرتبتا الهيولى والصورة ، والهيولى هى المبدأ الاول الذى به تشترك الاجسام فى كونها اجساما ، والصورة هى المبدأ الذى يعين الهيولى ويعطيها ماهية خاصة .

هذا ، والمراتب الثلاث الاول وهى مراتب الله تعالى والعقول العشرة هى فى نظر الفارابى مراتب روحية محضة ، أى لاصلة لها بالمادة مطلقا ، على حين أن المراتب الثلاث الاخيرة تتصل بالاجسام على الرغم من أنها فى ذاتها أمور روحية أو معنوية غير جرمية .وأما القسم الثانى ، وهو العالم المادى فيرتب الفارابى كذلك طوائفه من الاعلى الى الاخس ترتيبا تنازليا فى ست مراتب ، وهى التى سبقت الاشارة اليها وهى الاناس والحيوانات والنباتات والمعادن والاجرام السماوية ، والمواد الاولية المشتركة وهى الماء والهواء والتراب والنار وما جانسها كالبخار واللهب (١) .

وبهذا نرى أن تحليل الفارابى لترتيب الموجودات ، يتخذ نظرة كلية عامة شاملة . فهو ينظر الى ترتيب الموجودات السماوية وغير السماوية حسب أفضليتها كأنواع عامة يتلو بعضها بعضا ويفضل البعض منها غيره ، دون أن يذهب الى أنواع التفضيل داخل نوع محدد من تلك الموجودات مثلما فعل فى تفاضل السعادات ، وتفاضل المهن كما سيأتى . وربما يكون مرد ذلك أن ترتيب الموجودات السماوية اتخذ صورة فردية لكل كوكب ، ومن جهة أخرى يأتى ترتيب الموجودات غير السماوية متناسقا مع الترتيب الاول للاجرام السماوية

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٩

دون أن يذهب الى تحليل أوجه التفضيل داخل كل نوع من هـــذه الموجودات غير السماوية • ويستخلص من آرائه أنه يعتمد علـــى «القوة» و «الشهرة» كبعدين طبقيين فى ترتيب الموجودات • كماأن فكرة الصدور عن الله لها أصولها فى الفلسفات الاسلامية ، وكيـف اتخذ منها المتصوفـة أساسا لفلسفتهم •

الا أن ثمة بعد طبقى آخر يحاول من خلاله الفارابى أن يبـين أوجه التفضيل داخل نوع واحد ، وهو التفاضل بين الصنائع مـن حيث النوع والكمية والكيف • فتفاضل الصنائع بالنوع هو أن تفـون صناعات مختلفة بالنوع وتكون احداها أفضلمن الاخرى مثلالحياكة وصناعة البز وصناعـة العطر وصناعـة الكناسـة ومثـل صناعـة الرقص وصناعة الفقه مثل الحكمـة الخطابة • فبهـذه الانحـاء تتفاضل الصنائع التى أنواعها مختلفة • وأهل الصنائع التى مننوع واحد تتفاضل بالكمية ، أن يكون كاتبان مثلا علم أحدهما من أجزاء صناعة الكتابة أكثر وآخر احتوى من اجزائها على أشياء أقل • مثل أن هذه الصناعة تلتئم باجتماع علم شيء من الغة وشيء منالخطابة وشيء من جودة الخط وشيء من الحساب ، فيكون بعضهمقد احتوى من هذه على جودة الخط مثلا وعلى شيء من الخطابة ، أو آخـر احتوى على اللغةوعلى شيء من الخطابة وعلى جودة الخطوآخر على الاربعة كلها • والتفاضل فى الكيفية هو أن يكون اثنان احتويا مـن أجزاء الكتابة على أشياء بأعيانها ويكون أحدهما أقوى فيما احتوى عليه وأكثر دراية ، فهذا هو التفاضل فى الكيفية (١) •

ويرى الفارابى أن الطوائف تتميز بعضها عن بعض عن طريق تلك الصنائع وتفاضلها ، فى حين أن تمايز كل قبيلة عن أخـرى أو مدينة عن مدينة أو أمة عن أمة يكون عن طريق الصراع من أجـل

(١) الفارابى ، مرجع مذكور ، ص ٩٦ـ٩٧

أشياء حددها بالسلامة والكرامة واليسار والملذات كما سبقت الاشارة. بل يرجع ويشير الى أن الطوائف تتصارع أيضا فيما بينها للحصول على هذه اللذات والسعادة الناجمة عنها ، ويرى أن العدالة تكمن فى استعباد القاهر للمقهور ، وهذا هو معنى العدل الطبيعى أو الفضيلة لديه كما سبق وأشرنا .

اتجاهاته النفسية :

أدى تعمق الفارابى فى التوفيق بين الفلسفة والدين الى أن يضع نظرية فى النبوة . حيث كان الكلام فى النبوة شائعا بين مثبت لها ومنكر . وجاء الفارابى يدعى فى النبوة أمرا جديدا ، يثبتـه بالعقل الفلسفى ، ذلك أنه ربط النبوة بالاحلام ، وجعلهما يرجعان الى القوة المخيلة فى الانسان ، وربمـا أوحى اليـه بذلك الاسـلام نفسه ، فقد جعل الاسلام الاحـلام الصحيحة ارهاصا للنبـوة وفى الحديث «أول مابدأ به من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان النبى اذا رأى الرؤيا جاءت مثل فلق الصبح واضحة جلية» . والفارابى يرى أن الاحلام تابعة لاحوال النائم العضوية والنفسية ، واحساساتـه فى اليقظة ، فهى تختلف فيما بينها لاختلاف العوامل المؤثرة فيها . فاذا أرتقى الانسان واحساساته وتخيلاته ، استطاعت مخيلتـه أن تشكل أحلامه بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السمـاوات وما فيها ، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة ، وقد تصعد المخيلة الى هذا العالم وتتصل بالعقل الفعال ، وتتقبل منه الاحكـام المتعلقـة بالاعمال الجزئية ، والحوادث الفردية . وبذا يكون التنبؤ ، وبـه تفسر النبوة (١) .

وعيب هذه النظرية أنها تربط النبوة بالخيال ، كأن مايـراه النبى متخيلا . وهذا يضعف من شأن النبوة . ولكن من مزاياهـا

---

(١) احمد أمين ، مرجع سابق ، ص١٣٤

ميلها الى جعل النبوة مرتبطة بالمواهب التى لبعض الناس وهـــذا يوافق مايقوله رجال الدين من أن النبوة منحة من الله لا مكتسبة ، ومع ذلك جرى مع نظرية الفارابى هذه ابن سينا وابن رشد وبعض الشيعة فى رسائلهم ، واخوان الصفا والمتصوفة (١) .

يضاف الى موضوع الوحى والنبوة وربطه بالاحلام التى هى أحد موضوعات علم النفس ، أن الفارابى تحدث عن قوى النفس ، مهتديا بآراء افلاطون فى تقسيم النفس الى ثلاث قوى : عاقلـة وغاضبة وشهوية . كذلك حديثه عن الرئاسة والزعامة يوضح مـدى اهتمامـه بالموضوعات النفسية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥

المراجـع المستخدمـة

١ — ابراهيم بيومى مدكور ، «أبو نصر الفارابى»، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد التاسع عشر ، العـدد الثانى ، ديسمبر ١٩٥٧

٢ — أبى نصر الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تصحيح عبد الوصيف محمد الكردى، مكتبـة الحسين التجاريـة ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨

٣ — أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى : دراسة تكامليـة للنظرية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٤ — أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢

٥ — الدومييلى ، العلم عند العرب ، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، مراجعة حسين فوزى ، دار العلم ١٩٦٢ .

٦ — ت.ج. دى بور De Boer ، تاريخ الفلسفة فى الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤

٧ — عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى : حتى أيام ابن خلدون، بيروت ، ١٩٦٢

٨ — على عبد الواحد وافى ، آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى، القاهرة ، ١٩٥٠

٩ — على عبد الواحد وافى ، لمدينة الفاضلة للفارابى ، دار عالم الكتب ، ١٩٧٣

المبحث الثانـــى

عبد الرحمن بن خلـــدون

١ ـــ حياتـــــه •
٢ ـــ المنهج وموقفه من الفلسفة •
٣ ـــ وقائـــع التاريخ •
٤ ـــ الظواهر الاجتماعية •
٥ ـــ المجتمع الانسانى •
٦ ـــ السياسة والاقتصاد •
٧ ـــ الضبط الاجتماعـــى •
٨ ـــ الايكولوجيا البشرية •

عبد الرحمن بن خلـــدون

ولد ابن خلدون فى أول رمضان ٧٣٢هـ (الموافـق ٢٧ مايـــو ١٣٣٢م) بمدينة تونس . قرأ القرآن ودرس الحديث والفقه والمنطق والفلسفة على أبيه وعلى بعض علماء تونس والواردين اليهـا (١) . وفى عام ٧٤٩هـ ، حدث الطاعون فهلك أبوه وكذلك هلك بعض شيخته فلازم مجلس مشيخة أبى عبد الله الايلى ، وعكف علـى القـراءة عليه ثلاث سنين . وغادر ابن خلدون تونس ، وهو فى العشرين من عمره ولم يعد اليها الا بعد ستة وعشرين عاما تنقل خلالها بين مختلف البلدان مثل فاس وتلمسان وغرناطة والمغرب الاقصى . فكان عند بنى مرين فى فاس (٧٦٠هـ/١٣٥٩م) وعند بنى عبد الواد فى تلمسان (٧٦٣هـ) ثم عند بنى الاحمر فى غرناطة (٧٦٤هـ) . ثم انتقل الـى المغرب . ولكنه سئم التطواف والمناصب وخاف عواقب السياسة ، فآثـــر الاعتزال فى قلعة سلامة شرق تلمسان ، فمكث عند بنى العريـف أربع سنوات وبدأ كتابه فى التاريخ . ولكنه احتاج الى مواد لكتابه لم تكن متيسرة فى قلعة سلامة فذهب الى تونس (٧٨٠هـ –١٣٧٨م)

(١) ارجع فى ذلك على سبيل المثال :
— عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ ، ص ١٣ .
— ابو خلدون ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلـــدون دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤٤
— عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى الى ايام ابن خلدون المكتـــب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٥٧٧ .
قرأ القرآن على ابى عبدالله محمد بن سعد بن برال ، ودرس العربية على ابيه وعلى عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى ، وأبى عباس احمد بن القصار ، وابى عبد الله محمد بن بحر . وقرأ الحديث على شمس الدين ابى عبد الـلـه محمد بن جـابر بن سلطـان القيس الوادياشى . واخذ الفقه عن ابى عبد الله محمد بن عبد الله الجيانى وابى القاسم محمد القصير وابى عبد الله محمد بن عبد السلام . واخذ العلوم النقلية عن ابى عبد الله محمد بن ابراهيم الايلى . (عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ، ص ١٣) .

وفى سنة ٧٨٤هـ — ١٣٧٢م سار الى الحج ، ولكنه لما وصل الى مصر عرض عليه القضاء على المذهب المالكى فقبله وتأخر ذهابه الى الحج الى سنة ٧٨٩هـ • وعاد من الحج الى القاهرة وانقطع فيها للتدريس حيث عاد الى تولى القضاء • (١)

وعلى ذلك فقد عاش أكثر حياته فى بلاد المغرب ومصر ، وهو وان ولد فى تونس ، فقد درس على علماء اندلسيين وأقام فى الاندلس زمنا (٢) • حتى توفى بالقاهرة فى ٢٥ رمضان ٨٠٨هـ (الموافق ١٥ مارس ١٤٠٦م) • (٣) •

واذا نظرنا الى حياة ابن خلدون ، من وجهة تأثراته وتأثيراته الفكرية وجدنا أنها تنقسم الى ثلاثة أدوار رئيسية وذلك بعد عهد الدراسة منذ دخول الحياة العامة (٤) •

الدور الأول :

كان دور العمل السياسى فى بلاد المغرب • وقد استمر مدة تزيد على عقدين من السنين (١٣٥٢ — ١٣٧٤) •

الدور الثانى :

كان الانزواء والتأمل فى قلعة «ابن سلامة» عند أولاد بنى عريف ، واستمر أربع سنوات فقط (١٣٧٤ — ١٣٧٨) • وقلعة ابن سلامة تقع على مسافة خمس كيلو مترات من مدينة (فرندا) الحالية

---

(١) عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٥٧٨
(٢) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء الثالث ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٥
(٣) عبد الرحمن بدوى، المرجع المذكور، ص ١٣، ١٥
— عمر فروخ ، مرجع مذكور ، ص ٥٧٧ — ٥٧٨
(٤) ساطع الحصرى ، ابن خلدون ، مجلة العربى ، العدد الثامن ، ص ١١٨

بمقاطعة وهران فى الجزائر ، وأطلالها شاخصة للابصار الى اليوم .

الـــدور الثالث :

كان دور العودة الى الحياة العامة فى ميدان جديد، هو ميدان القضاء والتدريس ، واستمر هذا الدور أكثر من ربع قرن (١٣٧٨ـ ١٤٠٦) قضاها كلها فى مصر حتى توفى .

ان ظروف حياة ابن خلدون ساعدت على توسيع ملاحظاتـــه وتنمية معلوماته مساعدة كبيرة ، كما أنها أثرت فى تكوين أسلـوب تفكيره تأثيرا عميقا ، فلقد خالط الساسة والقادة ، وكان نشاطـــه عديد الجوانب ، شمل ميادين الادارة والسياسة ، الخطابة والقضاء والدرس والبحث ، التدريس والتأليف (١) . كمـــا أن العصر الـــذى عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون ــ النصف الثانى من القرن الثامن الهجرة والرابع عشر للميلاد ــ كان من عصور التحول والانتقال فى جميع انحاء العالم المتمدين المعلوم اذ ذاك : تحول وانتقال نحـو التفكك والانحطاط فى العالم العربى ، وتحمل وانتقال نحو النهوض والانبعاث فى العالم المغربى (٢) ففى ايامه بدأ ظل الدولة العربيـة الاسلامية يتقلص من الاندلس ، وكانت الثورات والفتن تعم شمال افريقيا نتيجة للتقسيمات الاقليمية ، وتفشى العصبيات النسبية . وفى المشرق كان تيمور لنك يجتاح الشام بجيوشه ويهدد العرب . بالاضافة الى ماتعرض له عرب المشرق من طغيان الاعاجم وارتقائهم الى مناصب الملك والامارة يسوسون بلاد العرب ، مما جعل العربى

---

(١) ارجع : ساطع الحصرى ، مرجع مذكور ، ص ٤٤ ـــ ٤٦

ــ محمد حلمى مراد ، «ابو الاقتصاد ابن خلدون» ، أعمال مهرجان ابن خلدون، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعيـــة والجنائيـــة، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٥.

ــ عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات ابن خلـــدون ، مرجع مذكور ، صـــ ١٣ ــ ١٥

(٢) ساطع الحصرى، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مرجع مذكـــور، ص ٥٣ .

ــ بحق ــ غريبا فى بلاده • أما الثقافة العربية فقد تأثرت بفساد الحكم وأصابها من التدهور ماأصاب جوانب المجتمع العربى الكبير (١)

ومن الواضح أن النظام الاقتصادى والاجتماعى الذى كــان سائدا فى المغرب بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر الميلاديين ، هو النظام الاقطاعى • وكان هذا النظام الطبقى محتفظاببقايا مــن النظام العشائرى المتفسخ ،وكان نظام الاقطاعيات آخذا فىالاتساع مؤديا الى فقدان مركزية الدولة ومعمقا من المتناقضات الاجتماعيــة وخاصة فى البيئات الريفية • وعلى الرغم من ذلكلم يتأثر الانتعاش الاقتصادى فى البلاد بسبب ارتباط المغرب بســوق البحــر الابيض المتوسط ، تلك السوق التى لعبت دورا رئيسيا فى تطويــر المــدن الساحلية التى كانت مراكز تسويق تجاريــة (٢) •

ومن الجانب الآخر انتشار الاسرائيليات والترجمات العربيــة للآثار الفلسفية والعلمية اليونانية والسريانية والفارسية والهندية • بالرغم من أن تلك الثقافة وصلت الى ابن خلدون ناضجة مكتملــة ، وبسبب ابتداء الثقافة العربية فى التدهور وعلم ابن خلدون بها قبل تدهورها ، كان الموجه لتفكيره ودراسته عن العمران بقصد الوصول الى تاريخ سليم (٣) • وبسبب فساد الحكم شغــل ابن خلدون فى مقدمته بدراسات تفيد فى اصلاح احوال المجتمع • وتمكن الحاكم من حسن تدبير الامور ، ولهذا السبب أيضا ، رأى ابن خلدون أن يهدى انتاجه وماوصل اليه الى السلطان ابى العباس سلطان تونس (٤) • ولهذا أيضا تريث ابن خلدون باختياره عند دراسة السنن التىتزول

---

(١) محمد عبد المنعم نور ، «ابن خلدون كمفكر اجتماعى عربى» ، اعمال مهرجان ابن خلدون ، منشورات المركز القومى البحوث الاجتماعية والجنائية ،مرجع مذكور ، ص ٨٨.

(٢) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ ، ص ٢٩١ .

(٣) حسن شحاته سعفان ، «سوسيولوجيا المعرفة عند ابن خلــدون» المرجع السابق ، ص ٢٤١ــ٢٤٢

(٤) المرجع قبل السابق ، ص ٨٨

بها الدول ، أكثر من تريثه مختارا عند دراسة السنن التى تسيطر على ظهورها ، وأدق من هذا أن يقال أنه تريث عند التنبوء الذى تلد به الدول الجديدة بخراب قديمها (١) .

فى هذا العصر الملىء بالتناقضات الحادة نشأ وعمل ابن خلدون وهو وان كان اقطاعى الانحدار الا أنه عبر فى منهاجه عن مزاج الفئة المثقفة (المتعقلة) داخل الطبقة الاقطاعية السائدة ، الفئة التى دفعها احساسها بالخطر لذى كان يهدد كيان المجتمع الاقطاعى برمته من جراء السياسة التى كانت تمارسها الزمرة البيروقراطية الحاكمة ، الى طرح برنامج سياسى يأخذ بالحسبان مصالح فئات المجتمع الاخرى وذلك فى محاولة «لتحسين» النظام الاقطاعى وتلطيف تناقضاته ، وهذا بالذات مايضفى على آراء ابن خلدون على وجه الاجمال طابعا تقدميا طليعيا ، فبالأضافة الى الاصالة العلمية التى جعلت ابن خلدون يعتبر مؤسسا لعلم جديد هو علم الاجتماع (٢) .

ولم يكتب مقدمة مؤلفه التاريخى الا وهو فى نحو الخامسة والاربعين من عمره ، بعد أن نضجت أبحاثه ومطالعاته وبعد أن خاض معترك السياسة ، وبعد أن تقلب فى خدمة القصور والدول المغربية دارسا شئونها ونظمها ، ومتقصيا سيرتها وأخبارها ، وشاهدا لاحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة . وكان لابد أن ننتظر قرابة عشرة قرون من الزمان ، لنرى بعث التفكير الاجتماعى الذى توقف منذ وفاة القديس اوغسطين ، فابن خلدون كان عبقرية لامعة فى الفكر الشرقى ، وهو يعتبر تلميذا لاستاذه ابن رشد فى الفلسفة . وقد شهد الحوادث التى أدت الى اختفاء الدول الاخيرة الاسلامية فى اسبانيا ، ومولد الفوضى التى تفشت فى شمالى افريقية ؛ وفى

---

(١) جاستون بوتول، ابن خلدون : فلسفته الاجتماعية ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ ، ص ١١٧ .
(٢) احمد الخشاب ،مرجع سابق، ص ٢٩٢ .

الشرق بوصول جيوش التتار بقيادة تيمور لنك بلاد الشام ، وعلى ذلك أثارت الحوادث التى ارتبطت بسقوط كل هذه المنظمات السياسية تفكيره وانتباهه . ولا يخفى علينا مالمؤلفه «المقدمة» من أهمية كبيرة من الناحية التاريخية والاجتماعية . ويعد انتاج ابن خلدون بداية هامة لعلم الاجتماع الوضعى ، وهو يشمل تحليلا دقيقا لمنطقة شمال افريقية برمتها ، ومازال ماكتبه فى هذا الصدد ينطبق على الهيكل الاجتماعى السائد اليوم فى هذه المنطقة من العالم (١) .

وموضوع «المقدمة» هو طبيعة العمران فى الخليقة ، وقد صدرها بخطبة الكتاب ، ومقدمة فى فضل علم التاريخ ومذاهبه وأخطاء المؤرخين . ثم تتابع الموضوع فى ستة ابواب : الاول فى العمران البشرى ، والثانى فى العمران البدوى ، والامم الوحشية ، والثالث فى الدول والخلافة والملك ، والرابع فى العمران الحضرى ، والخامس فى الصنائع والمعاش والكسب ، والسادس فى العلوم واكتسابها وتعلمها .

وقد طبعت المقدمة طبعات مختلفة ، تارة على أنها الجزء الاول من كتاب التاريخ ، وتارة على أنها ذات موضوع مستقل . وأول طبعات ظهرت للمقدمة طبعتان ، صدرتا عام ١٨٥٨ م احداهما فى مصر باشراف الشيخ نصر الهورينى ، وعنها صدرت كل الطبعات المتداولة فى العالم العربى اليوم . والثانية فى باريس باشراف المستشرق كاترمير ، وبينهما اختلاف بحيث تزيد طبعة باريس أحد عشر فصلا غير موجودة فى طبعة مصر ، وتزيد الاخيرة فصلا لم يوجد فى طبعة باريس (٢) .

---

(١) جاستون بوتول، تاريخ علم الاجتماع، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة جلال حسن صادق ، الدار القومية ، ص ٢٣ ، ٢٦ وانظر كذلك :
J.H. Abraham, The Origins and Growth of Sociology, London, 1973. p. 29.

(٢) رضوان ابراهيم ، مختارات من تراثنا : مقدمة ابن خلدون ، مراجعة احمد زكى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧ .

ومن الطبعات المتداولة طبعة بولاق ١٨٦٨م . وطبعة البستانى وطبعة المطبعة التجارية ، وطبعة التقدم ١٣٢٩هـ . وطبعة الخشاب ١٣٣٢هـ وطبعة الهيئة المصرية ، وطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة بتحقيق دكتور على عبد الواحد وافى ، وهى هامة جدا ، بدأ نشر الجزء الاول منها عام ١٩٥٧ (١) .

ان ابحاث «المقدمة» مهمة جدا ، من كلتا الوجهتين :

١ ـ المباحث الاساسية ، التى تدخل فى نطاق أغراض المؤلف الاصلية فتدور حول علم العمران، وأسس التاريخ مباشرة

٢ ـ المباحث الاستطرادية ، التى تأتى عرضا ، وتستهدف سرد بعض المعلومات العامة ، تمهيدا للابحاث الاصلية ، أو اتماما للفائدة .

فمن ناحية المباحث الاصلية : نظر بعض الباحثين الى موضوع المقدمة على أنه مختص بعلم التاريخ أو فلسفة التاريخ .وأعتقد بعضهم أنها بمثابة علم الاجتماع أو فلسفة الاجتماع .ويرى ابو خلدون ساطع الحصرى أن كل واحد من هذين الرأيين وجيه من جهة وقاصر من جهة اخرى . ويرى أن أحسن تعبير نستطيع أن نعبر به عن حقيقة المقدمة ، هو القول بأنها «مدخل اجتماعى للتاريخ» .

أما من وجهة المباحث الاستطرادية ، فان المقدمة بمثابة موسوعة ثمينة جدا ، فهى تجمع كمية كبيرة من المعلومات القيمة عن الجغرافيا والتاريخ ، ورسوم الحضارة وأصناف العلوم ، وأحوال الصنائع ، وأصول التعليم ، وعن أهم المؤلفات العلمية والادبية والآراء السياسية والدينية والفلسفية (٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨

(٢) ابو خلدون ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

المنهج وموقفه من الفلسفة :

يقوم ابداع ابن خلدون على محاولته ان يطبق على دراسة المجتمعات منهاج الترصد والمشاهدة الذى كان قد اتخذه احيانا اسلافه من أعاظم فلاسفة العرب فى مؤلفاتهم عن العلوم الطبيعية والطب • وذلك ان لم يطبق المنهاج الوضعى ، ومن الاصابة بمكان مالاحظه رينيه مونيه من أن الامثلة التى جاء بها مؤلفنا أجدر أن تعد تفاسير من أن تعد براهين ، فالاجدر أن تجد لدى ابن خلدون شعورا بموجبات النقد الصحيح والمنهج الوضعى من آن تجد ادراكا جليا لهذا المنهاج (١) •

وكذلك بسط ابن خلدون العربى الافريقى فلسفة الاجتماع قبل مونتسكيو وتارد ودوركايم من الفرنسيين الاوربيين بثلاثة قرون أو خمسة قرون (٢) • فهو فى بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين : تتمثل أولاهما فى ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع أو بعبارة أخرى تتمثل فى جمع المواد الاولية لمجموع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ • وتتمثل الاخرى فى عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الاولية ويصل بفضلها الى الغرض الذى قصد اليه م هذا العلم ، وهو الكشف عمايحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين •هذا هو قوام منهجه فى بحثه • وهو قوام المنهج الذى لايزال أساسا فى علم الاجتماع الى الوقت الحاضر (٣) •

ويصف بعض علماء الغرب ابن خلدون على أنه فيلسوف اجتماعى والواقع أنه خصص فصلا فى مقدمته لابطال الفلسفة وفساد

---

(١) راجع : رينيه مونيه ، افكار احد فلاسفة العرب الاجتماعية فى القرن الرابع عشر ، مجلة علم الاجتماع الاممية ، مارس ١٩١٥ وكذلك جاستون بوتول ، ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٧

(٣) على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن بن خلدون ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ ، ص ١٨١—١٨٢

منتحلها ، فيتقدم لذلك بالتعريف بالفلاسفة ومنهجهم المنطقى العقلى فى تعريف الكون ، وقياسهم العالم السماوى العلوى على العـالم الارضى ، وزعمهم بأن السعادة تكون بتحصيل المعرفة الكلية — وتخلق النفس بالفضائل المثالية ، واعتقادهم أن ذلك ممكن للانسان ، ولو لم يرد شرع لان الفيلسوف يرى أن يميز بين الفضيلة والرذيلـة بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود من الافعال واجتنابه للمذموم منها بفطرته (١) •

كما أنه يبطل مذهبهم فى علم الطبيعة أو الميتافيزيقا على أساس أن مسائلها لايمكن الوصول فيها الى تحقيق يرتكز على البرهـان ، ويقرر أن الاقيسة المنطقية لاتتفق فى الغالب مع طبيعة الاشيـاء المحسوسة ، لان معرفة الاخيرة لاتتستى الا بالمشاهدة والتجربـة الحسية • وعلى هذا الاساس دعا ابن خلدون الباحث فى الفلسفـة الى التزود بالتشريعات والاطلاع على امهات كتب التفسير والفقـه وعلوم العقائد فى الملل والنحل قبـل أن يخـوض غمـار المسـائل الفلسفية (٢) •

ولقد كان سائدا قبل ابن خلدون نزعتان : نزعة تخيلية يوتوبية فى تحديد صفات وخصائص المدن الفاضلة والمثالية ، ونزعة دينيـة تمثلها الآراء الاجتماعية التى انطوت عليها كل من الفلسفةالمسيحية والفلسفة الاسلامية • ولم تكن النزعة الواقعية التحقيقية مألوفـة عند معالجة العلوم الانسانية والظاهرات الاجتماعية ، ولم يرق لابن خلدون ماكان يتبعه جمهور الفلاسفة والمؤرخين من مناهج قياسيـة نظرية دون الالتجاء الى الاستقراءات الواقعية والاساليب النقديـة التحقيقية ، ولذلك فانه أعلن تشككه فى امكان الوصول الى الحقيقة

---

(١) أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٢٩٢
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ •

اليقينية بخصوص الظاهرات العمرانية عن طريق المناهج الفلسفية (١)

وبعد أن ينتقد ابن خلدون موقف الفلاسفة ومنهجهم فى المعرفة يدعو الى تلك المعرفة اليقينية الواقعية التى يمكن الوصول اليها بالملاحظة والمشاهدة والتى نستطيع أن نجد فيها وقائع يمكن البحث عن تحقيقها وبرهانها ، ويمكن الكشف عن عللها ، ولذلك فليس ابن خلدون فيلسوف على نحو ماصوره كثير من المفكرين ، وانما كان عالما يؤمن بالمنهج التاريخى العلمى القائم على الملاحظة والمشاهدة والوصف والتحليل والنقد ومحاولة التفسير (٢) •

على أن دراسة عميقة لنظرات ابن خلدون الفلسفيــة تمكن من الاستنتاج بأن الميل المادى هو الغالب فيها ، وهذا ماتؤكده الامور الاتية : (٣) •

١ — محاولة المفكر تأكيد وحدة المادة وذلك برد ظواهر الكــون المتنوعة بما فيها الانسان الى أصل واحد •

٢ — دفاعه الثابت عن وجود قوانين موضوعية تسير الطبيعــة والمجتمــع والتزامه بمبدأ الحقيقة •

٣ — انطلاقه فى نظرية المعرفة من مواقف حسية وتصورية ، ودحضه لمذهبى الشك والانا وحدى •

٤ — تأكيده الدائم على المعطيات التى تقدمها التجربة والتى تشكل الاشياء الخارجية مصدرها الاساسى •

ويعود ابن خلدون فى الغالب الى هذه الفكرة التى يجعل منها

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٢ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤
(٣) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥

ايضا ضربا من التبشير بمبادىء «المادية التاريخية» ومن قوله حرفيا: «ان اختلاف الاجيال فى احوالهم ، انما هو بأختلاف نحلتهم مـن المعاش» كما أن فلسفته السياسية توضح بالعوامل الاقتصادية الى حد بعيد • (١)

الا أن ابن خلدون كمؤمن عمد الى حـل المسألة الاولـى فى الفلسفة حلا مثاليا ، فلم يقل بقدم العالم وانما أقر بخلقه ولكنـه التزم بموقف الفلاسفة الربوبيين الذين يعتقدون بأن الله تعالى هـو العلة الاولى للكون ، خلق الطبيعة ومنحها قوانينها ثم لم يتدخل فى تطورها اللاحق • ومن هذه الزاوية انتقد ابن خلدون نظرية الحلول الصوفية ونظرية الافلاطونية المحدثة عن الفيض (٢) •

وعلى هذا الاساس ، يعالج ابن خلدون مايسميه علماء مناهج البحث المحدثون بالاوهام التى تحول دون الوصول الى الدقيقـة الموضوعية • ويحاول أن يستقصى أسبابها وعللها ، وفى مقدمتهـا التشيع للآراء والمذاهب أو الافكار الذاتية السابقة على الدراسـة الموضوعية الحيادية • (٣) .

وكان ابن خلدون يحرص على تخليص البحوث التاريخية مـن الاخبار الكاذبة وعلى انشاء أداة يستطيع بفضلها الباحثون والمؤلفون فى علم التاريخ أن يميزوا بين مايحتمل الصدق وما لايمكن أن يكون صادقا من الاخبار المتعلقة بواقعات العمران فيستبعدوا مالايحتمـل الصدق استبعادا تاما من أول الامر وتقتصر جهودهم وتحريـاتهم التاريخية على القسم الثانى وحده ، وهو مايحتمل الصدق ، أى مايمكن وقوعه من شئون الاجتماع الانسانى وحوادثه • (٤)

---

(١) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص٤٨
(٢) المرجع قبل السابق ، ص٢٩٥
(٣) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص٢٠٢ .
(٤) على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ص ١٩٥ — ١٩٦

ويمتاز ابن خلدون بأنه ركز على موضوعات معينة متزودا بالعلم لمعرفة طبائع العمران ، والتشكك والموضوعية والحيطة عند التعميم (١) وكان متبعا لعديد من القواعد المنهجية مثل : التأمل والاستقراء ، والتحقيق العلمى والتحقيق الحسى ، وسؤال الخبراء والمقارنة ، والتجربة ، والنظر فى الحوادث فى اطارها الزمانى (٢) كما كان مؤمنا بمبدأ الترابط بين الظواهر الاجتماعية على اعتبار المجتمع وحدة متكاملة . وهذا يجعلنا ننظر اليه كمبشر بالبنائية الوظيفية ، والاخذ بالمنهج المتكاملى فى العلوم الاجتماعية .

الا أن الكثير من القوانين والافكار التى أنتهى اليها ابن خلدون لاتكاد تصدق الا على الامم التى لاحظها ، وهى شعوب العرب والبربر والشعوب التى تشبهها فى التكوين وشئون الاجتماع . بل لاتصدق على هذه الامم نفسها الا فى مرحلة خاصة من مراحل تاريخها وهى المرحلة التى شاهدها أو انتهى اليه علمها . وهنا يرى الدكتور على عبد الواحد وافى أن الخطأ الذى وقع فيه ابن خلدون فى هذا الصدد يرجع الى نقص كبير فى استقراء الظواهر أو كما يقول علماء الاجتماع فى العصر الحاضر : الى نقص كبير فى جمع النماذج أو «العينات» التى تمثل مختلف المجتمعات الانسانية (٣) .

ولذا فان النتائج العامة للمقدمة تكون استقراءات ناشئة عن تأمل الاحوال التاريخية الخاصة بالدول العربية التى أسفر عنها الفتح الاسلامى ، ولاسيما دول افريقيا الشمالية ، وتحليل تلك الاحوال . بالاضافة الى أن ابن خلدون وضع فلسفة تاريخه مستندا

---

(١) حسن الساعاتى ، «المنهج العلمى فى مقدمة ابن خلدون» ، اعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ٢٠٩ — ٢١٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٨ — ٢٢٧

(٣) على عبد الواحد وافى ، ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع ، اعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٧٦ — ٧٧

فى براهينه الى اخبار مباشرة (١) •

وقائــع التاريــخ :

ويعتبر ابن خلدون من أهم مؤرخى المسلمــين ، وقــد أسمــاه بعضهم مؤسس علم التاريخ ، لانه ذهب الى أن التاريخ فرع نوعى من المعرفة يهتم بكامل مجال الظاهرات الاجتماعية للتاريخ الفعــلى ويكشف المؤثرات المختلفة التى يعمل فيها ، وباستمرارات الاسباب والنتائج ، وبالمكونات الفيزيقية والنفسية • ولم يكن التاريخ بالنسبة اليه مجرد تسجيل للحوادث ، بل وصفــا للعلاقــات الاجتماعيــة الداخلية والخارجية • ولقد شهد القرن الرابع عشر — فى العــالم الاسلامى — انحطاط الفلسفة عن المستوى العالى الذى بلغتــه فى القرون السابقة ، اذ انتشر بين الناس ضرب من عدم الثقــــة فى التأملات العقلانية وكان ابن خلدون ممن أسهموا فى هذا الارتياب، ولم يبحثوا عن أى عون يلتمسونه فى الفلسفة التقليدية • بل تراه قد التفت الى ما أعتبره حقائق التاريخ التجريبية • وقد ظــن الناس فى بعض الاحيان أنه ممن آمنوا «بالمذهب الطبيعى» وأن اشارلتــه الى القرآن الكريم بعيدا عن الاخلاص ، وأن القصد منها وقايـــة نفسه من اضطهاد المؤمنين المتحمسين — ولكن الارجح أن هذا غير صحيح فان ما كتبه كان المقصود منه أن يكون بيانا عن المادة التاريخية يكون من الدقة الواقعية بالمنزلة التى يمضى فيها فى «ظل الله» (٢) •

ومن أبدع نظراته ، نظرته الى التاريخ وأنه يجب ان يبنــى على تعليل الحوادث ومعرفة أسرارها ومطابقتها لقانون السبــب

---

(١) جاستون بوتول، ابن خلدون «فلسفته الاجتماعية»، مرجع سابــق، ص ٣٠—٣١

(٢) أ•ج ويد جرس ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ١٩٥ •

والسبب ، ولايصح أن يبنى التاريخ على مجرد النقل اذا خالف العقل (١) .

ولقد لاح أحيانا أن ابن خلدون يشير الى أن مجرى التاريخ يعتمد على ظروف البيئة أكثر مما يعتقد على المناشط الحرة للافراد ولكنه لم يظهر فيما كتب بأنه شديد التمسك بالحتمية فانه اعترف بالادوار التى يقوم بها الافراد . كمايذهب فى بعض الاحيان الى أو وجود نمط أو نموذج متكرر فى مجرى حياة الامبراطوريات (الدول) انما يرجع الى طبيعة الاستجابات البشرية ، فالدولة قد تأسست بفضل قوة بأس أحد الاجيال ، وجاء الجيل الثانى فشد أواصر بنيانها ، واستمتع بقيمها ، مع الانغماس فى اللذات . فأما الجيل الثالث ، فانه هبط الى درك الضعف حتى قهر وسقط . وقد تعقب ابن خلدون مايقوم بين تواريخ مختلف الشعوب من فروق وأرجعه الى بيئتهم الطبيعية ومناخهم وطبيعة أرضهم الى غير ذلك من العوامل ، وهو يرى أنهم على نحو مرتبط ببيئةكل منهم الخاصة تقدموا قليلا أو كثيرا من حالة ساذجة الى حال المدنية (التى يسميها العمران) . وطوروا مااختصوا به من أنواع الصفات العنصرية أو الاقليمية . وقد اضطر كل شعب — التماسا للمحافظة على بقائه ورخائه — الى استثمار كل ما أمدتهم به أرضهم وزمانهم . وأبدى ابن خلدون تقديرا عظيما لاستمرارات الاشياء آمادا معينة من الزمن . ومثل هذا النوع من التكهن الذى رأى أنه ممكن بالنسبة للمستقبل ، كان بالنسبة للاحوال التاريخية — مثلا — بدرجة كافية لاحوال الماضى والحاضر كما عرفها .

وقد أكد ابن خلدون النواحى الاجتماعية للتاريخ ، وعالج الافراد ، وماأصابهم من حظ سعيد ومحن ، بوضعهم داخل حياة

---

(١) احمد امين ، ظهر الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥ .

المجتمع الجماعية والمشتركة • ولم يستطع بداهة أن يغفل حقائق الدين فى المجتمع ، فأعار النبوة التفاتا كبيرا ، كما أعار اهتماما لتأثيرات من أتوا خبرة دينية ناشطة من الاشخاص • على أن معالجته للتاريخ لم تقم صراحة على أساس وجهة نظر «التأليهية» الاسلامية فانه لم يشر الى أن فى التاريخ عرضا الهيا ، كما لم يشغل نفسه بفكرة تدور حول هدف أقصى (١) •

وقد أعطى التاريخ تعريفا واسع المدى يجعل بين برنامجه وبين البرنامج الذى يعين لعلم الاجتماع الحديث من صلة نسب ، مايثير العجب ، قال ابن خلدون : حقيقة التاريخ خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم ومايعرض بطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (٢) •

وما تجب ملاحظته فى هذا الصدد ، بوجه خاص ، ان ابن خلدون لم يمزج وقائع التاريخ بأخبار الكهانة ، كما فعل « أبو التاريخ » هيرودوت • ولم يحاول تفسير التاريخ بتأثيرات النجوم،كما فعل جان بودان • كما أنه لم يكتف برد عوامل التاريخ الى مشيئة الله ، ولاحاول اتخاذ التاريخ وسيلة لاثبات قدرة الله ، كما فعل فيكو • مع أنه كتب ماكتبه فى هذا الصدد ، قبل جان بودان بمدة تناهز القرنين ، وقبل مونتسكيو بمدة تزيد على ثلاثة قرون ، وقبل فيكو بمدة تقرب من ثلاثة قرون ونصف • مع أن هذه القرون التى أعقبت حياة ابن خلدون ، كانت من أهم أدوار الانقلاب وأسرع عهود التقدم فى التاريخ البشرى • ولاشك فى أنه يحق لنا

(١) المرجع قبل السابق، ص ٩٥—٩٦

(٢) جاستون بوتول، ابن خلدون، مرجع مذكور، ص ٣٩ •

أن ننتقد ابن خلدون على ذكره الشيطان والشياطين فى عدة مجالات من مقدمته ، وعلى بحثه عن السحر بشىء من التفصيل فى بعض الفصول من هذه المقدمة ، نجد أنه يترتب علينا ألا ننسى أبدا أن ابن خلدون كتب ذلك فى عهد كان رجال الحكم والدين فى آوربا يقدمون على احراق المئات بل الالوف من المرضى والسحرة ، بقصد التخلص من شرور الشياطين المستولين على أبدان هؤلاء المرضى ، والمسيطرين على أرواح هؤلاء السحرة .. كما يجب علينا أن نتذكر دائما بأن عددا غير قليل من العلماء والمفكرين الاوربيين ظلوا يعتقدون بالسحر ويحبذون احراق السحرة ولايحجمون عن نشر المؤلفات فى هذه المواضيع ، حتى بعد مضى مدة تناهز القرنين على وفاة ابن خلدون (١) .

ان يد الله أو الآلهة ، التى كثيرا ماتذكر فى مؤلفات هيرودوت وفيكو وأمثالهما لم تحط من منزلتهم الفكرية . فكيف يجوز لاحد أن ينكر على ابن خلدون مكانته العلمية ، لمجرد رجوعه الى علم الله وقدرة الله فى نهاية كل بحث من أبحاثه المختلفة ، على الرغم من توسعه فى درس الحوادث الاجتماعية وتعمقه فى اظهار عواملها الطبيعية ؟ (٢) .

ويقضى الوقوف على فلسفة التاريخ لدى ابن خلدون ، بأن يرجع الى مناهجه باختصار ، وتقضى هذه المناهج بوجود صنفين من الوقائع جديرين بالاعتبار . فالصنف الاول هو الوقائع الاقتصادية والجغرافية ، ثم تأتى الوقائع النفسية التى هى نتيجة للاولى الى حد بعيد (٣) .

ولقد كانت لدى ابن خلدون — مثل فيكو فى القرن الثامن

---

(١) ساطع الحصرى ، مرجع مذكور ، ص ٣٨—٣٩
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٣) جاستون بوتول ، مرجع مذكور ، ص ٩١

عشر في أوربا ـ نظرة شبه حتمية للمجتمع البشرى ، على أساسها تحدث الوقائع وفقا لقوانين محددة سلفا • وبالاضافة الى ذلك يمكن القول بأن التاريخ يتحرك فى اشكال دائرية بحيث أن ثمة حركة دائمة فى فترات منتظمة من التضامن ذو القوة الى الضعف والعكس بالعكس • وعلى أساس وجهة النظر هذه فأن النظم الاجتماعية هى موضوع لقوانين التغير والفساد • وبالرغم من احتمال ان يرجع التغير فى الموقف الاجتماعى للجماعات الى عدد من العوامل ، فليس ثمة شيء يكمن فى الاختيار الفردى ، ولكن هناك سبب اجتماعى خالص • وهذه وجهة نظر متشائمة الى المجتمع ، اذ أن أى تقدم محكوم عليه بالارتداد (١) •

الظواهر الاجتماعية :

تناول ابن خلدون الظواهر الاجتماعية التى وسمها «واقعات العمران البشرى» أو «أحوال الاجتماع الانسانى» ؛ ويبدو مما كتبه فى «مقدمته» أنه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية • لقد عرض فى معظم البابين الاول والرابع من المقدمة للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الانسانى ، أى للنظم التى يسير عليها التكتل الانسانى ذاته ، مبينا فى الباب الاول أثر البيئة الجغرافية فى هذه الظواهر وفى غيرها من شئون الاجتماع • وهذا القسم هو ما سماه (دوركايم) بالمورفولوجيا الاجتماعية أو علم البنية الاجتماعية • وظن دوركايم ومدرسته أنه أول من عنى بدراسة مسائلها ، وأول من فطن الى خواصها الاجتماعية ، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع ، ولم يدر أن ـ ابن خلدون قد سبقه الى ذلك بأكثر من خمسة قرون (٢) •

---

(1) J.H. Abraham, op. cit., p. 30.

(٢) على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن بن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ١٥٤—١٥٥ •

ويصطنع ابن خلدون الاسس العامة لدراسة الظاهرةالاجتماعية وهو يسبق فى ذلك ولاشك جميع علماء الاجتماع الغربيين المحدثين والمعاصرين • فهو يرى أن على الباحث ألا يقبل شيئا على أنه حق ، الا بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك ، ولذلك يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة التى تتم بطريقة علمية ونقدية فى ضوء التجربة الشخصية والتجربة الانسانية بالنسبة للظاهرة المدروسة •كذلك يرى أنه ينبغى أن يعمل الباحث على اظهار مابين الظواهر والحوادث من اقتران سببى ، لان الظواهر والحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، ولابد أن يستخدم الباحث منهج المقارنة بين ماضى الظاهرة وحاضرها • أى ينبغى دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية دراسة دينامية تاريخية ، ذلك لان الظاهرة العمرانية ظاهرة متطورة متبدلة • كما أنه يحرص على أن يفسر ويعلل الظاهرة العمرانية فى حالتى استقرارها وتطورها ونموها بظاهرة اجتماعية عمرانية وفقا للاساس الذى ينادى به اصحاب المدرسة الاجتماعية الحديثة • (١)

فمن أهم الخواص التى تمتاز بها ظواهر الاجتماع الانسانى أنها لاتجمد على حال واحدة ، بل تختلف أوضاعها باختلاف الامم والشعوب ، وتختلف فى المجتمع الواحد بأختلاف العصور • فمن المستحيل أن نجد أمتين تتفقان تمام الاتفاق فى نظام اجتماعى ما وفى طرائق تطبيقه ، كما أنه من المستحيل أن نجد نظاما اجتماعيا قد ظل على حال واحدة فى أمة ما فى مختلف مراحل حياتها •وتصدق هذه الحقيقة على شئون السياسة والاقتصاد والاسرة والقضاء وسائر أنواع الظواهر الاجتماعية ، حتى ما يتعلق منها بشئون الاخلاق ومقاييس الخير والشر والفضيلة والرذيلة • فما يكون خيرا فى مجتمع قد يكون شرا فى مجتمع آخر ، وماتعده أمة ما فضيلة

---

(١) احمد الخشاب، التفكير الاجتماعى،مرجع مذكور، ص ٣٠٤–٣٠٦.

قد تعده أمة أخرى رذيلة ، وما يراه شعب مباحا قد يراه شعب غيره محظورا • وكثيرا مايختلف الحكم من الوجهة الخلقية على الشيء الواحد فى أمة ما باختلاف عصورها (١) وهذا مافطن اليه ابن خلدون ، وجعله أساس بحوثه فى علم الاجتماع وقرره فى أوضح عبارة اذ يقول : «ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحده ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال • وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول » (٢) •

كما أنه قد سبق علماء الاجتماع المحدثين الذين تكلموا عن جبرية والزامية الظاهرة الاجتماعية وما يترتب على مخالفتها أو الخروج على مقتضياتها ، من عقوبة اجتماعية • كما أنه يؤمن بمبدأ الحتمية بالنسبة للظاهرة العمرانية وبالنسبة للفلسفة التاريخية ، اذ يقرر أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة يسير عليها كل منهما فى تطوره (٣) فالحوادث الاجتماعية ليست نتيجة الصدفة البحتة أو خاضعة لاهواء الافراد • ولكنها نتيجة بواعث وقوانين ثابتة يتعين على عالم الاجتماع أن يكشف عنها • (٤) فالظاهرة الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التى تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضة وبالتالى لم يعن أحد من قبل ابن خلدون بالكشف عن هذه القوانين • فالظواهر الاجتماعية لاتشذ عن بقية ظواهر الكون وأنها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى

---

(١) على عبد الواحد وافى، عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع مذكور ،ص ١٧٧–١٧٨ •
(٢) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، البيان ص ٢٥٢ ،عن المرجع السابق
(٣) احمد الخشاب، المرجع المذكور ، ص ٣٠٧ •
(٤) على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن بن خلدون ، مرجع مذكور ، ١٩٧٢، ص ٦١

تحكم ماعداها من ظواهر الكون • كظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات • ومن ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة وضعية كما تدرس ظواهر العلوم الاخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين (١) •

وهو يرى أن المجتمع وحدة متكاملـــة تؤثر ظواهره المختلفـــة بعضها فى بعض فيجب أن نعلل الحوادث الاجتماعية تعليلا شـــاملا بالرجوع الى المؤثرات المختلفة من بيئية ودينية وسياسية الخ•وهذا يشابه مبدأ (دوركايم) الخاص بتفسير الظـــاهرة الاجتماعية بظاهـــرة اجتماعية أخرى (٢) •

المجتمـــع الانسانى :

يقوم الاجتماع الانسانى لدى ابن خلدون على أساسين بارزين: العصبية والدين ، أما جميع العوامل الاجتماعية الاخرى فهى مـــن لواحق العصبية والدين • اذ لولا العصبية والدين لما كان عندنـــا اجتماع انسانى سليم (٣) • يرى ابن خلدون أن الاجتماع الانسانى أمر طبيعى وضرورى ، فالانسان مدنى بالطبع بمعنى أنه لايستطيع أن يعيش الا فى مجتمع ، ولا يبلغ كمال ذاته الا فى جماعة ، ذلك لان شعور الفرد برغبته فى الحياة الاجتماعية شعور فطرى يدفعـــه الى محاولة الاستئناس بأخيه الانسان ، كما أن النزعة المجتمعيـــة تعتبر نزعة ارادية الى جانب أنها عاطفة فطرية ، الى الحد الـــذى يمكن أن نعتبر ابن خلدون من أنصار فكرة التعاقديـــة التى تبنـــى عليها العلاقات الاجتماعية (٤) • ويقول ابن خلدون : «الملك انما هو

---

(١) على عبدالواحد وافى، المرجع المذكور، ص ١٥٨ــ١٦٣ •

(٢) المرجع قبل السابق ، ص ٦١ •

(٣) عمر فروخ «موقف ابن خلدون من الدين ومـــن القضايا الدينيـــة» اعمال مهرجان ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٨١

(٤) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٢٩٩

بالعصبية ، والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منهـا أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جمعيا فى ضمنها ، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول • وسره ان العصبية العامة للقبيل هى مثل المزاج للمتكون • (١) أمـا عـن الضرورة الاجتماعية فتنعكس فى حاجة الافراد الى التعاون لسـد الاحتياجات الاقتصادية والدفاعية ، فالافراد لابد أن يتعاونوا من أجل الحصول على قوتهم من جهة ، ودفـع عـوادى الحيوانـات المفترسة من جهة أخرى (٢) فهل معنى ذلك امكانية اعتبـار العصبية بعدا طبقيا ؟ أم أنها مجرد عـامل مشجـع فى تكويـن الاجتمـاع الانسانى ؟ انه ينظر الى العصبية باعتبارها تكون جماعات متدرجة من حيث القوى — كما يتضح من الفقرة السابقة ، فهل معنى هذا أن ابن خلدون يجعل منها أساسا للقوة والسلطة اللتين يعدان بعد ان طبقيان هامان ؟

ووفقا لنظريته ، يتكون التضامن من خلال القرابة أو الروابط القبائلية المحكومة بايمان دينى قوى وهو قوة لاتقاوم فى المجتمع ، ويمكنها ان تعلو القوى الحربية الكبيرة العدد • (٣)

لعل قول ابن خلدون بأن «الشرف بالاصالة والحقيقة ، انما هو لاهل العصبية» (٤) يشير لنا عن قرب مدى اعتبـار العصبيـة ذات أهمية قصوى حيث تدور حولها تلك الابعاد جميعا • فهل يعنى ابـن ابن خلدون «بالشرف» هنا كلمة «المكانة Status » بلغتنا الحديثة ؟ انه يرجع الشرف الى العصبية أو القرابة ، ومع ذلك يفسر العصبية فى ضوء «الدين» باعتباره بعدا أول ، حيث يستدل بأحاديث نبوية

---

(١) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، الجزء الثانى ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٨ ، لجنة البيان العربى ، ص ٤٧٩ •

(٢) المرجع قبل السابق ، ص ٢٩٩—٣٠٠ •

3) J.H. Abraham, op, cit., p. 29.

(٤) ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٣٣ •

تدور حول الرقيق ووجوب تحرره ان كان من العصبية ووجـوب أن يكون الابن حرا ، وعليه يمكن ترجمة العصبية بلغتنا العصريـة بمفهوم «القرابة» وهو يعتبرها بعدا جوهريا فى التدرج الطبقى ، مفسرا فى ضوء «الدين» باعتباره بعدا آخـر للتدرج ومؤسسـا عليهـا « المكانـة » والقـوى والسلطة كلواحـق لهـا • ولذلك نعرض الى القوة كبعد طبقى لديه • فهو يرىأن التفاوت بينالناس يتمثل فى مدى التقرب من الملك أو «صاحب الدولة» على حدتعبيره وذلك باعتبار النسب على أساس العصبية والتناصر فى ذوى الارحام والقربى والتخاذل فى الاجانب والبعداء (١) وبهذا نراه يحدد معنى العصبية «بالقرابة»• وهو على ذلك يضع صاحب الدولة فى قمة السلم الطبقى ، بل ويرى ضرورة وجوده باعتباره وازع حاكم يرجع الناس اليه • ويشرع بحكمه فيهم فقد يكون مستندا على شرع منزل مـن عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الـذى جاء به مبلغه • وتارة الى سياسة عقلية يوجـب انقيادهم اليهـا مايتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم • فالاولى يحصل نفعها فى الدنيا والاخرة لعلم الشارع بالمصالح فى العاقبة ، ولمراعاة نجاة العباد فى الاخره • والثانيـة انما يحصل نفعهـا فى الدنيا فقط • وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب ، وانما معناه عند الحكمـاء مايجب ان يكـون عليه واحـد من أهـل ذلك المجتمع فى نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسـا • ويسمون المجتمع الذى يحصل فيـه مايسمى من ذلك «بالمدينـة الفاضلة» ، والقوانين المراعاة فى ذلك «بالسياسة المدنية» (٢) •

ويرى ابن خلدون انه متى تحققت الضرورة الاجتماعية عنـد الناس وتعين الافراد فى سبيل اتمـام حكمة اللـه فى بقـاء الجنس

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، مرجع مذكور ، ص ٥٠٨
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧١١•

البشرى والمحافظة على نوعه ، تحقق لهم ضرورة قيام السلطـة فى المجتمع حتى تنظم علاقاتهم تنظيما يكفل استقرار المجتمعواستمرار بقائه . ويتجسد قيام السلطة فى قيام الملك .. ثم انه يشبه المجتمع الانسانى فى حاجته الى الملـك والرياسـة ببعض التجمعـات دون البشرية ، فيذكر لنا أنه فى جماعات بعض الحيوان العجم ـ كالنحل والجراد ـ ما استقرىء فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنها فى خلقه وجثمانه . غير أنهلايلبث أنيميز المجتمع البشرى عن غيره من الجماعات الحيوانية بأن الاخيرة انمـا تتجمع بفعل الفطرة وبمقتضى الهداية ، اما المجتمعاتالبشرية فأنها تحكمها الفكرة والسياسة وآية ذلك أنه يرى أن لمثل هذه المجتمعات قوانين ثابتة تسير عليها فى تطورها (١) .

وهنا يشير الى آراء افلاطون فى «الجمهورية» والـى آراء الفارابى فى كتابـه «آراء أهل المدينة الفاضلـة» غير أنـه يلاحظ أن كليهمـا قد رأى ضرورة وجـود رئيس أو رؤسـاء ووجـود حكومة لمدينته ، خلافا لما يوهمه كلام ابن خلدون فى هذه الفقرة ، فكل منهما يرى أنه ينبغى ان يكون أهل المدينة الفاضلة على درجـة عالية من كمال الاخلاق ، وان يكونوا صورة من رئيس المدينة نفسه. وأفراد هذا شأنهم لن يكونوا فى حاجة كبيرة الى وازع حاكم،وبذلك يمكن التوفيق بين ما يقرره أصحاب المدن الفاضلة وما يقرره هنـا ان خلدون ، أو ما يتبادر الى الذهن من عباراته (٢) . ويورد ابـن خلدون ماكتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر من وصايـا

(١) احمد الخشاب، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠١ وفى هذا يتلمس ابن خلدون هذه القوانين والعلل . ويعتقد أن سلسلة الاسبابوالمسببات لابد أن تنتهى الى علة أولى ، ولايمكن أن يذهب التسلسل الى غير نهاية أن تنتهى الى علة أولى ، ولايمكن أن يذهب التسلسل الى غير أثبات وجود الله (نفس المرجع المذكور ، ص ٣٠١).

(٢) عن حاشية على عبد الواحد وافى ، مرجع سابق ، ص ٧١١—٧١٢

تختص بجميع مايحتاج اليه فى دولته وسلطانه من الاداب الدينيـة والخلقية والسياسية والشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عن ملك ولا سوقه (١) •

اذ يقول :«وأقم بالعدل فى سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب، وآثر الحلم والوقار واياك والحدة والطيش والغرور فيما انت بسبيله ، واياك ان تقول أنا مسلط أفعل ماأشاء فان ذلك سريـــع الى نقـــص الرأى وقلة اليقين بالله عز وجل » (٢) •

وفى مواضع اخرى من «المقدمة» يستخدم ابن خلدون مفهوما آخر هو «الجاه» ليشير به الى «الشرف» كذلك • واذا كان (الشرف) لدى ابن خلدون مرتبطا بالقرابة أو بالدين ، فان الجاه مرتبط بالمال أو بالعامل الاقتصادى ، فتتحدد «المكانـــة الاجتماعية» عن طـــريق مالدى الانسان من «مال» «وجاه» وفى هذا يقول : «اننا نجدصاحب المال والحظوة فى جميع اصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه • والسبب فى ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقـــرب بها اليه فى سبيل التزلف والحاجة الى جاهه • فالناس معينون لـــه بأعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورى أو حاجى أو كمالى ، فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه » (٣) ويذهب ابن خلدون الى مصـــدر المال فيرى أنه قد يكون بالميراث من الآباء وذوى الرحـــم ، أو أن يكون من التجارة فى الاسواق • (٤) ولعل هذا الاقتباس يوفى بما عرضناه فى هذا الصدد ، «كل طبقة من طباق اهل العمران فى مدينة

---

(١) المرجع السابق، ص ٧١٠٢ ومابعدها .
(٢) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، شركـــة فن الطباعة ، القاهرة ، ص ٣٠٦
(٣) المرجع قبل السابق ، ص ٩٠٧ جـ ٣ •
(٤) المرجع السابق ، ص ٨٦٩ جـ ٣ •

أو اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق ، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من أهل الطبقة التى فوقه ، ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه .والجاه على ذلك : داخل على الناس فى جميع ابواب المعاش ، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه ، فان كان الجاه متسعا كان الكسب الناشىء عنه كذلك : وان كان ضيقا قليلا فمثله . وفاقد الجاه وان كان له مال فلايكون يساره الا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيبا فى تنميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة فى الغالب ، وأهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم ، فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة فى الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة (١). واذا كان «الجاه» هو المحدد لطبقات الناس ووضعهم على السلم الطبقى ، فان ابن خلدون يضع الملوك «الذين ليس فوقهم يد عالية» فى اعلى مراتب السلم الطبقى ،وفى أسفل المراتب يضع «من لايملك ضرا ولانفعا» (٢) ومع ذلك ، فان الاجتماع الانسانى لايوجد ولايستمر فى الحياة بدون تعاون ، ويرى أن هذا التعاون لايحصل الا بالاكراه وحمل افراد عليه . فالانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه الى أشده الى كبره (٣) .

وعلى ذلك نراه يربط بين مختلف العوامل التى تحدد المكانة الطبقية من عوامل اقتصادية أو قرابية أو دينية أو عامل مراكز القوى . كما يرى أن فى الناس طبقات يفضل بعضها بعضا فى الاستعداد الشخصى للتأثير فى نفوس الاخرين وللاطلاع على الغيب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ج٣ ، مرجع سابق ، ص ٩١٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠٩.
(٣) المرجع السابق ، ص٨٩٣.

كالسحرة وعاملى الطلسمات والانبياء (١) .

بيد أن ثمة عامل آخر له من الاهمية ما للمكانة الطبقية من أهمية ، وهو «المهنة» . ففى انحاء كثيرة من «المقدمة» نجده يعدد المهن والصنائع وكيفية علو احداها على اخراها ، ودنو الاخرى عن الاخرى . فمن ناحية يصنف الامم بتفريق مابينها وفق أطر الانتاج . فيضع فى المرتبة الاولى حياة الحضر مع مختلف الصنائع ، ثم يجىء الزراع المجتمعون فى القرى والمقيمون بالبلدان السلهية أو البلدان الجبلية واخيرا يأتى البدويون (٢) وكذلك نراه يتكلم عن الفلاحة والتجارة (٣) ، والصنائع وخاصة البناء والحياكة والطب والكتابة والغناء والحساب (٤) . بالاضافة الى تصنيفه للقائمين بأمور الدين من القضاء والتدريس والامامة والخطابة والآذان . (٥) . هذا ويعتبر ابن خلدون «التعليم» صناعة ضمن الصنائع التى تنشأ فى المجتمعات ، ويرى أن هذه الصنائع تنشأ تدريجيا فى أى مجتمع لكونها ضرورية لحياة الافراد فيه ، فتنشأ أولا الصنائع «البسيطة الاساسية التى لاغنى عنها فى الحياة كالفلاحة والبناء ومااالى ذلك ، وتليها بعدذلك الصنائع الكمالية (المركبة) التى لاتنشأ الافى المجتمعات المتحضرة ومن هذه الصناعات الغناء والفنون وتعليم العلم » (٦) .

وبهذا فطن ابن خلدون لمبدأ التدرج الطبقى ، حيث ذكر تحت عنوان «القائمون بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة

---

(١) عمر فروخ ، موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية اعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٣٧٥ .
(٢) جاستون بوتول ، ابن خلدون ، مرجع مذكور ص ٩١٤—٩١٥
(٣) المقدمة ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٩١٤—٩١٥
(٤) المقدمة ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٩٣١ ومابعدها .
(٥) المقدمة ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩١٣ .
(٦) فتحية سليمان «الاتجاهات التربوية فى مقدمة ابن خلدون» اعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ٤٣٣ .

والخطابة ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم» أن الكسب قيمة الاعمــال ، وكلما كانت الاعمال ضرورية فى العمران كانت قيمتها أعظم •والقائمون بأعمال التدريس وماشابهها فى نظره لاتضطر اليهم العامة اضطرارا وهم بشرف مركزهم أعزة على الخلق ، الامر الذى لايجعل جزاءهم المادى كبيرا بالنسبة للمجهود الذى يقومون به (١) •

السياسة والاقتصاد :

ويعتبر ابن خلدون رائدا لاصحاب المدرسة الاقتصاديةويمتاز عنهم بأنه لم ينظر الى الحقيقة الاجتماعية من هذه الزاوية وحدها ويذهب ابن خلدون فى الربط بين العوامــل الاقتصادية مذاهب شتى تدل على ادراكه لاهميتها • ولكنه لم يغل فى هذه الاهمية كمغالاة اصحاب المدرسة الاقتصادية الوحيدة الذين جاءوا بعــده بعــدة قرون (٢) يقول ابن خلدون : «ان اختلاف الاجيال فى أحوالهم انمــا هو باختلاف غلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم انماهو للتعــاون على تحصيله» •

ويجعل ابن خلدون العمل أساسا لقيمة الاشياء فى المجتمعوهو يقترب فى هذا من النظريات الاشتراكية فيماذهب اليه من رأى اذ هو يرى أن العمل ضرورى فى كل مكتسب ومتمول • وهذا واضح بالنسبة لحصول الصناع على الاموال اذ لايكون ذلك الا بالجهــد وكذلك مايقتنى من الحيوان أو غيره لابد فيه من العمل أيضا حتى تتحقق المنفعة به • ثم ان الفرد لابد له من العمل حتى يمكنــه الحصول على ما يريده من مقتنيات (٣) •

---

(١) محمد عبدالمنعم نور ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ •
(٢) محمد عبدالمنعم نور ، «ابن خلدون كمفكر اجتماعى عربى» ، اعمــال مهرجان ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ٩٣ •
(٣) احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى ، مرجع مذكور ، ص ٣١١ •

وليست الايضاحات الاقتصادية التى يبديها ابن خلدون كل مافى الامر فهو لايرد اليها مجموع الوقائع ، وهو يدرك جيدا أن من العوامل الادبية مايسبقها وهو من هذه الناحية ليس ماديا خالصا مطلقا ؟ (١) .

كماأنه يفسر التطور الاجتماعى على أساس اقتصادى فهو يحدثنا عن حالات متعاقبة لحياة المجتمع . تتدرج من البساطة الى التعقيد من ناحية البنية والتركيب . وهذا التدرج فى نفس الوقت يقابل تطور المجتمعات فى طريقة استغلال موارد البيئة الطبيعية ، وطرق المعيشة الاجتماعية . ويؤكد ابن خلدون ان لكل مستوى اقتصادى طبائعه وأخلاقه ، فالبدو بصورة عامة أقرب الى الشجاعة والتضامن والعصبية والاخلاق الحميدة ، والحضر أقرب الى الرفاهية والتأنق وأبعد عن تلك الخلائق المحمودة (٢) .

ومما لاشك فيه ان ابن خلدون قد آمن بمبدأ الحرية فى بعض تطبيقاته ، ويتجلى ذلك بشكل واضح فى ناحيتين : الاولى هى الناحية الاقتصادية حيث ذكر بشكل واضح أن الدولة يجب أن تمتنع عن التدخل فى شؤون التجارة ومايتعلق بها من نشاط اقتصادى هو بطبيعته فردى ، والثانية هى الناحية الثقافية حيث قال صراحة بأن لتعليم يجب ألا يخضع الى الاكراه والتوجيه لان ذلك فيه أضرار بالثقافة والمثقفين . (٣)

أما أهم مايبرز ابن خلدون فى تفسيره للظاهرة الساسية «التبعية» على أننا قبل أن نعرف مدلولها ، وكيف يربط ابن خلدون بين تلك

---

(١) جاستون بوتول، ابن خلدون، مرجع مذكور، ص ٥٣ .
(٢) المرجع قبل السابق ص ٣١٢–٣١٣ وكذلك المقدمة ص ٢٥،٢٦، ٣٣٥،٣٤٤، ٣٤٥، ١٠٤
(٣) جامد ربيع ، «فقه السياسة فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» اعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ٢٨١ .

الحقيقة والظاهرة السياسية ، يجب أن نسرع منذ الان لنذفر حقيقة كثيرا ماتمخض على أذهان مفسرى ابن خلدون وهى أن الفيلسوف العربى لم يقدم تلك الفكرة لتفسير مصدر الظاهرة السياسية ، وأنما هو قدمها لتفسير تطور الظاهرة السياسية (١) ٠

غير أن ابن خلدون لم يكتف بمثل ماصنع معظم القائلين بالمساواة من منظرى المسلمين ، فيقيمها على براهين لاهوتية ويؤكد كون جميع المسلمين متساوين أمام الله ٠ وأنما حل هذه المسألة حلا مبتكرا ، فلنذكر أن دليله يشتمل على نقطتين أساستيين وهما (٢)

١ — أنه يؤكد ان جميع الناس يولدون متماثلين عقليا ، فلايتغيرون بغير مايعطون من تربية ٠

٢ — انه حين يريد وضع نظرية ايجابية عن الحسب ، لايقيم هذه النظرية على المولد ، بل على ذلك النوع من التضامن الذىأطلق عليه أسم «العصبية» ٠

ولم ترد كلمة السلطة فى مقدمة ابن خلدون على أن المؤرخ العربى استعاض عن تلك الكلمة باصطلاح آخر أكثر تعبيرا عن موقفه الصياغى من ظاهرة الاكراه السياسى ٠ فهو يتحدث فى الفقرةالثانية عشر من الفصل الثانى من الكتاب الاول عما يسميه «الرياسة على أهل العصبية» وهو يقصد بذلك حق التوجيه القيادى ، اى يتعرض لظاهرة السلطة ، ولكن فقط من ناحيتها الايجابية ، أى من ناحية الحق فى التوجيه والقيادة ، لامن جهة المحكوم ، انماعضو الجماعة السياسية ٠ ثم يعود بعد ذلك الى أن يعبر عن فكرة النظام،أو بعبارة أدق عن مجموعة القواعد النظامية التى تحدد السلطات العامة سواء

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٣٠

(٢) جاستون بوتول ، ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية ، مرجع سابق، ص ١٢٢ ٠

من حيث الوصول اليها ، أو من حيث اختصاصات (الفصل الثالث من الكتاب الاول) على أنه يعود فيستخدم لفظ «الدولة» لابمعنى التنظيم أى الاطار النظامى الشكلى الذى يحدد الاوضاع القانونية من الوجهة الجامدة التصاعدية ، بمعنى الظاهرة السياسية كحقيقة ديناميكية تنصهر فيها الناحية النظامية لتصير هذه عنصرا من عناصر التقدير فى الاوضاع المتطورة • عندما يتحدث فى الفقرة الرابعة عشر (من الفصل الثالث) عما يسميه «الاعمار الطبيعية» قاصدا بذلك فكرة الدورات التاريخية • ورغم أنه حتى هذه اللحظة يمكن القول بأنه على هذا النحو ميز بين السلطة فأسماها «الرياسة» والظاهرة السياسية فعبر عنها بكلمة «الدولة العامة» على انه سرعان مايعود عقب عدة صفحات فيتحدث عن «حقيقة الملك» مستخدما كلمة «الملك» بمعنى السلطة • على أنه يلجأ الى كلمة «السلطان» بعد ذلك للتعبير عن صاحب السلطة ، وعقب ذلك بعدة أبواب يستخدم كلمة «السلطان» كمرادف لكلمة الدولة (١) •

ومع ان ابن خلدون يرى أن «المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لمافيها من النصرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه» الا انه يرى أن «الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا • وقل ان يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه ، فتقع المنازعة وتقضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشىء منها لا يقع الا بالعصبية» • ويرى ابن خلدون انه باستقرار الدولة فقد تستغنى عن العصبية (٢) •

ومن ناحية أخرى فهو يرى أن فى الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك ، اصلها الدين اما من نبوة أو دعوة حق • فهو يقول

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٢٧٥ .
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٢ ،مرجع مذكور، ص ٤٦٠—٤٦٤

«وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب ، والتغلب انما يكون بالعصبية واتفاق الاهواء على المطالبة • وجمع القلوب وتأليفها انما يكـــون بمعونة الله فى اقامة دينه • وسره ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف ، و اذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس ، وقل الخلاف • وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة • لذلك ، فعظمت الدولة (١) •

فالدولة عند ابن خلدون «قوة» وعلى قدر احتفاظها بهذه القوة وتزكيتها ، يكون بقاؤها فى حلبة الصراع الدولى • وفى المقدمـــة الاولى للفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشرى ، كشف عمايدين به ابن خلدون للمنهج التقليدى اليونانى المـوروث عـن افلاطـون وارسطو فى تبرير قيام الدولة ووجودها • ويكاد ابن خلدون فى سياق حججه عن ضرورة قيام المجتمع والدولة فى هذا المجال يـردد نفس الحجج الاجتماعية والفلسفية التى نراها فى صدر كتاب الجمهوريـــة لافلاطون والسياسة لارسطو والمدينة الفاضلة للفارابى (٢) •

أما عن ادارة الدولة ، يقول ابن خلدون : «واعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على امـره • الا أن الحاجة فى أول الدولة الى السيف مادام أهلها فى تمهيد أمرهم أشـــد من الحاجة الى القلم ، لان القلم فى تلك الحال خادم فقط • منفـذ للحكم السلطانى ، والسيف شريك فى المعونة • وكـذلك فى آخـــر الدولة حيث تضعف عصبيتها ويقل اهلها بما ينالهم من الهرم •وبعد استقرار الدولة يتفوق القلم على السيف » (٣) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦٦ •

(٢) محمد عبد المعز نصر ، فى الدولة والمجتمع ، مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٦٣ ، ص ٣٩—٤٠ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣٣ •

الا أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه ،ويستدل ابن خلدون على ذلك بقوله : «وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على اهله زى الحمية وجند السلطان فى الاكثر لانهـم الغالبون لهم » (١) •

ومن حيث نظم الحكومات ، يرى ابن خلدون أن الحكومـات أنواع مختلفة من أهمها الحكومة الطبيعية ، وهى التى يتولاهارئيس واحد مستبد • وهذه الحكومة لاتقوم فى تكوينها فلسفة بشريـة ولاحكمة الهية ، وهناك الحكومة الدينية وهى خير حكومة اذ تستند على القوانين الصادرة من عند الله ، وهى خير ضمـان لسعـادة الانسان فى الدنيا والاخرة (٢) •

الضبط الاجتماعى :

ان الضبط الاجتماعى أو «الرقابة الاجتماعيـة» كما يطلق عليـه إحيانا ابن خلدون ، هى كافة الجهود والاجراءات التى يتخذها المجتمع أو جزء من هذا المجتمع لحمل الافراد على السير على المستوى العادى المألوف المصطلح عليه من الجماعة دون انحراف أو اعتداء • وقـد فطن ابن خلدون فى مقدمته لاهمية الضبط الاجتماعى ، وانه اساس الحياة الاجتماعية وضمانا لامنها واستمرارا لبقائها •

يقول ابن خلدون : «ان الاجتماع للبشر ضرورى ، وهـو معنى العمران الذى نتكلم فيه ، وأنه لابد فى الاجتماع من وازع حـاكم يرجعون اليه •• وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزلمن عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الـذى جاء به مبلغه ، وتارة الى سياسة عقلية يـوجب انقيادهم اليهـا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥١.
(٢) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، المدخل فى علم السياسة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٣

مايتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم» (١)، ويقول فى موضع آخر : «ان الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون فى كل اجتماع الى وازع حاكم يزع بعضهم عن بعض» (٢) • كما يقول : «ان السياسة القلية التى قدمناها تكـون على وجهـين : احداهمـا يراعى فيها المصالح على العموم ، ومصالح السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة فى هـذه تبعا ، وهذه السياسة التى يحمل عليها أهل الاجتماع التى لسائـر الملوك فى العالم من مسلم وغيره ، الا ان ملوك المسلمين يجرون منها علـى ماتقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهودهم ،فقوانينها اذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين فى الاجتماع طبيعية،وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع اولاثم الحكماء فى آدابهم والملوك فى سيرهم » (٣) •

ان نقطة الانطلاق فى نظرية ابن خلدون هى كون المجتمع عبارة عن ظاهرة طبيعية ، حتى انه يشير الى العلل الاصلية التى تجعـل الناس يتحدون المعيش مجتمعين • وكذلك يضيف عوامل الامن التى تحمل على اجتماع الافراد قبائل ، أو على اجتماعهم فى المدن،حتى يستطيعوا دفع العدوان عن أنفسهم • وأخيرا لابد للناس من سلطة ، لابد لهم من حكومة ، وهذا من ميزات النوع البشرى (٤) •

ويبرر ابن خلدون ضرورة وجود أداة للضبط الاجتماعى بالنسبة لبشر اذ يقول : «ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفـع بعضهم عـن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم • وليست السلاح التى جعلت

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجاريه، القاهرة ص ٣٠٢ •
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٩ •
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ •
(٤) جاستون بوتول ، ابن خلدون ، «فلسفته الاجتماعية» مرجع سابق ، ص ٤٧ •

دافعة لعدوان الحيوانات عنهم كافية عن دفع العدوان عنهم ، لانها موجودة لجميعهم ، فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم علـى بعض ، ولايكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مـداركهم والهاماتهم ، فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهـم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لايصل أحد الى غيره بعدوان • وهذا هو معنى الملك • وقد تبين لك بهذا أن للانسان خاصة طبيعيـــة ولابد لهم مهنا » (١) •

من تلك الاقوال عند ابن خلدون يتضح ان الناس فى حاجةالى الضبط أثناء تفاعلهم بعضهم مـع البعض • ولذلـك نراه يؤكد فى مواضع عدة الحاجة الى الضبط الاجتماعى • ويتكلم ابن خلدونعن الضبط الاجتماعى الذى يتأتى عن طريق القانون ، والضبط الداخلى الذى ينجم عن الدين والشرع ، وكذلك الضبط الاختيارى الـذى ينبثـق مـن الضمير •

ويجعل ابن خلدون من الضبط الاجتماعى ظاهرة ملزمة بالنسبة للمجتمع ، وأن الانسان سياسى بطبعه ، أى انهيحتاج الى منيضبط سلوكه الاجتماعى بقوة قاهرة حتى لايبغى أحد على غيره • كما أنه ينظر الى الضبط الاجتماعى نظرة اجتماعية نفسية نفعية ، فيرى أن الضبط لازم للحياة الاجتماعية وهو فى الوقت ذاته ناجم عن خاصـــة طبيعية فى الانسان ،وأن فائدته المحافظة على المصلحة العامةللافراد فى المجتمع ، وعلى مصلحة الحاكم فى استقامة حكمه (٢) •

ويتكلم ابن خلدون عن قوة الدولة والحكومة وسلطة القانـون اذ يقول : «فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفـع

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٤٣ .
(٢) حسن الساعاتى ، علم الاجتماع القانونى ، دار المعرفة ، القاهرة، ١٩٦٠ ، ص ٨١.

الحكام والدولة بماقبضوا على أيدى من تحتهم من الكافة ان يعتمد بعضهم على بعض أو يعدو عليه . فهم مكبوحـون بحكمة القهـر والسلطان عن التظالم (١) وبذلك نراه يضع «القوة» فى المـدن فى يد الدولة والحكومة ولايرجعها الى الافراد أنفسهم ، أو مانسميـه بالعـرف .

ويستطرد ابن خلدون فيتكلم عن صفات الحاكم أو من يدلـى برأيه فى عقاب الفرد أو اثابته فيقول : «وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقـوه ولاتعطـل ذلك ولاتتهاون به ولاتؤخر عقوبة أهل العقوبة . فان فى تفريطك فى ذلك مايفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقـم لك مروءتك » (٢) . ويقول فى موضع آخر : «وانعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى . وأملـك نفسـك من الغضب وآثر الحلك والوقار ، واياك والحدة والطيش والغـرور فيما أنت بسبيله » (٣) .

هكذا نراه يتكلم عن الضبط الاجتماعى ـ أو الرقابة الاجتماعية ـ وحاجة الناس اليه ، وكيفية تحقيقه اما بالشرع واما بالقانون ، ومن ناحية اخرى يتكلم عن سمات الحاكم وخصائصه بما ينبغى أن ينحو نحوه تجاه الكافة .

الايكولوجيا البشرية :

وجه ابن خلدون مزيد عنايته الى دراسة مظاهر التفاعل بـين الانسان والبيئة الطبيعية . وقد تعرض لاظهار أثر العامل الجغرافى

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة، مرجع مذكور، ص ١٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

على المظهر العمرانى فى أكثر من موضع ، ففسر كثرة العمران وازدياد السكان بالظروف المناخية ، وتأثير المعتدل من الاقليم والمنحرف منها فى الوان البشر والكثير من أحوالهم • ويقرر أن الاقاليم المعتدلة يكون سكانها أعدل أجساما وأخلاقا وأديانا ، بل أنه يؤكد أكثر من ذلك أثر المناخ فى أحوالهم المعيشية (١) •

ويحدثنا ابن خلدون عن اشكال التجمع الانسانى ، والنظم التى تسير عليها الجماعات البشرية فى انشاء مواطن التجمع كالقرى والمدن والامصار ، ويهتم بما يجب مراعاته وتوافره فى أسس العمران (٢) •

ويرى أن الدولة تمر بثلاث مراحل خلال نموها ، وأن اعمار الدول فى الغالب لاتعدو أعمار ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشوء الى غايته • الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد فلاتزال بذلك حدة العصبية محفوظة فيهم • والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ، ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك فى المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر حدة العصبية بعض الشيء • والجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته بما ينفقوه من التعليم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة » (٣) •

وبهذا يتطور المجتمع من البداوة الى الملك ثم الحضارة ثم حالة

---

(١) أحمد الخشاب ، مرجع مذكور ، ص ٣٠٨.
(٢) أحمد الخشاب ، ص ٣١٠.
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٨٥—٤٨٦

الفساد أو الخراب أو الانقراض أو الانحلال أو الهزم (١) وبهـذا ـ أيضا ـ تصبح «الحضارة هى نهاية العمران وخروجه الى الفساد ، ونهاية الشر والبعد عن الخير • فقد تبين ان أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر » (٢) •

وهذا التغير ضرورى ولازم لكل المجتمعات ، حتى أن الدولة لايمكن أن تبقى طول زمنها على حال واحدة ، بل أنها تتطور • وهذا التطور فى رأيه يخضع لنظريتين : الاولى ويمكن أن تسمى نظرية «عمر الدولة» والثانية يمكن أن تسمى «نظرية الحسب» (٣) •

---

(١) عبد العزيز عزت ، «تطور المجتمع البشرى عند ابن خلدون» فى ضوء البحوث الاجتماعية الحديثة » أعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٥ — ٥٥

(٢) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، ج٢ ،مرجع سابق ، ص ٤١٥ •

(٣) بطرس بطرس غالى، ومحمود خيرى عيسى، مرجع مذكور، ص١٨٢

المراجـع المستخدمة

١ـ أبو خلدون ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ .

٢ ـ أ.ج. ويد جرس ، التاريخ وكيف يفسرونـه ، ترجمـة عبـد العزيز جاويـد ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٣ .

٣ـ أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظريـة الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٤ ـ أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء الثالث ، مكتبـة النهضـة المصرية ، ١٩٥٣ .

٥ ـ السيد محمد بدوى ،مبادىء علم الاجتماع ،دار المعارف بمصر، ١٩٧٢ .

٦ ـ بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخـل فى علم السياسـة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ .

٧ـ جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة غنيم عبـدون ومراجعة جلال حسن صادق ، الدار القومية للطباعة والنشر .

٨ـ جاستون بوتول ، ابن خلدون : فلسفته الاجتماعية ، ترجمـة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة . ١٩٥٥ .

٩ـ حامد ربيع ، «فقه السياسة فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»، أعمال مهرجان ابن خلدون ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٠ ـ حسن الساعاتى ، علم الاجتماع القانونى ، دار المعرفـة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١١ـ حسن الساعاتى «المنهج العلمى فى مقدمة ابن خلدون» ، أعمال مهرجان ابن خلدون ، منشورات المـركز القومـى للبحـوث الاجتماعية والجنائية ، القاهـرة ، ١٩٦٥ .

١٢ـ حسن شحاته سعفان ،«سوسيولوجيا المعرفة عند ابن خلدون» اعمال مهرجان ابن خلدون ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٣ـ رضوان ابراهيم ، مختارات من تراثنا : مقدمة ابن خلدون ، مراجعة أحمد زكى ، دار احياء الكتب العربية ،القاهرة، ١٩٦٠

١٤ـ عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات ابن خلدون ، منشورات المركـز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، دار المعارف بمصر،١٩٦٢

١٥ـ عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهـرة .

١٦ـ عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، تحقيق على عبد الواحـد وافى ، لجنة البيان العربى ، الجزء الثانى ، ١٩٥٨ .

١٧ـ عبد العزيز عزت «تطور المجتمع البشرى عند ابن خلدون فى ضوء البحوث الاجتماعية الحديثة» ، اعمال مهرجان ابنخلدون

١٨ـ على عبد الواحـد وافى ، «ابن خلـدون أول مـؤسس لعلم الاجتماع» ، أعمال مهرجان ابن خلدون .

١٩ـ على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن بـن خلدون ، الهيئـة المصريـة العامة للكتـاب ، ١٩٧٥ .

٢٠ـ عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى : حتى أيام ابن خلـدون ، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ .

٢١– عمر فروخ ، «موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية» ، أعمال مهرجان ابن خلدون .

٢٢– فتحية سليمان ، «الاتجاهات التربوية فى مقدمة ابن خلدون» ، أعمال مهرجان ابن خلدون .

٢٣– محمد حلمى مراد ، «أبو الاقتصاد ابن خلدون» ، أعمال مهرجان ابن خلدون .

٢٤– محمد عبد المعز نصر ، فى الدولة والمجتمع ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

٢٥– محمد عبد المنعم نور ، «ابن خلدون كمفكر اجتماعى» ، أعمال مهرجان ابن خلدون .

26 — J.H. Abraham, The Origins and Growth of Sociology, London, 1973.

المبحـــث الثالـــث

أحمد بن على المقريـــزى

١ ـــ حياتـــه ٠
٢ ـــ المؤثرات الفكرية ٠
٣ ـــ مؤلفات المقريزى ٠
٤ ـــ التدرج الطبقـــى ٠

المقريـــزى

ولد احمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م) بالقاهرة ، فى أسرة معروفة بالاشتغال بالعلم . ويبدو أن أباه كان رقيق الحال فكفله جده لامه واسمه ابن الصايغ الحنفى . (١) .

نشأ المقريزى على مذهب جده — الحنفية — حتى اذا ما تـوفى جده سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) تحول المقريزى الى المذهب الشافعـى . واتجه الى الدراسة التقليدية لابناء طبقته الفكرية الوسطى ، وهى دراسة علوم الدين من حفـظ القرآن ومعرفة النحو ودراسة الفقـه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الاخرى مثل التاريخ وتقـويم البلدان (٢) .

وفى عام ١٣٨٨م التحق المقريزى بديوان الانشاء بالقلعة موقعا (كاتبا) ثم عين نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قـاضى قضاة الشافعية . ثم صار اماما لجامع الحاكم ، فمدرسا بالمدرسـة المؤيدية .

ونظرا لموهبته وعلمه ، حظى اهتمام الحكام والسلاطين ومنهم السلطان برقوق الذى ولاه وظيفـة المحتسب فى القـاهرة والوجـه البحرى سنة ١٣٩٨م ، فانتقل بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم الى دائرة الادارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع ،ولاسيما أربـاب الاسواق والمتاجر ، وأصحاب المهن والصناعات (٣) على أنه يبـدو أن

---

(١) وفى رواية اخرى انه ولد بالقاهرة سنة ٧٦٠هـ (انظر ة المقريـزى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»دار صادر ،بيروت ، جاص٤

(٢) د. محمد مصطفى زيادة ،«المقريزى ،المؤرخ الكبير» ،مجلة العربـى العدد الرابع عشر ،يناير ١٩٦٠ ، ص٢٨

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩.

هذه الوظيفة لم تناسب طبيعة أخلاق المقريزى فاستقال منها مرتين • وفى ذلك الوقت تزوج المقريزى وأنجب • اذ المعروف أن بنتا لـه ماتت فى سن السادسة بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية عام ١٤٠٤م • وفى عام ١٤٠٨م عين المقريزى مدرسا للحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية بدمشق • وهكذا رجع الى دائـرة العلم ، بالرغم من أن السلطان فـرج ابن برقوق رشحه لمنصـب نائب الحكم فى دمشق •

واذا كان المقريزى قد أظهر فى تلك المرحلة رغبة صادقـه فى التوافر على العلم ، فانه وجد نفسه ملزما بالعودة الى القاهرة التـى كانت أكبر مركز للنشاط العلمى فى العالم الاسلامى وقتئذ • وهكذا قضى بقية حياته فى القاهرة باستثناء فتـرة قصيرة - زهـاء خمس سنوات - قصد فيها مكة حيث اشتغل بتدريس الحديث وكتابـة التاريخ • وتوفى المقرزى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤٢م) •

وبالرغم من تدفق الاموال على مصر تبعا لسيطـرة دولـــة المماليك ، على طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، وبالرغم من ظهور الثراء فى التحف والآثار التى خلفهـا المماليك ، وبالرغـم من أن مصر كانت محورا لنشـاط علمـى كبـير فى عصر ســلاطين المماليك (١) • وبالرغم من احياء الخلافة العباسية فى القاهـرة بعـد سقوطها فى بغداد مماجعل القاهرة ترث بغداد فى مكانتها العلميـــة والدينية •• بالرغم من هذا وذاك ، الا أن أهم ماتتميز به الحالة الاقتصادية فى مصر فى عصر المماليك تلك المجاعات التى اكتسحـت أرض النيل فى فترات متفرقة ، فذهب ضحيتها الكثيرون ، وكـان

---

(١) حيث أن الكثير من الموسوعات الادبية والتاريخية والعلميه التىتفخر بها المكتبة العربية اليوم ترتبط بأسماء علماء عصر المماليك أمثال:ابن حجر، والعينى، والنويرى والذهبى، والسيوطى، والقلقشندىوابن تغرى بردى ..وغيرهم .وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى احمد ابـــن على المقريزى، بوصفه مؤرخا وعالما من أبرز مؤرخى وعلماء عصره

من أسباب هذه الحالة السيئة أن بعض الولاة فى ذلك العصر كانوا يصلون الى مركزهم عن طريق الرشوة ، فاذا ماوصلوا الى الحكم أرادوا أن يعوضوا مادفعوه من المال فيفرضون على أهل الريف المغارم حتى تضيق بهم الحال فيهجرون أراضيهم وتضمحل الزراعة تبعا لذلك ، وتقل الغلال ويبدأ شبح المجاعة فى الظهور • وكان انخفاض النيل أو انتشار بعض الاوبئة كالطاعون من أهم عوامل حدوث المجاعات فى العصر المملوكى (١) •

المؤثرات الفكرية :

كأى مفكر أو عالم ، تشكلت شخصية المقريزى بفعل مؤثرات أسرية من ناحية ، ومؤثرات مجتمعية راجعة الى ظروف العصر من ناحية أخرى • ونورد أهم ما أثر فى فكر المقريزى فيما يلى :

١ـ تتلمذ فى شبابه على ابن خلدون ، اذ جاء ابن خلدون لاجئا سياسيا الى القاهرة فى عام ١٣٨٢م •

٢ـ انتقال أسرة المقريزى الى مصر فى حياة أبيه من موطنها فى بعلبك بلبنان ، ولابد أن أسرته امتلا حديثها بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها ، ومقارنتها بالحياة فى لبنان ، فتولدت فيه روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته وأيام شبابه ودراسته وتحصيلة (٢) •

وقد نشأ المقريزى وشب بين أحضان القاهرة ، تلك المدينة الاسلامية الكبيرة فى عصر من أزهى عصورها وأكثرها نشاطا

---

(١) على ابراهيم حسن، مصر فى العصور الوسطى :من الفتح العربى الى الفتح العثمانى، مكتبة النهضة المصريه، الطبعه الرابعه، ١٩٥٤ ص ٤٩٩ .

(٢) محمد مصطفى زيادة ، مرجع مذكور ، ص ٢٨—٢٩

وأوفرها ثروة ، فهو قاهرى بحكم مولده ونشأته .

٣- تنوع المهن التى امتهنها مثل :

أ — ديوان الانشاء بالقلعة — يقابل وزارة الخارجية — حيث عمل موقعا .
ب — نائب من نواب الحكم — أى قاضيا .
جـ — امام لجامع الحاكم .
د — مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية ، والاقبالية والاشرفية.
هـ — محتسبا للقاهرة والوجه البحرى .

٤ — المحيط المملوكى الذى غرقت فيه مصر وأهلها ، على حين عاش المماليك وأمراؤهم فى حزبية عنيفة ، وعصبية جنسية انتحارية بين الاتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك والمستوطنين مرة أخرى .

٥- الاحداث التاريخية التى مرت بها البلاد مثل :

أ — انتقال دولة المماليك بعد وفاة أعظم سلاطينها — الناصر محمد بن قلاوون — الى أيدى سلسلة من أبنائه وهم ثمانية ، تقلبوا فى السلطة صغارا مدة عشرين سنة . وأعقب ذلك ثلاثون سنة على الاقل ، وهذه مدة أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ب — فترة تاريخية ممتلئة بالمؤامرات والثورات الداخلية والاوبئة والطواعين والمجاعات ، بسبب استهتار الفئات المملوكة بمصالح البلد الذى يعيشون فيه ، وبسبب جمع الوظائف الكبرى فى شخص واحد فى كثير من الاحيان ،

وبسبب قلة احترام الحاكم المملوكى للمحكوم المصرى (١)

مؤلفــات المقريــزى :

للمقريزى مؤلفات كبرى ومؤلفات صغرى يقرب عددها مـــن المائة كتاب . ويعجب الكثير أن ينسب ذلك العدد الوافر من الكتـــب الى مؤلف واحد . بيد أن الظروف الاجتماعية والاحداث التاريخيـــة التى عاصرها المقريزى انما يرجح أنها دفعته الى الكتابة والتأليـــف فى الموضوعات التى تناولها .

وترجع أغلب كتابات المقريزى الى الفترة الاخيرة من حياتـــه وخاصة بعد اشتغاله بالعلم والتدريس بدمشق ثم القاهرة ، وبعدئذ بمكة المكرمة ثم بالقاهرة ثانيا . وفيما يلى أمثلة من كتب المقريزى الموسوعية وكتيباته الزاخرة بآرائه وتسجيلاته للوقائع التاريخية .

١ ــ فقد دفعه انتشار الطاعون بمصر وبعض البلدان عام ١٤٠٤م الى تأليف كتاب «اغاثة الأمة بكشف الغمة» . وهو كتاب فى التاريخ الاقتصادى الاجتماعى ، يتناول تاريخ المجاعات التى تعرضـــت لها مصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٤م) . وأثناء بيانه لتلك الاخبار يتعرض لاسبابها وطرق الوقاية والعلاج وموقف الحكام منها مع اشارات الى تطبقات الشعب . وهو فى هـــذا الكتاب متأثر بابن خلدون .

ويوجز المقريزى أسباب هذه المحن فى ثلاثة :

١ ــ ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، فتولاهـــا الجهلاء والمفسدون .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

ب - غلاء ايجار الاطيان وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد على ماتغله الاراضى .

ج - رواج الفلوس وكانت نقدا قليل القيمة ، على حين يرى المقريزى أن سلامة النقد انما ترتكز على الذهب والفضة .

ان هذا الكتاب يحوى عرضا لنظريتين من النظريات الاقتصادية الحديثة المعقدة تتصل احداهما بالازمات ودوريتها . والثانية خاصة بتثبيت النقد وعلاج تدهوره (١) .

٢- كما أن وظيفته كمحتسب دفعته الى تأليف كتاب «الاكيال والاوزان الشرعية» ، ويبدو أن الكتب الصغيرة التى ألفها المقريزى كانت أوائل عهده بالتأليف .

٣- وحينما رحل المقريزى الى دمشق للتدريس ، استطاع أن يكتب أول مؤلفاته الطويلة وهو كتاب السيرة النبوية المعنون « امتاع الاسماء بما للرسول من الأنباء ، والحضرة والاخوان والاتباع» وكتاب «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» الذى ظهر فيه ترسمه طريقة ابن خلدون وفلسفته . وفى هذا الكتاب يرجع المقريزى أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الامويين والهاشميين الى عصبيات الجهالة القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريرة والحروب المستمرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعد كلها أن تكون أسبابا طارئة على حسم ذلك الخلاف وجرثومته(٢)

---

(١) تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، قام على نشره :حسن مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف والترجمه والنشر، طبعه ثانيه، ١٩٥٧، عن مقدمة الطبعة الثانيه بقلم الدكتور حسين فهمى ص «ز» .

(٢) خطط المقريزى ،دار التحرير للطبع والنشر، عن مقدمة د. محمد مصطفى زيادة، ص د ـ هـ .

٤ — وحينما ذهب المقريزى الى مكة المكرمة يرجح أنه ألف كتاب «الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام» وكتاب «ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى» ، وكتاب «وصف حضرموت العجيبة» وكتاب «التبر المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك» • وفى هذا الكتاب الاخير بدأ بالتأريخ لحجة الرسول المعروفة بحجة الوداع ، ثم قسم الكتاب قسمين ، أرخ فى القسم الاول لمن حج من الخلفاء مدة خلافته ، وأرخ فى القسم الثانى لمن حج من الملوك والسلاطين منذ أن انقسمت الخلافة الى دويلات يحكمها ملوك الى عهد السلطان الملك الاشرف شعبان أحد سلاطين المماليك بمصر ، ولم يتقيد المقريزى فى اختياره بدولة ما أو ببلدة ما (١) • والى هذه المجموعة المكية يمكن ضم كتاب «الاعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام» •

٥ — وفى أخريات حياته بالقاهرة بدأ نشاطه الفكرى بكتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو كتابه المشهور باسم «الخطط» ويذكر فيه تاريخ القاهرة • ويعتبر هذا الكتاب بمثابة دائرة معارف ضخمة عن أحوال مصر فى العصور الوسطى ومافيها من منشآت متنوعة ، وما زخرت به مدنها ن نشاط حافل وحياة اجتماعية واقتصادية وعلمية ودينية صاخبة • ويقول المقريزى أن «الغرض من هذا الكتاب : جمع ماتفرق من أخبار أرض مصر ، وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار اقليم مصر • حتى يستطيع الانسان أن يخبر فى كل وقت بماكان فى أرض من مصر الآثار الباقية والبائدة ، ويقصى أحوال من ابتدأها ومن حلها ، وكيف كانت مصائر أمورهم ، وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ماتحصل به الفائدة الكلية

---

(١) المقريزى، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر، ١٩٥٥، عن مقدمة المحقق، ص ١٠—١٤

بذلك الاثر » (١) •

وينقسم الكتاب الى سبعة أجزاء : أولها يشتمل على جملمن أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها • وثانيهـا يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها • وثالثها يشتمل على أخبار فسطـاط مصر ومـن ملكها • ورابعهـا يشتمل علـى أخبار القاهرة وخلائفها وماكان لهم من الآثار • وخامسهايشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرهـا مـن الاحوال • وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها • وسابعها يشتمل على ذكر الاسباب التى نشأ عنها خراب اقليم مصر (٢) •

وكان تأليف هذا الكتاب فيما بين عامى ١٤١٧ و ١٤٣٦م • على أنه يظهر أن المقريزى اعتمد — الى حد كبير — فى تأليف هذا الكتاب على كتاب صنفه الاوحدى المؤرخ ، فنقل منـه دون أن يشير اليه أو يعترف بأخذه منه ، ورماه السخاوى فى «الضـوء اللامع» ، من أجل ذلك بقوله : «ان كتاب الخطط مفيد لكونه (أى المقريزى) ظفر بمسودة الاوحدى فأخذها وزادها زوائـد غـير طائلة» • ولم يستطع الاخصائيون من مستشرقى القرن التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمـة تماما عن المقريـزى ، أو يدلى أحدهم فيها برأى حاسم على أنه مما يسترعى النظر أن المقريزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشىء قاطع ، ولم يستطـع أن يدلى فى سياق الرد عليها بأكثر من قوله : «حسب العالمأن يعلم ماقيل ويقف عليه » • ومهما يكن من شىء ، فالمقريزى صدر هذ االكتاب بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة • وتنـاول المـدن

(١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، دار صادر ، بيروت الجزء الاول ، ص ٣ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٤

والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق (١) .

٦- وللمقريزى كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» فى أربعة أجزاء أراد بهذا الكتاب عرض تاريخ دولتى الايوبيين والمماليك حتى أيامه . فاتبع فى كتابته الحوليات الشائعة فى كتابة التاريخ فى العصور الوسطى ، فسرد تاريخ كل سنة وماحدث فيها من أحداث على حدة دون أن يربط بين سنة وأخرى . ويعتبر هذا الكتاب أساسا لكل التواريخ المصرية فى عهد الدولتين الايوبية والمملوكية الاولى والثانية .

٧ - وقد اتجه المقريزى نحو كتابة مؤلفين فى التراجم والسير ، ولكنه لم يستطع انجاز هذين الكتابين ، وقد أراد المقريزى أن يكون الكتاب الاول وعنوانه «المقفى الكبير» جامعا لحكام مصر وأبرز رجالها منذ أقدم العصور حتى عصره ، وكان يريد أن يكون هذا الكتاب فى ثمانين مجلدا لم ينجز منها سوى ستة عشر مجلدا مازالت مخطوطة ، وأما الكتاب الثانى فهو «درر العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة» وقد أراد المقريزى أن يخصصه لاعيان عصره فقط . غير أنه تركه دون أن يفرغ من مراجعته.

التدرج الطبقى :

اذا كنا نستخدم مفهوم «طبقة» بلغتنا العصرية للاشارة الى التدرج الطبقى اجتماعيا واقتصاديا ومهنيا .. فان المقريزى قد استخدم مفهوم «قسم» ليشير الى مايتضمنه المفهوم من معنى . ولقد رأى أن طبقات المجتمع المصرى يمكن تصنيفها فى سبع فئات :

القسم الاول (أهل) الدولة ، والقسم الثانى أهل اليسار من

---

(١) خطط المقريزى، دار التحرير للطبع والنشر، عن طبعة بولاق،١٢٧٠هـ عن مقدمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، ص جـد.

التجار ، وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة ، وهم متوسطوا الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز . ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . والقسم الرابع أهل الفلاح ، وهم أهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن . والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة ،وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم » (١) .

ويرى المقريزى أن أساس التدرج الطبقى هو «الدخل» اذأن كل طبقة تتحدد بقدر ماتمتلك من أموال على حد تعبيره . كما أنه يدمج بين الدخل كبعد طبقى وبين أسلوب الحياة كبعد آخر ، وذلك حينما يذهب الى تحليل كل طبقة منفردة .

١ - فهو يرى أن كل من الطبقتين الاولى والثانية متشابهة . فبالرغم من زيادة الدخل «الاموال» بالنسبة لطبقة أهل الدولة وطبقة مياسير التجار وأولى النعمة والترف . فان ذلك الدخل لايغطى انفاق المعيشة . ولذلك تجد المقريزى يتكلم فى لهجة الواعظ مخاطبا كل من الطبقتين بقوله : «ان أهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونعموا أنفسهم لعلموا أنهم لم ينلهم ربح البتةبزيادة الاطيان ولا بغلاء سعر الذهب الذى كان أصل هذا البلاء ، وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون .. وكذلك الحال بالنسبة لطبقة مياسير التجار وأولوا النعمة والترف » (٢) .

٢- وتتميز الطبقة الثالثة - وهم أصحاب البز وأرباب المعايش -

---

(١) تقى الدين احمد إبن على المقريزى، اغاثة الامة بكشف الغمه، مرجع سابق ، ص ٧٢-٧٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤.

بأن شاغليها ينفقـون دخولهم فيما لابد منـه ، وهـذا ان لم يستدين الفرد منهم لسد بقية حاجاته .

٣ـ وتنقسم الطبقة الرابعة قسمين ، أولهما قسم هلك من توالـى المحن الناجم عن قلة رى الارض ، وثانيهما قسم أثرى مـن جراء رى أراضيه الذى نجمت عنه زراعات أجلبت أموالا جزيلة.

٤ـ أما الطبقة الخامسة فتتكون من أكثر الفقهـاء وطـلاب العلم وماشابههم ، وكذلك الكثير من أجناد الحلقة ومن يمتلك عقـارا ولقد تأثر هؤلاء بسبب المحن التى اجتازت البـلاد وساءت أحوالهم .

٥ـ وتتكون الطبقة السادسة من «أرباب المهن والاجراء والحمالـين والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم » (١) وقد تضاعف أجرهم تضاعفا كثيرا ، الا أنه لم يبق منهم الا القليل لمـوت أكثرهم .

٦ـ والطبقة السابعة فتشمل «أهل الخصاصة والمسكنة» الـذى فى معظمهم لم يبق منهم الا القليل بسبب الجوع والبرد .

وفى ضوء ماسبق يتضح أن المقريزى يضيف بعدا ثالثا وهـو «المهنة» الى جانب بعدى «الدخل» و «أسلوب الحياة» وبهذا يصبح العامل الاقتصادى والمهنى بمثابة محورالتفكير فى الطبقات الاجتماعية عند المقريزى كما كان الحال لدى أرسطو فيما قبل الميلاد ،واستمرار هذا المحـور حتى كارل ماركس .

هذا ، ويذكرنا المقريزى بالسلطة التى كانت رهن أيد قليلـة من أتباع صاحب الامر الرومانى . والتى كانوا يعملونها بالنسبة لعامة

(١) المرجع السابق ، ص ٧٥.

قبط مصر ، والتاريخ من بعد يسجل أعمـــال تلك السلطة على نســق متصل معروف فى ظل الامويين والعباسيين ومن جاء بعدهم بحيــث أن التقاليد والعادات ماهى الامظاهر ودلالات على السلطـــة ذات التاريخ القديم (١) ٠

---

(١) أحمد رشدى صالح، الادب الشعبى، مكتبة النهضة المصريه،١٩٥٥ ص ٥٩ ٠

المراجــــع المستخدمــــة

١ ــ احمد رشدى صالح ، الادب الشعبى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .

٢ ــ تقى الدين المقريزى ، الخطط ، دار التحرير للطبــع والنشر ، عن طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ .

٣ــ تقى الدين المقريــزى ، الذهــب المسبوك فى ذكر من حج مــن الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥ .

٤ ــ تقى الدين المقريزى ، اغاثة الامــة بكشف الغمة ، قام عــلى نشره حسن مصطفى زيادة وجمــال الدين الشيــال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ .

٥ ــ تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، دار صادر ، بيروت ، الجزء الاول .

٦ ــ على ابراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى : من الفتــح العربى الى الفتح العثمانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤ .

٧ ــ محمد مصطفى زيادة ، المقريزى : المؤرخ الكبير ، مجلة العربى العدد الرابع عشر ، يناير ١٩٦٠ .

تقويـــم الفكر الشرقى :

اتضح ان تفكير الفلاسفة المسلمين وآرائهم كان محكوما بظروف العصور المختلفة التى عاشوها بالرغم من تأثر كل منهـــم بالديـــن الاسلامى • وفيما يتعلق بموضوع دراستنا ، اتخذ فلاسفة ومفكرى الاسلام مسارين : احدهما تاريخى وصفى وثانيهما مثالى تخيلى ، وذلك بالاضافة الى المسار السائد — فى معظـــم الكتابات وخـــاصة كتابات المفكرين القدماء منهم — والذى يعبر عن تراجم الصحابـــة والعلماء والادباء مرتبة حسب تاريخ وفياتهم والذى يتخذ مفهـــوم «الطبقة» بمعنى «الجيل» أو «الجماعة» •

واذا حاولنا التعمق فى الاتجاه التاريخى الوصفى الذى اتخذه بعض مفكرى الاسلام ، نجد أنه يتمثل فى سرد الحقائق التاريخيـــة ووصفها كما هى دون اضافات أو تعليقات • كما يتضح لدى ابن رشد وابن الفقيه وابن خلدون والمقريزى • وكان طريقنا فى عرض هـــذا الاتجاه التركيز على كل من ابن خلدون والمقريزى • وقد اتضح ان ابن خلدون كان متأثرا بالظروف الاجتماعية التى عاشها مجتمعه من جانب وخبراته الشخصية من خلال تجواله فى البلاد من جانب آخر • وموجز ماذهب اليه ابن خلدون أنه نظر الى ابعاد التدرج الطبقى متمثلـــة فى «العصبية» — التى يمكن ترجمتها بلغتنا العصرية بمفهوم «القرابة» — التى يعدها أساس تكوين المجتمع الانسانى ، والتى من خلالهـــا وعلى أساس مراكز القوى يتدرج هذا المجتمع متخذا سلما طبقيـــا محددا • وكذلك الحال فقد أشار ابن خلدون الى بعد «المكانة» والذى يعبر عنه بمفهوم «الشرف» أو «الجاه» كما أنه قد جاء ببعد طبقى آخر مثل «الدين» الذى يفسر فى ضـــوئه «القرابـــة» ، وكذلك بالبعـــد الاقتصادى الذى تشير اليه كلمة «مال» التى يعددها فى أجزاء كثيرة من المقدمة وهو فى هذا ينتقد كل من الفارابى وأفلاطـــون • وكذلك يضيف ابن خلدون «المهنة» كبعد آخر للتدرج الطبقى • ومن هـــذا

العرض لابعاد التدرج الطبقى لديه يمكننا أن نضع ابن خلدون ضمن الذين ينظرون الى التدرج الطبقى من زاوية تعدد أبعاده . فهـو لم يقتصر على بعد واحد أو بعدين ، وانما ذهب الى وجـود أبعاد عديدة يتحدد على أساسها الوضع الطبقى لاولئك الذين يجتمعون عن طريق القرابة . وهو فى ذلك قد سبق من جاء بعده ـ وان كانوا لم يطلعوا على آرائه ـ فى نظرية تعدد الابعاد .

كما عمل ابن خلدون على صياغة نظرية عن «التغير» تعتبر نظرية اصيلة ورائعة . لقد أطلق ابن خلدون على عمله البارز أسم « مقدمة الى التاريخ العام Prolegomena to Universal History قاصدا أن ينتهى من هذا الموضوع الى أن أى تفسـير تاريخى يجب أن يسبقه تحليل للعوامل التى اسهمت فى تشكيل الوقائع والاحداث . وبهـذا الطريق غطت «مقدمته» محيطـا واسعا جدا ، اذ اهتمت بالمعرفـة التاريخية ، كما تضمنت تحليلا سوسيولوجيا كاملا وشاملا للمجتمع الذى عاصره ابن خلدون (١) .

ويمثل مجتمع شمال افريقيا ، أو المغرب ، صورة المجتمع المعروف بقوى وتأثير عظيمين ، الا أنه قد تدهـور الى وضـع من الضعف والانحطاط . ولقد حاول ابن خلدون تصوير أسباب هـذا التدهور المفاجىء . ولكى يضع تفسيره هذا فى اطار متكامل أهتم بجميع مظاهر المجتمع الاقتصادية والجغرافية والشرعية والدينية ، التى تتصل بقضية التغير هذه . ولهذا تعمق ابن خلدون ، كـل المجتمعات التاريخيـة والمعاصرة المعروفة له ، وأخضعها للتحليل كموضوع يبين بوضوح لماذا وكيف أصبحت هذه المجتمعات على هذا الحال . ومن خلال اهتمامـه بالمغرب وضع تصورا أساسيا وهو التضامن أو شعور المجتمع المحـلى بالعصبية Asabich ووفقـا لنظريته ، يتكون التضامن مـن خلال

---

1) J.H. Abraham, The origins & Growth of Sociology, op. cit., p. 29.

القرابة أو الروابط القبائلية التى يحكمها ايمان دينى قوى يجعلها تقوة لاتقاوم فى المجتمع ، ويمكنها أن تعلوا القوى الحربية •

ولقد كان لدى ابن خلدون — مثل فيكو Vico فى القرن الثامن عشر بأوروبا — وجهة نظر شبه حتمية للمجتمع البشرى • على أساسها تحدث الوقائع وفقا لقوانين معينة محددة سلفا • بحيث يمكن الحكم على أن التاريخ قد تحرك فى اشكال دائرية ، توضح حركة دائمة فى فترات منتظمة من التضامن الذى تسنده القوة الى الضعف والوهن والعكس بالعكس • وعلى أساس وجهة النظر هذه فان جميع النظم الاجتماعية هى موضوع لقوانين التغير والفساد • وبالرغم من احتمال أن يرجع التغير فى الموقف الاجتماعى للجماعات الى عدد من العوامل فليس ثمة شىء يكمن فى الاختيار الفردى ، ولكن هناك سبب اجتماعى خالص • لقد كانت وجهة النظر هذه الى المجتمع البشرى وجهة متشائمة ، بحيث أن أى تقدم يعتبر مؤقتا ، وأنه محكوم عليه بالارتداد • وفى الواقع ، فان الجنس البشرى محكوم بمتغيرين أساسيين : سواء الرابطة القوية فى شكل المجتمع البسيط (ولكنه مستمر) ، أو فقدان الارتباط فى شكل المجتمع الاكثر تعقيدا (ولكنه أكثر تغيرا وعرضة للتفكك) • ويرى بعض النقاد أن نظرية ابن خلدون يجانبها الصواب لانها أكثر عمومية • فالظروف البشرية تبدوا على أنها متغيرة • الا أن وجهة نظرة صائبة بالنسبة للمجتمع الذى درسه (١) •

أما المقريزى فكان هو الآخر متأثرا بخبراته الوظيفية من جانب والظروف الاجتماعية السائدة فى مجتمه من الجانب المقابل • وقد ذهب الى أن هناك أبعادا اساسية فى تحديد الوضع الطبقى تتمثل فى «الدخل» وأسلوب الحياة والمهنة • وهذه ابعاد ذهب اليها بعض علماء

1) Ibid., pp. 29 - 30.

الاجتماع بعده ، ذلك فضلا عن أن كل من العامل الاقتصادى والمهنى كانا محورا تفكير ارسطو •

اما الاتجاه المثالى فقد كان متأثرا بالدين الى حد كبير وبالرغم من اختلاف بعض رواده مع طريق الديانة ، فقد ابتدأوا بداية دينية مثل اخوان الصفا الذين ذهبوا الى أن الطبقية «بالميلاد» أساسا وشاركهم فى هذا ابن طفيل • بيد أن ابن باجه والفارابى قد ذهبا الى ايجاد مجتمعات مثالية ، وقول فيما ينبغى ان يكون عليه المجتمع • وحينما أهتم ابن باجه بالسياسة المدنية (حياة الفرد فى المجتمع) أهتم الفارابى بالدول وتفصيل آرائه فى ضوء الالهيات • ويتفق كل من الفيلسوفين بتعدد المدن الفاضلة منها والناقصة مع اختلافهما فى عدد تلك المدن • وأساس التدرج الطبقى لدى ابن باجه «اسلوب الحياة المتبع» وكذلك «المهنة» • أما ابعاد التدرج الطبقى لدى الفارابى فتتمثل فى البعد «المهنى» والبعد «الدينى» وبعد «القوى» وبعد « أسلوب الحياة» ويتخذ ترتيب الموجودات وتدرجها لدى الفارابى نظرة كلية عامة شاملة ، حيث ينظر الى ترتيب الموجودات السماوية وغير السماوية حسب أفضليتها • هذا من جانب ومن الجانب الاخر فان الفارابى هو الفيلسوف الاسلامى الذى يمكن القول بأنه الوحيد الذى تحدث عن الحراك الاجتماعى Social Mobility وابعاده • حيث أن المهنة هى البعد الجوهرى فى احداث الحراك الطبقى ، يليها القوى • واذا كانت جمهورية افلاطون تعبر عن المثل الاعلى للجماعة الانسانية الفاضلة ودستورها ، فهى نفس الغاية التى اتخذها الفارابى لوضع كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» اذ أقامه على الربط بين الجماعة الانسانية وبين عالم ماوراء المادة •

الفصـــل الثـــالث

الفكر الاجتماعى فى أوروبـــــا

ـ مقدمـــــة :

المبحث الاول : القديس اوغسطين ٠
المبحث الثانى : توماس الاكوينى ٠
المبحث الثالث : ماكيا فيللى ٠
المبحث الرابع : توماس مـــور ٠
المبحث الخامس : جان بودان ٠
المبحث السادس : مونتسكيو وفولتير ٠
المبحث السابع : جان جاك روسو ٠

* تقويـــم الفكر الاوروبـــى ٠

الفكر الاجتماعـــى فى أوروبـــا

الفكر المسيحى أو ما يطلق عليه الفكر المدرسى أو الفكر الذى ساد العصور الوسطى كـــان ملازما للفكـــر العربى مـــن الناحيـــة التاريخية (١) ، ومكملا للتراكم المعرفى والفكرى من الناحية العلمية •

وبالرغم من أنه لم يكن بين احرار أثينا طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان فى مقدور الرجل ان يرقى بجهوده وحدها الى اية مرتبة فى الحياة ، ولم يكن فيها تمييز طائفى شديد بين العامل وصاحب العمل ــ اللهم الا فى المناجم ــ فلقد قام زعمـــاء الجماهير يبينون للفقراء ما فى توزيع الثروة بين الناس من غبن ويخفون عنهم عـــدم المساواة فى كفايتهم من الناحية الاقتصادية وأخذ الفقير بعد أن أبصر ثراء المثرين يحس بفقره ويطيل التفكير فى ميزاته التى لايجزى عليها الجزاء الاوفى ، ويحلم بقيام الدولة المثالية • وكانت نتيجة هـــذا اتحاد الاغنياء ليكونوا طبقة اوليجاركية كما انتظم العمال الاحرار ، كذلك فى نواد مهنية • وتكرت الحروب بالرغم من أنها لم تقض على أثينا لان كل اثينى فى قراره نفسه فردى النزعة يرغـــب فى الملكيـــة الخاصة ، ولان الحكومة الاثينية قد وجدت فى تنظيم الثروة والاعمال التجارية والصناعية تنظيما معقولا ، وطريقة عملية وسطا بين النزعتين الاشتراكية والفردية (٢) •

أما فى القرن الثانى قبل الميلاد فكان ثمة اضطراب فى تاريـــخ الرومان • نزاع داخلى بين أنصار الحكم الجمهورى وبين أنصـــار الحكم الفردى ، ثورات وفتن واضطرابات ، نـــزاع بين التقاليـــد

---

(١) وخاصة ان الفكر العربى كان فى عصر ازدهاره فيماقبل العصـــــور الوسطى، وحتى العصور الوسطى، خيث ابتدأ التقدم الفكرى منـــه مبتعدا عنه حتى العصور الحديثة .

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة : **حياة اليونان** ،الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التاليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣ ،ص ٦٩ــ٧٩ .

الرومانية وبين الفلسفة اليونانية الوافدة من أثينا الى روما • وكان قسم فى القانون الرومانى هو الخاص بشئون الملكيــة والالتزامات والتبادل والتعاقد والديون • ذلك أن الممتلكات العينية كانت هى حياة روما وكان أزدياد الثروة واتساع التجارة يتطلبان طائفة من القوانين أكثر تعقيدا الى أبعد حد • فكان قانون الملكية فى صورتــه الاخيرة أكمل جزء من الشريعة الرومانية ، وقد ظلت الانقسامات الطائفية فى البلاد بعد ماقام فيها من ثورات ، وبعد أن نقص عدد الاشراف نقصا كبيرا •واتخذوا لهم القابا جديدة • فأصبح أفراد طبقتى الشيوخ والفرسان والحكام والموظفين يلقبون رجال الشرف أو الوجهــاء أو رجال المناصب ، ولقب كل من عداهم بالادنون أو الضعفاء • وكانت طبقة الفرسان تتألف من رجال الاعمال الذين لم يرشحوا الى العضوية فى طبقة أخرى ومن العمال الاحرار المولد والفلاحين الملاك والمدرسين والاطباء والفنانين والعبيد المحررين • ولم يكن الاحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال افرادها بل كان يحددها حسب مولدهم •

ان من يتتبع تاريخ الثورات الدينية وما وقع ابانها من مذابــح مروعة وحركات ابادة وقتل واحراق ، تساوره الدهشة من اقــدام الانسان على ارتكاب مثل هذه الفظائع • ولكن البحــث فى النفس الثائرة المتمردة قد أثبت ظمأ الانسان الى قتل غيره من حيوانات وأناس على السواء • وهكذا بدأت الكنيسة فى السيطرة على الناس واخضاعهم لسلطانها • فيكتب القديس لويس مثلا فى استذكار الكنيسة للتفريق بين الناس على أساس الجنس أو المركز الاجتماعى يقول : « ليس هناك يهود واغريق ولاحر وعبد ولاذكر وأنثى فكلهم سواء فى يسوع المسيح» (١) وعلى ذلك صدر مرسوم التسامح فى عام ٣١١ ، وتلاه مرسوم عام ٣١٣ • ولكن هذين المرسومين لم يقضيا على الاضطهاد ،

---

(١) جورج سباين، تطور الفكر السياسى، الكتاب الثانى، ص ٢٦٤

بل حولا دفته • اذ بدأت الكنيسة تتولى خصومها بالاضطهاد (١) •
ولكن الكاتب الذى قدر له أن يمكن لنظام الاضطهاد ويزود انصاره المتأخرين بالحجج المؤيدة للقمع والكبح ، كان القديس أوغسطين (٣٥٤ ــ ٤٣٠) • وكانت كتاباته شعار كل من نزع الى الاضطهاد • وعلى هذا القديس تقع تبعة الاضطهاد أكثر مما تقع على عاتق من أنشأ محكمة التفتيش •

وقد انحدر هذا القديس من أب وثنى وأم من أشد المتمسكين بالنصرانية • وآمن بالمانوية فترة ارتد بعدها الى اعتناق المسيحية • وجعل رسالته ان يرسم لاهوت الكنيسة فى دقة وان يهذب مبادئها ويضم مختلف اجزائها الى سلطة واحدة وكل متناسب الاجزاء كان هذا القديس أقوى من عرفت الكنيسة من المدافعين عن العقائد التى أدت الى الاضطهاد • واضحى مثل اللاهوت المتعسف المتزمت الذى يقف عند حرفية النصوص التى لايتجاوزها • ويرى أن العالم أثر الله تتألق فيه الصفات الالهية كالوحدة والحقيقة والخير والجمال ، ناقصة متفاوتة بسبب نقصه وتفاوت موجوداته • ولقد ضمن آراءه فى كتابه «مدينة الله» يدافع بها عن المسيحية ويبين أن تاريخ البشرية وليد الصراع والتنافس الناجمين عن مجتمعين أو مدينتين ترجع اليهما سائر المجتمعات البشرية ، المدينة الارضية والمدينة السماوية ، أو «مدينة الله» • ليست هذه خيرة بالطبع وتلك شريرة بالطبع كما يذهب اليه المانويون ، وانما ينتمى كل الى احدى المدينتين بمحض ارادته • وبينهما منذ البداية حرب هائلة تجاهد الواحدة فى سبيل العدالة ، وتعمل الاخرى على نصرة الظلم • وفيما عدا نظرية الدولتين لم يأت اوغسطين بآراء غير التى نادى بها رجال الكنيسة من قبله •

وقد شملت أوربا فى القرنين الثالث والرابع عشر موجة تطورية

---

(١) توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ، ص١٧٢

لم تكن فى الحسبان ، بعثتها ظروف الحرب والسياسة وشئون الاجتماع • وقد خدمت هذه الحركات التطورية قضية الامبراطورية وعززت موقفها وثبتت دعائمها فى صراعها ضد رجال الدين • وترجع هذه التيارات الجديدة إلى عاملين أساسيين هما :

(أ) قيام طبقة بورجوازية وسطى اثرت من التجارة ، اذ اتاحت الحروب الصليبية فرص الاختلاط بين الشرق والغرب وعملت على توثيق الصلات التجارية والثقافية وفتحت بلاد البحر الابيض للتجارة الاوربية • وكان قيام هذه الطبقة نذيرا بالقضاء على طبقة الاشراف التى شجعت فكرة الاقطاع •

(ب) نشأة الجامعات واستقلالها منذ البداية عن السلطة الدينية • وفى العصور الوسطى سادت الانظمة الاقطاعية تماما ، كما سادت دولة المدينة العصور القديمة • ويرجع الاصل فى وجود الانظمة الاقطاعية الى أنه كان من المستحيل تكوين وحدات سياسية واقتصادية كبيرة فى حقبة من الزمن ساد فيها اخلال بالنظام كثيرا ما قارب الفوضى • ولذلك مالت الحكومات الى قصر نفوذها على مكان ملىء بالحيوية صغير المساحة اذا قيس بالمقاييس الحديثة أو حتى بمقاييس الرومان • وكان الطابع الاقتصادى الجوهرى هو الزراعة ، التى جعلت من سكان القرية والارض التى يعيشون عليها وحدة تكاد تقترب من الاكتفاء الذاتى (١) • كما أن نسق العلم الذى عرفته العصور الوسطى له مصدران : منطق اليونان ، والتاريخ ، كما روته الكتب المقدسة النصرانية • ومعلوم أن الكنيسة هى التى تولت تشكيل ذلك النسق اذ كانت هى الهيئة التى فرضت سلطانها خلال تلك العصور على المجتمع الاوربى الغربى النازع الى الفوضى والتفكك (١) • ومن أثمن ما خلقته

---

(١) جورج سباين، تطور الفكر السياسى، ص ٣٠٦—٣٠٧

القرون الوسطى من النظريات السياسية ، اصرارها على أن تكــون الاخلاق عنصرا قويا فى سياسة الدولة • فلا تتجرد أعمال السياسيين من تلك السلطة الوجدانية ، التى يؤدى فقدها الى ما نعانيه اليوم من السياسة المادية التى لاروح فيها ، ولكن الناس فى تلك الايام افرطوا فى ادخال الدين فى كل ناحية من نواحى حياتهم (١) •

أما الطبقات فى ظل المجتمع الاقطاعى فكانت مقسمة الى طبقة العبيد ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الاجراء ، والاحرار • وكان العبيد خاضعين لنوعين من الالتزامات ، التزامات ناجمة عن مركزهم الاجتماعى بحكم مولدهم الطبيعى كعبيد • فكان على العبيد أن يخدموا فى منزل السيد وكذلك ابناؤهم ، والتزامات ناتجة عن منحهم الارض • فكان على العبيد العمل فى أرض السيد ، أى أن العمــل كان يقوم عــلى السخرة • أما طبقة الاشراف فكانت عليها التزامات أخرى قبل هذا المجتمع الاقطاعى ، تتلخص أهمها فى امداد العبيد برأس المال اللازم للزراعة ، وتوفير الامن لهم ، وحمايتهم والدفاع عنهم •

ومن ناحية أخرى تميزت العصور الوسطى بعــدم الاستقرار السياسى وصعوبة المواصلات • وذلك مما يحول دون تكوين سلطــة مركزية موحدة تستطيع بها الدولة أن تبسط نفوذهــا عــلى سائر الارجاء ، ومن هنا خضعت الضيعة لتنظيم محلى بحت • وتحتم على صغار الملاك أن يبحثوا عن شخص قــوى يكلون اليه مهمة الدفــاع عن حياتهم والمحافظة على املاكهم • فظهرت علاقة اجتماعية جديدة فى المجتمع الاوربى لتربط بين صغار الملاك وطبقة النبلاء • فى نفس

---

(١) كارل بيكر، المدينة الفاضلة: عند فلاسفه القرن الثامن عشر، ترجمه محمد شفيق غربال، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥، ص٥٦

(٢) عبد الرحمن شهبندر، القضايا الاجتماعية الكبرى فى العالم العربى، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٥٤

الوقت ظهر اتجاه مماثل لكنه يبدأ من القمة الى القاعدة ، اذ أن الملوك وكبار النبلاء وجدوا أنفسهم عاجزين عن الاحتفاظ بقوتهم مالم يضمنوا عددا كبيرا من الاتباع الموالين لهم ، فتنازلوا عن جزء كبير من املاكهم لاتباعهم من النبلاء ، وهؤلاء بدورهم للفلاحين ، وسواء كان ذلك النظام قد بدأ فى الطبقات الدنيا ثم سرى منها الى الطبقات العليا ، أم كان العكس فان النتيجة واحدة ، وهى أن الملك صار المالك الوحيد لجميع الاراضى الزراعية وأنه يخلع منها ماشاء على اتباعه من النبلاء • ومعنى ذلك أن طبقة الفلاحين من ارقاء وأحرار هـى الطبقة التى تحمل عبء الانتاج ، واذن فهى الطبقة التى تقوم على أكتافها دعائم النظام الاقطاعى كله (١) •

ولقد تصور الاوربيون فى العصور الوسطى الحياة الانسانية دراما صدرت عن عقل مهيمن محيط ، وتدور حول فكرة رئيسية واحدة ولايملك الانسان ان يتفادى واقعة من وقائعها • فانطبع تفكير العصور الوسطى بطابع عقلى مطلق ، أنها عصور ايمان كانت عصور عقل أيضا • والقرن الثامن عشر كان عصر عقل كما كان عصر ايمان • وكان الجدل منهج البحث فى العصور الوسطى وتولى رجال اللاهوت شرح تاريخ الانسان والتوفيق بين الطبيعة والتاريخ فى نسق عقلى من شأن الفلسفة وما يلزم اللاهوت والفلسفة من أساليب وطرائق يقدمه المنطق • فلقد رجع القديس توما الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) ، فى تعاليمه الى ثلاثة مصادر : الانجيل وارسطو واثار علماء المسيحية الاوائل • ويبدو أثر ارسطو واضحا بصفة خاصة فيما كتبه عن وظائف النقود ، وشرور الربا ، والتبادل ، وطبيعة العدالة ، ويكاد توما الاكوينى هنا ينقل ماكتبه ارسطو حرفيا ، وهو لايعترف بفوارق بين

---

(١) بطرس بطرس غالى، ومحمود خيرى عيسى، المدخل فى علم السياسة ص ١٣٤—١٣٥

الطبقات ولايقيم وزنا للاختلافات الجنسيـــة ، وكان حريـــا به ان يستنكر الرق : لكنه اعترف به متأثرا بآراء ارسطو (١) ٠

فلقد سلم بأن الرق يؤدى وظيفة اجتماعية لاغنى عنها واحتضن كل النظريات التى قال بها السابقون عليه بصدده ٠ فسلم مع ارسطو بأن هناك رقا طبيعيا ، وأخذ عن فقهاء الرومان أن بعض مظاهر الرق ترجع الى الحروب والاتفاق والعقود وما اليها ٠ وأخذ عن أوغسطين أن بعض مظاهره ترجع الى الخطيئة الاولى ٠ وقـــدر صحة هـــذه الدعائم جميعا ٠ وأعترف بمظاهر السلطة الاستبدادية فى محيط الاسرة أى سلطة السيد على عبيده ٠ (٢) وأشار توما الاكوينى الى تقسيم العمل معتمدا على مذهب أرسطو القائم على طبيعة الانسان واعتبر الحرف على تباينهم ضرورية وجديرة بالتقدير ٠ وعنـــده ان معيار التقدير لاية حرفة هو مدى ما تغدقة على المجتمع من خدمات ، وأن منفعة الفرد تتعارض مع منفعة المجموع ٠ فاية حرفة تحمل هذا الطابع ضارة بالمجتمع ولايقرها توما الاكوينى ٠ (٣) وهو يرى أن الغرض من وجود المجتمع هو تحقيق الخدمات المتبادلة التى تؤدى الى تحقيق حياة فاضلة ٠ ومن هنا كان لكل فئة من طبقات المجتمع نفعها وأهميتها ٠ فالفلاح والعامل يقدمان السلع اللازمة للمجتمع ، ورجال الدين يعمل على الخلاص الروحى عن طريق بث التعاليم ونشر الصلاة ، والجندى يدافع عن المجتمع ضد كل عدوان خارجي وهكذا ٠٠ فكل طبقة تقدم ما يستلزمه تكوين المجتمع من خدمات وأعمال ٠

---

(١) فؤاد محمد شبل، المدينة الفاضلة: بحث فى النظـــام الاقتصـــــادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين، مرجع سابق ص ٣٢—٣٤
(٢) مصطفى الخشاب، النظريات والمذاهب السياسية: مرجـــع سابق، ص ١٢٢ ٠
(٣) المرجع قبل السابق، ص ٣٣—٣٥

هذا التحليل أيضا يبين لنا مدى تأثره بأفكار ارسطو وفلسفته (١) بالاضافة الى أنه قد اقتفى أثره فى اعتبار الملكية الخاصة امرا طبيعيا للفرد • فيرى ان الملكية الخاصة لاتناقض قانون الطبيعة ، وهى تتفق مع طبيعة البشر كما أنه يعتقد أن الانتاج فى ظل الملكية الفردية يفوقه فى ظل الاشتراكية • وفى الملكية الخاصة يمكن المحافظة على السلام والنظام • والملائكة فى رأيه هم رأس الخليقة ويمكن اقامة الدليل على وجودهم ، أما الانسان ففى المرتبة الثانية من مراتب الخليقة (٢) •

على أن انقلابا قد شمل مرافق الحياة فى أوربا كلها ، أواخر العصر المدرسى • فنهضت الكنيسة لمقاومة الجامح من التيارات العقلية ومطاردة أهلها ، حتى عاقت شيوع المعرفة الجديدة ، واطفأت نورها بالدم •• وعندما بدأت حركة الاحياء العلمى بدأت حركة انحلال خلقى كان على الكنيسة ان تقاوم اتباعه اتقاء لشره وحرصا علىتجنب ما ينتظر أن يسفر عنه من تقويض الدين والقضاء على نفوذ رجاله • واتجهت الحركة الجديدة الى ارجاع الدين الى الكتب المقدسة ورفض التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها ، وتمكين العامة من الاطلاع عليها ومحاولة تفهمها • وسلب الكنيسة حقها المزعوم بصدد غفران الذنوب والاتجار بصكوك الغفران وثواب الاخرة وسعادتها ، واتجه المصلحون الى فقد الطقوس الدينية وعبادة القديسين وغير هذا مما هو معروف عن حركة الاصلاح الدينى فى عصر النهضة • وكان من أعلام هذه الحركة مارتن لوثر (١٥٤٦م) فى المانيا ، وزنجلى (١٥٣١م) وكلفن (١٥٦٤م) فى سويسرا وغيرهم من رواد الاصلاح الدينى ابان هذه الفترة • وعندما أعلن لوثر على باب الكنيسة فى المانيا بطلان الصكوك التى كانت تبيعها الكنيسة للناس ، اشار البابا على رجاله بأن يردوه

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ١٤٠.
(٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط، دارالكتاب المصرى، ١٩٤٦، ص ١٨٤—١٨٧

عن غيه وزيفه بالحجة المقنعة ، فلم يزده جدلهم الا اصرارا ، وامتدمت ثورته الى البابوية نفسها فأعلن أنها بدعة خلا منها عهد الرسل الاولين. وطالب باخضاع الكنيسة للسلطات الدنيوية فبادر البابا باصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن لوثر أحرق القرار على ملأ من الناس وأعلن مجمع ورمس أنه طريد القانون وأباح اهدار دمه ، وحذر المؤمنين من قراءة كتاباته ، واذا كان لوثر قد احتج على كبح الاراء واحراق الملحدين فقد كان هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسى الدامى . فلما أمن شر خصومه وقوى مركزه واشتد نفوذه .. أعلن رأيه الصحيح فأوجب على الدولة ان تفرض مايبدو لها رأيا سليما وأوجب على الناس ان يطيعوا اميرهم فى أمور دينهم ودنياهم على السواء . وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من الخارقين وجاهد باعدام طائفة مفكرى التعميد بالسيف بعد انسلاخها عنه . وبهذا ادت عقيدة الخلاص الى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت ، ولقيت البروتستانتية أضطهادا بمختلف شعبها ابان القرن السادس عشر والسابع عشر ، وهى ظاهرة تلائم روح العصر الذى وقعت فيه وهو عصر واجه فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية تمرد رواد الاصلاح الدينى على سلطانهم واستخفافهم بكل ماكان موضع حرمة وقداسة عند رجال الكهنوت . وكان هذا فى الوقت الذى دبت فيه اليقظة فى أوربا وتفتحت فيه اذهان الناس فى شتى ميادين الحياة . وكان الارتداد الى الدين مظهرا من مظاهر النضج العقلى الذى يميز هذا العصر ، لم يكن بد من أن يحتدم الجدل بين هذين المعسكرين وان تشتد وطأته حتى يستحيل الى معارك دامية يستشهد فيها الكثيرون ، وحروب طاحنة تنهك الامم والشعوب . ولم يكن ثمة مفر من وقوع ذلك فى عصر يضطرم تعصبا وتدين الشعوب فيه بدين حكامها . وكان من الظواهر الملحوظة ان تسبق انجلترا البروتستانية فى مضمار التسامح ، فرنسا الكاثوليكية . وان يظل كابوس التعصب

البغيض جاثما على صدرها حتى تندلع ثورتها الكبرى وتحطم القيم المعروفة فى رءوس الفرنسيين .

واذا كانت الفلسفة القديمة لم تغفل الحديث عن محبة الانسان لاخيه الانسان الا أن الدعوة الى محبـة البشرية لم تكن واجبا مفروضا على الانسان ، ولكن هذه المحبة قد تحولت بفضل المسيحية فأصبحت واجبا واضحا يلزم به كل انسان ، اذ نصت المسيحية على ان الناس جميعا ابناء الله ، ومن ثم كانوا اخوة ، بل قـال المسيح لحوارييه فى عظته على الجبل : «احبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم واحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لاجل الذين يسئيون اليكـم لكى تكونوا ابناء ابيكم الذى فى السموات » . واذا كـان بعض اتبـاع الفلسفة الخلقية القديمة قد ادركوا فكرة السعادة والتعاسة بعـد الموت ، فان المسيحية هى التى ادخلت فكرة جديدة حين قرنت عقيدة الثواب والعقاب فى الاخرة بالحياة الخلقية التى يحياها الانسان فى دنياه . بمعنى أننـا نجنى فى آخراتنا ثمرة مـا زرع فى حياتـا الخلقية . وأن علينا أن نثق بالله وأن نطمئن الـى رحمتـه ، وفى وسعه تعالى أن يغفر للمذنب معاصيه ، اذ ندم وتاب . وهذا هـو جوهر العقيدة المسيحية ، وان كانت المسيحية تهتم أساسا بنعيـم الاخرة . ومن أجل هذا جاءت دعوتها الى الزهد فى اللذات . كمـا ادخلت المسيحية فى الاخلاق مشكلـة الجبر والاختيار ، لان فكـرة الثواب والعقاب التى بشرت بها تصبح غير ذات موضوع مالم يكـن الانسان حرا فى اختيار ما يأتى أو يتجنب من أفعال .

وأما الاخلاق الدينية (اليهودية ــ المسيحية) فأنها لم تخـرج عن هذه التعاليم القديمة فى قليل ولاكثير ، اللهم الا تقديرهـا أن هذه المبادىء الاخلاقية انما هى وحى جاء من عند الله مصدر كـل شىء وغايته . وأول ما ينبغى ملاحظته هو فكرة الاخلاق باعتبارهـا قانونا ايجابيا اجماعة ذات حكومة الهية لديها قانون مكتوب قد فرضه

الله بوحى الهى ، وايدته بوعود وتهديدات الهيـــة قاطعـــة • ومن المفروض ان الاوامر الالهية قد وضعت من غير شك لكافة المناسبات وأنها تؤيد بتطبيق القواعـــد العامة المستمدة مـــن نصوص الكتـــاب المقدس • ولقد كان أكثر مفكرى اليهود قبيـــل العصر الذى سبـــق المسيحية يتصورون البصيرة الخليقة معرفة بالناموس الالهى ، صادرة عن سلطة خارجية على العقل الانسانى الذى تقتصر وظيفته عـــلى تأويل قواعده وتطبيقها على الحالات العسيرة • وقد كانت البواعث السوية التى تحمل على طاعة هـــذا القانون هى الثقة فى الوعـــود والخوف من احكام المشرع الالهى الذى وضع ميثاقا خاصا بحمايـــة افراد الشعب بشرط أن يؤدوا اليه الطاعة الواجبة • وهكذا لم تظهر التفرقة الانسانية بين الاخلاق والقانون فى وضوح الانتيجة للصورة التشريعية التى اتخذها تصور الاخلاق ، وقد كان التسليم الاقصى بالقانون الخلقى هو الجزاء والعقاب اللامتناهى الذى ينتظر النفس الخالدة بعـــد ذلك • حتى أصبح الحرمـــان الكنائسى والتكفير عن الخطايا جزاءات دينية مؤقتة للقانون الخلقى ، كما أصبح تدرج هذه الجزاءات الدينية أكثر عناية ودقة •

المبحــــث الاول

القديس أوغسطين : (٣٥٤ — ٤٣٠م)

ولد أوغســـطين St. Augustine فى(طاجسطــا) من أعمــال نوميديا (الآن سوق الاخرس من أعمــال الجزائر) من أب وثنى وأم مسيحية سجلت اسمه فى عداد المرشحين للعماد ، ونشأته على محبة المسيح • وتضلع من اللاتينية حتى افتتح فى قرطاجنة ، وهــو فى التاسعة عشر ، مدرسة لتعليم البيان • وفى ذلك الوقت قــدم كتابا لشيشرون اسمه «هورطانسيوس» (وقد ضاع فيما بعد) •

كان أوغسطين متشبعا بالادب اللاتينى ، وكان متعلقا بالدنيــا ومتاعها ، ودفعه طموحه صوب روما ، فانشأ فيها مدرسة للبيــان • وفيما هو فى ذلك عرض لمسابقة منصب استاذ للبيان فى ميلانــو ، ففاز به • قصد الى مقــره الجديد ، وأخــذ يذهب الى الكنيســة الكاثوليكية ويستمع الى عظات اسقف المدينة ، والقديس (امبرواز) وكانت تدور حول شرح الكتاب المقدس والرد على المانويين وغيرهم من المبتدعة (١) •

ولقد شرع اوغسطين فى تفهم المسيحية على ضــوء ما اهتــدى اليه من فلسفة ، ويؤول هذه الفلسفة على ضوء المسيحية • ولقــد ذهب بعض الباحثين الى أن الافلاطونية هى التى قادته الى المسيحية• والحقيقة أنه كان قد آمن بالمسيحية بناء على علامات وأدلة • وأن رسائل أفلوطين أفادته فى حل مشكلات عقلية كانت تحول بينه وبين فهم المسيحية كما يجب ان تفهم •

وقصد الى الريف مع بعض الاصدقاء بغية النظر فى أمر نفسهم

---

(١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيــط ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٣

فى عزلة وهدوء ، وقضوا بضعة أشهر يفكرون ويتباحثون • أستأنف مطالعته للكتاب المقدس فوجد فيه هـذه المرة مالم يجده فى المـرة الاولى ومالم يجده عند الافلاطونيين • وجد المسيح المخلص والنعمة الالهية التى تعيننا على فعل الخير والتغلب على الشر • وعاد الـى طاجسطا مع بعض اصدقاءه ، وعاش واياهم عيشة الرهبنـة ثلاث سنين • وبعد موت اسقف ايبونا — من اعمال نوميديا (حيث الجزائر الان) اقترح الشعب على اوغسطين أن يرعـاه ، فتوفر عـلى نشر الايمان والدفاع عنه باللسان والقلم خمسا وثلاثين سنة ، وكانـت أيامه الاخيرة مفعمة بالحزن والاسى فقد اغار البرابرة على افريقيا وتقدموا الى مدينته وحاصروها ، وهـو يشدد عزائم شعبه ويبـث فيه الامل • وفاضت روحه قبل أن يدخلوا المدينة وينهبوها (١) •

لقد صار أوغسطين من اساطين المذهب الكاثوليكى والثقات فيه حتى أن آرائه فى المسائل كانت حجة كافية فى الاستدلال على صحتها • ويقول المؤرخون ان من رؤساء الكنيسة من فاقه علما وبيانا ، ولكـن لم يكن منهم من فاقه فى تحريك القلوب والهاب حميتها للدين ، ومـن ثم جعل المصورون القلب المتقد شارة له •

مؤلفـــــاته :

(أ) بدأ أوغسطين يكتب بعد قراءة ، الكتب الافلاطونية ، فكان أول ماعالج مسألة اليقين ، لانه اعتبرها المسألة المقدمـة على سائر المسائل • وهذا موضوع كتاب «الرد على الاكاديمية» • ثم نظر فى «الحياة السعيدة» التى قال شيشرون أنها الغاية من الفلسفة ودون كتابا بهذا الاسم • ونظر فى خلود النفس فوضع كتابا بهذا العنوان موضوعه الرئيسى «الاسس العقلية للايمان» •

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤—٢٦

(ب) ولما عاد الى وطنه وجه همه الى مناهضة المبتدعة فكان من أثر ذلك كتاب «اخلاق الكنيسة الكاثوليكية ، واخلاق المانويين ، وكتاب فى سفر التكوين ردا على المانويين وكتاب فى الحرية» (١) ٠

ثم خطر له ان يترجم لحياته ووضع كتاب «الاعترافات» حوالى سنة ٤٠٠ وهو مشهور فى الاداب العالمية لسمو أسلوبه وقوة تأثيره ودقة التحليل النفسانى وعمق النظرات الفلسفية ٠ ثم كتاب الثالوث فى خمس عشرة مقالة حررها فى مدى سبع عشرة سنة (٤٠٠ - ٤١٦) وقد انتهى به القول الى كتاب جامع فى فلسفة التاريخ هو « مدينة الله» بدأه سنة ٤١٣ ، وفرغ منه سنة ٤٢٦ ٠ خصص المقالات العشر الاولى لنقد الوثنية : معتقداتها وأخلاقها ومذاهبها الفلسفية ، والمقالات الاثنتى عشرة التالية للتاريخ العام ومغذاة ٠ وقبل وفاته بثلاث سنين رأى أن يعود على مؤلفاته يراجعها ويثبت حكمه الاخير فيما تضمنت من آراء اقرارا أو رفضا أو تصحيحا ٠ فكان من ذلك كتاب «الاستدراكات» أو «المراجعات» (٢) ٠

وأهم آراءه الفلسفية يتضمنها كتابه «مدينة الله» الذى أراد به الدعوة الى الدفاع عن المسيحية ضد الوثنيين الذين يزعمون أن المسيحية كانت سببا فى انهيار الامبراطورية الرومانية ٠ وهو يرى أن تاريخ البشرية وليد الصراع والتنافس بين مجتمعين : **المجتمع الاول** : هو المجتمع الدنيوى الذى تسيطر عليه قوى الشر الناجم عن غرائز الانسان لجسدية البحتة ومن مظاهرها الجشع وحب التملك **والمجتمع الثانى**، وهو المجتمع الدينى ، أو مدينة الله ، وتسيطر عليها قوى الخير المستمد من الروح ومن مظاهره حب السلام ، والعمل على الخلاص الروحى ٠ وهو يطلق على المجتمع الاول

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧ ٠ نشرت مؤلفات اوغسطين بباريس فى٢٢ مجلدا وظهرت الترجمة الانجليزية لها فى ادنبرا فى ١٥ مجلدا

اسم «مملكة الشيطان» ويطلق على الثـانى اسم «مملكة المسيـح»
وهو يرى أن تاريخ البشرية كلها هو صراع دائم بين هاتين المملكتين
ولابد فى النهاية من انتصار مدينة الله لانها هى الدائمة ولايمكـن
أن يوجد سلام الا فى ظلها • وبهذه الطريقة علل سقوط الامبراطورية
الرومانية التى لم تكن الا مجرد مملكة دنيوية مآلها الزوال عاجلا أو
آجلا • وظاهر أن (اوغسطين) يرى أنه يجب أن تخضع الدولة للكنيسة
وتنفذ أوامرها ، وأن الدولة يجب أن تعترف بالديانة المسيحية دينا
رسميا لها لان العدالة والسلام لايتحققان الا فى ظل هذه الديانة •
وفيما عدا نظرية الدولتين لم يأت (اوغسطين) بآراء غير التى نادى بها
رجال الكنيسة من قبله • فهو يعتقد أن الحكومة شىء لابد منه ، وأن
الحاكم يستمد سلطته من الله فطاعته واجبة على جميع الافراد ، وأن
الرق عقاب من الله يجب أن يتقبله الافراد راضين ، وهو ليس الا رقا
للجسد ، أما االروح فهى حرة طايقة دائما (١) •

وأوضح اوغسطين فى الاعترافات كيف أتعبته مشكلة الشر قبـل
اعتناقه المسيحية فتوصل الى الاعتقاد ، على أساس من الفلسفة ،
ان الشر كله يولد الحرمان الذى هو امتناع الخير ، وليس هناك على
الاطلاق طبيعة تتصف بالشر ، وليس هذا الا الافتقار الى الخير •
والشر نوعان احدهما ما يفعله المرء ، وثانيهما ما يقاسيه • فما يفعله
هو الخطيئة ، وما يقاسيه هو العقوبة ، وعناية الله هى التى تحكـم
وتصرف فى كل شىء ، يسىء الانسان فيها بالشر بارادتـه لكى يقاسى
من الشر الذ ى لايريده • «والخطيئة فى الانسان تقوم فى قلة اخلاصه
لله وعدم قدرته على الالتفات الى ما فى الوجود الارضى من خير ،
والى الخلق الشخصى والحب الاجتماعى الذى يريده الله له ، وقـد
استطاع أوغسطين ان يقول : آن الخطيئة وان تكن «وصمة محزنـة

(١) بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ١٢٢—١٢٣

فى الفرد » فان العالم يتزايد حتى بالآثمين ذوى الخطيئة • وعندما وصف الجحيم بأنه ابدى ، فلابد أنه عنى بذلك حالة من الحرمان الذى لانهاية له •

والله يجعل غوايات الشيطان للناس لكى يفيد بها الانسان وعندما يعرضنا الله للمحن ، فذلك لاحدى غايتين ، اظهار مابنا من كمالات ، أو تصحيح ما بنا من نقائص • وفى مقابل صبرنا وتجلدنا على ما يرمينا به الدهر من آلام ، يحتفظ لنا بمكافأة ابدية • وفى كل مكان يكون الالم الاعظم مدخلا وسبيلا الى السرور الاعظم، وفوق هذا فان الخلاص من الشر كان من أهم الاشياء التى تشغل اوغسطين وأهمية المسيحية تقوم الى حد كبير فى ذلك الخلاص الذى هو نهاية لحياة طيبة ينبغى الا يحكم عليه بأنه شر» (١) •

التاريخ :

وباعتبار القديس اوغسطين أهم المفكرين فى تاريخ المسيحية من آوله لاخره ، وبوصف كون معالجته للتاريخ المسيحى ذات قيمة خاصة ، وجهنا اليه التفاتا خاصا • لقد اختلفت اتجاهات اوغسطين باختلاف الاوقات ، كما تنوعت صنوف التأكيد التى ركز عليها فكره • وتحتوى كتاباته على أشياء متقاربة ترجع الى توترات لم يستطع ان يخلق الانسجام بينها تماما • وبحسبنا من كتاباته العديدة ان نتأمل كتابيه «مدينة الله» و «الاعترافات» ومع أن اوغسطين كان فيلسوفا ذا رفعة ممتازة فانه ركز موقفه على تقبله للمسيحية بدرجة أكثر كثيرا من الفلسفة • وقد صرح بأن الفلاسفة قد بذلوا أشد الجهود للوصول الى طريقة يضعون بها ايديهم على البركة ، بيد أن الفلسفة غير متثبتة بالموازنة التى تثبت العقيدة المسيحية • وقد اتخذ فكرة المسيحية عن الله أساسا ، ثم راح يعارض مذهب الحلول وأى خلط

---

(١) ويد جرى، التاريخ وكيف يفسرونه، مرجع سابق، ص ١٠٦ـ١٠٧

بين «الله» وبين خليقته • فان تصورنا الله على أنه الحقيقة كلهـا «فمن ذا الذى لايستطيع ان يرى بعينى رأسـه مايعقب ذلك مـن عواقب بعيدة كل البعد عن التقوى والدين بحيث أنه كلما وطىء انسان على شىء فقد وطىء على جزء من الله ، وفى ذبـح أى مخلوق حى ذبح لجزء من الله » وفوق هذا اذا كان المذنبون جزءا منه •• فلمـاذا يغضب من الذين لايعبدونه ؟ ولم يكتف اوغسطين بذلك ، بل رفض الفكرة القائلة بأن «الله هو النفس من العالم» فالاله الحق ليس نفسا، وانما هو «صانع النفس وباريها» فاللـه روح والروح شىء أشـد جوهرية مما يسميه الانسان بما جبل عليـه من وعى ذاتى باسـم «نفسه» ، والله لاتغله أى ضرورة : فكما خلق الطبيعة يستطيع أيضا أن يغيرها • وله بالامور علم سابق «بالاعتراف» بوجود الله • وفى الوقت نفسه انكار أن له معرفة سابقة بما فى المستقبل من أشياء ، حماقة وما بعدها حماقة • ومـن ثم يكون مستقبل التاريخ تحـت تصرفه (١) •

والتاريخ حسبما يرى اوغسطين يدور حول كل المؤقت والابدى فالله ابدى وهو خالق الزمن • ولايجوز فهم الابدى ولا وصفه مـن وجهة نظر المؤقت • فالله موجود وحال فى الزمان كله ، مثلما هـو ابـدى •

والزمن وان لم يكن فهمه بمفاهيم الذهن ، فمن المقطوع بـه أنه ما يمارسه الانسان • كتب يقول «اذا ماهـو الزمن ؟ ••• ومن ذا الذى يستطيع فهمه ولو بفكرة بحيث يستطيع ان ينطق بكلمة عنه ؟»

وأى شىء نذكره فى حديثنا ذكر الدارس الكفء والمدرك العارف أكثر من الزمن ؟ ••• واذن فما هو الزمن ؟ اذا لم يسألنى أحد عـن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

ذلك ، فانى أعرف وان رغبت فى تفسيره لمن يسأل ، لا أعرف » •
والعلاقة بين المؤقت والابدى ، تلك العلاقة التى يعدها اوغسطين حقيقة وذات أهمية للدين ، غير مفهومة للانسان • «والله» فى اطار التاريخ البشرى هو العناية ، فشئون التاريخ البشرى يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء ، وليس فى الامكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر ، خارج قوانين العناية • فان الممالك البشرية تقوم بفضل العناية ، فهى لم توجد اعتباطا ولا بحكم احدى الضرورات • ولابد من قيام حساب أخير ، ونحن وان لم يتهيأ لنا على الدوام تمييز ذلك الحساب ، فان حكمه (تعالى) موجود فى نسيج الشئون الانسانية، وحتى عندما يستعرض الانسان النكبات الظاهرة التى تلم بالطيبين ، واليسار الذى ينعم به الخبيثون الشريرون لايمكن ان يكون نعت الله بالظلم صحيحا (١) •

الارادة :

(أ) بعد المعرفة : الارادة • واوغسطين يؤكد حرية الارادة الانسانية غير عابىء بأفكار افلوطين ، وهو يعرفها بأنها القدرة على قبول تصور ما أو رفضه • فليست الحرية اذن القدرة على الاختيار بين الخير والشر ، لان اختيار الشر نقص ، ولو كان شرطا للحرية لما كان الله حرا • وكيف لايكون الله حرا وهو واهبنا الحرية • وأول دليل على الحرية شهادة الوجدان • اذا لم تكن الارادة التى بها أريد ولا أريد ملكا لى ، فلست ادرى ما الذى أستطيع أن أقول عنه أنه ملك لى • والذى يجادل فى وجودها واقع فى عادة تمنعه من أن يرى أى حر حججه الباطلة الكافرة صادرة عن الارادة نفسها • فالحرية تنكر الحرية ، وانكارها يحمل معه التناقض • والناس مجموعين على المدح والذم والاثابة والمعاقبة بناء على مايشعرون فى

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥—١٠٦

انفسهم من حرية • ويؤيد الحرية اختلاف الافعال فى ظروف مشابهة مما يبين استقلال الافعال عن الظروف • ويؤيدها ايضا أن أوامر الله ونواهيه تكون لغوا اذا لم نكن مسئولين عن أفعالنا • اذ لاتكليف ولاتبعة بغير حرية • فالانسان سيد أفعاله ، لايخضع لقدر أعمى ، ولا لتأثير النجوم ، وقد أخطأ أفلوطين واشياعه فى القول بالتنجيم ، فلا توجد رابطة معقولة بين النجوم والمستقبل الانسانى ، واذا صدق المنجمون فما ذلك الا من قبيل المصادفة (١) •

ويبرز فى مؤلفه «مدينة الله» صورة جامعة للحضارة فى العصور القديمة وكذلك نظرة اجمالية على تاريخ روما • ومن الوجهة الاجتماعية البحتة نجد فى هذا المؤلف عددا من الافكار والتحليلات التى تعتبر دعامة قوية للمفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة ، فقد عرضت ونوقشت فيه كل الاراء التى أدت دورا هاما فى حياتنا الاجتماعية فيما بعد ، وكذلك عرضت فكرة القانون الطبيعى ، والحرية الطبيعية للانسان وممارسة السلطة عن طريق الاكراه •• الخ وتلمس فيه كذلك الخطوط العريضة للنزعة الانسانية (٢) •

وقد كتب الناس الشىء الكثير حول آراء اوغسطين فى طبيعة الانسان ولاسيما فيما يتعلق بحرية الارادة البشرية ، وفيما كتبه الله للانسان من قدر محتوم على أنه فيما يتعلق بهذا الصدد أظهر وجود توترات مختلفة فى فكره لم يستطع التوفيق بينهما ، ذلك أن اقتناعه بسيطرة الله على كل شىء ، غلب على فكرة الاختيار والمسئولية عند الانسان • على أن تقليله من الاعتراف بالاختيار البشرى ينبغى أن يلقى قدرا كافيا من التقدير ، فانه لم يصل الى تعبير مرضى يعبر به عن العلاقة بين الاثنين ، على أن حرية الاختيار للفرد ومسئوليته الخلقية لهما أهميتهما بالنسبة لتصور أوغسطين للتاريخ ، وكان أهم

---

(١) يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٤١ •
(٢) ويد جرى ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ •

سؤال لديه فى هذا الصدد يدور حول مدى قدرة الانسان بارادته ، على بلوغ القيم الروحية وهى السلام والسعادة التى هـى المعنى الاسمى فى تاريخ الفرد ، فليست الارادة البشرية التى قد تتحكـم فى الجسم بقادرة على التحكم التام فى العقل ، ويحتاج التغلب على هذا النقص الى فضل الله • وتنطوى الحياة الروحية على علاقـة ذات شعبتين بين الانسان ، وربما كان نصيب الله من تلك العلاقة أكبر من نصيب الانسان (١) •

التغـير والتطـور :

وقد أبى اوغسطين قبول نظريات الدورات المتكررة فى التاريخ ، وذلك لانه من ناحية اعتبر أن التجسد يحدث مرة واحدة لاتتكرر • وتشبيها لما يرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم فى ستة أيـام واستوائه على العرش للراحة فى السابق • قسم التاريـخ الى سبعة أقسام ، (١) من آدم الى الطوفـان (٢) من الطوفان الى ابراهـام (٣) من ابراهام الى داود (٤) من داود الى الاسر (٥) من الاسر الى ميلاد المسيح (٦) العصر الحاضر • (٧) الذى سيستريح فيه اللـه كما حدث فى اليوم السابع وسمينحنا الراحـة «فى ذاته» • ووزان اوغسطين بين طريقتين للعيش فى التاريخ ، وهما تعبيران عن اتجاهات الافراد • نستطيع بالحق أن نسميها مدينتين تبعا للغة التى تستخدمها الاسفار المقدسة • والنوع الاول يتكون ممن يرغبون فى العيـش حسب الجسد واللحم ، والنوع الاخر هم الذين يرغبون فى العيش حسب الروح •• على أنه نظرا لكون عبارة «العيش حسب الجسد واللحم» قد تلوح الى البعض بأن «اللحم» شر ، وهو أمر لم يكـن مما يعتقده اوغسطين ، فان الافضل لنا أن نتناول وصفه الاخر للمدينة الارضية التى جعلها تتألف ممن لايعيشون الا وفق الانسان ، والمدينة

---

(١) جاستون بوتول ، مرجع سابق ، ص١٩

السماوية التى للذين يعيشون وفقا لله • وقد استطاعت الفكرة المتعلقة بالمدينتين أن توضح لنا مايقوم به الناس فى التاريــخ من تبايــن أساسى • والمدينة الارضية تقوم على حب الذات وفيها يعيش الامراء والامم الذين تضمهم المدينة محكومين بحسب الحكم والسلطان والامن خير فى هذا العالم ، وتفرح فيه كل الفرح الذى تتيحه تلك الاشيــاء ولكن مالم يكن هذا الخير من النوع الذى يحبه المخلصين له مــن كل ما يملا نفوسهم من محن ، فان هذه المدينة كثيرا ما تنقسم على نفسها بفعل المخاصمات والحروب والمنازعات • فضلا عن أنــواع النصر التى اما أن تكون مدمرة للانفس أو قصيرة الامد • والمدينــة الارضية ليست بخالدة • أما المدينة السماوية ، فتستقر على حب الله وفيها يخدم الامراء ورعاياهم بعضهم بعضا فى رحــاب المحبة ، اذ تطيع الرعية فى حين يشغل الامراء عقولهم بالتفكير من أجل الجميع • وطبقا لهذا تكون الحياة الابدية هى الخير الاعلى والموت الابدى هو الشر الاعلى • والمدينة السماوية تروح فى أثناء أقامتها القصيرة على ظهر الارض ، تدعوا المواطنين من بين افراد جميع الامم ، وتجمــع مجتمعا من الحجاج من جميع اللغات دون تدقيق حــول التفاوت فى الاخلاق والشرائع والنظم التى يحفظ بها السلام فى الارض ويصان • ولاتشير الفقرة الاخيرة التى تطابق المدينة الساويــة وهى الارض والكنيسة المسيحية الواقعية ، وأنهما شىء واحد ، بل تشير الى الوحدة الخفية التى يجب أن تطور تلك الكنيسة ، ولايجــوز أن تمــارس سعادة المدينة السماوية فى هذه الحياة ممارسة كاملة ، اذ أن هــدف التاريخ يتجاوز ماهو أرضى • والسلام الذى نستمتع به فى هــذه الحياة الدنيا ، سواء شاع بين الجميع أو ضاق فكان خاصــا بنــا ، يعتبر السلوى التى نتذوقها تعويضا عما حل بنا من شقاء أكثر منــه الاستمتاع الايجابى بالهناء (١) •

---

(١) ويد جرى ، مرجع سابق ، ص ١٠٧–١٠٨

اننا نقع فى مغالطة لو اعتبرنـــا تفريق اوغسطين بـــين المدينتين بصورة تجعل الاولى مدينة شر دنيوية والاخرى مدينة سماويـــة مناقضة للاولى . وعلى الرغم من أن فى الامكان التسليم فى كل مـــن حياة اوغسطين وتعاليمه ببعض نواحى الزهد فى الامور الارضيـــة ، فان هدفه لم يكن فى الاساس هو الزهد نفسه . ومعارضته لما فى المانوية فى ثنائية كانت مناقضة لكل نظرة الى التاريخ تقتصر عـــلى الناحية الاخروية . اذ يحتوى كتابه «الاعترافات» عـــلى تعبيرات كثيرة عن تقديره لما فى الدنيا من خيرات . ولكنها مجرد خيرات مؤقتة لايجوز أن تمنح المقام الاسمى فى الحياة . ولا أن تشـــد دون اهتمام بالقيم الروحية التى هى شىء ابدى ، فلئن كانت حيـــاة المرء مسيطرة عليها الناحية الروحية ، فان فى امكانه ايضا أن يطالب ويستمتع بمـــا يمنحه الله للناس مما خلق فى العالم الفيزيائى . وعندما أصر اوغسطين على أن الجمال صنيع يد الله حقا ، كان على بينة من أنه مؤقت .. أى انه نوع منحط من الخير لايليق ان يتلقى من الحب ما يؤثره على الله ، الخير الابدى الروحى الذى لا يتبدل . والخـــيرات الارضية لها مكانها فى حياة البشر وذلك لانها جزء من الغرض الذى يرمى اليه الله فى سبيل الانسان . وقد عبر عن هذا فى فقرة مـــن الاعترافات جديرة بالتنويه وذلك أنه حينما تحولت نفس الانسان ما لم تتجه اليك انت فأنها تكون مركزة على الاحزان — نعم — وان ثبت على الجميل من الاشياء ، ومع ذلك فان هذه الاشياء ان كانت خـــارج شخصك وخارج النفس لم تكن لتكون مالم تصدر عنك . فهى تشرق وتغيب وبشروقها تتبدأ كما هو مقدران يكون وهى تنمو لكى تصل الى الكمال حتى اذا بلغت الكمال شاخت وذبلت وكل شىء لايشيخ ولكن كل شىء يذوى ويضمحل . وهكذا فعندما تقوم الاشياء وتنزع ان تكون ، فكلما زادت سرعة نموها حتى يمكن ان تكون زادت سرعة فى أن لاتكون . وذلك هو قانونها وذلك هو النصيب الذى قسمته لها لانها اجزاء من أشياء لاتوجد فجأة ، ولكنها بذهابها وتعاقبها تكمل مجتمعة ذلك الكون

الذى هو اجزاء منها . وعلى نحو هذه الطريقة نفسها تقريبا يتم حديثنا بواسطة علامات تصدر صوتا ، ولكن هذا أيضا لايبلغ الكمال مالم تمر كلمة واحدة وتذهب فى سبيلها بعد أن تقوم بدورها حتى تستطيع أخرى أن تعقبها . ونتيجة لهذه الاشياء جميعا دع نفسى تسبح بالثناء عليك يا الله يا خالق كل شىء ، ولكن لاتدع نفسى ان تثبت على هذه الاشياء بغزاء الحب عن طريق حواس البدن ، وذلك أنها تذهب حيثما كتب لها أن تذهب ، لكى لاتكون ، وهى تمزقها بالتشوقات الوبيلة ، وذلك لانها تشوق ان تكون ، ومع ذلك تحب ان تستريح فيما تحب . ولكن هذه الاشياء ليس فيها مكان للراحة فهى لاتستقر وانما تفر ، ومن ذا الذى يستطيع متابعتها بحواس الجسد ؟ نعم من ذا الذى يستطيع امساكها وهى ادنى اليه من حبل الوريد ؟ وذلك ان حس جسد (اللحم) مبطىء لانه حس الجسد اللحم وبذا يكون محدودا . اذ ، هو يكفى لما صنع من اجله ، على أنه ليس يكفى لايقاف أشياء تجرى شوطها من نقطة ابتدائها المعنية حتى النهاية المعنية . وذلك أنها فى كلمتك التى بها خلقت تسمع الحكم بمصيرها منذ الان وحتى الان . لقد صنعنا الله من أجل نفسه كما أن قلبنا سيظل بعيدا عن الراحة حتى يرقد فيه .ومحبة الله القيمة العليا فى الحياة البشرية ، تمنح من الرضا ما لايستطيع شىء آخر منحه . وينبغى أن تكون تلك المحبة هى المعنى الجوهرى لتاريخ الانسان على هذه الارض ومابعدها . هذا ولم تكن كلمة «ابدى» عند أوغسطين بالدلالة الفلسفية بقدر ماهى دينية . فالله أبدى بصورة جوهرية من حيث أنه موجود ابدا لكى يستريح فيه الناس (١) .

ان تفكك النظام السياسى فى أوربا عقب سقوط الامبراطورية الرومانية ادى الى تقسيم القوى المحلية وجعل المجتمع فى حالة دينامية متقلبة . وكان نتيجة ذلك أن أصبح الايمان الدينى — فقط

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٨—١٠٩

ـ بوجود آخر يمكن ان يصبح الملاذ الاخير ، هو الاعتقاد السائد فى هذا العصر ، وأصبحت «مدينة الله» للقديس أوغسطين هى النماذج الذى يصبوا اليه المجتمع البشرى (١) •

---

2) J.H. Abraham, op, cit, pp. 27-28.

المبحـث الثـانى

القديس توماس الاكوينى : (١٢٢٥ — ١٢٧٤م)

انحدر من عائلة عريقة فى النبل بمملكة الصقليتين . وتلقـى العلم فى دير البندكتين فى مونت كما سينو ، وفى جامعة نابولى حيث درس ستة أعوام . وأنخرط وهو فى سن السابعة عشرة فى مسلك الرهبان الدومينيكان، فأرسلوه الى جامعة كولونيا ثم الى جامعة باريس،وفى سنة ١٢٥٧ حصل على درجة الدكتوراه من السوربون ونال شهرة عريضة كأستاذ بفضل محاضرات القاها فى لندن وروما وبولونيـا ونابولى وباريس . ولقد خلف عددا كبيرا من المؤلفات يقارب الستين ، ونودى به قديسا بعد وفاته (١) .

ويفرق (سان توماس) بين نوعى حق الناس عـلى الاغنيـاء : فالنوع الاول هو الحيازة والادارة . وهنا يسمح بالحق الكامل للملكية الخاصة ، وفقا لخطوط تشابه ماسبق أن أورده (ارسطو) من قبل . والنوع الثانى هو الانتفاع . ويختلف فى منحاه عن الاول ، ففيه تعتبر الاشياء مشاعة ينتفع بها المحتاجون اليها ، وبالاحرى فان الملكية يجب أن تكون خاصة من ناحية الحيازة ، عامة من ناحية الانتفاع (١) .

ولم يحبذ (سان توماس) التجارة ، واعتبرها غير طبيعية وغير نافعة . الا أنه يحبذها ان تم التبادل لمنفعـة الدولة أو للمحافظـة على كيان الاسرة . وتعم العدالة عندما يكون للسلع المتبادلة قيـم متكافئة ، وينظر الى القيمة هنا كصفة ايجابية ملازمـة لكل شىء ،

---

(١) فؤاد محمد شبل، المدينة الفاضلة، بحث فى النظـام الاقتصـادى والاجتماعى، عند الكتاب المثاليين، مكتبة النهضة المصريه، ص ٣٣.
(١) المرجع السابق ، ص ٣٦

ويستند قياسها على عملية تقدير (٢) •

ويرى (سان توماس) ان المصلحة العامة للمجتمع تقتضى حتما وجود حاكم توكل اليه مهمة تنظيم تبادل الخدمات • وحاجة المجتمع الى هذا الحاكم كحاجة الجسد الى الروح • الجسد لايحيا بغير روح ، والمجمع لاتستقيم أموره بغير حاكم •

وبما أن الغرض من قيام المجتمع غرض اخلاقى ، فيجب أن تكون لسلطة الحاكم حدود ، وعليه ان يمارس سلطته وفقا للقانون • ويظهر من آرائه انه يبغض الحكم الاستبدادى ، ويجعل للشعوب حق مقاومة الحاكم المستبد الظالم الذى يتجاوز حدود سلطته • ولكنه يقيد هذا الحق بشرطين :

(أ) الا تمارس هذا الحق طائفة بعينها من الشعب ، بل يجب أن يمارسه مجموع الشعب •

(ب) أن يأخذ القائمون بالمقاومة على مسئوليتهم الا ينتج عن حركتهم تلك مساوىء تفوق مساوىء الحاكم المستبد أو تعدلها (١) •

وفى تقسيمة لانواع الحكومات ، وتفضيله للحكومات الملكية يتبع رأى (أرسطو) ، ويرى أن تكون الحكومة الملكية مقيدة ، وان كان لم يوضح غرضه من التقييد ، وأن يشرك الملك النبلاء فى حكم الدولة ، ويجعلم مستشاريه ويأخذ بنصائحهم • ويرى أيضا أن تكون الحكومة خاضعة للقانون ، ولكنه لم يوضح السلطة القانونية التى يعنيها (٢) •

ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يبحث أهم مسائل الفلسفة

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ •

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ١٤١ – ١٤٢ •

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢ •

السياسية . فقد أهمل مسألة السلطة السياسية ، وموقعها فى الدولة ولم يناقش كونها مستمدة من الشعب أو هى حـــق للملك ، أم أنهـــا مستمدة من القانون ، وتلك مسائل لها خطرها فى الفلسفة السياسية . وهو يرى أن القانون يستمد سلطته من الشعب لا لانه من آثار عمل الشعب ، بل لانه جزء منه . وقد قسم القانون الى أربعة أنواع (٣) :

١ ـــ القانون الابدى .
٢ ـــ القانون الطبيعى .
٣ ـــ القانون المقدس .
٤ ـــ القانون البشرى أو الوضعى .

---

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٢ــ١٤٣ .

المبحـــث الثالـث

نيقــولا ماكيافيللى

نشأ فى اواخر القرون الوسطى (١٤٦٩ — ١٥٢٧م) وايطاليـا مقسمة الى خمس دويلات ، وحاولت ايطاليا تحقيق وحدتها القومية ولكنها اخفقت ، وفوق ذلك وقعت فريسة سهلة للغزاة الاجانب مـن فرنسيين واسبانيين والمان . والقى ماكيافيللى تبعة هذا على الكنيسة اذ اعتقد أن ضعفها هو الذى حال دون تمكن ايطاليـا من تحقيـق وحدتها ، وأن نفوذها عاق الحكام الاخرين عن القيام بهذا العمل . والقى على البابا مسئولية تعرض ايطاليا للغزو الاجنبى ولهذا هاجم ماكيافيللى الكنيسة (١) .

وكذلك فـان الظروف الاجتماعيـة والسياسية التى عاصرهـا ماكيافيللى كانت هى المؤثر الاساسى فى تفكـيره ، فنحن لايمكننـا تفسير آرائه فى «كتاب الامير» الا بالرجوع الى ظروف ايطاليا وقت تأليف هذا الكتاب . لقد كانت ايطاليا — كما سبق أن شرحنـا — فريسة لشتى أنواع الصراع العنيف سواء صراع الافراد أو صراع الكتل السياسية أو صراع الطبقات أو صراع النقابات .. الخ (٢) لقد سخر الكاتب الفلورنسى من الافكار السياسية للقرون الوسطى الكاثوليكية خاصة حين ذهب الى اعتبار الدولة وحدة طبيعية (٣) .

ولد ميكافيللى فى مدينة فلورنسا ، وبعد أن شب وترعرع اشتغل سكرتيرا للسياسة الخارجية فى حكومـة موطنه الاصـلى ، وفى هذا

---

(١) بطرس بطرس غالى ، ومحمود خيرى عيسى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

(٢) محمد مختار الزقزوقى ، نيقولا ماكيافيللى ، دراسة تحليلة محورهـا كتاب الامير ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٣ ، ويختلف ماكيافيللى عن السياسيين بعد حين. لم يصنع ماصنع البعض منهم حين جعل العامل الاقتصادى =

المنصب قام بعدة مهام سياسية فى ايطاليا وفرنسا والمانيا ، ولما تبوأ آل مديتش الحكم للمرة الثانية فى فلورنسا عام ١٥١٢ قبض عليه بتهمة التآمر ، وتعرض لعذاب شديد وهو فى السجن ، ثم افرج عنه بواسطة البابا ليون العاشر ، وبعد خروجه من السجن اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه «الامير» (١) .

كان ميكافيللى هو الحليم الرقيق الطبع الذى ثار وانقلب شرسا لا من أجل الشر نفسه ، ولكن عشقا لبلاده . والعشق ثورة حب تتلف النفس ، انقلب ماكيافيللى الى كاتب شرس غليظ القلب يدعو الى بتر الرؤوس وفصل الهامات وجز الرقاب فى ساحات الوغى وميادين الحرب ، والسياسة حرب (٢) .

وقد قصد ماكيافيللى أولا وقبل كل شىء أن يحذر عصره من أخطار الحكومة الضعيفة ، ومثل هذه الحكومة لن تقى ايطاليا ابدا شر الطامعين وشر المتآمرين وشر المتخلفين ، عن الزحف المقدس من أجل الوطن (٣) .

وكانت نظرياته تعبر عن المجتمع الايطالى فى ايامه ، فقد كتب فى أصول السياسة ، مبينا أن الدولة لاترتكز على القوة فقط بل ينبغى أن تستمر فى التوسع أو الاضمحلال . ولم ينكر فكرة ارسطو عن فضائل الاستقرار السياسى فقط ، بل ابتعد كذلك عن التصورات الكلاسيكية والكنيسة للفلسفة السياسية الاخلاقية ، وبين أن أختلافات الفرد ليست لها علاقة بفعل الدولة (٤) .

= اول العوامل تاثيرا فى الازمات السياسية والاجتماعية والعقليه بالرغم من اتفاقه معهم فى فكرة الطبيعة البشرية .

(١) جاستون بوتول، تاريخ علم الاجتماع، مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٢) المرجع قبل السابق ، ص ١٦٠—١٦١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٢—١٦٣

4) Becker & Barnes, Social Thought from Lore to Science, part I, 1952, p. 708.

ويشهد القرن الثامن عشر تقدير ماكيافيللى ، والشروع فى اجلال عبقريته الاجلال الجدير بها ، حيث سار هيجل اثر ميكافيللى وتابعه • ويشر بالدولة غاية ونهاية وخلق طقوسا لتمجيدها وتقديسها ، ولم يعد اسم يذكر فوق أسمها فى عالم السياسة • كما وأن ظروف ماكيافيللى تماثل ظروف ابن خلدون — الذى سبقه بقرن من الزمان — من حيث الظروف الخاصة بكل منهما من زاوية وبالمجتمع الذى عاصره كلاهما من الزاوية الاخرى (١) •

ويتساءل ماكيافيللى كيف حدث ان نالت الكنيسة هذه السلطة الزمنية الكبيرة ، فى حين أنها كانت القوى الايطالية قبل الاسكندر السادس ، وليست القرى من حقها ، فحسب بل وجميع السادة والنبلا حتى من لا أهمية له من لاتقدر سلطتها الزمنية سوى تقدير تافه ، بينما يرهبها الان ملك فرنسا ، وكانت تستطيع أن تطرده من ايطاليا وأن تهزم البنادقة أيضا ؟ ولهذا السبب ولو أن هذا معروف جيدا فانما لا أعتبر ذكره أمرا غير لازم (٢) •

وتعتبر أعمال ميكافيللى هامة فى العصر الحديث لانه كان أول عالم اجتماع كرس نفسه لهدف كبير مؤداه البحث عن العوامل التى تؤكد واقعية ، وكان هدفه توحيد ايطاليا سياسيا فى وقت كانت ممزقة، وقد بين تعقد التاريخ من خلال خبرته به • وحاول علاج المجتمع عن طريق الحاكم والمحكوم ، أى الامير والشعب ، فهو يتكلم عن أولئك الذين يأتون الى مراكز القوى عن طريق الجريمة (٣) بل ويرى أحيانا أن الشعب يحمل بين طياته عناصر هدمه ، اذ يقول «غالبا ما يرغب الشعب فى دمار نفسه ، والعامة حين يقتصرون على أنفسهم يكونون

---

(١) غاستون بوتول، ابن خلدون ،فلسفته الاجتماعية، ترجمة عادل زعيتر القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٥ ص ١١٨

(٢) محمد مختار الزقزوقى، مرجع سابق، ص ٢٤٩ — ٢٥٠

3) Bendix & Lipset, claas, status & Power, p. 8.

ضعفاء ومنحطين . وليس بوسع الجمهوريات غالبا أن تتخذ القرارات الضرورية ، لان حركة مبادئها العادية حركة «بطيئة» وكذلك أدوارها خطرة جدا ، حيث تحتاج الى معالجة أمر لايحتمل الانتظار » (١) . فالبشر لدى ماكياغيللى خبثاء يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة . وهم على استعداد لتغيير اهوائهم وعواطفهم . ويعبر ماكيافيللى عن فكرته فى الباب السابع من «كتاب الامير» هكذا لانه يمكن القول عن البشر عموما ، انهم يجحدون المعروف ويظهرون غير مايبطنون ويلتقون على ناقوس الخطر ، ويطمعون فى الكسب . ويفدونك بدمهم ومائهم وحياتهم وولدهم حين تكون الضرورة اليهم بعيدة (٢) . لكنه يرى أن فى كل مدينة جماعتان : الشعب والطبقة الارستقراطية . والتعارض بينهما كبير ، ويرتب على مصالحهما المتعارضة احدى نتائج ثلاث : أما حكم مطلق أو حكم حر أو حكم فوضوى . (٣) وهو يعتقد أن نظام الحكم الديمقراطى هو أحسن أنظمة الحكم ، لكنه لايصلح الا للشعوب المستنيرة المتمسكة بالاخلاق الفاضلة ، أما الشعوب التى لاتتقيد بالاخلاق والدين مثل الشعب الايطالى فى أيامه فلا يصلح فيها الا نظام الحكم الاستبدادى (٤) .

وتختلف دراسة ماكيافيللى عن ابن خلدون للتاريخ وللظواهر الاجتماعية . فهو يركز دراسته على الدولة فقط أو على أنواع معينة من الدول القديمة ، وخاصة تاريخ ايطاليا فى عصره ، ثم يحلل شخصية رئيس الدولة ومايتصف به من صفات حسنة أو سيئة . ويمتاز أسلوبه بسلامة المنطق ودقة العرض والتحليل وصفاء الاسلوب . اذن فميكافيللى يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم وبالاخص

---

(١) عن مقدمة ماكيافيللى ، لينيتو موسولينى ، محمد مختار الزقزوقى ، ص ٤٦٩—٤٧٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٥—١٨٦
(٣) محمد مختار الزقزوقى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ .
(٤) بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، مرجع سابق ، ص ٢١٢

من حوادث العصر الذى عاشه ، فهى حوادث شهدها بنفسه ، وخبرها، ثم بنى عليها احكاما وقواعد عامة • وهو يدعو فى فلسفته السياسية الى النفاق والشح والضعة والقسوة والارهاب والغدر وعدم الاخلاص واهدار الصداقة ولاامانة والدين ، مما يتنافى مع المثل الفاضلة وتشمئذ منه الاخلاق الانسانية • كل ذلك طالما أنه يرضى الرغبة فى التسلط والشهوة الملحة فى السيطرة على الحكم فهى لاتتنافى مع الحلق والمثل العليا ، ومن ثم كان رئيس الدولة (الأمثل فى نظره) من اتصف بهذه الصفات • وبالرغم من طابع هذه الفلسفة السوداء ، فانه يصوغ فلسفته وآراءه فى كثير من القوة والبراعة وبعد النظر ، وهذه النظريات والمبادىء مازالت مسيطرة كل السيطرة على عقول بعض الساسة فى القرن العشرين ، ومع الاسف فانها تظفر بالنجاح فى بعض الميادين وقد عرفت بأسم «السياسة الميكافيلية» • والاهمية التى يتصف بها هذا المؤرخ الفلورنسى هى أنه اعطى فلسفة التاريخ «والسياسة الاجتماعية» وجودا مستقلا (١) •

---

(١) جاستون بوتول، تاريخ علم الاجتماع، مرجع سابق ، ص ٣١—٣٢.

المبحث الرابع

السير توماس مور (١٤٧٧ – ١٥٣٥)

تنحصر أهم أعمال توماس مور فى كتابه «اليوتوبيا» الذى ينقسم الى كتابين • تم الانتهاء من الكتاب الثانى قبل الاول بحوالى عام • ويعتبر كتاب «اليوتوبيا» الرثاء الاكثر قوة لحالة انجلترا فى وقت اخراج الكتاب ١٥١٥ – ١٥١٦ ، بالرغم من وجود بعض الاصوات التى ارتفعت بنفس الصيحة • حيث يوضح مور ما ينبغى تطبيقه لانهاء الشر الذى يعيش فيه المجتمع • فبينما تنظر فى الكتاب الاول – بالذات – تلحظ على الفور أن انجلترا كانت تدور فى ذهن مور ، فاليوتوبيا هى ماينبغى أن يكون • انها تحاول ان تصل الى مجتمع فاضل ، تظهر فيه رفاهية الدولة ، وتكفل لاعضاء هذا المجتمع المحلى الطعام والملبس والمسكن والتعليم والعلاج ، وتكون ساعات العمل فيها قصيرة نسبيا – حوالى ستة ساعات يوميا – تكفل هذه المدينة السعادة لاعضائها ، ومثال ذلك ان يرتدى كل انسان فيها ملابس بلا لون (١) •

اغرم فى صباه بدراسة الاداب والفلسفة اليونانية ، والف مناظرة دافع فيها عن جمهورية افلاطون • كما أنه جد فى دراسة اعمال رجال الكنيسة ، واكتسب معرفة عقلية بالمشكلات الدولية (فى عصره) بفضل المناصب العامة القانونية التى تقلب فيها • عاصر توماس مور بدء الاستكشافات الجغرافية العظيمة ، وبلغته انباء الحياة الطبيعية التى يحياها سكان امريكا الاصليون ، واستهوته القصص المتواترة عنها واثرت فى افكاره تأثيرا بليغا : يتجلى فى ايمانه بأن الحالة الطبيعية تكمن فى البراءة والطهر • ونجد هذه الفكرة بارزة فى جميع ماكتبه •

---

(1) Thomas More, Utopia, London, 1913, p.p. 13, 52.

كذلك تأثر بالدراسة الدينية ولاسيما بآراء القديس أوغسطين وتوماس الاكوينى (١) •

شعر مور بضرورة بذل مجهود لتطبيق المقاييس السياسية والمعايير الخلقية التى نادى بها رجال الدين على هذا المجتمع المتغير ، وهذه هى الفكرة البارزة فى كتابه «اليوتوبيا» • رسم (مور) فى كتابه شخصية استاذ برتغالى اسماه (رفائيل هتلوداى) ترك ممتلكات عائلته ومواطنيه، ورافق (أمر يجوفسيوتشى) محفوزا بشهوة المغامرات ، وفى احداهـا عثر على جزيرة يوتوبيا (والمعنى الحرفى للكلمة ليس فى مكان ما) • ونجده يصف التقدم العظيم الذى بلغه شعب هذه الجزيرة المثالية • ويعرض من الجهة الاخرى للمظالم الاجتماعية لعصره • وتنقسـم القصة فى كتابين : يشتمل الاول على عرض لاحوال انجلترا فى أوائل القرن ١٦ ، ويحتوى الكتاب الثانى على قصة اليوتوبيا • هاجم (مور) نظام الملكية الخاصة مدعيا أن العامة لاتتأثر بها ، الا أن تحيا حيـاة وادعة وتحكم حكما عادلا ، مادامت تمسك بنظام الملكية الخاصـة ؛ والملكية الخاصة معدومة فى جزيرة اليوتوبيا • ولكل مواطن حق على أى شىء فيها (٢) •

أن جزيرة يوتوبيا اتحاد من المدن والاراضى المحيطة بها وتبعث كل مدينة من عقلاء شيوخها كل سنة الى عاصمة البلاد حيث يتشاورون فى المصالح المشتركة للجزيرة ، ويمتد سريان تشريعات كل مدينة مسافة عشرين ميلا حولها • وتضم كل مدينة مائة الف مواطـن • وتيسيرا لعملية الانتخاب تنقسم المدينة الى أربعة أقسام ، وكل قسم الـى جماعات تضم كل جماعة ثلاثين عائلة ، تنتخب عنها قاضيا يدعونـه Syphogrant وينتخب كل عشرة منهم سنويا قاضيا أعظم يسمونـه Tranibore ، ويبلغ عدد القضاة العظام مائتـين فى جميع انحـاء

---

(١) فؤاد شبل، المدينة الفاضلة، مرجع سابق، ص ٤٣.
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤—٤٥

الجزيرة ، يتألف منهم مجلس الشيوخ الذى ينتخب أمير الجزيرة من بين أربعة مرشحين يحددهم الشعب نفسه • ويحكم الامير الجزيرة طيلة حياته الا اذا اوثرت عنه نزعة الظلم والاستبداد ، فيعزل • ويعاونه مجلس مكون من عشرة من القضاة يجتمعون كل ثلاثة أيام أو اذا دعت الضرورة • للتشاور مع الامير بشأن المسائل العامة للدولة أو الاختلافات الخاصة التى تنشأ بين الناس •

والعائلة فى اليوتوبيا ليست وحدة اقتصادية فحسب ، بل وحدة سياسية كذلك ، ويحكم العائلة رب الاسرة ، وتخدم الزوجات بعولتهن ، والاطفال والاباء والامهات ، ويخدم الصغير الاسن منه • هاجم مور بلسان (روفائيل) بطل قصته ، امراء بلاده الذين يعكفون على توسيع ممتلكاتهم سواء بوسائل عادلة أو ظالمة ولاينظرون الى حكم رعاياهم بسلام (١) •

التعليم فى دولة (السيرمور) عملى الطابع ، فيدرس التلاميذ علوما مثل الحساب والهندسة والزراعة ، ويسمح لهم باختيار المهنة التى يؤثرونها ، ويجاز للنابغين بتكريس أنفسهم للعلوم التى نبغوا فيا • ويشجع الجميع على صرف أوقاتهم فى الاطلاع النافع • وتمتاز جزيرة يوتوبيا بقلة قوانيها ، اذ يشتمل دستورها على مواد تشريعية تعنى بحاجتهم ، ولا تعرف التعقيدات والحيل القضائية لما يتوفر عليه أهلها من حب الصدق ، وايثار المصلحة العامة • بيد ان المدينة الفاضلة — كما صورها مور — تضم بين ظهرانيها طبقة من الارقاء ، يقومون بالاعمال المنحطة ، وقوامها المحكوم عليهم فى جرائم خطيرة يدنيها القانون •

بيد أن توماس مور قصد من كتابة اليوتوبيا لفت الانظار الى طائفة من مبادىء التنظيم الصناعى التى شغل نفسه بضرورة اعتناق

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦—٥١.

المجتمع لها ، وتوكيد أهميتها المجتمعه • كما أنه رجا من وراء كتابه ان يعرض لضروب من الاصلاحات الزراعية والصحية والقانونية والتعلمية والدينية التى آمن ان الحاجة ماسة اليها •

تبدأ اليوتوبيا ببيان البربرية غير العاقلة التى تحكم بأعدام السارق • فهو يرى أن الطريق الوحيد لنقصان عدد السارقين يكمن فى تقليل عدد أولئك السارقين والمعوزين على السواء • لكن النظام اليوتوبى لايتضمن الردع لاقتراف الجريمة فقط ، لكنه يتضمن كذلك حوافز لمن يقترف سلوكا حسنا يبدو فى شكل الامانة العامة • لذلك ففى اليوتوبيا قوانين قليلة جدا حيث ان تلك القوانين القليلة هى التى يتطلبها ذلك النظام الاجتماعى • ان الخطيئة تعاقب فى نفس الوقت الذى تكافأ الفضيلة (١) •

ويتكلم مور عن الرقيق فيرى أن ثمة رقيق بالميلاد يتكون عن طريق أولئك الذين يأتون بهم من الاسواق ، وهناك كذلك رق من نوع آخر ، وهو عبارة عن الطبقة العاملة التى تعيش فى بؤس وفقر وهم رقيق باختيارهم فى النظام اليوتوبى (٢) • وبناء على ذلك يتساءل عن كيفية تنظيم هذا المجتمع وماهى التسلسلات الاجتماعية فيه ؟ وكيفية توزيع السلع على هذه المدن ؟ وهنا يميز بين ثلاثة أنواع من السلع : السلع النفسية والفيزيولوجية والبيئية • ويرى وجوب ان تكون هذه السلع جميعا بغية تحقيق الفضيلة والسعادة • وينبغى النظر الى أن هناك مئات من الاشياء يمكن ملاحظتها عموما على أنها تمثل السعادة • فكل انسان فى اليونوبيا مقتنع بأن ليس ثمة شىء ذا سعادة حقيقة ، ذلك لان ليس هناك شيئا يمكن التمتع به فى الواقع • إن سكان اليوتوبيا يقسمون السعادة الحقيقية الى فئتين : عقلية ،

1) More op. cit., pp. 105-106.
2) Ibid., p. 101.

وفيزيقية • وتتضمن السعادة العقلية الرضا بأن يفهم الانسان شيئا ما ، أو أنه سوف يصل الى الحقيقة ، يوما أما السعـــادة الفيزيقية فيمكن تقسيمها الى نمطين : يمثل أولهما الاحساس الواعى بالمتعــة لكل كائن عضوى ، ويظهر ثانيهما من خلال تناسب ونظـــام وظائف أعضاء الجسم (١) •

1) Ibid., p. 102.

المبحـــث الخامس

جان بودان (١٥٣٠ ـــ ١٥٩٦)

بين انعكاس الحركات القومية فى الحروب الاهلية التى سادت القرن السادس عشر ، وقد نظر الى المجتمـــع والدولة باعتبارهـــا تراكمات لجماعات اجتماعية أكثر ضغرا • وفى فلسفته عن المجتمـــع يرى ثلاثة نماذج للتنظيم الاجتماعى وهى الاسرة والمجتمع المدنـــى والدولة • وفى هذا يتفق مع ارسطو على أن لكل مجتمع أصل طبيعى يكمن فى الاسرة •فالاسرة هى التجمع الحقيقى ، وقـــد جاءت الى الوجود قبل المجتمع المدنى الذى يحوى العديد منها • وهو لايؤيـــد نظرية العقد الاجتماعى ، ولو أنها كانت ذات أثر كبير فى العصر الذى عاشه • حيث اعتمد بودان فى تحليله للاسرة والدولة على مبـــادىء القانون الرومانى ، اذ أرجع سلطة الاب فى الاسرة الى مبدأ سلطـــة العائلة التى نص عليها القانون الرومانى القديم (١) •

ولذلك فهو يشبه ماكيافيللى فى التمييز بين القانون والاخلاق ، غير أنه لم يفصل بينهما فصلا تاما كما فعل ماكيافيللى ، بـــل أعتبر العدالة والاخلاق أمران لابد منهما لعلـــم السياسة • أمـــا القانون الطبيعى الذى يحدد العلاقات بين الناس فقد قبله دون تردد • (٢) بيد أن المجتمع المدنى له اصوله فى الطبيعة الاجتماعية للانســـان • فى حين أن الدولة تمتد أصولها الى أشياء أخرى مختلفة كالقوة والاجبار والطموح والرغبة فى الحرب • ولقد أوضح فكرة المجتمع المدنـــى المتساوى والحر ، السابق فى وجوده على المجتمع السياسى المنظم (٣)• وعند دراسته لاشكال الدول المختلفة ، ودراسة العوامل المؤثرة فى

---

1) Becker & Barnes, op. cit, pp. 708-709.

(٢) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع مذكور، ص ٢١٩.

3) op. cit., p. 709.

تغيير شكل الدولة ، تراه يقتفى أثر أرسطو ، فيقرر أن النظام الملكى هو أكثر أنواع الدول ثباتا ، وأن الدول الديمقوقراطية معرضة دائما للثورات • ويرى ان يكون ملائما لطبيعة الشعب والظروف التــى يعيش فيها ، وأن جغرافية الدولــة ومناخهــا يؤثران فى تنظيمهــا السياسى (١) •

وكان يحبذ التسامح الدينى ويؤمن بسلطة الملك المطلقة ، ولذلك كان يرمى الى وضع نظرية غايتها تعضيد حق الدولــة فى السيادة القومية والاقليمية • وتقوم طريقته العلمية علــى التحليل الفلسفى القائم على الدراسة العميقة والملاحظة القوية ، حيث اعتــمد على فلسفة التاريخ (٢) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٨ •

المبحث السادس

مونتسكيو وفولتير

وظهر فى فرنسا مونتسكيو Montesquieu (١٦٦٩ — ١٧٥٥) الذى وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه فى فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السحرية الذى كان يظلل الملكية المطلقة . وهو يشارك لوك فى فضل اماطة كثير من الافكار الزائفة التى ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات المتعمدة الواعية لاعادة بناء المجتمع الانسانى ، وكان الجيل الذى جاء بعده فى الحلقات الوسطى والمتأخرة من القرن الثامن عشر جريئا فى تأملاته الفكرية (١) .

لقد كان مونتسكيو ناقدا اجتماعيا ومفكرا سياسيا حرا ، دعا الى تأييد الحرية والمساواة وسيادة القانون . ولقد اتجه الى الدراسة العلمية القائمة على الوصف والتحليل فى ظل الحقائق التاريخية محاولا الوصول الى أصول الاشياء والكشف عن طبائعها (٢) وقد جاءت النظرية الاجتماعية لديه متأثرة بما كان يحيط الكاتب من مؤثرات متعددة ، حيث وجد أن الملكية المستبدة تعنى القضاء التام على كل سلطة تقف بين الملك والشعب . ومعناها كذلك ان تحل ارادة الملك محل القانون . وفى ذلك اهدار لحقوق الافراد . لهذا نجده يصمم على تقسيم السلطات ليكون فى هذا التقسيم ضمانا للمحافظة على حريات افراد الشعب . وبدأ منتسكيو افكاره بفكرة

---

(١) ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، مجموعة الالف كتاب ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ٣١٢—٣١٣ .

(٢) مصطفى الخشاب ، النظريات والمذاهب السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

القانون الطبيعى فعرف القانون بأنه «العلاقة التى تحتمها طبيعـــة الاشياء » • أى أن القانون معناه القاعدة التى تسيطر على ســلوك الانسان • (١)

ويكاد يكون مونتسكيو الوحيد بين مفكرى عصره الذى ينظـر أمور السياسة فى أنفسها دون صلة برأى صريح فى العقل والطبيعة وهو يقصر عنايته على القوانين الوضعية ، فــلا يعرض للبحــث فى القانون الطبيعى وأصل الاجتماع • وهو يريد أن يستكشف الاسباب الطبيعية للقوانين الوضعيــة ، أو «قوانين وضــع القوانين» فانــه لايعتقد ان المشرع يصدرها عن محض ارادته ،ولكنه يخضع لاسباب خارجة عنها • هذه الاسباب هى من الجهة الواحدة طبيعة الحكومات القائمة أو التى يراد اقامتها ، ومن جهة أخرى طبيعة الارض والمناخ والموقع الجغرافى ومساحة البلد ونوع العمل وطريقة المعيشة والديانة والعادات ومبلغ الثرو وعــدد السكان • فالموضوع هو الفحص عــن علاقة القوانين بهذه الاسباب المختلفة ، «وجملة العلاقات تؤلــف مايسمى روح القوانين » أى «طبيعتهــا» • وعلى ذلك لم يقصــد مونتسكيو الى أن يضع فلسفة القانون ، اى فلسفة ترد أسبــاب القوانين الى مبادىء عقلية كلية ، وانما قصــد الى تفسير القوانين بظروف طبيعية تعلم بالملاحظة والتاريخ ، لكن ليس على مذهب «المادية التاريخية» • فانه يصرح بأن للاسباب المعنوية ، ومنها القوانين أنفسها التقدم على الاسباب الطبيعية والاقتصادية ، وبأن المشرع يستطيع ان يناهض مايدفع اليه المناخ والمزاج من ميول وأخلاق ، فيقــوم أعوجاج الشعب ويوجه الى الصلاح » (٢) •

ومن رأيه أن الطبيعة كانت قبل ظهــور القانون الوضعــى هى

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ •

(٢) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعــارف ، ١٩٧٩ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ •

التى توفر للافراد مستوى من العدالـــة المجردة • ويرى ان نشـــأة الحكومة واختيار نوعها يتوقفان على المحيط الذى يتم فيه ذلك،وأن الحكومات التى يمكن أن تنشأ ثلاثة أنواع : الحكومة الجمهورية ، الملكية ، الاستبدادية • والحكومات الديمقراطية فى رأيه أنها تعتمد على وعى الشعب السياسى ، والملكية تعتمد على الشعور بأن الطبقة العسكرية تتولى حمايتها • أما الحكومـــة الاستبدادية فأهنا تعتمـــد على هدف الشعب • ثم يقول بعد ذلك أن كل نوع من أنواع هـــذه الحكومات يكون ملائما لحجم خاص من احجام الدول • (١)

وينبغى الا نغفل أن منتسكيو كان من « نبلاء » القرن الثـــامن عشر ، فليس كتابه «روح القوانين» رسالة علمية ، بل هو مجموع أفكار وتأملات منفصلة (٢) • هذا ، ولقد اندفع رجال القرن التاسع عشر الى تصوير منتسكيو وفق ما اشتهوا ، ووضعوه فى طليعة أولئك المؤرخين الموضوعيين العلميين الذين يهتمون أولا بالوقائع ويذهبون عن طريق استعمال المنهج الاستقرائى المقارن الى «نسبية» النظم ، والى أن العادات يشكلها المناخ والجغرافيا تشكيلا جبريا (٣) •

ويكمن التفسير الفلسفى لعلم الاجتماع فى كتاب «روح القوانين» الذى حاول فيه تفهم الحقيقة التاريخية التى بدت له فى شكل تنوع الاخلاقيات والعادات الافكار والقوانـــين والنظـــم (١) • وينقســـم «روح القوانين» الى اجزاء متعددة قد يبدو عدم التجانس بينها ، الا أنها تبد ومقسمة الى ثلاثة تقسيمات • يهتم التقسيم الاول بتطوير النظرية المعروفة عن الانماط الثلاثة للحكومة • ويمكن ان نطلق على

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٢) كارل بيكر ، المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، ترجمة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥ ، ص ٣١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩١—١٩٢

(4) Raymond Aron, Main, Currents in Sociological Thought, Vol. I, 1974, pp, pp, 17-18.

مجموعة الاجزاء التى تقع فى هذا التقسيم ، مجموعة علم الاجتماع السياسى كمحاولة لاستنتاج تنوع اشكال الحكم وطبيعة كل شكل وأصوله • ويهتم التقسيم الثانى بتوضيح الاسباب المادية أو الفيزيقية المؤثرة فى تربة ومناخ الكائنات البشرية وأساليب حياتهم ونظمهم • أما التقسيم الثالث ، فيركز على تأثير الاسباب الاجتماعية مثل التجارة والسكان والدين ، على أساليب الحياة والعادات والقوانين (١) •

والى جانب هذه التقسيمات الثلاثة الرئيسية يبحث « روح القوانين» التشريع الاقطاعى الرومانى ، مستشهدا بتوضيحات تاريخية • كما يتحدث مونتسكيو عن الروح العامة للوطن من حيث النواحى الخلقية والعادات المرتبطة به • انه لم يهتم بسبب خاص أو بمظهر سياسى للنظم ، وانما يرتبط بما يمكن تسميته بأساس الوحدة الاجتماعية الكلية (٢) •

ومن هنا يمكن النظر الى مونتسكيو على أنه حقا عالم اجتماع وضعى يقول للناس لماذا يعيشون بطريقة معينة دون سواها • فعالم الاجتماع يستطيع أن يفم الناس أكثر من فهمهم لانفسهم • وذلك لانه يكتشف اسبابا الى جانب الشكل الخاص الذى يفترض الحياة الجمعية فى مناخات مختلفة وفى عصور متباينة • وهكذا استطاع مونتسكيو أن يرجع اختلاف الحياة فى المجتمعات الى طبيعتها ذاتها مثل شكل الحكومة والمناخ ، وروح الشعب أو الوطن (٣) •

أما الثورة الفرنسية فقد ابرزت طائفة من المفكرين الاجتماعيين هم نتاج تلك القوى التى قادت الى الثورة نفسها وما تلاها ، وتتمثل

(1) Ibid., pp. 20-21
(2) Ibid., p. 21.
(3) Ibid., p. 54.

هذه القوى فى الملابسات التى صاحبت الحكم فى فرنسا منـذ لويس الرابع عشر ، اخصها بالذكر استنزاف أمـوال فرنسـا فى الحروب وفداحة الضرائب وفساد لنظام الاقتصادى وافلاس الملكية العامة ، وبؤس الفلاح ، وكانت الحالة تنتقل من سىء الى اسوأ • وعبر عنها الكتاب وفى مقدمتهم فولتير وروسو •• فابـدى فولتـير (١٦٦٤ — ١٧٧٨) فى كتاباته عطفا على الفقراء ، وعنـده أن وسيلة الخـلاص الاجتماعى تكمن فى حـرية الفكـر وتثقيف الفـرد ، لا التغـيرات الثورية (١) • وقد أراد فولتير أن تنتقل السلطة من الكنيسة الـى المفكرين والعقلاء ، وهم فى نظره الاشراف والامراء وذلك لانه من طبقة الاشراف ، واعتبر أن العقل والتفكير وقف على الاغنياء دون الفقراء • فالاشراف — وهو منهم — خلقوا ليحكمـوا ، والفقراء ليعملوا ويتلقون الاحكام ويطيعون الحكام (٢) • ويعتبر كتابه «مقال فى السن والاداب والعادات » (٣) عرضا للتاريخ العام منذ أقدم مـا عرف من الازمنة ، ويقصد الى ايضاح «مغزى» للتاريخ • وقد وضع فولتير المغزى الذى قصده فى صيغة احكام : ان تاريـخ الاحداث الكبرى فى العالم لايعدو أن يكون تاريخ جرائـم ، وان العصـور المظلمة فيما خبر الانسان هى بالضبط العصور التى كانت فيها الكنيسة المسيحية مسيطرة عليه ، وأن عصور النور والمعرفة لم تكن الا حين خفت حدة شر الكهنوت الى حد ما (٤) • وقد رد فولتـير جريمـة التعصب الى ايمان الناس بوجود دين منزل • ورأى أن هذا الدين قد صدرت عنه تقاليد وعقائد آمن الناس بها وهى لاتتصل بالفضيلة ولا تمت بالعلاقة القائمة بين الناس بسبب من الاسباب•ومن هنا كانت حملاته على الدين الذى تنزل به الوحى وتبشيره بالدين الطبيعى ،

---

(١) فؤاد محمد شبل، المدينة الفاضلة، مرجع سابق، ص ٦٦.
(٢) سامى الدهان، جان جاك روسو ، القاهرة، دار المعـارف بمصر، ١٩٥٩ ، ص ٩١ .
(٣) كارل بيكر ، مرجع سابق ، ص ١٩٠—١٩١.
(٤) المرجع السابق ، ص ١٩١

دين العقل الذى يدفع الضمير الى الشعور بوجود كائن أعلى ، يحثنا على مزاولة الفضيلة دوما • (١)

آمن فولتير • بوجود اله هوت اليه طبيعة البشر ، ورأى أن هذا الاعتقاد ضرورى لصيانة كيان المجتمع فاذا لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه • فيجب ان يؤمن الناس بالله حتى تكون زوجتى أكثر وفـاء لى ، وخادمى أقل نزوعا للاختلاس • وبهذا الاله الذى هداه اليـه عقله استغنى عن الوحى والكتب المقدسة واطلق على المسيحية اسم الكائن الوضيع •• وحارب الكنيسة ورجالهـا ، وناهضـن التعصب والخرافات وجاهد لاستئصالها جهاد الابطال ، رقاوم الأضطهاد ومزق جلود أهله • واحتلت مواقفه فى الدفاع عن التسامح الدينى ابرز مكان فى تاريخ الدفاع عن حرب الاعتقاد ، وكانت أولى حملاته كتيبا اسماه «مقبرة التعصب الدينى» (٢) •

وتابع روسو اثر فولتير فى انتقاد الاوضاع القائمة فى بلاده وفى ايمانه برسالة الطبقة المثقفة فى انتشالها من الوحدة التى تردت فيها، ولكنه حمل على نظام الملكية الخاصة ، واعتبرها مصدر شقاء العالم ونادى بالغائها ، والعودة الى حكم الطبيعة (٣) • وسنعرض الـــى جان جاك روسو باسهاب نظرا لاهميته فى اندلاع الثورة الاجتماعية على النظم السائدة فى فرنسا بالذات آنذاك •

---

(١) توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاســـلام ،دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ ، ص ١٣٤٠
(٢) توفيق الطويل ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ •
(٣) فؤاد محمد شبل ، مرجع سابق ، ص ٦٦—٦٧

المبحث السـابع

جان جـاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨)

ولد فى سويسرا ، وسكن فرنسا وتنقل فى أوربا ، وقضى العزلة شريدا طريدا • توفت امه وعمره ثمانية أيام ، وتوفى أبيه وعمره ست سنوات، وحرم من بلده وعمره ستة عشر عاما (١)،كان روسو سىء الحظ فعاش شريدا بائسا ، ولعل كان لهذا أثر فى عبقريته ووضع مبادئه • وعاش روسو كذلك فى بيئة فاسدة قاسية ،وكان لهذا عمل عظيم فى نضج آراءه والكشف عن كثير مما يحيط به من المفاسد والشرور ، والجهـر بآرائه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية • كان روسو عليلا فآثر الحياة الهادئة على غيرها • فكان هذا عاملا فى عمق تفكيره (٢)• عاش مع الفقراء فعرف كيف يعيشون ، وعاش مع الاغنياء فادرك كيف ينعمون ، ومايز بين هؤلاء وهؤلاء واستنبط من ذلك دروسـا وعبرا ، تكيفت بها آراؤه • واختلفت آراء معاصريه فيه ، وتباينت احكامهم عليه ، فكان منهم الصديق والعدو ، وكان منهم المعجب المدافع عنه ، والمبغض الذى يقسو عليه • لذلك كانت مهمة الحكم على روسو شاقة غير يسيره • وكان للبيئة التى يتصل بها روسو كل الاتصال فى باريس اثر كبير فى ثقافته العلمية والادبية والتربوية فقد اتصـل بكثير من العلماء والادباء والفلاسفة والاقتياديـين والسياسيين فى عصر الملك لويس الخامس عشر (٣) — مثـل دى المبير وفولتـير •

---

(١) سامى الدهان، جان جاك روسو ،دار المعارف، ١٩٥٩ ،ص١٤—٢٧

(٢) جان جاك روسو ، العقد الاجتماعى ، ترجمة عـادل زعيتر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠

(٣) محمد عطية الابراشى ، جان جاك روسو ، دار احياء الكتب العربية ١٩٤٦، ص ٦٣. «وكان روسو سريع التاثر، قوى الذاكرة، قليـل النسيان، ميالا الى الحزن، ولاعجب فقد ورث عن امه قوة فى الوجدان ورقة فى العاطفة، وشدة فى التاثر. مكث روسو مشردا سته اشهر،

وحينما عاش القرن السابع عشر للميلاد على أفكار متدينة ، وكتب ترفع للكنيسة منارا وقدسية وخاصة فى فرنسا ، حتى أن أكثر ادبائها وفلاسفتها كانوا من رجال الكنيسة ... تبدلت النظرة الى الكنيسة والدين فى القرن الثامن عشر ، فلم يعمد أكثر الكتاب الى الدفاع عنهما ، وان كان كثير منهم يؤمن فى عمق ولكن قلمه لايجرى فى الحديث عن هذا الايمان الا نادرا وذلك مثل منتسكيو (١) .

وكذلك كان روسو الذى نادى بآراء اصلاحية فى عصر كثر فيه التعسف والاضطهاد واشتد الجور والاستبعاد .

وكانت الرقابة على ما يكتب وينشر من أشد ما عرف فى عصر من العصور ، فعرض نفسه للنفى والهرب من الاعتقال . وقد كان روسو يحس بشرور الاضطهاد الدينى كما يحس بها فولتير ، ولذلك فانه يجد أشكالا عديدة للحكومات ، تتمثل أولها حينما يفوض السيد الى جميع الشعب أو الى أكبر قسم منه ، عبء الحكومة من المواطنين الحكام . ويطلق اسم «الديمقواطية» على شكل الحكومة هذا . أو يمكن للسيد أن يحصر الحكومة فى يد عدد قليل ، ويطلق اسم «الاريستوقراطية» على هذا الشكل . وأخيرا يمكن للسيد أن يجمع

رجع بعدها (سنة ١٧٢٤) الى بيت خاله (برنارد) فعنيت به زوجة خاله العناية كلها ، وعاملته بكل عطف وشفقه . وارسل وعمره ثلاث عشرة سنة الىأحد الكتاب ليتعلم منه الكتابة. ولم ينجح روسو فى عمله فاعيد الى خاله، فأرسله ثانية عام ١٧٢٥م الى نقاش ليتعلم منهفن النقش. وقد حدث سنة ١٧٢٨ أن خرجفى يومالاحد معبعض أصدقائه فى رحلة خارج جنيف، ثم تأخر فى المساء وعاد بعد ان أغلقت المدينة ابوابها، فلمارأى أبواب الجسرقد رفعت وعجز عن دخول جنيف ،تذكر مالحقه من الم فصمم على الا يعود وهرب ، فعاش مع من يعرفهم من اخوان لايعرفون الاالشر والرذيلة، فساءت أحواله وانحط مستواه» .

(محمد عطية الابراشى ، جان جاك روسو ، القاهرة ، دار أحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه ، ١٩٤٦ ، ص ١١—١٢).

(١) سامى الدهان ، مرجع سابق ، ص ٩ .

جميع الحكومة فى يد حاكم منفرد يستمد الاخرون سلطانهم منه ، وهذا الشكل الثالث هو أكثر الاشكال شيوعا ، ويسمى «الملكية» أو الحكومة الملكية (١) • وهو لايرى أن كل الاشكال للحكومة تلائم جميع البلدان •

ويوضح (روسو) أصل المجتمع والقانون اللذين ربطا الضعيف بقيود جديدة ، ومنح الغنى قوى جديدة ، فقضيا على الحرية الطبيعية من غير رجوع ، وثبتا قانون التملك والتفاوت الى الابـد ، وحولا اغتصاب البقاء الى حق لاينقض ، وسخر الجنس البشرى للعمـل وللعبودية والبؤس نفعا لبعض ذوى الطموح (٢) •

ويقصد روسو باتباعه الرأى السائـد على عـد نظام الهيئة السياسية عقدا حقيقيا بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم ، عقدا يلزم كل من الفريقين نفسه بمراعاة القوانين التى اشترطت فيـه ، فتؤلف روابط لاتحادهما ، وبما أن الشعـب فى موضوع الصـلات الاجتماعية يجمع جميع أرادته ضمن ارادة واحدة ، فان المواد التـى توضح بها هذه الارادة تصبح قوانين اساسية تلزم جميع أعضاء الدولة من غير استثناء ، فينظم احدهما ، والخيار لسلطة الحكام الموكل اليهم أن يسهروا على تنفيذ الاخرى ، وتعم هذه السلطة كل مايمكن أن يحفظ النظام من غير ذهاب الى الحد الذى يغير به • والى هذا تضاف أنواع من الشرف تجعل القوانين وحفظتها محترمة ، وتجعل لهـؤلاء شخصيا من الامتيازات ، ما يعوضهم عن الاعمال الشائعة التى تكلفهم الارادة الصالحة بها • والحاكم من ناحية يلزم نفسه الا يستعمـل السلطة التى عهد اليه أن يقوم بها ، الا وفق مقصد موكليه ، وبـأن يجعل كل واحد يتمتع بما هو خاص به تمتعا هادئا ، وبأن يفضـل

---

(١) بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى، مرجع سابق، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ • وكذلك العقد الاجتماعى ، ص ١١٢ •

(٢) أصل التفاوت بين الناس ، ص ١٠٤ •

المصلحة العامة على المصلحة الشخصية فى كل فرصة (١) • اذ يقول : «وأتصور وجود نوعين للتفاوت فى الجنس البشرى • فالنوع الاول ، هو ما ادعوه الطبيعى أو الفزيوى لانه من وضع الطبيعة ويقوم على اختلاف الاعمار والصحة وقوى البدن وصفات النفس أو الروح • والنوع الثانى ، هو ما يمكن أن ادعوه التفاوت الادبى أو السياسى لتوقفه على ضرب من العهد لقيامه ، أو للاذن فيه على الاقل ،بتراضى الناس ويتألف هذا النوع من مختلف الامتيازات التى يتمتع بها بعضهم اجحافا بالاخرين ، كان يكون أكثر من هؤلاء ثراء أو اكراما أو قـوة أو أن يكون فى وضع ينتزع فيه الطاعة » •

وبناء على ذلك يظهر روسو سبيلين لانحطاط الحكومة ، فيرى أن الحكومة يمكن أن تتغير من ديمقراطية الى اريستوقراطية ثم الى ملكية • ويرى أنه اذا تقهقرت الحكومة من العدد الصغير الى الكبير أمكن القول بأنها ترتخى ، غير أن هذا التقدم المعاكس مستحيل (٢) ، بل ويمكن أن تنحل الدولة عندما ينقطع الامير عن ادارة الدولة وفـق القوانين ، ويغتصب السلطة ذات السيادة ، حيث تتقلص الدولة وتنحل وتتألف منها دولة أخرى ، فتنحط الديمقراطية الى حكومة عـوام ، والاريستوقراطية الى حكومة أعيان ، والملكية الى طغيان (٣) •

ففى رسالته فى «اثر العلوم والفنون فى تهذيب الاخـلاق أو فسادها» يتضح عداءه لنظام الطبقات وعداءه للتقاليد العادية والترف والمدنية ، والمظاهر اللاجتماعية ، وعداءه لمن يعتدى على الحريـة • وبرهن على أن التفرقة بين الاغنياء والفقراء مصدر كل شقاء فى هذا العالم ، وأنه لاسعادة فى هذه الحياة الا بالمساواه بين الانسان وأخيه الانسان • ولقد ذكر روسو أن عدم المساواة هو السبب فى كل شىء

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ •
(٢) العقد الاجتماعى ، ص ١٣٩ — ١٤٠ •
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٠ — ١٤١

وان العلم مقصور على الاثرياء فى ذلك العصر • وفى الوقت الذى يضيع فيه الاغنياء ثروتهم فى أنـــواع المسرات والملذات ، لايجـــد الفقير ما يكفيه من الطعام (١) •

لقد أقام الدليل على أن العلوم والفنـون أفسدت الاخـلاق وأوجبت شقاء الانسان • وادعى ان التـرف والحضارة من نتائـــج العلوم والفنون • وانهما علة فساد ألاخلاق ، فقال بالرجوع الـــى الحياة الطبيعية • ومما ذهب اليه فى تلك الرسالة كون الثقافة أقرب الى الشر منها الى الخير ، وكون التفكير مناقضـــا لطبيعة الانسان ، وكون الفضيلة والامانة والصدق لا أثر لها فى غير الحال الطبيعية حيث لاعلوم ولافنون ••• والواقع أن هذه الرسالة تحتوى أصـــل مذهب (روسو) وعقيدته ، ومنها تعلم عداوته للترف والمدنية ونظام الطبقات كما تعلم منها دفاعه عن الحرية (٢) •

وفى رسالته فى «التفاوت أو عدم المساواة» يريد الرجـوع الى الطبيعة • وهو ضد الملكية ويعدها نوعا مـن الاغتصاب والسرقـة وضد العبودية والترف والمدنية • وقد اثبت أن المدنية هى السبـب فى التفاوت وعدم المساواة بين الناس • وفى رسالته فى « الاقتصـاد السياسى» يرى أن تقوم الحكومة بتعليم جميع الاطفال تعليما حقـا تتحقق فيه المساواة ، حتى يعتاد كل طفل المبادىء (الديمقراطية) ، ويتكون نشىء كامل ، ولايكون هناك نظام طبقات أو فرق كبير بـين الغنى والفقير • وروسو كان ضد الملكية الخاصة لاعتقاده أنها السبب فى عدم المساواة والسبب فيما يرتكبه الغنى من رزائل ، وما يلحـق الفقير من شقاء ، وما يلحق الانسانية من ذل وعبودية (٣) •

بدأ هذه الرسالة بمناقشة حول طبيعة الدولة وامكان التوفيـق

---

(١) محمد عطية الابراشى ، مرجع سابق ، ص ٦٦ — ٧٠

(٢) العقد الاجتماعى ص ١٣ — ١٤

(٣) محمد عطية الابراشى ، مرجع سابق ، ص ٧٢ — ٧٧.

بين وجودها وحرية الانسان ، فرأى أن الدولة هيئة تهدف الى سعادة جميع أعضائها ، وجعل جميع وجهات نظره فى النهاية تابعـــا لهـــذا الهدف ، وذهب الى أن الكماليات وحدها هى مايجب أن تكون تابعـة للضرائب ، والى وجوب فرض ضرائب فادحة على أمور الترف ، والى عدم وضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح •

ولم تشتمل رسالته «الاقتصاد السياسى» على كثير من مباحث الاقتصاد المعروفة ، بل تحتوى آراء (روسو) السياسية اجمالا ، وقد وضعها أيام عمت المجاعة فرنسا • فكان الفقراء يموتون عن احتياج، على حين يتمتع الاغنياء باطايب النعم وضروب الترف (١) •

وتكون اشكال الحكومة المختلفة مدينة تختلف تبعا لما بين الافراد من الفروق ، واذا كان أحد هؤلاء متفوقا فى القوة أو الفضل أو الغنى أو الوجاهة انتخب حاكما وصارت الدولة ملكية ، واذا كان الكثيرون متساوين فيما بينهم تقريبا وكانوا يفوقون الاخرين انتخبوا معـا وتكونت اريستوقراطية • ومن كان الثراء والمواهب عندهم أقل تفاوتا وكانوا أقل بعدا عن حال الطبيعة حافظوا بالاشتراك مع الادارة العليا والفوا ديموقراطية • وتؤدى الفروق السياسية الى فروق مدنيـة بحكم الضرورة • ولا يلبث التفاوت الذى يزيد بين الشعب ورؤسائه أن يشعر به الافراد ، فيتحول على الف وجه وفق الاهواء والمواهب والمصادفات • بيد أن التفاوت ينتشر من غير مشقة بين ذوى الطموح ، والجبن من النفوس المستعدة للسعى وراء مخاطر النصيب فى كل وقت، والتى لاتبالى بالسيطرة أو الخدمة على حسب ما تكـون ملائمة أو معاكسة لها • وبما أنه ليس لانسان سلطان طبيعى على مثله ، وبمـا ان القوة لاتوجب أى حق ، فان العهود تظل اساسا لكل سلطان شرعى بين الناس • وتنازل الانسان عن حريته يعنى تنازلا ع صفة الانسان

(١) العقد الاجتماعى ص ١٥ — ١٦

فيه وتنازلا عن الحقوق الانسانية وعن واجباتها أيضا • ثم أن مـن العهود الباطلة المتاقضة اشتراط سلطان مطلق من ناحية وطاعة لاحد لها من ناحية أخرى •

وهكذا يكون حق الاسترقاق باطلا ، لا لانه غير شرعى فقط ، به لانه مخالف للعقل خال من كل معنى ايضا • فكلمتـا الاستبعاد والحق متناقضتان ، متنافيتان ، ومن الحماقة أن يقول رجل لرجـل أو لشعب : اضع معك عهدا يجعل كل غرم عليك وكل غنم لى ، واراعى هذا العهد ماراقنى ، وتراعيه ما راقنى (١) • وهكذا يضع روســو شروطا للعقد الاجتماعى ،واحدةفى كل مكان •وهو يرد جميعهذه الشروط الى شرط واحد ، وهو بيع كلٌ مشترك — مع جميع حقوقه من المجتمع بأسره — بيعا شاملا ، وذلك أولا أن الشرط متساو نحو الجميـع ما وهب كل واحد نفسه بأسرها • وأنه لامصلحة لاحد فى جعل الشرط ثقيلا على الاخرين ، ما كان الشرط متساويا نحو الجميع • وعليـه فان روسو يضع الكلمات التالية لتدل على العقد الاجتماعى • يضع كل واحد منا شخصه وجميع قوته شركة تحت ادارة الارادة العامة ، ونحن نتلقى كهيئة كل عضو كجزء خفى من المجموع » (٢) • وبهذا يرى روسو أن المجتمع السياسى ظهر نتيجة «عقد اجتماعى» • لان السلطة وتحقيق الحرية لايمكن ظهورها دون موافقة جميع الافراد • واعتمد روسو فى هذا الجزء من نظريته على افكار هوبز ولوك ، ولكنه جمع بينهما بطريقة غير منطقية • فهو يرى أن كل فرد تنازل عـن حقوقه الطبيعية للمجتمع بأسره باعتبارها مجموعة واحدة • وهـذا التنازل أوجد شخصية سياسية تتمتع بحياة خاصة ، وبارادة مستقلة، وتنفصل عن حياة الافراد المكونين لها وعن ارادتهم • وهذه الشخصية

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ — ٤٥

السياسية هى التى نسميها «الدولة» . والسيادة التى تترتب عـلى هذا التعاقد هى التى تميز الدولة عن المجتمعات الاخرى . ولكل فرد نصيب من هذه السيادة يساوى نصيب الاخر . وهذا الجزء من الذى يخصه لايمكن انتزاعه منه . وبموجب هذا العقد يكتسب الفرد جميع الحقوق التى كان قد تنازل عنها للمجموع ، وتتولى الدولة حمايـة هذه الحقوق . كما يرى روسو أن الارادة العامة هى المظهر الوحيد للسيادة التى لاتكون الا للشعب فى مجموعة (١) .

والسلطة التى تأتى عن طريق القوة من وجهة نظر روسو لاتمنح صاحبها حقا من الحقوق . واذا ما اضطر الانسان الى أن يخضـع لهذه القوة يوما ، فليس عليه جناح اذا لم يطعها . وينتهى روسـو الى القول بأن الحق الاجتماعى لايأتى من الطبيعة ، بل أنه قائـم على الارتباط بين افراد المجتمع الواحـد تجاه الاخـر . واذن .. فالمجتمع فى نظره يرتكز على عقد أو ميثاق ، أى على الارتباط المتبادل المتفق عليه بين أفراد هذا المجتمع . ويقترح روسو نظرية جـديدة لتنشىء شرعية السلطة السياسية ، فالسيادة المطلقة انما هى للشعب الذى لايمكنه أن يتخلى أو ينزل عنها . كما يعتقد أن الانسان كـان خيرا وحرا وسعيدا،ولكن المجتمع هو الذى جعله خبيثا ، وعبدا وبائسا. ومع ذلك فروسو يناقض هذ الرأى من جديد ، ويذكر انه من الاستحالة ان يرجع الى الوراء بل يجب أن يخضع للمجتمع . ان جميع الناس فى هذا المجتمع يرتبط الواحد منهم بالاخر تمام الارتباط بميثاق . وهذا الميثاق هو الذى يسوى بين الناس قاطبة فى الحقوق والواجبات كما أنه يجب أن يكون هناك عقد بين الشعب وحاكميه الذين اختارهم بمحض ارادته . هذا العقد يدفع الشعـب وحاكميه الى ملاحظـة القوانين

---

(١) بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، مرجع سابق ، ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .

التى اتفقوا عليها والتى تشكل روابط اتحادهما معا (١) .

واذا كانت الدولة أو المدينة لاتعد غير شخص معنوى تقـوم حياته على اتحاد اعضائه ، واذا كانت سلامتها الخاصة أهم ماتعنى به ، وجب أن تكون لها قوة عامة قاهرة لتحريك واعداد كل قسم على أكثر الوجوه ملائمة للجميع . وكما أن الطبيعة تمنح كل انسان سلطة مطلقة على جميع اعضائه ، يمنح الميثاق الاجتاعى الهيئة السياسية سلطانا على جميع اعضائها ايضا ، وهذه السلطة نفسها — وهى التى توجهها الارادة العامة — تحمل اسم السيادة (١) . ان لكـل انسان حقا فيما هو ضرورى له بحكم الطبيعة ، غير أن العقد الايجابى الذى يجعله مالكا لمال بيده من كل شىء آخر ، وهو اذا نال نصيبه وجب أن يقتصر عليه ، وعاد غير ذى حق فيما تملك الجماعة . ولقـد ادى الانتقال من الحال الطبيعية الى الحالة المدنية الى تغيير فى الانسـان جدير بالذكر كثيرا ، وذلك باحلال العدل محل الغريزة فى سيره ، وتمنحه أفعاله آدابا كان يعوزها سابقا . ولذلك يستهل روسو الباب الاول من كتابه «العقد الاجتماعى» بقوله : «اريد البحث عن امكان وجود قاعدة ادارية شرعية صحيحة فى النظام المدنى عند النظر الـى الناس كما هم عليه ، والى القوانـين كما يمكـن أن تكون عليـه ، وسأحاول أن أمزج دائما بين ما يبيحه الحق وما تأمر به المصلحة ، لكيلا يفصل بين العدل والمنفعة مطلقا (٢) . غير أن النظام الاجتماعى حق مقدس يصلح قاعدة لجميع الحقوق الاخرى . ومع ذلك فان هذا الحق لايصدر عن الطبيعة مطلقا ، وهو اذن قائم على عهود ، فعن طريق الميثاق الاجتماعى منحنا الوجود والحياة للهيئة السياسيـة ، ويرى روسو وجوب ان يمنح الهيئة السياسية الحرية والارادة وذلك

---

(١) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢) جان جاك روسو ، العقد الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٦٦

(٣) جان جاك روسو ، العقد الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٧

لان العقد الابتدائى الذى تألفت به هذه الهيئة والتحمت به لم يعين شيئا مما يجب أن يصفه للبقاء • ويصرح روسو فى أصل التفاوت بين الناس» بأنه لايفترض وجود الحال الطبيعية فعلا ، وانما يستحسن حالا من الهمجية متوسطة بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية يحافظ الناس بها على السلطة ومنافع الطبيعة • ويظهر من تعليقات روسو على متن الرسالة انه لايريد رجوع المجتمع الفاسد الحاضر الى حال الطبيعة ، وأنه يعد المجتمع أمرا لامفر منه مع فساده • وهو يعلل هذا الفساد بالتفاوت بين أفراد المجتمع فى المعاملات والحقوق ، فيتغنى بالانسان الطبيعى الطاهر ويقول بتلك الحال المتوسطة حيث تسود المساواة (١) •

---

(١) جان جاك روسو ، العقد الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ١٥ •

تقويـم الاتجـــاه الاوروبى

يتضح من العرض السابق ان الاتجـاه الاوروبى كان سجين السيطرة الكنسية • ويتضح ذلك من عرضنا فى هذا الفصل الى كـل من شيشرون وسنيكا والقديس أوغسطين باعتبارهم ذوى اثر واضح فى الدفاع عن المسيحية كديانة عن طريق فكرهـم الذى تميز لـدى شيشرون بفكرة القانون الطبيعى الذى يكفل مساواة البشر • والذى دفعه الى ذلك اضطرابات الاغريق ، وثوراتهم • تلك الاضطرابـات نفسها هى التى دعت سنيكا الى مهاجمة فكرة الرقيق • ولقد تحدثنـا عن هذين الكاتبين لا باعتبارهما يمثلان فكرة أو منهجـا فى دراسـة التدرج الطبقى ، ولا حتى يذهبان الى تحديد ابعاده ، ولكـن باعتبار انهما تكلما عن المساواة بين الطبقات • بمعنى أن أولهما دعـا الى القانون الطبيعى ، وذهب الثانى الى مهاجمة الرق • أمـا القديس أوغسطين فقد كان أكثر الكتاب دفاعا عن الكنيسة وسيطرتها • وكانت نفس الظروف المجتمعية هى التى دعته الى أن يذهب الى الالهيـات والسيطرة الكنيسية المتمثلة فى «مدينة الله» التى دعا اليها •

وفى هذه الاثناء ساد الاقطاع العصور الوسطى بالاضافة الى عدم الاستقرار السياسى ، والحيلولة دون تكوين سلطة مركزية موحدة تستطيع بها الدولة بسط نفوذها على سائر الارجاء وتميزت العصور الوسطى بطابع عقلى بالاضافة الى الايمان الكنسى وكان « الجدل » منهج البحث فيها • ويظهر القديس توما الاكوينى ليعتمد على الانجيل وارسطو وما كتبه علماء المسيحية الاول ، فى كتاباته • وبالرغم مـن انكاره للفوارق الطبقية الا أنه أباح الرق لانه – من وجهة نظره – يؤدى وظيفة اجتماعية ضرورية • و فى أواخر العصر المدرسى ، نهضت الكنيسة لمقاومة التيارات العقلية • بدأت حركة الاحياء العلمى فى وقت ساد الانحلال الخلقى • فاتجهت الحركة الكنسية الى ارجـاع الدين الى الكتب المقدسة ، ورفض للتسليم باحتكار الكنيسية لتفسير

نصوصها من جانب ، وحثها المزعوم بصدد غفران الذنوب من جانب آخر • ومن اعلام هذه الحركة مارتن لوثر الذى أعلن بطلان الصكوك التى كانت تبيعها الكنيسة للناس ، وامتدت ثورته الى البابوية نفسها، فاعلن أنها بدعة خلا منها عهد الرسل الاولين • وارتأى سيطرة الدولة على مرافق الحياة • وتبـع ذلك ثورات واضطرابـات اجتماعيـة وسياسية ، لحقتها اتجاهات التسامح الدينى فى انجلترا وفرنسـا بوجه الخصوص •

وكان لذلك اثره البالغ فى الاتجاهات الاصلاحية فيما قبل التطور الصناعى • بيد أن الثورة الصناعية وما لحقها من ثورات سياسيـة واجتماعية ، كان لها أكبر الاثر فى تطور الاتجاهات الفكرية والاصلاحية منهـا ، والسياسية • ونجد هـذه الاتجاهـات متمركزة فى ثلاث أولها : الاتجاه الذى يعتمد على فكرة القومية والقانون الطبيعـى • وثانيها : اتجاه المدرسة الفرنسية بالذات فيما قبل القرن الثامن عشر • وثالثها : الاتجاه الممهد للماركسية • ومن عرض هذه الاتجاهات الثلاث نستطيع بيان الروافد الاساسية التى اعتمد عليها الفكر فيما بعد القرن الثامن عشر • وذلك باعتبار الفكر تراكم معـرفى متأثـر بالظروف المجتمعية السائدة فى كل حقبة تاريخية •

وفيما يرتبط بالاتجاه الاول فقد عرضنا لاهم رواده • حيث أوضح ميكافيللى سلطة الكنيسة ومساوئها • وأن الشعب يحمل بين ثناياه عناصر هدمه • وتمسك الناس بالمصالح المادية حيث تصبح فى كل مدينة جماعتان : الشعب وطبقة الاريستوقراطيين • فى حين ذهب السير توماس مور الى مدينة مثالية متألفة من ٤٤ مدينة فرعية يتكلم أهلها جميعا لغه واحدة ويلبسون ملبسا متشابها • وهو يقصد بمدينته تلك (اليوتابيا) جزيرة بلا أرض ، نهرها بلا ماء ، وشعبها بلا ناس • أى أنها مدينة من نسج خيالاته ، يوضح فيها ما ينبغى أن تكون عليـه الدولة • ويذهب توماس كامبانيلا فى «مدينة الشمس» الى مجتمع

خيالى آخر ، يراه مجتمع المستقبل • وأن كان كل ن مكيافيللى وتوماس مور وكامبانيللا قد ذهب الى مجتمع مثالى والى بيان مفاسد النظام القائم آنذاك معتمدا على الرجوع الى الطبيعة ، أى الحالة الفطرية للانسان ، فان جان بودان قد ذهب الى ذلك عن طريق فكرة قومية ، وان جون لوك قد أتى بأفكار أخرى تعالج ظروف مجتمعه معتمدا على المنطق والتعقل فى التسامح الدينى •

أما الاتجاه الفرنسى فيما قبل القرن الثامن عشر ، فلقــد ذهب منتسكيو — مثلا — الى تحليل النظم السياسية والاجتماعية والدينية مثلما فعل لوك فى انجلترا •• داعيا الى الحرية والمســاواة وسيادة القانون ، مبتدئا بفكرة القانون الطبيعى • ومــا أن قامــت الثورة الفرنسية حتى وجدنا فئة من المفكرين فى مقدمتهم فولتير وروسو • ذهب فولتير الى نقل السلطة من الكنيسة الى المفكريــن الاشراف والامراء مبشرا بالدين الطبيعى • دين العقل الذى يدفع الضمير الى الشعور بوجود كائن أعلى يحثنا على مزاولة الفضيلة • ولقد تابــع روسو فولتير فى انتقاد الاوضاع القائمة فى بلاده ، وفى ايمانه برسالة الطبقة المثقفة ، حاملا على نظام الملكيــة الخاصة باعتبارها فروقــا طبيعية بالرغم من كونها من صنع العادات وأسلوب الحياة المتبع • وهو يرى ان كل من أصل المجتمع والقانون ، انما يربطا الضعيف بالقيود ويمنح الغنى القوى • وهما الاصل فى تكوين تلك الفروق الطبقية •• الطبيعى منها والادبى أو السياسى •

ولقد كانت «الطبيعة Nature هى المصطلح الذى تأكد كثيرا وأصبح بؤرة الفكر فى القرن الثامن عشر • ويعتبر روسو الكاتب الذى جعل من هذا المصطلح اساسا لتفكيره • وسواء كان روسو مؤرخــا أو فيلسوفا ، فانه أعطى قوة دفع لحركات الفكر فى الادب والفلسفة والتربية والسياسات • وعلى العكس من افلاطون الذى فكر فى امكانية تغيير الطبيعة البشرية عن طريق تغيير النظم البشرية ، فقد رأى روسو

امكانية ان تصل الطبيعة البشرية الى ما ينبغى أن تكون عليه ، عـن طريق الغاء النظم البشرية . فكل شىء يشوه ويكبح الطبيعة البشرية يجعلها خاطئة على الدوام . أى ان الانسان الطبيعى يعنى الانسان الحقيقى . وهكذا تعنى العودة الى الطبيعة ، عـودة الى البشريـة الجوهرية للانسان ، والتى كانت بعيدة عـن كل القيـود الزائفـة والمتكلفة . فلقد ولد الانسان حرا ، ومعنى هذا ، أن يظل حرا ، ولكنه يعيش مقيدا بالاغلال (١) .

وعندما يعيش الانسان فى مجتمع ما ، فانه يتمتع بالحرية فقط اذا أرادها ذاته نوعا من الحكومة التى تجلب له أفضل ما يرجو . هذه الطاعة الطوعية التى يخضع لها كل أعضاء المجتمع هى نتيجـة للارادة العامة التى لاتكون خاطئة ولاتفعل الخطأ ؛ لانها ارادة جمعية للمجتمع المحلى ولان المشاركة لجميع الارادات فيها تحدث قبل أن توجد هى . وبهذا ، فان الارادة العامة تعنى أن الانسان يجب أن يخضع ارادته لذلك الكل الاوسع ، والذى يطلـق عليه مصطلـح «الدولة» .

(1) J.H. Abraham, op, cit., pp. 50-51.

المراجع المستخدمة

١ ــ بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، المدخل فى علم السياسة ، ١٩٥٧ .

٢ ــ توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ .

٣ ــ جاستون بوتول ، ابن خلدون :فلسفته الاجتماعيه ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ .

٤ ــ جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة غنيم عبدون مجموعة من الشرق والغرب ، العدد ٧٨ .

٥ ــ جان جاك روسو ، العقد الاجتماعى ، ترجمة عادل زعيتر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ .

٦ ــ جان جاك روسو ، أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ .

٧ ــ جورج سباين ، تطور الفكر السياسى ، الكتاب الثانى ، ترجمة حسن جلال العروسى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .

٨ ــ سامى الدهان ، جان جاك روسو ، دار المعارف ، ١٩٥٩ .

٩ ــ عبد الرحمن شهبندر ، القضايا الاجتماعية الكبرى فى العالم العربى ، ١٩٣٦ .

١٠ ــ فؤاد محمد شبل ، المدينة الفاضلة : بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين ، مكتبة النهضة المصرية .

١١ — كارل بيكر ، المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، ترجمة محمد شفيق غربال ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ .

١٢ — محمد عطية الابراشى ، جان جاك روسو ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ .

١٣ — محمد مختار الزقزوقى ، نيقولا ماكيافيللى ، مكتبة الانجلـو المصرية ، ١٩٥٨ .

١٤ — مصطفى الخشاب ، النظريات والمذاهب السياسية .

١٥ — يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٤٦ .

١٦ — يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٧٩

١٧ — ول ديورانت ، قصة الحضارة : حضارة اليونان ، ترجمةمحمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ .

١٨ — ويد جرى ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبـد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٢ .

١٩ — ويلز ، موجز تاريخ العالم ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

20 — Abraham, J.H, The Origins & Growth of Sociology, 1973.

21 — Aron, Raymond, Main Currents in Sociological Thougt, Vol. I, 1974.

22 — Becker & Barnes, Social Thought from Lore to Science, 1952.

23 — Bendix & Lipset, Class, Status & Power, 1953.

24 — More, Thomas, Utopia, London, 1913.

الفصـــل الرابع

مولد عــلم الاجتماع الحديث

الفصل الرابع

مولد علم الاجتماع الحديث

بدأ القرن التاسع عشر في اعقاب ثلاث ثورات أولها الثورة الامريكية التي كانت ثورة في صورة عصيان شعب مستعمر . وكان نتيجة ذلك تكوين أول حكومة جمهورية في الازمنة الحديثة ، والتي من خلالها تمثل أفكار المساواة والسعادة البشرية حجر الزاوية في النسق السياسي والاجتماعي . وثانيها الثورة الفرنسية التي تعتبر أكثر عنفا وصراخة ، لاثرها السريع والواضح - السلبي والايجابي - الذي انعكس على الانساق السياسية لاوربا وأمريكا ، وأصبح نموذجا لكل الثورات اللاحقة . لم تكن فرنسا بعيدة عن السياق الاجتماعي والظروف التي سيطرت على أواخر القرن الثامن عشر ، ولكن كان هناك وعي لدى طبقة الشعب النامية في المدينة والقرية بالضجر من الاثار الناجمة عن العصور الوسطى . وكان هذا الوعي يفترض امكانية ايجاد نسق اجتماعي جديد يتسم بالتحرر من الاغلال. أما الثورة الثالثة فهي الثورة الصناعية التي اتجهت نحو تحول البناء الاساسي - الاقتصادي والاجتماعي - في أوربا وبقية أنحاء العالم. لقد كان نموها بطيئا ، واحيانا بطرق خفية . الا أن تقدم العلم والرياضيات عمل على تعجيل عملية اختراع الالة لتحل محل العمل الانساني لكي تزيد من الانتاج . وبهذا حدثت تأثرات لقوى الانتاج الجديدة في النسق الاجتماعي (١) .

وفي ذلك الحين ، وضع آدم سميث Adam Smith أسس علم الاقتصاد ، والذي عن طريقه يمكن تحليل عوامل الانتاج المعقدة والتجارة والسوق ، على أساس مبادىء عقلية ثابتة .

---

(1) J.H. Abraham, op. cit., pp. 83-84.

وجاءت خطوط أخرى من الفكر من مصادر عديدة ، حاولت فهم مدى التغير الذى حدث فى النسق الصناعى الجديد، وكانت هذه الخطوط تلتقى جميعها نحو التفكير فى الانسان • وكان سان سيمون Saint - Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥) أول من عمل على تعميق النظـرة فى المضامين الاجتماعية والسياسية للتصنيع (١) • وكانت لافكار سان سيمون أثرها فى أفكار أوجست كومت الذى نظر الى المجتمع نظـرة وضعية كان لها أثرها — أيضا — فى الفكر الاجتماعى ، والذى دعا بوضوح الى ضرورة قيام علم الاجتماع • ومن خلال آراء أوجست كومت استطاع علم الاجتماع ان يقف فى وجه التغيرات السريعـة التى لحقت بالمجتمع والتى تحتاج الى علـم يكتشف أسباب هـذه التغيرات والنتائج المترتبة عليها •

وانحدرت من أفكار كومت وظروف عصر التنوير والعقلانية والفكر الحر ، مدرسة فكرية حملت مشعل علم الاجتماع فى فرنسا ، وكان من أبرز أعضاء هذه المدرسة اميل دوركايم الذى تأثر بالفكر الديكارتى والمذهب الوضعى الذى أرسى قواعده أوجست كومت • ووضـع دوركايم أصول ومناهج علم الاجتماع ، وتطرق لموضوعات ذات أهمية فى التراث السوسيولوجى •

ومثلما كان الحال فى فرنسا ، اتخذ علم الاجتماع مسارا متميزا فى بريطانيا ، اذ ارتبط بالذوق البريطانى من أجل السعى نحو حـل نهائى وقاطع للنظام الاقطاعى الذى ساد أوربا ، والتحول الصناعى الذى لفت الانظار الى ضرورة تحليله وتفهمه • ويمكن القـول بأن دافيدهيوم David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) هـو موجد هـذه الحركة الفكرية التى كان لها الاثر للتحول الى الفلسفة الامبيريقيـة التى عاشت فى انصف الاول من القرن التاسع عشر فى علم النفس

---

(1) Ibid, p. 85.

الترابطى • كما كان لادم سميث Adam Smith آثاره فى تحـول الفكر البريطانى بعيدا عن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية ومتجهـا نحو تهذيب وتعديل النظرية الاقتصادية ومبادىء الاقتصاد خـلال القرن التاسع عشر •

ويعتبر هوبرت سبنسر Herbert Spencar أعظم عـالم اجتماع انتجته انجلترا • اذ سيطر على الفكر الاجتماعى زهاء نصف قرن • واستمرت اعماله موضع الاعتبار فى امريكا • كما أن نظريـة دوركايم عن المجتمع تأثرت تأثيرا مباشرا بالنظرية السوسيولوجيـة الخاصة بسبنسر • وكانت فلسفة بيرجسون Bergson رد فعل الى حد ما لنظريات سبنسر البيولوجية •

واذا كان علم الاجتماع فى المانيا قـد تأخر ظهـوره ، وكانت أصوله غير مباشرة ، اذا ما قيست بمكانة علم الاجتماع فى فرنسا ، فان التراث الفلسفى فى المانيا كان متزايدا واصطبغ بالسياسة المرتبطة بالقضايا الكبرى التى يعيشها العالم • ويمكن أن تكون أعمال كانط Kant الفلسفية المرتبطة بدراسة القانون والمجتمع والحياة الخلقية والمساواة ، أساسا نظريا لعلم جديد عن المجتمع • كما كانت لافكـار هيجل Hegel أثرها فى منهجية العلم والفكر الاجتمـاعى • وجاء ماركس متأثرا بأفكار هيجل ، ووضع نظرية ثورية للمجتمع يمكن أن تكون مرشدا فى دراسات البناء والتغير الاجتماعى ، وان كانت هناك بعض الانتقادات التى وجهت اليها •

وعلى هذا نعرض لثلاثة من رواد الفكر السوسيولوجى فى كل من هذه المجتمعات الثلاثة ، اذ يمثل أوجست كومـت بدايات عـلم الاجتماع فى فرنسا ، ويمثل كارل ماركس بدايات العلم فى المانيا ، كما يمثل هربرت سبنسر بداياته فى انجلترا •

المبحث الأول

أوجست كومت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧)

فيلسوف فرنسى ، ولد فى مدينة مونبليه Montpellier وبعد أن أتم دراسته الجامعية شغل وظيفة معيد بمدرسة الهندسة ، ثم عين بعد ذلك سكرتيرا لسان سيمون وعاونه فى اخراج أبحاثه ومؤلفاتـه الى حيز الوجود • ويعد من أوائـل المؤسسـين لعلم الاجتمـاع الحديث (١) • وفلسفته فى الحياة وفى المجتمع متـأثرة بأفكار مـن سبقوه من فلاسفة القرن الثامن عشر ، كما أنه شعر بالاضطرابـات التى سادت عصره ومجتمعه ، وعاصر تقدم العلوم والاكتشافات فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وكون لنفسه فلسفة هدفهـا اعادة تنظيم المجتمع •

وأثناء قمة الفكر الديكارتى ، بدأ كومت دراسة مشكلات المجتمع بروح عقلية من خلال اطار فكرى تصورى محدد (٢) • ومن أهـم مؤلفاته «الفلسفة الوضعية» فى ستة أجزاء بدأ نشره من عام ١٨٣٠ حتى ١٨٤٢ • و «دروس فى الروح الوضعية» عام ١٨٤٤ ، و «نسق السياسة الوضعية» فى أربعة أجزاء نشرت من عام ١٨٥١ حتى ١٨٥٤ ، و «عقيدة الدين الوضعى» عـام ١٨٥٢ ، و «التركيـب أو التأليف الموضوعى» عام ١٨٥٦ ، أى قبل وفاته بعام واحد •

١ ــ الدعـوة لقيـام علم الاجتماع :

يذكر كومت ستة علوم أساسية ، ويرتبهـا على هـذا النحو : الرياضيات ، علم الفلك ، علم الطبيعة ، علم الكيمياء ، علم الحياة

---

(١) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع مذكور ، ص ٧١ .
(2) J.H. Abraham, op. cit., p. 86.

عم الاجتماع • ويرى أن هذه العلوم مكتسبة بالاستقراء • حتـى الرياضيات ، فيمكن اعتبارها علما عقليا بحتا بالرغـم من أصلـه الاستقرائى • والاستقراء يعنى دراسة الواقع للخروج بنتائج وقضايا نظرية • وعلى هذا ، فليس هنـاك علم عقلى بحت ، وأن الفلسفـة الواقعية هى جملة العلوم الواقعية •

وهكذا ، يتوج هذه العلوم علم جديد هو «علم الاجتماع» الذى يعتبر أكثر هذه العلوم تعقيدا وتركيبا • وهو علم يقوم على دراسة المجتمعات من الناحية الموضوعية والطبيعية • ومن هنا يجب تطبيـق المنهج الموضوعى على دراسة الظواهر الاجتماعية على أساس الملاحظة الموضوعية التى يمكـن أن تنتهـى بعـلم الاجتمـاع الى قوانـين سوسيولوجية عامة تفسر الظواهر الاجتماعية •

لقد وضع أوجست كومت علم الاجتماع على خريطـة العلم ، ليس فقط لمجرد اختراع المصطلح للعلم الذى يدرس المجتمع ، ولكن لانه الدراسة العلمية الاولى للمجتمع ، بحيث يمكن الاهتمام بدراسة حقيقة موضوعية خالصة من خلال التزام ذلك العلم بالوضعية • وفى هذا مزج كومت بين التجديد الفكرى ووضوح التصور والمعالجـة الواسعة المدى للافكار ، بحيث لانجد نظيرا له يجمع هذه الخصائص فى تاريخ الفكر الاجتماعى • فقد نبع تجديده للفكر من خلال ترشيد الاحساس الذى يتأتى بطريق طبيعى للشخصية العلميـة الموضوعية غير العاطفية • وجاء وضوح فكره من خلال الوعى العميق بالعمليات التاريخية التى تراكمت وبلغت ذروتها فى وضعية العلم ، وضرورة بناء نسق فكرى واقعى مستقل ، يمكن عن طريقة فهم هذه العمليات والاسهام فى تحسين ظروف الحياة الاجتماعية • واذا كتـب لعلـم الاجتماع الوجود ، فان العلم الاكثر تعميما — من وجهة نظره —

يأتى فى خاتمة قائمة كل العلوم التعميمية الاخرى (١) •

هذا العلم من ابداع أوجست كومت ، وقد خصص له ثلاثـة مجلدات من كتابه «دروس فى الفلسفة الوضعية» دعاه Sociologie فذاع هذا الاسم ، وعرفه بأنه : «العلم الذى يتخذ له موضوعا هو ملاحظة الظواهر العقلية والاخلاقية التى بهـا تتكـون الجماعـات الانسانية وتترقى » • وكثيرا ما يسميه بالفيزياء الاجتماعية Physique Sociale أو العلم الاجتماعى الطبيعى ليدل على منهجه الاستقرائى، وليميز بينه وبين علم السياسة الذى ينهج نهجا قياسيا ابتداء مـن فكرة الطبيعة البشرية أو من عنايته بالدولة أولا • وهذا لايمنع من أن يتضمن علم الاجتماع مسائل جوهرية من علم النفس والاقتصـاد السياسى والاخلاق وفلسفة التاريخ • والعلم فيه لاجل العمل ، فاننا — ولو أن الانسانية تنمو طبقا لقوانين ضرورية — نستطيع استعجال التقدم وتلطيف الازمات بتوفير الظروف الملائمة ، وذلك اما بتعديـل ظروف الحياة المادية كالتربة والغذاء ، أو بتعديـل ظروف الحيـاة الاجتماعية بالاخذ عن حضارات مختلفة ، أو بتدبير حكومى (٢) •

ونلاحظ أن أوجست كومت لم يضع لعلم النفس مكانا فى تصنيفه الشهير للعلوم ، اذ كان يعتقد ان كل ظاهرة نفسية يمكن الوصول الى تفسيرها اذا رجعنا الى علم الحياة من ناحية ، والى عـلم الاجتماع من ناحية أخرى (٣) •

ولذلك فان ما دعا كومت الى انشاء تلك الدراسة متمثلا فى حرصه على اصلاح المجتمع وتخليصه من عوامل الاضطراب والفساد • وذلك

(1) Ibid, pp. 86 - 87.

(٢) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعـارف ، ١٩٧٩ ، ص ٣٢٣ •

(٣) السيد محمد بدوى ، نظريات ومذاهب اجتماعية ، دار المعـارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٧ •

أنه رأى أن المجتمع البشرى فى عصره يشمله الفساد فى مختلف مناحى حياته ، وأن السبب الرئيسى فى فساده هذا يرجع الى فساد الاخلاق ، وأن السبب فى فساد الاخلاق يرجع الى فساد التفكير واضطراب طرق الفهم (١) •

واعتقد كومت مثل الكثيرين من معاصريه — أن المجتمع الحديث فى أزمة نتيجة لاختفاء أحد النظم الاجتماعية وميلاد نظام اجتماعى جديد • بمعنى التعارض بين النموذج الصناعى الحربى الدينى ، والنموذج الاجتماعى الصناعى العلمى ، وهذا ما يدعو لقيام علم وضعى اجتماعى هو علم الاجتماع (٢) •

أعلن أوجست كومت عن نشأة علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا فى ذاته لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية ، أى دراسة علميه شأنه فى ذلك شأن علوم الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا التى تدرس ظواهرها فى ضوء مناهج البحث العلمية ، ولعل الضرورة التى حدت به الى انشاء هذا العلم هى رغبته فى اصلاح المجتمعات المعاصرة له وانقاذها من مظاهر الفوضى الضاربة أطنابها فى مختلف شئون الحياة الاجتماعية من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربوية ، لانه كان يؤمن بفكرة أساسية مؤداها أن الفلسفة ليست لها غاية مطلقة فى ذاتها ، ولكنها وسيلة للوصول الى غايات عملية تخدم أغراض الاصلاح الاجتماعى وتسهم فى الارتقاء بالمستويات الاجتماعية والاخلاقية والدينية (٣) •

وعندما ظهرت مشكلة اصلاح المجتمع الفرنسى واعادة تنظيمه

---

(١) على عبد الواحد وافى ، عبقريات ابن خلدون ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٣ •

(2) Raymond Aron, op. cit., p. 65.

(٣) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول : تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ص ١٠٥ •

بعد ثورته الشهيرة ، اختلف كومت مع جمهرة المصلحين والمشرعين المعاصرين له . لان هؤلاء نظروا الى المسألة نظره سطحية ، وحاولوا معالجة الامور بسرعة وطفرة وارتجالية ، أما كومت فرأى أن المهمة شاقة وعسيرة وتتطلب مجهودا طويلا لابد أن يمهد له بوضع فلسفة جديدة للقضاء أولا على مظاهر الفوضى فى التفكير ، وعلى الاضطرابات فى مناهج البحث المستخدمة فى دراسة ظواهر العلوم .

ويمتاز كومت عن معاصريه بأنه ألقى على المجتمع الذى عاش فيه نظرة أوسع نطاقا وأسبر غورا ، فاتضح له مدى الاضطراب العقلى الذى يتصوره ، واتضح له أيضا أن التيارات العنيفة التى تقذف بالمجتمع لايمكن ان نعزوها الى أسباب سياسية أو اقتصادية بسيطة ،بل هى ناشئة عن الاضطراب الخلقى وفساد معايير الرأى العام، وهذا ناشىء بدوره عن الفوضى العقلية ، اذ أن كل ما يعتور التفكير من اضطراب وفساد لابد أن يتردد صداه فى مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى . فكأن الجهاز الاجتماعى ، أو الحركة الاجتماعية ، ترتكز فى نهاية تحليلها على التفكير الذى يعتبر فى نظره المحور الاساسى الذى تدور حوله كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، لان المجتمع ليس فى حاجة الى انسجام المصالح المادية والمنافع المتبادلة فحسب ، بل هو فى حاجة كذلك الى اتفاق عقلى ووحدة فكرية ، وذلك لضمان استقراره وتقدمه (١) .

وعلى هذا يتحدد هدف علم الاجتماع بدراسة الكائن الاجتماعى من جميع نواحيه . ذلك لان المجتمع يتكون من محصلة المعارف الفكرية والروحية والموضوعية التى تربط الاجيال كل بالاخر . ومن ثم فان المجتمع يتشكل من الافراد القابلين للتغيير والتطور ، لان المجتمع سريع القابلية للتكيف مع الظواهر الخارجية بمختلف أنواعها (٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦

(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع مذكور ، ص ٧٢ — ٧٣ .

ويرى كومت أن النظم الاجتماعية تتوقف على العادات والعرف ، كما تتوقف العادات الخلقية بدورها على المعتقدات . فيجب اذن تنظيم طريقة التفكير قبل وضع النظم الجديدة . وهذا لايحدث الا عـن طريق الاراء التى تتقلبها العقول . فالتنظيم الاجتماعى يتوقف فى النهاية على التنظيم العقلى (١) .

وعلى هذا يجب النظر فى امكانية ايجاد مجموعة من المبـادىء والافكار التى تنفق حولها جميع العقول . وفى هذا يرى كومت أن هناك مجموعة من العلوم التى لايمكن أن تختلف العقول السليمة على مبادئها ، وهى الرياضيات وعلوم الطبيعة . وبذلك فلكى نعمل على تحقيق الوحدة بين الافكار على نمط هذه العلوم ، فعلينا الاهتـداء مبناهج البحث فيها . وموجز القول أن فلسفـة كومت ترمـى الى اكتشاف الحقائق الاساسية لتحقيق الوحدة بين العقول من جانـب ، والى وضع القواعد العلمية الصحيحة لعلم الاجتماع على ضوء هذه الحقائق من جانب آخر (٢) .

وكما كان كومت متأثرا بالعلوم الطبيعية والرياضات — كما سبق أن أوضحنا — فاننا نجده فى دراساته المبكرة فى علم الاجتماع كـان متأثرا الى حد كبير بالبيولوجيا (علم الحياة) . ولذلك فان المجتمـع من وجهة نظره ، عبارة عن مجموعة من الافراد الذين ينشأ بينهـم نظام تقسيم العمل ، ويتعاون الجميع فى سبيل تحقيق أهداف مشتركة دون اغفال السعى وراء بعض الاغراض الفردية . وهـذا التعريف يجعل من المجتمع حقيقة خارجية يمكن دراستها عن طريق الملاحظة الخارجية ، كما تدرس أنواع الحيوان أو النبات (٣) .

---

(١) السيد محمد بدوى ، مبادىء علم الاجتماع ، دار المعـارف بمصر ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٠
(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦

٢ — موضوع عـــلم الاجتمــاع :

وقد حاول كومت فى كتابه «السياسة الوضعية» أن يدعم تعريفه الشـــكلى لعلـــم الاجتمـــاع الـــذى أورده فى كتـــابه « الفلسفـــة الوضعية» حيث يخصص علم الاجتماع فى أحد مواضع هذا المؤلف لدراسة كلية لظواهر العقل البشرى والافعال الانسانية • ويوضـــح كومت فى موضع آخر أن علم الاجتماع لايدرس العقل فى حد ذاته ، ولكنه يهتم بالنتائج المتراكمة والمتجمعة عن استخدام العقل وممارسته• وطالما أن كومت لم يتخل عن تصوره لعلم الاجتماع ، بوصفه علمــا نظريا للظواهر الاجتماعية ، فان المحصلة الكلية لهذه الظواهر كمــا يعرفها تتمثل فى النتائج المتراكمة والمتجمعة عن استخـــدام العقـــل وممارسته (١) •

ويعطى اوجست كومت اسهاما أصيلا يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الفكر السوسيولوجى ، عندما ميز بين مجموعتـــين من القضايـــا أو المشكلات المتميزة ، ولكنها متصلة • تلك التى تهتم ببناء المجتمع كمـــا هو ، وأجزائه والعلاقات المتداخلة بين كل منها ، وذلك الكـــل الذى يتكون من الاجزاء ، وبمعنى آخر مورفولوجيا المجتمع التى أعطاهـــا كومت اسم الستاتيك Statics • وثانيا تلك القضايا المهتمة بحركات المجتمع نحو غايات جديدة نتيجة للتغير الذى يصيب الافكار والنظم ، والتـــى أعطـــاها كومـــت اســـم الدينـــاميـــك Dynamics • حسب آراء كومت ، يجب أن يتأتى التغير من خلال تغير الافكار (٢)•

وبناء على ذلك ، يمكن أن يدرس المجتمع فى حالتين : الاولى ،

(١) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ ، ص ٣١

(2) J.H. Abraham, op. cit., p. 87.

حالة الاستقرار وهى ماأطلق عليه كومت « الاستاتيكا الاجتماعية » والثانية ، حالة التطور أو التغير ، وهى ما اطلق عليها « الديناميكا الاجتماعية» •

والاستاتيكا الاجتماعية عبارة عن دراسة لبحوث فلسفة التاريخ أو دراسة الحضارة الانسانية من ناحية تطورها ، وتنقيحها واستكمال دراستها ، وتخليصها من صبغتها الفلسفية ، والامتثال للمنهج العلمى (١) • وتهدف الاستاتيكا الاجتماعية الى معرفة الشروط الاساسية أو الضرورية للوجود الاجتماعى • وأهم هذه الشروط «التعاون» الذى لابد ان يحدث بين الافراد المختلفين من حيث نزعاتهم ورغباتهم وتطلعاتهم ، الا أنهم يتفقون فى غريزة حب الغير التى تعمل على ايجاد نوع من التعاون بينهم •

ومن هنا استطاع اوجست كومت ان يضع أصول قانون التضامن وملخص هذا القانون أن مظاهر الحياة الاجتماعية يتضامن بعضها مع بعض ، وتسير أعمال كل طائفة منها منسجمة مع اعمال ما عداها ، وتتضافر جيعها على حفظ المجتمع وصيانة حياته • فهى تشبه أجهزة الجسم الحى اذ يختص كل منها بوظيفة تختلف عن وظيفة ما عداه ، ولكن تنسجم هذه الوظائف كلها بعضها مع بعض وتتضامن وتتضافر على حفظ الكائن وصيانة حياته (٢) •

ومع ذلك ، فليس «الفرد» هو وحدة المجتمع الاساسية • ان هذه الوحدة متمثلة فى «الاسرة» التى يظهر فيها التعاون ، كما يظهر — أيضا — تقسيم العمل • وعليه ، يجب الاهتمام بالاسرة حتى يتحقق تماسك البناء الاجتماعى للمجتمع ذاته •

---

(١) على عبد الواحد وافى . عبقريات ابن خلدون ، مرجع مذكور ،ص ٢١١ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥

أما الديناميكا الاجتماعية فهى دراسة الحركات والتغيرات التـى تطرأ على نظم المجتمع وبنائه الاجتماعى . وفى هذا يرى كومت أن هناك مراحل مرت بها الانسانية حتى أنتهت الى المرحلة الموضوعيـة (الوضعية) منذ الثورة الفرنسية ، حيث استقل التفكير الانسانى بعيدا عن النظم التى كانت تعوق التقدم .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وافى ان الديناميكا الاجتماعيـة عبارة عن «طائفة من البحوث التى كانت سابقة لاوجست كومت ، وهى الطائفة التى اشتهرت بحوثها باسم «فلسفة التاريخ» أو دراسـة الحضارة الانسانية من ناحية تطورها ، وأكمل دراستها وخلصها من صبغتها الفلسفية ، ونهج فى علاج حقائقها نهجا علميا ، أو زعم أنـه نهج هذا النهج» (١) .

ان الفائدة العملية — من وجهة نظر كومت — هى اكتشاف شروط النظم الاجتماعية من حيث التوازن الاجتماعى . ومن ناحية الديناميكا اكتشاف قوانين التقدم . والنظام يؤدى الى التقدم . والتقدم والنظام هما شعار السياسية الوضعية (٢) .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وافى أن اوجست كومت قـد جانبه التوفيق فى جميع ما انتهت اليه دراساته ، سواء فى الديناميك أو الاستاتيك الاجتماعى . ويرجع ذلك الى أنه لم يستنطق الحوادث، ولم يلاحظ الواقع والتاريخ ملاحظة أمينة صادقة ، عندما استوحى مبادئه الفلسفية ، وما كان يدين به من آراء فى شئون الكون والتفكير، وقد تصيد لهذه الاراء ولهذه المبادىء ما يؤيدها من الحوادث ، وحال

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١١ .
(٢) جاستون بوتول ، مرجع مذكور ، ص ٧٤ .

هواه بينه وبين النظر الى مئات الشواهد الواقعية التى تدل عـلى بطلانها (١) •

ومع ذلك ، فيمكن تقسيم مصطلح الاستاتيكا — منطقيا — الى جزئين : دراسة الطبيعة البشرية من ناحيـة ، ودراسـة الطبيعـه الاجتماعية من ناحية أخرى • أو بمعنى آخر : بناء الطبيعة البشرية، وبناء الطبيعة الاجتماعيه (٢) •

ومن تفسير الطبيعة البشرية نعود الى تفسير الطبيعة الاجتماعية حيث يبحث كومت فى الجزء الثانى من كتابه ، «السياسة الوضعية» نظرية الدين ونظرية الملكية ، ونظريه الاسرة ، ونظرية اللغة ، ونظريه الكائن العضوى الاجتماعى أو تقسيم العمل • وينتهى الكتاب بقسم عن النظام الاجتماعى وقسم عن حدود التنوعات • وهذه الفصـول تشكل فى مجموعها نظرية كومت عن البناء الاساسى للمجتمعات (٣) •

ان العلم الحقيقى للعقل البشرى هو ما نسميه اليوم بعـلم اجتماع المعرفة • والعلم الحقيقى للعقل الانسانى هو تحليل وملاحظة وفهم قدرات العقل البشرى كما يبدو لنا من خلال انتاجاته خـلال التاريخ • وعلم الاجتماع — أيضا — هو علم العقل البشرى ، لان طريقة تفكير ونشاط العقل هى فى كل لحظة غير منفصلة عن السياق الاجتماعى • فالعقل اجتماعيا وتاريخيا ، عقل كل عصر وعقل كل مفكر، وهو بالتأكيد مرتبط بالسياق الاجتماعى (٤) •

(١) على عبد الواحد وافى ، عبقريات ابن خلدون ، مرجع مذكور ، ص ٢٢٦ . وكذلك : على عبد الواحد وافى ، علم الاجتماع ، مرجـع مذكور ، ص ص ١١٧ — ١١٨ .

(2) Raymond Aron, op. cit., p. 91.

(3) Ibid., p. 95

(4) Ibid., p. 107.

وعلى هذا يقوم المنهج لدى كومت على الملاحظـة والتجربـة والمقارنة ، وضرورة استخدام المنهج التاريخى • ولا تقتصر الملاحظة الاجتماعية على الادراك المباشر للظاهرة ، أو الوصف المباشر للحوادث، وانما تتطلب الملاحظة النظر الى الحقائـق الاجتماعيـة على أنهـا موضوعات منعزلة عنا وخارجة عن ذاتنا ومنفصلة عن شعورنا الفردى حتى نستطيع التوصل الى نتائج أقرب الى حقائق الامور (١) •

أما التجربة الاجتماعية فتقوم على مقارنة ظاهرتين متشابهتين فى كل شىء ومختلفتين فى حالة واحدة • ووجود مثل هذه الحالة انما هو بمثابة تجربة • لاننا نستطيع أن نستنتج بسهولة أثر هذا العامل الذى كان سببا فى اختلاف الظاهرتين • وان كانت الطبيعة لاتمدنا بتجارب مباشرة من هذا النوع ، فانها تمدنا بتجارب غير مباشرة ، تلك التـى توجد فى الحالات الباثولوجية (المرضية) التى تصيب المجتمع وتتمثل فى الفتن والثورات والانقلابات • وكما أن دراسة الحالات العـادية تؤدى بنا الى الوقوف على أفضل السبل الشائعة ، فان دراسة الحالات الباثولوجية تحتاج الى الوقوف على القوانين التى تخضع لها الظواهر فى حالتها العادية حتى نستطيع الكشف عن أثر العامل الطارىء الذى تسبب فى الظاهرة المرضية (٢) •

وتقوم المقارنة الاجتماعية على مقارنة المجتمعـات الانسانيـة بعضها ببعض للوقوف على أوجه الشبه والتباين بينهـا ، لتحديـد أسباب تطور الظواهر بمعدل يفوق غيره من مجتمع لاخر • أو انتشار طائفة من النظم فى مجتمعات دون أخرى ، أو قيـام ظاهرة معينـة بوظيفتها دون غيرها • أو قد تتم المقارنة بين الطبقـات أو الهيئات فى نطاق شعب واحد أو مجتمع محدد للوقوف على حالتها الاجتماعية

---

(١) غريب سيد أحمد وآخرين ، المدخل الى علم الاجتماع ، مؤسسة الثقافة الحديثة ، ١٩٧٥ ، ص ٤١ •

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٤٢ — ٤٣

ومستوى معيشتها ومعاييرها ولهجاتها .. الخ . أو تند تقارن جميع المجتمعات فى عصر ما بالمجتمعات الانسانية نفسهـا فى عصر آخـر لتحديد مبلغ التقدم الذى تخطوه الانسانية فى كل طـور من أطوار ارتقائها .

أما المنهج التاريخى فيسميه كومت بالمنهج السامى ، ويقصد به المنهج الذى يكشف عن القوانين الاساسيـة التى تحكـم التطـور الاجتماعى للجنس البشرى . وأقام منهجه هذا على أساس قانونـه الشهير بقانون الحالات الثلاث الذى أدعى أنه استخلصه من دراسـة تاريخ الانسانية دراسة علمية (١) .

ويقوم الاطار التصورى لدى كومت عـلى الفلسفة الوضعيـة — كما اشرنا — التى يتمثل أول طابع لهـا فى نظرتهـا الى جميـع الظاهرات على أنها خاضعة لقوانين طبيعية لاتتغير . وفى هذا يشـير صاحب الفلسفة الوضعية الى أنه لما كنا ندرك مدى عقم ما يسمـى بالعلل الاولى منها أو الغائية فى أى بحث ، فان مهمتنا هى السعـى الى كشف هذه القوانين بدقة ، بغية اختصارها الى أقل عدد ممكن . أما التأمل النظرى للعلل فلا يؤدى الى حل أى مشكلة متعلقة بالاصل والغرض ومهمتنا الحقيقية هى أن ندلل بدقة ظروف الظاهرات ونجمع بينهما عن طريق علاقات التشابه والتعاقب الطبيعية (٢) .

٣ — قـانون التقـدم البشرى :

يرى المذهب الواقعى ان الفكر الانسانى لايدرك سوى المظاهر الواقعية المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين ، وأن المثل الاعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية ، وأنه يجب العدول عن كل بحـث

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٢) غريب سيد أحمد وآخرين ، المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ ، ص ص ٢١ — ٢٢

فى العلل أو الغايات وما يسمى بالاشياء بالذات • ويدلل كومت عـلى نسبية معرفتنا ، لابنقد أفعال العقل كما فعل لوك وهيوم وكانط ، بل بعرض ما ظنه تاريخ العقل كما فعل سان سيمون أخذا عن بودان • فيقول أن العقل مر بحالات ثلاث : حالة لاهوتية ، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية وضعية (١) •

ولقد وضع كومت مسمى «قانون الحالات الثلاث» مع أنه لاتوجد قوانين أو أية خاصية واقعية لهذا المسمى ، وانما هى أوصاف لعمليات عقلية لما يمكن تصوره على أنه تتبع الواحدة منها الاخرى فى مجرى التطور البشرى • ولقد كانت المرحلة الاولى وهى المرحلـة الدينية أو اللاهوتية حينمـا كان ينظر العقـل البشرى الى كل الظواهـر الطبيعية والبشرية على أنها ذات أسباب دينية • بمعنى ، عنـدما لم يكن لشىء ما أى سبب ذاتى وانما كانت أسبابه خارجه عنه • وفى هذه المرحلة يكون العقل دائم الرفض للموضوعية التامة الخالصـة ، ويكون خاضعا للشعور غير العقلى ، وينتقل من تفسير وهمى معين الى آخر ، دون تجانس منطقى ، وليس ثمة تقدم ممكن فى المعرفة ، وليس ثمة تقدم ممكن — كذلك — فى الحياة الاجتماعية • والى حد ما يتحرك العقل البشرى الى الامام على أساس تصوره لذاته ولبيئته • وبهـذا يتحرك الى المرحلة الميتافيزيقية التى من خلالها تمنح الاشياء القـوى والاسباب التى تفسر سلوكها • انها مرحلة ميتافيزيقية لان هـذه القوى والاسباب ليست أكثر من تفسيرات جاءت من خلال الافكـار الخاصة بالانسان ، وليس لها أساس فى الحقيقة الواقعية • ومـن ناحية أخرى فهى ميتافيزيقية لان أى نسق فكرى لايمكن اخضاعـه للاختبار والتقنين • وبالاضافة الى ذلك فقد كان هناك تقدم محدد فى المرحلة السابقة ، الى حد أنها تنشد تفسيرا للاشياء والوقائع بالرغم

(١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، مرجع مذكور ، ص ٣١٧.

من احتمال وجود خطأ ما أو عدم صحة هذا التفسير (١) •

والمرحلة الثالثة والاخيرة التى وصل اليها العقل البشرى الان ، متحررة من التأملات الميتافيزيقية أو ما فوق الطبيعة ، وتعطى مدخلا علميا وضعيا لقضايا ومشكلات الطبيعة ، بما يتضمنه ذلك الانسـان ذاته والمجتمع الذى يعيش فيه • انها مرحلة وضعيـة لانها تهتـم بالحقائق المجردة الواضحة التى يمكن كشفها عن طريق سبب خاص بها• انها مرحلة علمية لانه يمكن من خلالها فقط أن يقوم المدخل الوضعى بصياغة تعميمات دقيقة ، وأن يكتشف القوانين التى تكمن وراء جميع ظواهر الطبيعة والمجتمع (٢) •

ومعنى هذا أن الافراد مروا عبر جهودهم المبذولة دائما مـن الفهم والتفسير للعالم الذى يحيط بهم ، بثلاث اتجاهات متعاقبة • ففى الحالة الدينية يفسرون الظواهر عن طريق أسباب أولية مشخصة فى الالهة ، وفى الحاله الميتافيزيقية ينتقلون الى مفاهيم أكثر عمومية لتحل محل الاسباب الاولية ، وفى الحالة الوضعية يفسرون الظواهـر على أساس الملاحظة العلمية (٣) •

هذه الحالات الثلاث متنافرة • ونحن نجدها تتعاقب فى كـل انسان • ففى الحداثة نقنع بسهولة بالتفسـيرات اللاهوتيـة ، وفى الشباب نقتضى عللا ذاتية ، وفى سن النضج نعول فى الاكثـر على الوقائع • غير أن هذا التنافر لايمنع من التقارب • فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية فى بعض الموضوعـات ، مع قبوله العلم الواقعى فى موضوعات أخرى هى عـلى العموم أقـل تعقيدا • وأهل العصر الواحد بنوع خاص نرى بعضهم على حـالة

---

(1) J.H. Abraham, op. cit., p. 87.

(2) Ibid, pp. 87-88.

(٣) جاستون بوتول ، مرجع سابق ، ص ٧٣ •

وبعضا آخر على حالة أخرى • وكذلك شعوب الارض ليسوا كلهـم على درجة واحدة من رقى العقل • على أن القانون الكلى يبقى صادقا اذا اعتبرنا الحالة الغالبة فى شعب معين وفى عصر معين • فاننا حينئذ نرى اللاهوت ينجم أولا ، ثم نرى الميتافيزيقيا تعارضه ، وأخـيرا يولد العلم الواقعى الذى هو وحده القادر على البقاء • لان الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال ، كانتا دائما مبعث ظنون جديدة ومناقشات جديدة • على حين أن العلم يستند الى الواقع فيجمـع العقول على وحدة الرأى ويحل لحلها (١) • ان قانون المراحل الثلاث يؤكد على أن العقل البشرى يمر من خلال ثلاثة أوجه • فاولا يشرح العقل الظواهر عن طريق وصفها فى حدود ارتباطها بموجـودات أو قوى يمكن مقارنتها بالانسان نفسه • والوجه الثانى يرتبط بالميتافيزيقا حيث يشرح العقل الظواهر فى صورة مجردة مثلما قد يحدث بالنسبة للطبيعة • والوجه الثالث ، يحيل الانسان الى ملاحظة الظواهر وبناء خطوط منتظمة تربط بينها ، سواء فى لحظة معينة أو خلال مجريـات الزمن (٢) •

لقد توسع كومت فى شرح قوانين التطور البشرى هذه لسبـب خاص • ولذلك لان توضيح تطور الفكر البشرى فى ضوء هذه المراحل الثلاث كان المنهج الوحيد الـذى يمكنه من اقامـة الدليل عـلى أن التغيرات التى تحدث فى المجتمع البشرى تنتـج بصفة عامة عـن تغيرات الاتجاهات والعقلية البشرية • لقد كان كومت أكثر قربا مـن أحداث الثورة الفرنسية ، وما نجم عنها من آثار • وهكذا لم يستطع تجاهل التغيرات الثورية المحتملة ، لقد نظر الى هذا محاولا اقناع ذاته بأن ثمة تغيرات يمكن أن تتأتى فقط عن طريق الافكار ، وهى تلك التغيرات التى يتحمل مسئوليتها العلم ، والعلم وحده • وهناك بعض

---

(١) يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٣١٩

(2) Raymond Aron, op. cit., pp. 65 - 70.

المغيرات التى لاتتطلب أى تغيير فى البناء الاساسى للمجتمع ولنظمه • بل على لعكس ، فاذا وجهت هذه التغيرات فى الطريق السليم ، فانها سوف تعمل على تعزيز وتقوية هذه لنظم وتعمل على ثبات المجتمـع ذاته • وهذا يوضح سبب تكريس كومت قسطا أكبر من تفكيره للتأكيد على أهمية الحفاظ على الاسرة التى يعتبرها — كما أشرنا — الوحدة الاساسية للمجتمع (١) • وعلم الاجتماع على هذا النحو يميل الـى المحافظة ويقبل المجتمع الصناعى بوصفه نهايـة المطاف فى التقـدم الاجتماعى ، ويقف موقفا ايجابيا من نظمـه الاجتماعيـة (الاسرة والطبقات) ويجعل من مهمته الاساسية الترميم والاصلاح ، لا الرفض والتغيير الجذرى (٢) •

---

(1) J.H. Abraham, op. cit., p. 88.

(٢) محمود عوده «نشأة علم الاجتماع» ، دراسات فى علم الاجتمـاع والانثربولوجيا ، دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ٥٩ .

المبحث الثانى

كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣)

ولد ماركس فى عام ١٨١٨ مـن أسرة يهوديـة بمدينـة تريف ببروسيا • وقد كان أبوه يحفظ عن ظهر قلب كلمات فولتير وروسو ويقتبس عن كانط مبدأ سيادة الشخص وحق جميع أفراد الامة فى تسيير شئون الدولة (١) • ودرس ماركس دراسة جامعية أظهر فيها نبوغا ، ثم تطلع الى تقديم عمل اكاديمى ، لكن أفكاره حالت بينـه وبين تقديم هذا العمل • والتحق بكلية الحقوق ببرلين عام ١٨٣٧ ، وتأثر فيها بكارل فون سافينى Karl Von Savigny صاحب المذهب التاريخى فى القانون • كما تأثر بالاستاذ جانس Gans الذى كان هيجليا • ثم انصرف ماركس الى دراسة الفلسفة وتأثر بفلسفـة هيجل وفوير باخ (٢) • وعندما خطب ماركس فى عام ١٨٣٧ البارونة جينى فون وستفالن ، لم يدخل أبوها فى قلبه حب شكسبير وهوميروس فحسب ، بل أيضا حب سان سيمون (٣) •

وفى عام ١٨٤١ حصل على شهادة نهاية الدراسة بجامعة برلين ، وفى نفس العام أيضا حصل على درجة الدكتوراه بعد رسالة له بعنوان «الفرق فى فلسفة الطبيعة عند ديموقريطس وأبيقور» من جامعة ينـا Jena • وكتب فى الجريد الرينانية عام ١٨٤٢ • ومارس السياسة ولم يكن اذ ذاك اشتراكيا ، وانما كان داعية للحرية الدينية والمدنية الفكرية • ثم ذهب الى باريس عام ١٨٤٣ واقام بها مدة ، اتصـل

---

(١) غريب سيد احمد وعبد الباسط عبد المعطى وعلى جلبى ، المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧ .

(٢) غريب سيد أحمـد وعبـد الباسـط عبد المعطـى ، «الملامـح السوسيولوجية فى النظرية الاشتراكية» ، المجلة الاجتماعيه القوميه المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ ، ص ٨٤.

(٣) المرجع قبل السابق ، ٢٧ .

فيها بموس هيس Moes Hess الاشتراكى اليهودى الالمانى وبالاشتراكيين الفرنسيين امثال برودون ولويس بلان ، وبدأ يكون نواة تفكيره الى أن توفى ماركس سنة ١٨٨٣ (١) •

وبصفة عامة ، فقد عاش ماركس أوضاعا اجتماعية واقتصادية متقلبة ، حافله بالثورات • وعاش بين أكثر من مدينة وعاصمة اوروبية• الامر الذى وسع نطاق مسرح ملاحظاته • وهو وان كان قد نشأ نشأة بورجوازية أو شبه بورجوازية ، فقد مات مطاردا من السلطات السياسية والانظمة الحاكمه فى أوربا • وعاش فقيرا عانت أسرته من الفاقة والبؤس • وهو وان كان قد تأثر كشأن معاصريه بالاوضاع الاقتصادية والفكرية السائدة ، الا أنه يتميز عن معاصريه بأنه تحرر منها • فالدرب الذى سيقوده الى انشاء المادية التاريخية — لب علم الاجتماع وموضوعه الاساسى — يمر عبر تجاوز جدل (هيجل) ومادية (فويرباخ) ، وفى كل حالة يسلك ماركس سبلا اصيلة تؤكد عبقريته • ان تطوره الفكرى سار جنبا الى جنب مع تطوره السياسى الذى قاده من الديموقراطية الثورية الى الاشتراكية • فهو من الناحية الفكرية قد أفاد من الفلسفة المثالية الالمانية والاقتصاد السياسى الانجليزى والاشتراكية الفرنسية ، بشكل جعل لينين يشير الى أن الماركسية أتت النتيجة المباشرة والفورية لمذاهب أعظم ممثلى الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية (٢) •

ان فلسفة كومت الوضعية — كما نعرف — هى محاولة واعية لتكذيب وانكار مفهوم الفلسفة «السلبية» • فالفلسفة النقدية ظهرت واتخذت مسارها فى انجلترا عندما بد الصراع بين البورجوازية والطبقات الناتجة عن النظام الاقطاعى اللاهوتى • وفى هذا قدم كومت وظيفة

---

(١) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ٨٥.
(٢) المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٠.

تاريخية هامة • بيد أن ماركس يعتقد — كما ذهب الفلاسفة من قبله ان قوى الانسان الجوهرية غير محدودة فى قدرته على التطور ، فهو قادر على الوصول الى أعلى درجات الابداع من ناحية الفكر والعمل • وهذا هو التصور الكامن الذى يؤكد عليه ماركس فى تقييم الانساق الاجتماعية • فلقد ذهب الى أن مفهوم «الانسان الطبيعى» ليس مثلما ذهب روسو ، ولكن عن طريق نقده للنظام الرأسمالى ، وذلك لانه يأمل فى الوصول الى مجتمع أنسانى حقيقى • ومن الواضح أن ماركس يرى ان الانسان كما ينبغى أن يكون هو مقياس الوجود الاجتماعى (١) • ويمكن اعتبار وجهة نظر ماركس نظرية للانسان والمجتمع والتاريخ (٢) •

ومن أهم مؤلفات كارل ماركس :

١ — الفرق فى فلسفة الطبيعة بين ديموقريطس وأبيقور (١٨٤١) •

٢ — نقد فلسفة القانون عند هيجل • الترجمة الفرنسية ١٩٣٢ وألفه ماركس عام ١٨٤٤ •

٣ — الاقتصاد السياسى والفلسفة (١٨٤٣ — ١٨٤٤) •
٤ — المسألة اليهودية (١٨٤٤) •
٥ — العائلة المقدسة (١٨٤٤) •
٦ — دحض مادية فويرباخ (١٨٤٥) •
٧ — الايديولوجية الالمانية (١٨٤٦) •
٨ — بؤس الفلسفة (١٨٤٧) •
٩ — العمل المأجور ورأس المال (١٨٤٧) •

(1) Iriving M. Zeitlin, Ideology & the development of Sociological Theory, New Delhi, 1969, pp. 83 - 88.

(2) Ibid., p. 97.

١٠ — بيان الحزب الشيوعى (١٨٤٨) •
١١ — مشاركة فى انتقاد الاقتصاد السياسى (١٨٥٩)
١٢ — رأس المال •

ولا يهمنا فى هذا الصدد من مؤلفات «ماركس» الا الكتابات التى تقع بين عامى ١٨٤١ و ١٨٤٦ لانها تضم بين صفحاتها المضمون السوسيولوجى الخالص فى فكر «ماركس» وكلها مؤلفات كتبها ماركس فى فترة الشباب ••• أكثر خصوبة وأكثر عصرية بالقياس الى كل التصورات النهائية عند المفكر الكهل ، كل ذلك من جانب ومن جانب آخر فمؤلفات الشباب هذه تضع حداً نهائيا لعدائية بعض الماركسيين تجاه علم الاجتماع اذ يخضعونه الى التاريخ أو الى مناهجه فى التفسير » (١) •

لقد كان «كارل ماركس» قبل كل شىء رجل نشاط وعمل ولكنه لم يفصل العمل قط عن النظرية وعن البحث العلمى ، الذى أنتهى به الى رأيه فى الظاهرة الاجتماعية وطبيعتها ، وتوسع «انجلز» فى شرح ذلك الرأى وتلاميذه الذين تبعوه •

وبقدر ما يمكن القول ان ثمة علم اجتماع فى الدول الجرمانية ، فاننا نقول بأن ذلك العلم بدأ فى الدول الجرمانية «بكارل ماركس» الذى بين فى مقدمة كتابه «نقد الاقتصاد السياسى» أن العلاقات القانونية والاشكال الاقتصادية السائدة فى المجتمعات لايمكن تفسيرها لابذاتها ولا بالفكرة المزعومة التى يقولون بها وهى فكرة التطور العام للروح الانسانى • وأننا يجب أن نبحث عن عمليات تشريح المجتمع فى الاساس الاقتصادى الذى يقوم عليه البناء الاجتماعى (٢)

---

(١) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ٨٩•
(٢) المرجع السابق ، ص ص ٩٠ — ٩١

موضـــوع عـــلم الاجتمـــاع :

رفض ماركس استخدام تسمية «علم الاجتماع» فى واحد مـن كتاباته ، وفضل ان يطلق على هذا النوع من الدراسة مصطلح « علم المجتمع» • وقد يرجع ذلك الى كراهية للفلسفة الوضعية التى روج لها أوجست كومت ، والذى أعطى لهذا العلم اسمه ، والى رفضه لمـا انطوت عليه هذه الفلسفة من آراء ، وذلك بعد دراسته لهـا دراسة نقدية وادانتها بأنها نوع من التفكير الذى يغلب عليه الروح اللاهوتية والنزعة التنبؤية (١) •

ولقد لاحظ ماركس أن علم الاجتماع كما ظهر فى القرن التاسع عشر على يد اوجست كومت وهربرت سبنسر وغيرهما ، كان يرتبـط بالفلسفة الوضعية ويغرق فى الميتافيزيقا والوصف ويغلب عليه الطابع الذاتى والسمة المثالية • كما لاحظ أن هذا العلم كان ينظر الى المجتمع باعتباره كتلة من الاشخاص يرجع تغيرها الى ارادة الحكام ورجـال السياسة والايديولوجية • الامر الذى جعله ينفى وجود القوانـين الموضوعية التى تحكم الجنس البشرى خلال التاريخ ، ويرجع تعاقب الفترات التاريخية أو ظهور واختفاء الاشكال الاجتماعية المتباينـة الى علل اتفاقية وذاتية • كما أن هذا العلم — من وجهة نظره — قد عجز عن ان ينسق بين الحقائق التى توصل اليها ، وعن التمييز بـين الظواهر الهامة وتلك الثانوية ، وعن الكشف عن المعايير الموضوعيـة التى يمكن الاستعانة بها فى هذا التمييز • بحيث أضحى هذا العجز يمثل ثغر أساسية تميز هذا العلم فى هذه الفترة (٢) •

ان المهمة التى على علم الاجتمـاع ان يضطلـع بها فى رأى

---

(١) غريب سيد أحمد وعبد الباسط عبد المعطى وعلى جلبى ، المدخـل الى علم الاجتماع ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٧٥ ، ص ٥٠

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٠ — ٥١

ماركس ، تتمثل فى رسالة قوامها اثبات الطابع الانسانى والاجتماعى للمجتمع • ان ماركس يعتبر علم الاجتماع حلقة الاتصال بين العلــوم الطبيعية والعلوم المهتمة بدراسة الانسان • ومن يتفحص كتاباتــه يجده يعرض للعديد من الموضوعات والقضايا التى على عالم الاجتماع أن يتطرق لها بالبحث والتفسير والدراسة (١) •

فماركس قد اهتم بفلسفة التاريخ ، وان كان هذا الاهتمام يدل على شىء انما يؤكد أهمية الدراسات التاريخية فى علم الاجتماع بوجه خاص وما تضيفه الى التراث فى ذلك العلم الاجتماعى من تطور نظرى ومنهجى • وقد درس الظواهر الاجتماعية ووضحها بالتغير الاجتماعى والعمليات الدينامية التى يحتويها ذلك التغير • فقد اهتم فى كتابــه الايديولوجية الالمانية ، بتفسير الظاهــرة الاجتماعيــة وديناميــــة التغير (٢) •

وعلى هذا يقسم ماركس والماركسيون عموما علم المجتمع الــى قسمين : قسم نظرى عام وقسم نظرى خاص ، طالما أن هذا العلــم يهتم بما هو عام وخاص فى الحياة الاجتماعية فى علاقاتهما الوظيفية ببعضهما وفى الاعتماد المتبادل بينهما • حيث يختص عــلم المجتمع النظرى العام بدراسة القوانين التى تحكم ظهــور وتغير التكــوين الاقتصادى الاجتماعى موضوع الدراســة ، ويحلل ميكانزمــات اداء الانساق الاجتماعية لوظائفها ، فضلا عن دراســة تفاعل الكائنــات العضوية فى اطار هذا التكوين • ويعنى علم المجتمع النظرى الخاص بدراسة القوانين المتعلقة بتغير هــذه الانساق الاجتماعية الفرعيــة وأدائها لوظائفها ، والعناصر المكونة لها وميكانزم التفاعل بينها (٣) •

---

(١) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ٩١
(٢) المرجع السابق ، ص ٩١
(٣) المدخل الى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٥٣ ــ ٥٤

كما درس ماركس النظام العائلى وتطوره فى كتاب « العائلة المقدسة» • وأيضا تناول موضوع الطبقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى بنوعية : البناء أو الاساس الاسفل ، والبناء أو الاساس الاعلى (١) •

ان علم الاجتماع عند ماركس أكد الصفات النوعية للظاهرة الاجتماعية بقوله «ليس شعور الانسان هو الذى يحدد وجوده ، ولكن على العكس ، ان وجوده الاجتماعى هو الذى يحدد شعوره» • وقد أوضح فى كتابه «رأس المال» ان الانتاج والتبادل والسلع هى فى أساسها أشياء اجتماعية • ومن الحقائق التى يراها «ماركس» عن صفات الظاهرة الاجتماعية هى صفة الالزام • فقد أشار الى ان الناس أثناء عملية انتاجهم الاجتماعى يدخلون فى علاقات محددة ، وهذه العلاقات يدخلونها ضد رغبتهم • ولكنهم مضطرون الى الدخول فيها (٢) •

رث هذا التقاء بين «ماركس» و «دوركايم» فقد أكد الاخير صفة الالزام فى الظاهرة الاجتماعية كصفة أساسية فيها • ولقد بنى «ماركس» تحليله للظواهر الاجتماعية على الظروف المادية بدلا من التركيز على القوى الروحية أو المثالية • ومن هنا أصبح من اليسير تعريف الظاهرة الاجتماعية بطريقة يصبح اخضاعها للدراسة العلمية ممكنا • وليس معنى ذلك أن ماركس ينكر الانتاج الروحى والقوى الروحية تماما • بل أن الانتاج المادى والروحى يتداخلان فى النشاط الاجتماعى الكلى • ان انتاج الافكار والتصورات والوعى ، انما هو فى المقام الاول متضمن مباشر فى النشاط وفى التعامل المادى بين الافراد (٣) •

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٩١ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٤
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ •

واذا كانت مهمة علم الاجتماع لدى ابن خلدون وأوجست كومت هى البحث فى القوانين الطبيعية الثابتة للمجتمع ، واذا كان كومت قد اشار صراحة«انك تتنبأ لكى تضبط» بمعنى أن مهمة العلم هى الدراسة بقصد الضبط والمحافظة ، فان العلم لدى ماركس لم يكتف بالرصد والتحليل والوصف والتفسير ، بل يتعدى كل هذا ويتجاوزه لانه يشمل أيضا التغيير • وفى هذا يشير مؤسسوا الماركسية فى ردهم الحادى عشر على فويرباخ ان الفلاسفة قد اكتفوا بتفسير العالم على انحاء عدة ، غير أن المهم فى الامر هو تغييره (١) •

واذا كان اوجست كومت قد جاء غامضا فى تحليله لمكونات المجتمع وبنائه الاجتماعى ، فان ماركس كان أكثر وضوحا عندما حدد المجتمع وبنائه كجماع عضوى للعلاقات بين الناس • وفى الوقت الذى وجد فيه كومت جوهر الظاهرة الاجتماعية فى الاسرة وأخيرا فى الدين، فان ماركس وجد ذلك فى تحليل البناء الاقتصادى للمجتمع ، أو أساسه المادى • وهذا هو الفرق بينهما فى محور تفسير الوجود الاجتماعى (٢) •

منهج البحث الاجتماعى :

ان المناهج والادوات البحثية التى استخدمها ماركس فى دراساته أول ما يبرز فيها الاهتمام بالتاريخ وفلسفته وضرورة اعادة كتابته «التاريخ اجتماعيا» • ان الدراسات التاريخية فى علم الاجتماع تمثل دفعة قوية نحو المزيد من التكامل المنهجى والنظرى الذى يضفى على ذلك العلم المزيد من الملامح التى تؤكد أهميته وقدرته على الوصول الى تعميمات وقوانين علمية ، هذا بالاضافة الى أن علم الاجتماع الماركسى لم ينكر دور الفلسفة فى تعميق واصالة الفكر الاجتماعى

(١) المداخل فى علم الاجتماع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣.

بتوجيهه نحو الجذور الثابتة الراسخة ، ومن ثم قام ذلك العلم لديه على أصول غلسفية عميقة • ففى كتاب «رأس المال» نجد المنهج التاريخى المقارن ، وليس ذلك المنهج فحسب بل أنه قد استخدم ايضا المنهـج الاحصائى استخداما واسعا • وقد لجأ زميـل الكفـاح «فردريك انجلز » الى استخدام المنهج الاثنوجرافى فى دراسته عن «أصل الاسرة والملكية الخاصة وملكية الدولة » (١) •

ومن أدوات البحث المستخدمة الان فى العلوم الانسانية نجـد «ماركس» قد استخدم فى كتابه «عن العمل المأجور ورأس المـال» ١٨٤٧ Travial Salaree et capital استبيانا طبقــه على مجموعــة من العمال • وبذلك لم يفصل «ماركس» النظرية عن التطبيق ، وهذا مايضيف بعدا آخر الى فكر «ماركس» الاجتماعى (٢) •

كما أن ماركس قد استخدام ايضا المنهج الاحصائى والامبيريقى عندما اشترك فى اجراء استفتاء للعمــال فى فرنسا استخدم فيــه الاستخبار Questionnaire الـذى استعان فى تطبيقـه بالصحف الفرنسية (٣) •

وقد يعيب البعض على علم الاجتماع الماركسى ، أنه استخدم تحت سلطان وتحكم نظام مقرر من قبل ، ومنهجا استدلاليا بحتا ، يبدأ ببعض المبادىء المجردة ، ثم يستشهد بعد ذلك بالوقائع التى تثبت المبادىء ، ومن ثم اتهم البعض تصوره للتطور الاجتماعى على أنــه تصور قدرى • غير أن الواقع العلمى يشــير الى أن المناهــج التى يستخدمها علم الاجتماع الوضعى اليوم قد طبقهـا «ماركـس» و «انجلز» بالقدر الذى كانت تسمح به المعطيات والقضايا النظريـة

(١) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع مذكور ، ص ٩٢.
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(٣) المدخل الى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

والمنطقية التى أمكن لهما أن يحصلا عليها فى عصرهما (١) .

المادية التاريخية :

المادية التاريخية الجدلية مبدؤها أن المادة هى كل موجود وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية . غير أن ماركس قليل العناية بدراسة المراتب العليا ، وهو يوجه همه الى دراسة التاريخ الانسانى ، ومن هنا جاء وصف مذهبه بالمادية التاريخية . فعنده ان نمو الحياة الانسانية ، فردية واجتماعية ، يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية ، وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية ، وأن نوع الانتاج فى الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم . فليس وجدان الناس هو الذى يعين وجودهم ، وانما وجودهم الاجتماعى هو الذى يعين وجدانهم . والحياة الاقتصادية تحقق قانون الصيرورة ، بأوقاته الثلاثة التى هى القضية ونقيضها والمركب منهما ، وهذه هى المادية الجدلية ومظهرها الاجتماعى الراهن «تنازع الطبقات» . ويعرض ماركس الدليل على هذه النظرية بدراسة الحياة الاقتصادية على ما كانت فى أيامه (١) .

ويمكن تلخيص كتابه «رأس المال» فى أربع قضايا : القضية الاولى : ان القيمة الحقة لكل سلعة تعدال كمية العمل المتحقق فيها ، بحيث يعتبر العامل المصدر الوحيد لهذه القيمة ، ومن ثمة المالك الوحيد للسلعة . وتقدر هذه القيمة بالزمن المخصص للانتاج ، مع مراعاة المتوسط تفاديا للاختلاف بين عامل وآخر ، أى مع افتراض عامل متوسط المهارة والظروف العادية . القضية الثانية أن النظام الرأسمالى يحرم العامل جزءا من قيمة عمله . وهذا الجزء هو

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٩٢ .

(١) يوسف كرم ، مرجع مذكور ، ص ٤٠٢ .

الزيادة فى قيمة السلعة وهو ربح صاحب المال ، وهذا الربح يتكدس فيكون رأس المال . فرأس المال «سرقة متصلة وافتراءات على العمل» وهو أداة سيطرة صاحب العمل على العامل : فان الاول لايدفع الى الثانى قيمة عمله وانما يدفع اليه ما يسد رمقه ، بل أقل من ذلك ، اذا رضى العامل تبعا لقانون العرض والطلب . القضية الثالثة أن من شأن الصناعه الالية باستخدامها المطلق من كل قيد أن تزيد التعارض عنفا بين رأس المال والعمل ، فان كبار الماليين يتغلبون على الضعاف من منافسيهم ويؤلفون شركات قوية تستغل المال الى أبعد حد . وينتهى الماليون المتواضعون وأهل الطبقة الوسطى الى الانضمام الى صفوف المعوزين فتقف الطبقتان وجها لوجه . ولكن المعوزين يحسون بتضامنهم فى جميع البلدان ، ، فيدركون شيئا فشيئا مصلحتهم وحقهم، وقوتهم . وكارل ماركس يسهب فى وصف مراحل هذا التطور . القضية الرابعة ، أن الطبقة العاملة ، وهى الحاصلة على الحق ، والعدد والقوة ، ستفوز حتما على الماليين . فتنزع المكليات بتعويض أصحابها وتجعل من الثروات والمرافق ملكية مشاعة بين الجميع ، فيتناول كل قيمة عمله كاملة ، ويجد فيها ما يكفى لارضاء جميع حاجاته ويزيد . ولا يعالج ماركس طريقة تنظيم الشيوعية ، ويقتصر على القول فى الختام بأن التقدم الصناعى يجعل من المستحيل العودة الى الملكية الصغيرة وأن من شأن هذه الاستحالة أن يتحقق المجتمع الشيوعى حتما فى مستقبل قريب أو بعيد على انقاض المجتمع الرأسمالى . ومهمة الحزب الشيوعى تكوين «عقلية الطبقة» عند العمال وتأريفهم حزبا سياسيا كفيلا بانتزاع السلطة واقامة الدكتاتورية العمالية (١) .

لقد أقام ماركس نظريته فى العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى — التى يطلق عليها التصور المادى للتاريخ — فى

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٠٢ — ٤٠٣

اتجاه معارض للتصور المثالى لهذه العلاقة لدى هيجل • كما أن نظريته فى التغير الاجتماعى والثورة الاجتماعية توضح دور الطبقة العاملة فى احداث هذا التغير وتلك الثورة (١) •

ويرى «بوخارين» Bouknatine أحد أنصار الماركسية المحدثين ، أن القول بأن نظرية المادية التاريخية تنكر أية أهمية للافكار والايديولوجية ، قول يتسم بالتعسف • وهذه الايديولوجية فى رأى «بوخارين» ليست سوى تبلور لعلم النفس الاجتماعى فى نظام للافكار والعواطف وقواعد السلوك (٢) •

لقد رأى «ماركس» ضرورة اعادة كتابة التاريخ من جديد ، بحيث لا تغفل دور الطبيعة ، ولاتراه كتاريخ أفراد أو من صنع الدول، والديانات والصراعات النظرية • ان شكل تقسيم العمل عند المصريين القدامى أو الهنود خلق نظام الطوائف فى الدولة • غير أن المؤرخ التقليدى بدلا من أن يعتقد ذلك يذهب الى الرأى المغاير بأن نظام الطوائف هو الذى خلق تقسيم العمل و«شكل المجتمع» (٣) •

وهكذا شيد ماركس نسقا فكريا يربط الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع والتاريخ فى طريق يجعل هذه الاطر الفكرية كلها مظاهر لنظرة مقارنة وكلية للمجتمع ، وأعطى لها مصطلح «المادية التاريخية» كاسم لها (٤) •

هذا ، وقد أضاف «ماركس» فكرة جديدة • ذلك أننا نجد مثلا أن «أوجست كومت» وبعض من المفكرين مع تسليمهم بأن الطبيعة الانسانية والمجتمعات الانسانية تتطور ، لايعتقدون أن هذه الطبيعة

---

(1) Irving M. Zeitlin, op. cit., pp. 93-96.

(٢) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ٩٣.

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٣.

(4) J.H. Abraham, op. cit., p. 202.

تتغير فى الاسس الرئيسية التى يقوم عليها بناؤها ، ولكن «ماركس» يرفض هذه الفكرة ، فالتطور الاجتماعى يقوم على أساس تاريخى شبه ميكانيكى ،نجد أن الانسان فيه وان كان يلعبالدور الاول ، الا أنهيصل الى التقدم وتحسين أحواله عن طريق الجهود التى يبذلها باستمرار على مراحل التاريخ المختلفة (١) •

وهكذا يفسر ماركس ظاهرات المجتمع فى ثباتهـا وتغيرهـا ، بأسلوب الحياة المادية • وهذا لايعنى استناد المادية التاريخية على تفسير على حتمى أحادى الجانب • لأن ماركس لم يقل مطلقا بـأن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد • فالاساس الاقتصادى يتألف من مجموعة من المتغيرات التى تشمل، بين ماتشمل ، قوى الانتــاج وعلاقات الانتاج وما بينهما من حركة دينامية وعلاقات جدلية (٢) •

الوجود الاجتماعى والوعــى الاجتماعى :

أما نظرية «ماركس» فى البناء الاجتماعى فتتلخص فى أن هنـــاك نوعين : البناء الاسفل وهو يتكون من العوامل الاقتصادية والمادية ، ثم البناء الاعلى وهو الافكار والمبادىء • وأن أى تغير فى البناء الاسفل يتبعه تغير فى البناء الاعلى ، ولكنه يضيف الى ذلك فكرة هامة وهى أن ثمة تفاعلا أو تأثيرا متبادلا بين كلا الاساسين أو البنائين العلوى والسفلى (٣) •

اذن هناك تفاعل وتساند متبادل بين كل من العوامل الفكريـــة والاقتصادية المادية فى المجتمع • وكل ما فى الامر انه حذر فقط من الاستغراق فى العوامل الفكرية • أى دراستها فى ذاتها ، وتلك فكرة

(١) المرجع قبل السابق ، ص ٩٥.
(٢) المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، مرجع مذكور ، ص ٣٤
(٣) المجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ٩٥.

من الافكار الاساسية التى استند عليها بعض علماء الاجتماع الالمان وخاصة فيما يتعلق بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge (١) •

واذا تفحصنا المادية التاريخية بدقة ، باعتبارها الاطار الاساسى لعلم الاجتماع ، فسوف يتجلى لنا أن موضوع العـلم هو المجتمـع والانسان معا ، دون فصل أو تعالى للمجتمع عـلى الفرد أو عـلى الانسان ، كما يتضح من كتابات ابن خلدون أو أوجست كومت •فالمادية التاريخية باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات النسق الفكرى الماركسى ترى الوجود الاجتماعى كواقع موضوعى مستقل عن الوعى الاجتماعى للانسانية • أى أن العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى يحتل فى المادية التاريخية نفس المكان الذى تحتله العلاقة بين الوجود والوعى فى المادية الجدلية • ومثلما تهتم المادية الجدلية بماهية العلم والقوانين العامه للتطور ، تهتم المادية التاريخيـة بموضـوع علم الاجتماع وقوانين تطوره وتغيره (١) •

ولقد تعرض «ماركس» الى ما يسميه الآن «تالكوت بارسونز» T.PARSONS النظرية الطوعية أو الاختيارية للفعل الاجتماعى ، حين يقرر أن الثورة ، مع أنه لامفر منها ، الا انها تحدث فقط حين يدفع الناس الى القيام بها (حينما يصبحون واعين طبقيا) (٢) •

كما أشار (سوروكين) P. Sorokin فى كتـابه « النظريـات السوسيولوجية المعاصرة» أن بعض من المؤلفين لاحظوا أن (باريتو) F. Pareto يقترب من ماركس فيما يتعلـق بفكرتـه عن الرواسـب والمشتقات • فهو مثل (ماركس) من حيث أنه لم يركز كثيرا عـلى

---

(١) المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، مرجع مذكور ، صص ٣١—٣٢

(٢) المرجع قبل السابق ، ص ٩٥.

المشتقات أو الايديولوجيات .. وان الرواسب هى أساس الايديولوجيات (١) .

الطبقات الاجتماعية :

الطبقة كما يرى كارل ماركس هى «أى تجمع لاشخاص يؤدون نفس الوظيفة فى عملية تنظيم الانتاج . وتختلف الطبقات عن بعضها البعض على أساس أوضاعها الاقتصادية» .أى أن الوجود الطبقى يقوم على أساس الوظيفة المشتركة فى اطار عملية الانتاج ، أو أن أسلوب الانتاج هو الذى يهيىء الظروف لوجود الطبقة الاجتماعية . وجدير بالذكر أن ماركس عبر عن هذا الرأى فى كتاباته المبكرة فى الفلسفة ، خاصة عندما تحدث عن تقسيم العمل (١) ، حيث كان يعرض لاراء الاقتصاديين الرأسماليين من أمثال آدم سميث . وقد نقد كذلك المنهج التاريخى الوصفى الذى اتبعه برودون ، وفضل فى دراسته لتقسيم العمل أن يتناولها تحليليا من وجهة نظر اقتصادية تاريخية . ورأى أن أساس السلطة فى المجتمع كانت نتيجة لتقسيم العمل . «ففى النظام الكهنوتى والنظام الطائفى والنظام الاقطاعى ، كان تقسيم العمل قائما على أساس أدوار محددة تبعا لمختلف ظروف المجتمعات وليس عن طريق التشريع ، وأن مختلف أشكال تقسيم العمل تشكل أساس التنظيم الاجتماعى للمجتمع ككل » (٢) .

ويعتقد ماركس أن العمل هو أساس تحقيق الانسان لذاته ، وهو الذى صنع التاريخ . ولذلك يعتبر فهم ظروف الانتاج ركنا جوهريا فى تفهم ذلك التاريخ . ولذلك فان وسيلة ما من وسائل الانتاج أو أية مرحلة صناعية محددة ، انما ترتبط بطريقة معينة عن طريق التعاون

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦

(2) R. Bendix & S. Lipset; Class Status & Power; Glencoe; Illinios, 1958; p. 28.

(3) K. Marx & F. Engles, The German Ideolgy, Moscow, 1968,

أو بمرحلة تاريخية أو اجتماعية محددة • حيث تعتبر وسيلة التعاون هذه «قوة انتاجية» فى حد ذاتها • وأبعد من ذلك فان تعدد قـوى الانتاج المتاحة تحدد طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه الناس • وعلى ذلك ينبغى دراسة تاريخ البشرية ومعالجته فى ضوء تاريخ الصناعة والتبادل • اذ توجد علاقة منطقية بين مظاهر الانتاج • لان اشباع الحاجات الاساسية يجعل من العمل حقيقة لها أهميتها فى الحيـاة البشرية • ورغم وجود حاجات ثانوية ، الا أن ثمـة أهمية عظمـى للحاجات الاساسية فى خلق وتحسين أدوات الانتاج ، وما يتبعه من ازدياد الحاجة الى التعاون المثمر بين الناس سواء فى داخل الاسرة أو خارجها • هذا ، ويتضمن التعاون تقسيم العمل وتنظيم الانتاج ، أو حسبما يذهب ماركس « أسلوب التعاون باعتباره قوة من قـوى الانتاج» • كما يتضمن التعاون — كذلك — تحسين مستوى وسائـل الانتاج المستخدمة (١) •

ويورد ماركس عبارة تميز فكرة الطبقات لديه عن تصورها لدى غيره من المفكرين ، وتميزها فى ذات الوقت عن غيرها من الظواهـر الاجتماعية ، وهذه العبارة هى «تسلسل المراتب المتعددة» • ذلك لان انقسام الناس الى فئات لايمكن وصفها بأنها «طبقية» الا اذا انطوت على تسلسل تصاعدى أو تنازلى فى المراتب ، بحيث يمكن القول بأن قسما ما فى أعلى المجتمع ، وآخر فى الوسط ، وقسما ثالثا فى أسفل المجتمع • ولا سبيل الى تغيير هذا الترتيب لان كل قسم أو طبقـة يتحدد عند مقارنته بغيره فى داخل هرم الترتيب الطبقى (٢) • ومـن هنا يمكن اثبات أن الطبقة لاتوجد بمعناها الا اذا وجد التدرج بين أقسام وفئات معينة ، مما يمكن معه أن يطبق عليها مفهوم «طبقة» •

---

(١) غريب سيد أحمد ، الطبقات الاجتماعية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٤٩ — ٥٠ .

(٢) محمد ثابت الفندى ، الطبقات الاجتماعية ، دار الفكر العـربى ، ١٩٤٩ ، ص ٣٢ .

ويؤكد ذلك ماذهب اليه كل من ماركس وانجلز من أنه خلال العهود التاريخية نجد المجتمع منظما «تنظيمـا متسلسـلا» ، فالاوضـاع الاجتماعية تظهر فى هيئة مراتب ودرجات متفاوتة ، مثلما كان الامر فى روما القديمة حيث وجد النبلاء ثم الفرنسان ثم العامة ثم الارقاء. وفى القرون الوسطى نجد الاقطاعيين الاسياد ثم الاقطاعيين الاتباع ثم المعلمين فالصناع ثم الاقنان . كذلك نجد تقريبا داخل كل طبقـة من هذه الطبقات مراتب ودرجات خاصة (١) .

الصراع الطبقـى :

قدم ماركس تفسيرا لظهور الطبقة الاجتماعية عندمـا عرض لتطور البورجوازية والبروليتاريا . ففى العصور الوسطى اتحد كل مواطن بأقرانه ضد نبلاء الارض كما أن اتساع نطاق التجارة ووسائل الاتصال أدى الى شعور مدن متجاورة بمصلحة متشابهة مهد لظهـور طبقة مواطنى المدينة أو القريه Burghers التى مهدت بدورهـا لوجود الطبقة البورجوازية التى استوعبت كل الطبقات المالكـة . فتحولت الملكية القديمة للارض الى رأسمال صناعى أو تجارى . وهذا فى الوقت الذى كون فيه غير الملاك طبقة أخرى شعرت بعداء مشترك ضد الطبقة المالكة . ثم أصبح لكل من الطبقتين وجودا مستقلا كل عن الاخرى تبعا للمصلحة المشتركة وظروف الحيـاة الخاصة (٢) . فالبورجوازية نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات فى أسـاليب الانتاج والتبادل . وكانت كل مرحلة من مراحل التطور التى مرت بها البورجوازية يقابلها ارتقاء سياسى تحرزه هذه الطبقة . فمنـذ أن توطدت الصناعية الكبرى وتأسسـت السوق العاليـة ، استولـت

---

(١) ماركس وانجلز ، بيان الحزب الشيوعى ، موسكـو ، الترجمـة العربية ، ص ٤١.

(2) K. Marx & F. Engles, The German Ideology, Moscow, 1968, pp. 69 - 70.

البورجوازية على السلطة السياسية فى الدولة ، واصبحت الحكومة عبارة عن لجنة ادارية تسير الشئون العامة للطبقة البورجوازية (١) . هذا فضلا عن ان البورجوازية قد عملت على انحلال واندثار العلاقات الاجتماعية الراسخة ، وما يحيط بها من معتقدات وأفكار كانت على درجة من الاحترام والقداسة (٢) . وعلى أى حال فقد أوضح «البيان الشيوعى» ان السمة الاساسية لاى تنظيم اجتماعى متمثلة فى الصراع الطبقى . كما أن هذا الصراع لايحفظ توازن النظام الاجتماعى الا فى الدولة اللاطبقية ولقد كان هذا الاعلان تحطيما لليوتوبيا التقليدية ، حيث قامت معظم اعمال ماركس على ايديولوجية الصراع والثورة الطوعية ضد النظام القائم (٣) .

واذا كان ماركس وانجلز يوضحان الصراع الطبقى من خلال تطور ونمو البورجوازية ، فانهما يوضحانه كذلك فى ضوء تطور البروليتاريا . فلقد ظهرت محاولات ارتباط العمال المبكرة فى شكل اتحادات عمالية تدافع عن المصالح المشتركة بينها ، وتحول التنافس الذى أثارته البورجوازية الى تنافس عام ضد الرأسمالية . حيث يتخذ التطور طابعه السياسى عن طريق الاتحادات العمالية ، ومن ثم لايكتفى العمال بتوجيه ضرباتهم الى علاقات الانتاج البورجوازية ، بل الى أدوات الانتاج ذاتها . ذلك لان البروليتاريا لاتستطيع الاستيلاء على قوى الانتاج الا بهدم أسلوب الملكية الخاصة ، وهذا لايتأتى الا اذا حطمت جميع الطبقات المتراكب بعضها فوق بعض والتى تؤلف المجتمع التقليدى (٤) . وحينئذ تكرس هذه الطبقة كل جهودها لبلوغ أهدافها الطبقية ، ومايلزم ذلك من أفكار ونظم تواجه من يقفون

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ص ٤٣ — ٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ .
(3) H.M. Hodges, Social Social Stratification, Cambridge, 1964, p. 45.
(٤) بيان الحزب الشيوعى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٣ — ٥٨ .

فى سبيل تقدمها (١) • وهذا يؤدى الى اتصال أعضاء كل طبقة بعضهم بالبعض وتضامنهم فى داخل تنظيم سياسى واحد •

ولم ينظر ماركس الى عداء العمال للطبقة الرأسمالية والنظـام الاقتصادى السائد باعتباره حصيلة الصـراع من أجـل امتيازات اقتصادية ، بل أكد على النتائج البشرية التى تصاحب الانتاج الآلى القائم فى ظل الرأسمالية ، وما ينجم عنها من علاقات تحرم العـامل من فرص الاشباع النفسى • فتقسيم العمل فى الصناعة الحديثة جعل من الكائنات البشرية مجرد أذيال أو تروس للآلة • ويعتقد ماركـس أن اغتراب Alination العمل ناجم عن الرأسمالية ، كمـا أنه سبب فى الحرمان النفسى الذى قد يقود فى نهاية الامر الى ثورة البروليتاريا• وهنا يقابل ماركس بين العامل الصناعى الحديث وبين الحـرفى فى العصور الوسطى ، حيث يلاحظ أنه فى ظل ظروف الانتاج الحديثـة يفقد العامل كل فرصة فى تصنيع منتجاته عن طريق معرفته وخبرتـه وارادته • ويبدو هذا الحرمان النفسى — لدى ماركس — على أنـه أكثر أهمية من العوز الاقتصادى للعمال (١) •

وعلى هذا فان المادية التاريخية لاتنكر الجانب السيكولوجـى والايديولوجى للحياة الاجتماعية ، ولكنها ترفض أن ترى فيه فقـط العامل الاساسى أو التعبير الصادق عن الحقيقة الاجتماعية • كمـا أن علم الاجتماع الماركسى يرتكز على تصـور المصـالح الطبقيـة والصراع الطبقى ، اذ يتوجه تحليل ماركـس للتطـور التاريخـى للمجتمعات الى الطرق التى بها تشكل العلاقات بين الناس عن طريق اوضاعهم النسبية فى عملية الانتاج ، وكيف تتحول المصالح الفرديـة الى مصالح جماعية يمكن التنبؤ بها (٢) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٠ — ٤١

(2) Bendix & Lipset, op. cit., pp. 32-33.

(3) L.A Coser, Continuities in the Study of Non Realistic Social Conflict, N.Y., 1967, p. 33.

ولقد اتبع الكثير من علماء الاجتماع وجهة النظر الماركسية — اللينينية فى دراسة الصراع الطبقى ، بالاضافة الى الاسهامات التى قاموا بها فى هذا لاتجاه • ومن امثال هؤلاء العلماء دجيلاز Djilas وشومبيتر وبورنهام Burnham وكرونر Croner وريثر Renner ومن هذه الاسهامات ما ذهب اليه جيجر من أن البناءات الطبقيـة فقدت خاصية السيطرة • كما ذهب دروكر ومايـو الى أن التطـور الاجتماعى الحديث يتضمن فكرة الثورة •

المبحث الثالث

هربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣)

ولد سبنسر Herbert Spencer فى ٢٧ ابريل عام ١٨٢٠ وتوفى فى ديسمبر عام ١٩٠٣ • بدأ حياته مدرسا ثم اشتغل مهندسا ، ولم يلبث أن ترك الوظيفة واشتغل بالادب والسياسة وشئون الاجتماع • كتب مؤلفات ضخمة تدل على سعة العرض ودقة التحليل وعمق الفكر وأصالته • وكانت مؤلفاته مرآة صادقة للفكرة التى تشبعت بها نفسه وتبلورت فى تفكيره وهى «فكرة النشوء والارتقاء» • فحاول تطبيقها على الكائنات الحية فى ميدان علم الحياة ، وعلى الانسان فى ميدان علم النفس والاخلاق ، وعلى المجتمع فى ميدان علم الاجتماع والسياسة (١) • ففى عام ١٨٥١ نشر كتابه «الاستاتيكا الاجتماعية» ، ونشر كتابه «المبادىء الاولية لنسق فلسفى جديد» عام ١٨٦٢ • وفى أثناء الاعوام من ١٨٧٦ حتى ١٨٩٦ نشر كتابه «مبادىء علم الاجتماع» فى ثلاثة اجزاء • ويعتبر هذا الكتاب عملا علميا واسع المعرفة ، ومعالجته ثاقبة لموضوعات كثيرة •

لاشك أن سبنسر أحد دعائم الحركة الاجتماعية العلمية فى القرن التاسع عشر • وبالرغم من اتفاقه مع أوجست كومت فى بعض الحقائق، الا أنه لايعترف بأن كومت أسبق منه وصولا اليها ، اذ نشر أول كتاب له «الاستاتيكا الاجتماعية» قبل أن يعرف تفصيلا تفلسفة أوجست كومت • ولذلك فان مظاهر الاتفاق بينهما جاءت عرضا ، بالاضافة الى أنهما مختلفان — الى حد كبير — فى الخطوط الرئيسية التى التزم بها كل منهما فى دراسته للمجتمع وظواهره • ومع ذلك يقرر بعض النقاد أن القارىء لكتاب سبنسر «مبادىء علم الاجتماع»

---

(١) مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١١٤

يدرك تماما أنه مستمد فى روحه وليس فى تفاصيله من كتاب كومت «الفلسفة الوضعية» • فلا شك أن كومت رسم الاطار العام ، وأن سبنسر ملأ هذا الاطار (١) •

ولقد عرض سبنسر نظريته عن التطور الاجتماعى عام ١٨٦٠ فى مقال بعنوان «الكائن العضوى الاجتماعى» ، ثم زاد توضيحا لها فى كتابه «مبادىء علم الاجتماع» المشار اليه • وقليل جدا مما كتب سبنسر يحتفظ اليوم بقيمته العلمية • ومع ذلك فان سبنسر له أهمية خاصة بالنسبة للانثربولوجية الاجتماعية • لانه أول من وضع نظرية متناسقة محكمة الحلقات عن التطور الاجتماعى (٢) •

يذهب سبنسر الى أن موضوع المعرفة ينحصر فى جملة العلوم الوضعية الواقعية • وقد انتقد تصنيف أوجست كومت لهذه العلوم ، ولكنه أخذ عنه التمييز بين العلوم المجردة والعلوم المشخصة ، وأضاف قسما وسطا سماه العلوم المجردة المشخصة ، ووضع الجدول التالى : (٣)

١ — العلوم المجردة أو علوم الصور الجوفاء ، وهى المنطق والرياضيات بفروعها •

٢ — العلوم المجردة المشخصة أو علوم الظواهر ، وهى الميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء •

٣ — العلوم المشخصة أو علوم الموجودات ، وهى علم الفلك وعلم طبقات الارض وعلم الحياة والاخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع •

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١٤ — ١١٥ •
(٢) السيد محمد بدوى ، مرجع سابق ، ص ١٢٣
(٣) يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ •

وتتلخص أهم القضايا فى فلسفة سبنسر فيما يلى (١) :

١ ـ العالم فى تغير مستمر ، فكل ما يقع فيه من تغير سـواء كان كبيرا أو صغيرا ، طبيعيا أم عقليا أم اجتماعيا • فانما يرد الـى تفاعلين هما : النشوء والارتقاء •

٢ ـ القوة ثابتة لاتتلاشى ولكنها تتغير على الدوام من صورة الى أخرى •

٣ـ المادة لاتنعدم ولا تتحدد ولكنها تتشكل •

٤ ـ الحركة دائمة ولكنها تسير فى أقل الجهات مقاومة •

وظهر لسبنسر فوق ما تقدم ان كل الافعال فى مجموعها تجرى وفق قانون طبيعى واحد ، مهما ظهر لنا أن كل فعل على حدة خاضع لقانون خاص فان التغيرات المختلفة ليست فى حقيقة الامر منفصلـة بذاتها ، ولكنها مرتبطة ارتباطا وثيقا وفق قانون «الاتصال النسبى» الذى يجمع ويؤلف بينها (٢) •

وبعد ان يشرح سبسر مبادىء فلسفتـه يطبقها على الحيـاة البيولوجية ، ويقرر أن فى الحياة ميلا الى التفرد ، والتفرد هو غاية كل ارتقاء ، وكل ارتقاء انما ينطوى على الانتقال من المتماثل الـى المتباين ، أو من المتجانس الى اللاتجانس • ويقرر كذلك أن التخصص هو غاية كل تطور وارتقاء فى الموجودات • وهـذا القانون بحسـب تحليله قائم على دعامتين (٣) :

---

(١) مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١١٥
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٥
(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦

١ ــ كلما ازداد المركب الحيــوى تعقيدا ، ازداد اختصاصــا وتفردا .

٢ ــ كلما ازدادت الاعضــاء تفــردا واختصاصــا ، ازدادت استقلالا .

وينتقل سبنسر بهذه الحقائق من ميدان الحياة البيولوجية الى ميدان الحياة الاجتماعية ، فيحاول تطبيقها على هذه الحياة مشبهــا اياها بالحياه البيولوجية . وبعد أن يشرح كيفيــة نشأة الحيـــاة الاجتماعية وتطورها ووضوح وظائفهـــا وازدياد ظاهـــرة التفـــــرد والتخصص حتى وصلت فى العصر الحاضر الى أدق مظاهرها ، يقول أن نظريته فى النشوء والارتقاء أو التطــور ، تقــوم على أساســن فكرتين هما (١) :

(١) التباين (Differentiation) ويقصد بذلك الانتقــال مــن المتجانس Homogeneity الى اللامتجانس Heterogeneity وقد قرر فى هذا الصدد ان فى الحياة ميلا الى التفرد والتخصص ، وقد اصبح هذا التخصص هو المطلب الاول فى شئون الحياة ، وهــو الغــاية القصوى التى يصل اليها الكائن فى ارتقائــه ، وان هــذا الارتقاء والتطور كان مصحوبا بالانتقال من التعميم غير المحدود الى التخصص المحدود ، ومن المتماثل الى التباين .

(٢) التكامل Integration وهذه الظاهرة تسير جنبا الى جنب مع ظاهرة التباين . بمعنى أن التفرد أو التخصص لايــؤدى الــى الاستقلال والاكتفاء الذاتى ، ولكنه يؤدى الى التماسك والتضامــن واعتماد الاجزاء والوظائف بعضها على البعض الاخر .

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١٦ ــ ١١٧ .

والمجتمع فى نظر سبنسر جزء من النظام الطبيعى للكون • وعلم الاجتماع و محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره وهيئاته ومراحل نموه وتطوره وما الى ذلك من المظاهر التى تخلقها العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية ، وهى عوامل تعمل متضافرة فى عملية تطورية موحدة ، فالتطور الاجتماعى فى نظره ليس الا عملية تطورية عضوية يسميها «التطور فوق العضوى Super organic evolutoin (١) •

وفى ضوء ما تقدم ، المجتمع عبارة عن كائن عضوى أو مركب عضوى Organism يشبه الجسم الحى • وعناصر المجتمع وهيئاته تشبه نظائرها فى الجسم الحى • ويعقد سبنسر مماثلة بين المجتمع والجسم الحى من ناحية التركيب الداخلى ، بيد أنه لايفوته أن يقرر فروقا ذات بال بين التركيب العضوى فى الكائن الحى وبينه فى المجتمع، أهمها ان عناصر الكائن الحى تكون كلا متماسكا متحدا بصفة مباشرة ، بينما نجد أن العوامل التى تؤدى الى الوحدة فى المجتمع خارجه عن التركيب العضوى فى الفرن (٢) •

ومتى قام المجتمع ، واستقرت الى حد ما الحياة الاجتماعية ، تأخذ الظواهر والنظم الاجتماعية فى الارتقاء والتطور وتخضع بدورها للانتقال من حالة التجانس الى مرحلة التباين والتخصص • وهى فى هذا الصدد تتأثر بنوعين من العوامل وهى (٣) :

(١) العوامل الداخلية وهى العوامل التى تمثل فى نظره الناحية الفردية • وهى أمور تتعلق بالتكوين الطبيعى والوجدانى والعقلى للافراد الذين يكونون المجتمع •

(٢) العوامل الخارجية وهى العوامل التى تمثل فى نظره أثر البيئة ، فالبيئة الجغرافية وظروف المجتمع الطبيعية والمناخية من الامور التى تؤثر بصفة مباشرة على الافراد وبالتالى على الظواهر

---

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع السابق ، ص ١١٨

الاجتماعية التى لاتعدو أن تكون مجرد نتيجة لاوجه نشاط الافراد •

ان القضية الاساسية لدى سبنسر هى قضية المماثلة بين الكائن البيولوجى والمجتمع ، وذلك لمعالجة نظريه التطـور ، التى وضعـت لتفسير تطور الحياة العضوية ، وتطبيقها على تطور المجتمع البشرى، فمثلما يدرس الكائن البيولوجى فى كل اجزائه ، اذا ما أريد فهمه ، كذلك المجتمع من كل نظمه المتنوعة • فالتطور الذى يحدث فى الاخير حتى يصل الى شكله الراهن واسهامه فى استمرار حياتـه ، يمكـن دراسته اذا كان من الممكن فهم المجتمع ككل وظيفى • ولهذا الهدف ابتكر سبنسر اطارا تصوريا للتحليل يعتبر أعظم اسهام له فى النظرية السوسيولوجية • حيث رسم سبنسر عن طريـق منهج التطـور ، الخطوات التى تحول المجتمع من التجانس البسيط (الزراعى) غـير المتمايز ، الى المجتمع غير المتجانس (الصناعى) المتمايز • وقد فشل سبنسر فى الحديث عن العمليات التى قـد تحدث التغير أو تـؤثر فيه (١) •

ولقد بلور سبنسر فكرة المماثلة بين المجتمع والكائن الحى بقوله بأن المجتمع ينتظم على نفس نسق الفرد أو على غراره تماما • حتى أننا نستطيع أن ندرك ما هو أبعد من المماثلة بينهما ، حيث ينطبق نفس تعريف الحياة على كليهما • وحينما ندرك أن المجتمع يمر خلال النمو والنضج والهرم ، وأن ذلك يسير على نفس المبـادىء التى تحـدد

---

(١) وبعده بذل دوركايم جهدا كبيرا لتوضيح كيف يظهر هذا ، ولكنه فشل أيضا ، ذلك لان المقدمة المنطقية التى بدأ بها كل منهما كانت غير صحيحة . فالبساطة التى افترضاها للمرحلة المبكرة للمجتمع كانت احدى اختراعاتهما ، وكان تحديدها وتفسيرها من عندياتهما وفى ضوء وجهة نظرهما . وقد أشارا بصعوبة بالغة الى التعقيـد الثقافى والنظامى الذى ينتشر فى المجتمع البدائى . وكان العمـل ككل تعسفيا ومتكلفا ، ومساعدا فقط لاهداف تعليمية انظر : ابراهام مرجع مذكور ، ص ص ١٩٤ — ١٩٥).

التحولات التى تمر بها كل من النظم غير العضوية والعضوية ، ندرك مفهوم علم الاجتماع بوصفه علما • ويمكننا القول أن سبنسر قد لاحظ عددا من أوجه الشبه بين الكائنات الاجتماعية والكائنات العضوية على النحو التالى (١) :

١ — يتميز كل من المجتمع والكائنات العضوية عن المادة غـير العضوية بالنمو الواضح خلال الشطر الاكبر من وجودهما • فالرضيع ينمو لكى يصبح رجلا ، والمجتمع الصغير يصبح منطقة متروبولوتية ، والدولة الصغيرة تصبح امبراطورية •

٢ — تنمو كل من المجتمعات والكائنات العضوية ، وتتطور مـن حيث الحجم ، كما أنها تنمو فى درجة تعقدها البنائى • وهنا لم يكـن سبنسر يقصد المقارنة بين تطور المجتمع ، وتطور كائن فرد ، بل كان يقصد أن الكائنات البدائية بسيطة والكائنات العليا معقدة ، وكذلك المجتمعات •

٣ — يصاحب التمايز أو التفاضل التقدمى فى البناء ، سواء فى المجتمعات أو فى الكائنات العضوية ، تمايز تقدمى فى الوظائف • فكل عضو يؤدى وظيفة محددة لمركب الكائن العضوى ، كما ان التنظيمات المختلفة تؤدى وظائف مختلفة فى المجتمع الذى ينقسم الى مثل هذه التنظيمـات •

٤ — يؤدى التطور ، سواء فى المجتمعات أو الكائنات العضوية، الى تباينات فى البناء والوظيفة ، وكل منهما يجعل الاخر ممكنا •

٥ — اذا كنا ننظر الى الكائن الحى بوصفه جماعـا لوحدات

---

(١) ثيماشيف ، مرجع مذكور ، ص ص ٥٦ — ٥٧

تعيش منفردة ، فان مجموعة الكائنات البشرية أو المجتمع الانسانى يمكن النظر اليه بوصفه كائنا .

٦ — وقد سار سبنسر على هـذا الخط الفريـد من التبريـر المنطقى الى مماثلة أبعد مدى ، فحياة المجتمع قد تدمر وتقوض ، الا أن الوحدات تستمر فى الحياه ولو للحظه . وذلك ينطبق على الكائنات الحية العضوية كما ينطبق على المجتمعات .

واذا كان سبنسر قد حدد ستة أوجه أساسيـة للمشابهة بـين المجتمع والكائن الحى العضوى ، فانه يضع ثلاثة اختلافات يمكـن ملاحظتها بينهما . وتتلخص وجوه الاختلاف بـين المجتمع والكائـن العضوى فيما يلى :

١ — ان الاجزاء المكونة للكائن العضوى تكـون كلا واقعـيا ملموسا متكاملا ، وترتبط الوحدات أو الخلايا الحية معا ارتباطا وثيقا. أما الاجزاء المكونة للكائن الاجتماعى فهى تكون كلا مجردا يمكـن ادراكه بالعقل ، وتكون عناصره منفصلة ومتمايزة .

٢ — يتميز الكائن العضوى بتباين الوظائف وتصبـح بعضـ الاجزاء مركزا للشعور والتفكير وبعضها عديم الحساسية . أمـا فى الكائن الاجتماعى فلا يوجد مثل هذا التباين فى الوظائف . فلا يوجـد عقل اجتماعى ولا مركزا للحس منفصل عن الافراد الذين يكونـون المجتمع .

٣ — الخلايا فى الجسم الحى تعمل من أجل صالح الكل ، فى حين أنه فى المجتمع يوجد الكل ويعمل مـن أجل صالـح عناصره أو أعضائه .

مما تقدم نرى كيف اعتمد سبنسر على علم الحياة لاستخلاص القوانين التى تسير عليها المجتمعات فى تطورهـا . فهو ينظـر الى

الانسان على أنه خلية فى جسم المجتمع • وما دام المجتمع يتكون من مجموعة من الخلايا الانسانية ، فلا ضرر ــ حسب رأيه ــ من النظر الى علم الاجتماع على أنه نوع من البيولوجيا فى صــوره مكبرة ، ولايستطيع العالم الاجتماعى فى نظر سبنسر أن يقوم بدراسة حقيقية عن المجتمع ، الا اذا مهد لذلك الدراسة بمعرفة القوانين العامة لعلم الحياة • كما أنه لايغفل ما لعلم النفس من فائدة بالنسبة الى العالم الاجتماعى • لان القوى التى تسير المجتمع ترجع فى الاصــل الى بواعث شخصية يجب معرفتها (١) •

ويمكننا أن نجمل اهم الدعائم التى ترتكز عليها فلسفة سبنسر الاجتماعية فيما يلى (٢) :

(١) المجتمعات مركبات عضوية حية ، أو تجمعات فوق العضوية•

(٢) يوجد بين المجتمعات والبيئات التى تشغلها توازن فى القوى• فهناك توازن بين مجتمع وآخر ، وبين جماعة وأخرى فى نطاق المجتمع الواحد ، ويوجد توازن بين مختلف الطبقات كذلك •

(٣) ويأخذ هذا التوازن صورة تنازع البقاء بين المجتمعــات ، ومن ثم يصبح الصراع نشاطا مالوفا فى الحياة الاجتماعية •

(٤) وفى غمرة هذا الصراع للتنازع على البقاء ينشأ الخوف من الاحياء والاموات على السواء ، وقد كان الخوف من الاحياء (وهو شىء طبيعى ناتج عن الصراع) ، سببا فى قيام التنظيم السياسى ، كما كان الخوف من الموتى سببا فى قيام النظام الدينى •

---

(١) السيد محمد بدوى ، نظريات ومذاهب اجتماعية ، مرجع مذكور ، ص ١٣٥ •

(٢) مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٢١ •

(٥) وتحت تأثير النظام السياسى والدينى ، فان حالة الصراع المألوفة أصبحت نزعة حربية ، وقد شكلت هذه النزعة العادات ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعى وأصبحت صفة لازمة للتجمعات الانسانية الاولى •

(٦) وساعدت النزعة الحربية على سرعة اندماج الوحدات الاجتماعية الصغيرة فى وحدات أكبر وأوسع نطاقا • وهكذا حتى قامت المجتمعات الكبيرة • أى أن هذه النزعة حققت مظهرا من مظاهر التكامل الاجتماعى ، وقد وسعت هذه العملية نطاق الحياة الاجتماعية، واستطاعت الشعوب الكبيرة فى زمن السلم ان تلجأ الى التصنيع •

(٧) وقد شكلت حياة السلم والصناعة ، الاخلاق ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعى تبعا لما تقتضيه هذه الحياة من التعاون ومظاهر الاخاء والمشاركات الوجدانية والتحرر وزيادة المعارف الانسانية •

(٨) ومن ثم أدت هذه الحياة الى الحرية والتعاون الاختيارى ، وأدت الى مرونة التنظيم الاجتماعى وسيولة العلاقات الاجتماعية بين الافراد •

(٩) ويتوقف التحول من الحالة الحربية الى الحالة الصناعية على مبلغ التوازن فى القوى بين مجتمع ما والمجتمعات المصاحبة له ، وبين المجتمعات التى تنحدر من جنس معين والمخالفة لها •

(١٠) هذا ، ولايمكن أن نعزز الاتجاه نحو التصنيع السلمى الا اذا حققنا أولا توازن القوى بين الامم وبين مختلف الاجناس •

ولقد وجه الكثير من النقد حول افكار سبنسر ، اذ يرى النقاد أن نظريته فى تشبه المجتمع بالكائن الحى العضوى تعتبر طريقة غير علمية . لان المقارنة لاتعقد الا بين ظاهرات متماثلة فى طبيعتها . أما اذا عقدت بين طبائع مختلفة فتكون طريقة فاسـدة ولاتؤدى الـى تحقيق علمى سليم . كما أن هذه النظرية لم تميز بين عالمى الحيوان والانسان . فمبدأ البقاء للاصلح لايمكن ان يسرى على الانسان وهو يحيا حياة اجتماعية ، مثلما يمكن تطبيقه على الحيوانات التى تحيـا حياة انفرادية . وليس صحيحا ان المجتمع وسط تتحقق فيه ضروريات الحياة الفردية فقط ، وأن الانسان ترك الوسط الطبيعى الذى كـان يعيش فيه لادراكه مبلغ ما يعود عليه مـن النفع فى ظل النظـــام الاجتماعى ، لان أغراض التجمع البشرى أغراضـن جمعية وليســت أغراضا فردية حيوية (١) .

ان ما دفع سبنسر الى القول بهذه الاراء هو تمسكـه بالمذهـب النفعى . وهذا المذهب ، بالاضافة الى تحيزه الفكرى نحو التطور ، قاده الى أن ينظر الى التقدم على أنه طوعى وحتمى الى حدما . بحيث يبذل الانسان جهده نحو الوصول الى تنظيم اجتماعى مرغوب ونسق سياسى تمكنه وظيفته من التمتع بثمار التصنيع . الا أن التقدم المادى والعملية التاريخية للانتخاب الطبيعى ، توضحان الحياة للاقوى فى سياقات المجتمع البشرى بنفس الطريقة التى تحدث بها فى الطبيعة . فليست هناك حدود لتلك الحركة التى تمكن الانسان من التحكم فى البيئة بالطريقة التى تحقق منفعته ، ولهذا لابد من التحفظ عند التفاؤل بنتاج هذه العملية . ومع ان سبنسر كان يمتع بملاحظات دقيقة وفروض بارعة وتفسيرات جريئة ، الا أنه لم يضع نسقا فكريا يتسق مع هذه الملاحظات والفروض والتفسيرات ، اذ فشل فى ان يكون متسقا فى

---

(١) مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

اطاره التصورى ، ومنطقيا فى سياقه . لقد رحب سبنسر بالتصنيع نظرا لفوائده المحتملة ، ولكنه فشل فى ايجاد العلاقة المنطقية التى تربط بين التصنيع فى حد ذاته وبين فوائده ، أو بين التصنيع وبين التقدم والسعادة .

المراجــع المستخدمة :

١ — السيد محمد بدوى ، نظريات ومذاهب اجتماعية ، دار المعــارف بمصر ، ١٩٦٩ .

٢ — ــــــــــــ ، مبادىء علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ .

٣ — تيماشيف ، نظرية علم الاجتمــاع ، ترجمة محمد الجوهــرى وآخرون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ .

٤ — جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة غنيم عبدون ، الدار القومية للطباعة والنشر .

٥ — على عبد الواحد وافى ، عبقريات ابن خلدون ، عــالم الكتب ، ١٩٧٣ .

٦ — غريب سيد أحمد ، الطبقات الاجتماعية . دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ .

٧ — غريب سيد أحمد وعبد الباسط عبد المعطى وعلى جلبى ، المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤

٨ — ــــــــــــ ، المدخل الى علم الاجتمــاع ، مؤسسة الثقافة الحديثة ، ١٩٧٥ .

٩ — ماركس وانجلز ، بيان الحزب الشيوعى ، دار التقدم ، موسكو

١٠ — محمد ثابت الفندى ، الطبقات الاجتماعية ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٩ .

١١ — مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول :

تاريخ التفكير الاجتماعي وتطـوره ، الـدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦.

١٢ — يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٧٩

13 — Abraham, J.H. : The origins & Growth of Sociology, England, 1973.

14 — Bendix, R. & Lipset, S. : Class, Status & Power, Glencoe, Illinios, 1958.

15 — Coser, L.A. : Continuities in the study of Non Realistic Social conflict, N.Y., 1967.

16 — Hodges, H.M. : Social Stratification, combridge, 1964.

17 — Marx, K. : The Poverty of Philosophy, Moscow, 1966.

18 — Marx, K. & Engles, F. : The German Ideology, Moscow, 1968.

19 — Zeitlin, I.M. : Ideology & the development of Sociological Theory, N. Delhi, 1969.

الفصل الخامس

بعض رواد علـم الاجتمـــاع

مقدمـــة :
المبحث الاول : اميل دوركايـم
المبحث الثانى : ماكس فيبر
المبحث الثالث : وليم جراهام سمنر
المبحث الرابع : تشارلز كولى

الفصـــل الخامس

بعض رواد علـــم الاجتمــــاع

وهكذا يتضح أن مولد علم الاجتماع الحديث كان لدى أوجســت كومت فى فرنسا • وبهذا حملت المدرسة الفرنسية مشعل علم الاجتماع• ويعتبر اميل دوركايم هو أكثر اعضاء هذه المدرسة دراسة وتفهمــا لموضوعات العلم بقصد الوصول الى نظرية متكاملة تصبغ دراسة المجتمع بالصبغة اللعمية •فاذا كان مولد علم الاجتماع لدى ابن خلدون،وتسميته لدى أوجست كومت ، فان تحديد منهجه ونظريته كانت عند دوركايم • وبهذا اتخذ علم الاجتماع الفرنسى طريقــا غير متماثل فى أى مكــان آخر • اذ يستطيع المرء أن يتبين فى علم الاجتماع الفرنسى نهرا من الفكر لايتحطم ، أرسى قواعد علم الاجتماع بصفة عامة •

واذا كان هربرت سبنسر ــ فى بريطانيا ــ قد تأثر أيضا بظروف عصره والمناخ الفكرى السائد ، فان كارل ماركس ــ فى المانيا ــ قــد تأثر بأفكار هيجل وفويرباخ • الا أن العلوم الطبيعية قد جذبت انتباه الدارسين فى المانيا ، ومن ثم كان احياء الكانطية فى جانبها الامبيريقى، كمناهضة للمثالية ، باديا فيما سمى بالكانطية الجديدة • وظهرت نظرة جديده بلورت اتجاه علم الاجتماع الالمانى واثرت كبير الاثر فى علم الاجتماع الامريكى ، وكانت هذه النظرة متمثلة فى آراء ماكســ فيبر الذى يعتبر رائدا لنظرية التكامل ــ فى مقابــل نظرية الصراع ــ وللاتجاه الامريكى بصفة خاصة • حيــث يعتبر ماكس فيبــر رائدا للمدرسة الامبيريقية فى علم الاجتماع •

وبالرغم من اقامة تراث علم الاجتماع بالمانيا وفرنسا فى نهايــة القرن التاسع عشر ، وبالرغم من استمرارية هــذا التراث وتأثــيره الفعال على مختلف مجالات البحث ، الا أنه يمكن القول بأن قصة علم اجتماع القرن العشرين ، وبالتحديد فى النصف الاول منه هى قصة علم

الاجتماع الامريكى بصورة كبيرة • واذا كان علم الاجتماع الامريكى قد بدأ بداية انثروبولوجية وخاصة ما ارتبط بأعمال الاثنوجرافيين وعلماء الانثربولوجيا الثقافية ، الا أن اعمال ونظريات علماء الاجتماع الامريكى كان لها الاثر فى تطوير ونماء هذا العلم • ويعتبر وليام جراهام سمنر علامة مميزة كنقطة تحول فى علم الاجتماع الامريكى • كما يتضح الطابع السيكولوجى لعلم الاجتماع فى أعمال تشارلز كولى •

وبهذا نعرض لاربعة رواد يمثلون بعض الاتجاهات الاساسية فى علم الاجتماع بأوربا وامريكا • وهذا لايعنى تجاهل الرواد الاخر الذين كان لهم التأثير البالغ فى مدارس واتجاهات علم الاجتماع الفكرية والفلسفية والرياضية والامبيريقية • وهؤلاء الرواد نعرض لهم هم : اميل دوركايم وماكس ڤيبر وسمنر وكولى •

المبحث الاول

اميل دوركايــم (١٨٥٨ ــ ١٩١٧)

يمثل دوركايم Durkheim نقطة تحول فى تاريخ الفكر الاجتماعى والنظرية السوسيولوجية • فلقد بذل جهدا كبيرا فى تحديد موضــوع علم الاجتماع وتميزه عن علم النفس والفلسفة ، مما أدى الى ظهــور النزعة السوسيولوجية Sociologism التى ترتبط بدوركايم وتمثل وجهة النظر التى تعتبر علم الاجتماع علما مستقلا له كيانه الخــاص كعلم وضعى ، وأنه كاف للتفسير الشامل للواقع الاجتماعى •

وحاول دوركايم تدعيم موقفه بمجموعة من الدراسات الامبيريقية، مثل تقسيم العمل والانتحار والدين • وكون من حوله مدرسه فكريــة كبيرة ، كانت ولاتزال تميز الفكر الاجتماعى الفرنسى بخاصة ، والفكــر الاجتماعى فى العالم بأسره • وكذلك أثر فى ميادين متعددة مثــل الاثنولوجيا والتاريخ وعلم النفس والقانون واللغات والدين •

ولد دوركايم فى ١٣ ابريل عام ١٨٥٨ بمدينة ابينال بفرنسا ، درس بمدرسة ابينال المحلية ، وانتقل الى باريس حيث التحق بالليسيه تمهيدا للالتحاق بمدرسة المعلمين العليا بباريس • وكانت المدرسة مركزا جامعا للفكر فى ذلك الوقت ، حيث التقى دوركايم ببيرجسون ، وجون ديوى ، وبلوندال وبيبرجانيه ، والتون مايــو • وأعجــب دوركايــم بالفلسفة وبثلاثة من اساتذته ، هم : اميل بترو ، وفوستل دى كولانج، وجيلوس مونود • وتعلم منهم الطريقة المنطقيــة فى التفكير وتنــاول المشكلات • وتعرف من خلال قراءاته على دينوفييه واوجست كومت • وبعد أن تخرج دوركايم من هذه المدرسة عمل فى سلك التدريس وحصل خلالها على اجازة لمدة سنة سافر فيها الى المانيا ، ثم ليبزج ، وأعجب بفونت وتأثر بمعمله السيكوفيزيقى •

وفى عام ١٨٨٧ دعى ليشغل وظيفة مدرس لعلم الاجتماع بجامعة برودو ، ومالبث أن أصبح استاذا بها • وفى خلال هذه الفترة أتم رسالته للدكتوراه عن تقسيم العمل الاجتماعى ، ثم نشر فى عام ١٨٩٥ كتابه عن «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» الذى عبر فيه بصورة واضحة عن منهجه واطاره التصورى • وأتم فى عام ١٨٩٧ دراسته عن «الانتحار» وانشغل فى اصدار المجلة السنوية لعلم الاجتماع •

ثم انتقل فى عام ١٩٠٦ الى جامعة السوربون ليشغل كرسى أستاذ التربية بها ، ووافقت الجامعة فى عام ١٩١٣ على أن يشغل استاذ أول كرسى لعلم التربية والاجتماع فى فرنسا • ثم نشر دوركايم فى عام ١٩١٤ آخر وأهم أعماله «الصور الاولية للحياة الدينية» • ثم أصيب بنوبة قلبية حادة ، عقب وفاه ابنه اندريه ، مما عجل بوفاته عام ١٩١٧•

ويمكن القول بأن ثلاثة عوامل اثرت على تشكيل تفكير دوركايم ، وهى : المذهب العقلانى لدى ديكارت وتأكيده على التحليل التصورى الدقيق ، وعصر التنوير الذى يعتبر عصرا جديدا يتحقق فيه الاستخدام الحر غير المقيد للعقل ، والمذهب الوضعى لكومت الذى أثار محاولة وضع علم جديد للمجتمع عن طريق مناهجه ومدخله ليتخذ مكانه بين العلوم الاخرى بمقدرته على اكتشاف القوانين ووضع التعميمات وتوقع التنبؤات وبالاضافة الى هذه التأثيرات التكوينية ، فلم تفشل النظرية الحديثة للتطور فى ترك بصماتها على فكر دوركايم ، وتمكينه من النظر الى المجتمع على ضوء التطور العضوى والعلاقات المتبادلة بين الاجزاء• وهكذا تهيأت الظروف لدوركايم ، لكى يقدم اسهاما عظيما لعلم الاجتماع • حتى يمكن القول بأنه بدون اسهامات دوركايم ، لم يكن لعلم الاجتماع ان يتخذ مساره الحالى ولاتخذ مسارا مختلفا (١) •

---

(1) J.H. Abraham, op. cit., p. 95

أولا ـ الظاهرة الاجتماعية ـ موضوع علم الاجتماع :

يذهب عدد كبير من علماء الاجتماع الى أن النظرية العامة لدى دوركايم قد تم استنباطها من مجموعة من الافتراضات أو الحدوس المنهجية • ولعل مرد ذلك أن دوركايم قد أبدى رغبة قوية فى أن يجعل علم الاجتماع علما وضعيا ، يسير فى نفس مسار النظرية الوضعية فى مناهج البحث • وعلى هذا ، يعتبر كتاب دوركايم «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» مقدمة ضرورية لفهم النظرية السوسيولوجية عنده • ولايعد هذا الكتاب دراسة فى مناهج البحث الاجتماعى بالمعنى المألوف والشائع ، وانما يمثل مجموعة من القواعد الاساسية والمبادىء الضرورية التى يعتمد عليها التفسير والتحليل السوسيولوجى (٢) •

وهنا يثار تساؤل مؤداه : ماهو موضوع علم الاجتماع ؟ وهل هناك ظاهرة متميزة تقتصر عليها دراساته ؟ وماهى الخصائص التى يمكن ان تسم هذه الظاهره ؟ وهل من الممكن الاستفادة فى تفسير هذه الظاهرة من العلوم الاخرى كالعلوم الطبيعية أو علم النفس التى سبقت مولد علم الاجتماع ؟ ام تقتصر دراسة هذه الظاهرة على علم الاجتماع وحده دون غيره من علوم الانسان والمجتمع ؟

يرى دوركايم أن الصفة «اجتماعى» تطلق على كل حادثة انسانية • وقد أدى ذلك الى اختلاط العلوم التى تدرس الواقعة الانسانية كعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع ، الا أن الظاهرة الاجتماعية توجد خارج شعور الفرد ، ولذلك فهى ليست ظاهرة عضوية أو نفسية • كما أن من خصائصها انها زودت بقوة قهر تمكنها من فرض نفسها عليه • أى أن الظاهرة الاجتماعية «حالة من حالات الجماعة التى تتحقق لدى الافراد لانها تفرض نفسها عليهم فرضا ، فهى توجد

(2) Don Martindale, op, cit.

فى كل جزء من اجزاء المجتمع لانها توجد فى المركب الكلى الذى ينشأ بسبب اتحاد اجزائه » (١) .

ويعتقد دوركايم أن استخدام الاحصاء يساعد على تفهم الظاهرة الاجتماعية وتوخى الدقة فى القياس لعلم الاجتماع . ومن خصائص الظاهرة الاجتماعية أنها مستقلة عن الصور التى تتشكل بها الحـــالات الفردية . فالكل اكبر من مجموع اجزائه . والظاهرة الاجتماعية تعم فى المجتمع لانها اجتماعية ، وليست اجتماعية لانها عامة . وبهذا لايمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية الا فى ضوء ظاهرة اجتماعية أخرى . وبهذا يمكن التوصل الى تعريف الظاهره الاجتماعية بصور ادق من التعريف السابق على أنها :

«كل ضرب من السلوك ، ثابتا كان أم غير ثابت ، يمكن ان يباشر نوعا من القهر الخارجى على الافراد ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية» (٢) .

وبهذا تصبح للظاهرة الاجتماعية خاصتين هامتين هما (٣)

١ — **الظاهرة الاجتماعية خارجة عن الفرد** : وهذا يعنى أنهـــا ليست من صنع الفرد . فالفرد يقوم بواجبات ووظائف محددة لـــه عن طريق القانون والعرف العام . وقد لاتتفق هذه الواجبات مـــع احساسه وشعوره الشخصى . فالظاهرة الاجتماعية وجدت قبل الفرد وهى خارجه عنه .

---

(١) اميل دوركايم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، ترجمه د. محمود قاسم ، مراجعة د. السيد بدوى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) السيد محمد بدوى ، مبادىء علم الاجتماع ص ص ١٦٨ — ١٦٩

٢ — **الظاهرة الاجتماعية لها صفة الالزام** : حيث تفرض نفسها على الفرد سواء رغب أو لم يرغب . ونحن لانشعر بهذه الجبرية اذا لم يكن فى سلوكنا مايقاوم التيار الجمعى . ولكنها تثبت وجودها عند أية محاولة للخروج على نظام المجتمع . فاذا ما حاولت ان اخرج على قواعد القانون ، شعرت بقوة تصدنى قبل أن أقوم بهذا السلوك .

يضاف الى هاتين الخاصتين الاساسيتين أن الظاهرة الاجتماعية تتميز بأنها **عامة** ، أى توجد فى كل مجتمع على اختلاف المجتمعات وتنوعها ، كما توجد فى كل زمان فى ذات المجتمع الواحد . والظاهرة الاجتماعية لها صفة **التلقائية** ، لانها خارجة عن نطاق الفرد وليست من صنعه ، فانها توجد من تلقاء نفسها حتى تمارس ضغطها وجبريتها على سلوك الافراد .

وليس معنى هذا أن الظواهر الاجتماعية جميعها ظواهر سوية . فهناك ظواهر معتلة أو غير سوية من شأنها العمل على تفكك البناء الاجتماعى ، ومثال ذلك ظواهر الانتحار والطلاق وغيرها . الا أن هذه الظاهرة المعتلة تتميز بنفس الخصائص السابقة ، ولذا فهى ظواهر اجتماعية . أما الظواهر السوية فمثالها ظاهرة الزواج أو الاسرة أو تقسيم العمل ، حيث لكل منها نفس الخصائص التى للظواهر الاجتماعية ، ولذا فهى توسم بها .

وبهذا فهناك قواعد خاصة بالتفرقة بين الظاهرة الاجتماعية السليمة وبين الظاهرة الاجتماعية المعتلة . ويرى دوركايم ضرورة أن تكون هذه التفرقة ممكنة من الناحية العملية حتى يمكن استخدامها فى توجيه السلوك . وأن قواعد دراسة الظاهرة الاجتماعية تنطبق على كل من النوعين السابقين . وفى هذا يرى دوركايم أنه لاينبغى على العلم أن يبحث عن الغايات التى نسعى وراء تحقيقها . بل أنه يلاحظ ويفسر دون أن يصدر احكاما على الظواهر بأنها خير أو شر . فالصحة أمر مرغوب ، والمرض بغض لابد من تلافيه . ولذلك ، لو وجدنا معيارا

«موضوعيا» يفرق بين الصحة والمرض فى مختلف الظواهر الاجتماعية، لامكننا القول بأن العلم يستطيع ارشادنا من الناحية العملية ، دون أن يتنكر لطريقته الخاصة (١) •

ينظر الناس الى الالم كما لو كان دليلا على وجود المرض ولكن هذا يحتاج الى تدقيق • وقد يكون التكيف مع البيئة معيارا للتفرقة بين الصحة والمرض الا أن هذا المعيار لايمكن تطبيقة فى علم الاجتماع ولايجوز لنا أن ندعى فى أول مرحلة من مراحل البحث أننا نستطيع تحديد العلاقات بين كل من الحالة السليمة والحالة المعتلة ، وبين القوى الحيوية فى المجتمع • ولكن يجب علينا أن نبحث فقط عن احدى العلامات الخارجية الواقعية التى يمكن أن تقع مباشرة تحت ملاحظتنا، والتى تتيح لنا التفرقة بين هذين النوعين من الظواهر ، ولذلك فان الظاهرة المعتلة هى الظاهرة النادره (٢)• كما تعد الظاهره الاجتماعية سليمة بالنسبة الى نموذج اجتماعى معين ، وفى مرحلة معينة من مراحل تطوره ، اذا تحقق وجودها فى أغلب المجتمعات التى تتحد مع النموذج السابق فى النوع ، واذا لوحظت هذه المجتمعات فى نفس المرحلة المقابلة فى اثناء تطورها هى الاخرى • ويمكن التحقق من صحة ذلك ببيان أن عموم الظاهرة فى نموذج اجتماعى معين يقوم على اساس من طبيعة الشروط العامة التى تخضع لها الحياة الاجتماعية فى هذا النموذج • وهذا التحقق ضرورى اذا وجدت هذه الظاهرة فى بعض أنواع المجتمعات التى لم تنته بعد من جميع مراحل تطورها •

ثانيا ــ القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية :

ينظر دوركايم الى القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها قسمين ، يشمل القسم الاول القاعدة الاساسية فى دراسة

(١) دروكايم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، مرجع مذكور ص ٩٢.
(٢) المرجع السابق ص ١٠٤

الظاهرة الاجتماعية التى هى موضوع علم الاجتماع • ويركز القسم الثانى على ثلاثة قواعد يعتبرها دوركايم متممـــة للقاعدة الاساسية الاولى •

القاعدة الاولى : ومنطوقها أنه : «يجب ملاحظـــة الظواهـــر الاجتماعية على أنها اشياء Comme des choses ، فالعقل يتمثل الظواهر بصور حسية ، كما يتمثلها بالمعانى العامة • ونحن نعمل على تحقيق المعانى وتحليلها منطقيا ، بدلا من دراسة الحقائق ذاتها • وهذا الطريقة لاتفضى الى نتائج موضوعية ، لانها وليدة الحياة العملية • وليس من الضرورى أن تعبر الفكره بأمانة عن طبيعة الشيء • فـــاذا توصلت الى معرفة الاشياء عن طريق الاراء الشائعة فليست هنـــاك فائدة عملية من دراسة الحقيقة الاجتماعية (١) • ومعنى هذا أن الآراء الشائعة أو المتداولة لاتفيد ولا تستطيع أن تحصر جميع خصائصـــ الظاهرة ، فالظاهرة الاجتماعية ــ م نوجهة نظر دوركايـــم ــ ذات طبيعة واقعية وليست وليد وهم ، ولهذا فانها تنطوى على جميـــع خواص الاشياء • أى أن الظاهرة الاجتماعية لها خصائص تحصر فيما بينها خصائص الاشياء : خارجية ، جبرية ، مستقلة ، عامة •

ولقد عاب البعض على دوركايم نلك النزعة الشيئية chosisme بصدد مسألة الظواهر ، ورموه بالمادية ولكن دوركايم فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» حاول الرد على تلك الاعتراضات التى ترميه بالمادية ، حيث شبه حقائق العالم الاجتماعى بتلك الحقائق التى نشاهدها فى العالم الطبيعى الخارجى ، لكنه لـــم ينظر الى الظواهر الاجتماعية على أنها اشياء مادية materielles وانما يريد بها أن توصف على أنها «اشياء كظواهر الطبيعة» من حيث أن الشيء يقابل «الفكرة» • بمعنى أن معرفتنا له انما تأتى من الخارج

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧

وتصدر عن عالم الموضوع • على حين أن معرفتنا بالفكرة ، انما تأتى من عالم الذات ، وتصدر عن الداخل ، وليس معنى أننا نعالج الظواهر الاجتماعية من الخارج ، هو أن ننظر اليها على أنها كائنـــات مادية بحتة •

القواعد المتممة للقاعدة الاساسية : وتشمل هذه القواعد ثـــلاث قواعد (١) :

١ ـــ يجب على عالم الاجتماع ان يتحرر من كل فكرة سابقة ، اى أنه يجب تطهير علم الاجتماع من الافكار السابقة • وهذه القاعدة تذكرنا بالشك المنجهى لدى ديكارت ، اذ يؤدى الشك الى اليقين واثبات الحقيقة ، كما تذكرنا هذه القاعدة بنظرية الاصنام لدى بيكون حيث يرى أن المعانى العامة هى التى تشوه المنظر الحقيقى •

٢ ـــ من الواجب أن ينحصر موضوع البحث فى طائفة خاصة من الظواهر التى سبق تعريفها ، ببعض الخواص الخارجيـــة المشتركة بينها • ومن الواجب ان ينصب نفس البحث على كل الظواهر التـــى تتوفر فيها شروط ذلك التعريف • وعلى هـــذا تتحقق طريقة تحديـــد المادة الحقيقية للبحث عن طريق جمع الظواهر بنـــاء على صفاتهـــا الخارجية المشتركة بينها •

٣ ـــ من الواجب على عالم الاجتماع عند شروعه فى دراســـة طائفة خاصة من الظواهر الاجتماعية ان يبذل جهده فى ملاحظـــة هذه الظواهر من الناحية التى تبدو فيها مستقلة عن مظاهرها الفردية•

وعلى هذا ، فان ملاحظة الظواهر الاجتماعية يجب أن تتفق مع تلك الخصائص الاربعة التى حددها دوركايم لها فى النقطة السابقة •

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٧٥ ـــ ٧٦

كما أن تحديد الانواع الاجتماعية وسيلة تمكننا من تصنيف الظواهر حتى يسهل علينا تفسيرها • وعليه ، يقدم دوركايم عدة قواعد لهـذا التفسير •

... فلقد عاب دوركايم على سابقيه وبخاصـة كومـت وسبنسر ، الطريقة الغائية فى تفسير الظواهر الاجتماعية ، وذلك بالنظـر الى الفوائد التى تترتب عليها • ورأى أن هذه الطريقة تخلط بـين أمرين مختلفين أشد الاختلاف • فائدة الظاهرة ، وسببها • وبناء على ذلك وضع قاعده التفسير الاولى ومؤداها : «يجب على كل من يحـاول تفسير احدى الظواهر الاجتماعية • أن يبحث عن كـل من السبـب الفعال الذى يدعو الى وجود هذه الظاهرة ، والوظيفة التى تؤديها ، عن كل من هذين الامرين على حدة» (١) • أى أنه يجب تحديد السبب فى وجود الظاهرة بصرف النظر عن الوظيفة التى تؤديها • بمعنى البدء بمعالجة قضية الاسباب قبل الشروع فى معالجة مشكلـة الوظائف • ومعنى هذا أن دوركايم يسلم بمبدأ العلية ، لان علم الاجتماع — فى نظره — ينهض على ضرورة التسليم بهذا المبدأ •

واذا كان دوركايم يفصل بين الظواهر النفسية الفردية والظواهر الاجتماعية ، فمن الطبيعى أن ينص على وجوب التحرر مـن تفسير نشأة الظواهر الاجتماعية ببعض العواطف والآراء الفردية • ومـن هنا نجده يعيب على كومت تفسير نشأة المجتمع ببعض الاستعدادات الانسانية • .ويأخذ على سبنسر قوله بأن البيئة الطبيعيـة والتركيب العضوى والنفسى للفرد هما العاملان الاساسيان فى وجود الظواهـر الاجتماعية •

وبناء على هذا أعلن دوركايم نزعتـه السوسيولوجية ووضـع قاعدتها فيما يلى : «يجب البحث عن السبب فى وجود احدى الظواهر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٠

الاجتماعية ، بين الظواهر الاجتماعية السابقة عليها ، وليس بين الحالات النفسية التى تمر بشعور الفرد » (١) ويكمل دوركايم هذه القاعدة على النحو التالى :

« يجب البحث دائما عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة عن طريق دراستنا للصلة التى تربط بين هذه الظاهرة وبين احدى الغايات الاجتماعية » (٢) •

وفيما يتعلق بقواعد تأسيس البراهين السوسيولوجية ، يذهب دوركايم الى أن التجربة غير المباشرة (أو المنهج المقارن) هو المنهج الوحيد الملائم لعلم الاجتماع • ويوضح لنا مزايا طريقة جون ستيوارت مل «التلازم فى التغير» أو «التغير النسبى» • فهى لاتكشف لنا فقط عن ان الظاهرتين يوجدان معا ، أو تختفى احداهما عند وجود الاخرى بحسب الظاهر ، وانما تبين لنا أن كلا من هاتين الظاهرتين تتأثر دائما بالاخرى ، ويكفى هذا التأثير المتبادل — وحده — على وجود علاقة طبيعية بين هاتين الظاهرتين •

هذه باختصار قواعد البحث العلمى التى يجب أن يتبعها علم الاجتماع فى نظر دوركايم ، الذى يقسمه الى :

١ — المورفولوجيا الاجتماعية ، وترمى الى :

أ — دراسة الاساس الجغرافى للسكان فى علاقته بالتنظيم الاجتماعى •

ب — دراسة السكان من حيث الحجم والكثافة وطريقة انتشارهم وتوزيعهم •

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٧
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٨

٢ — الفسيولوجية الاجتماعية ، وتناول علم الاجتماع الدينى والاخلاقى والقضائى والاقتصادى واللغوى والجمالى وعلم الاجتماع العام •

ثالثا : تقسيم العمل والتضامن الاجتماعى :

يبين دوركايم بوضوح فى كتابه «تقسيم العمل الاجتماعى» ان الغريزة وحدها لاتكفى لتفسير التخصص المهنى حتى فى أبسط اشكاله، وأنه لايمكن ان يكون لها أثر فعال فى ذلك الا اذا توافرت فعلا الشروط اللازمة لتقسيم العمل والتخصص ، تلك الشروط التى تتمثل بنوع خاص فى ازدياد التفاضل الاجتماعى بين الناس • ويدور موضوع هذا الكتاب حول علاقة الفرد بالتضامن الاجتماعى • وقد عالج فى القسم الاول من الكتاب ، الظواهر الاجتماعية بوجه عام باعتبارها نتائج مصاحبة لتقسيم العمل فى المجتمع ، والذى اعتبره متغيرا مستقلا • وقد أفاد دوركايم على نحو واسع وبشكل مباشر من بيانات مستمدة من القانون ، والذى يعتبره مظهرا للحياة الاجتماعية ، لايخضع فقط للملاحظة ، بل هو بمثابة أكثر صور القهر الاجتماعى تنظيما • وقد لاحظ دوركايم حينما قارن بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الاكثر تطورا ، أن الاولى تتميز بوجود نوع من التضامن الالى Mechanical اما الثانية فيسود فيها تضامن عضوى Organic • ويعتمد التضامن الآلى على التماثل بين اعضاء المجتمع ، بينما يستمد التضامن العضوى أسسه من التباين • واذا كان هذا التمييز يشبه تصور سبنسر للتطور، باعتباره تغيرا من التجانس الى اللاتجانس الا أن الفارق بينهما يتمثل فى ان التطور لم يكن الظاهرة المحورية عند دوركايم ، كما أن التعارض بين المجتمعين العضوى والآلى يعتبر بمثابة خلفية لدراسة الظواهر الجمعية (١) •

---

(١) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع مذكور ، ص ١٨٠

وبهذا ينحصر اهتمام دوركايم فى هذا الكتاب فى محاولة رسم وتوضيح العوامل السببية التى تمكن من التحول من المجتمع البسيط الى المجتمع المعقد ، واللذين يتميزان بنموذجين متناقضين من التضامن، اللذين اشرنا اليهما سابقا.ويرى دوركايم انالحياة الاجتماعية نسق من الضغوط والضوابط ، لان المجتمع ليس سوى مجتمع محلى أخلاقى ، وأن الحياة الاجتماعية تحكمها القيم والمعايير . ان الفرد عندما يزداد استقلاله الذاتى ، يزداد فى الوقت نفسه اعتماده على المجتمع. بمعنى أنه كلما أصبح أكثر فردية ، تزايد تضامننا .

ووفقا لنظريته فان كثافة وقوة السكان تصل الى النقطة التى عندها يجب أن يكون السكان ممتثلين ومنضبطين . ويتأثر هذا بتقسيم العمل . وان كان دوركايم يكشف بهذا اهمية ظاهرة تقسيم العمل ، الا أنه تنبه الى أن هذه الاهمية تنبه لها مفكرون كثيرون من قبله ، اذ حاول آدم سميث ان يقدم نظرية تفسر هذه الظاهرة ، كما اعتقد هو وجون ستيوارت مل أن تكون الزراعة هى الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة . ولكن دوركايم ذهب الى ان تقسيم العمل ليس متعلقا بقطاع معين من قطاعات المجتمع ، وانما له تأثيره المتزايد على معظم قطاعات الصناعة والزراعة والاقتصاد والقانون والعلوم ، وما اليها .

ويرى دوركايم أن الوظيفة الاساسية لتقسيم العمل هى أن يخلق بين شخصين أو أكثر شعورا بالتضامن . كما يرمى الى احداث التماسك والترابط بين الاصدقاء ، وأن يؤثر فيهم بطبيعته ، ومثال ذلك : المجتمع البدائى . ذلك أنه لما كان كل من الرجل والمرأة مختلفين ، فان كل منهما يبحث عن العاطفة لدى الآخر . وبعبارة أخرى فان تقسيم العمل على أساس النوع يعتبر مصدرا للتضامن الزواجى . الا أننا نلاحظ ان العمل وفق النوع أخذ فى التقسيم شيئا فشيئا ، فمنذ زمن بعيد اعتزلت المرأة شئون الحرب والشئون العامة ، وكرست حياتها لاسرتها . وبذلك يتضح أنه اذا كان تقسيم العمل يؤدى الى زيادة

الوظائف المقسمة والمتخصصة ، فانـه يحدث التضامن بـين الافراد والجماعات • واذا كان هذا يصدق بالنسبة للمجتمعات البدائية ، فانه يعد كذلك بالنسبة للمجتمعات المعاصرة (١) •

واتخذ دوركايم من القانون رمـزا أساسـيا لظاهرة التضامن الاجتماعى • فهو أداة تنظم المجتمع وتضمن له الاستقرار والضبط • ولكن القانون — كما يعترض البعض — يعكس فقط جزء من الحيـاة الاجتماعية • ولذلك يرى دوركايم انه الى جانب القانون أمورا أخرى مثل العرف والظروف الداخلية للمجتمع التى ترتبط جميعهـا بصور محددة من التضامن الاجتماعى •

ويرى دوركايم انه فى الحالة التى يقل فيها تقسيم العمل كما هو فى المجتمعات البدائية ، تتميـز الحياة الاجتماعيـة بمجموعـة من الخصائص • اذ يغلب على السلوك الاجتماعى التجانس ويتمثل فى التجانس الفكرى والتشابه فى المعتقدات والعادات والاراء وطرائـق السلوك • وفيما يتعلق بالقانون والاخلاق يسود الضمـير الجمعى ، الذى يقصد به مجموعة المعتقدات والعواطف الشائعة بين أعضـاء المجتمع • ويسود القانون الجنائى ، الذى يعبر عن القهر الاجتماعى فى صيغة قوية رادعة تحاول كبح المجـرم والانتقام منه • ويتميـز التنظيم الاقتصادى بالملكية العامة ، والدين بالاعتقاد فى قوة توتمية • ويترتب على هذا كله شيوع التضامن الالى أو الميكانيكى بين أفـراد المجتمع •

وكلما أخذ تقسيم العمل فى النمو ، تقدم المجتمع • وترتب على ذلك اختفاء التشابه العقلى والاخلاقى بين الافراد ، نتيجة لزيـادة الفردية • ويصبح لكل فرد دور فريد يؤديه ، وهذا الدور لابـد أن يستند على الكفاءة والمهارة والخبره الفردية • وكـل هـذه المظاهر

---

1) Don Martindale, op. cit,

تضعف من الضمير الجمعى ، لان كل فرد أصبح مستقلا عن الاخر • ويحل القانون المدنى والادارى محل القانون الجنائى • واذا كـان التجانس فى المجتمع البدائى يلعب دوره فى تدعيم الترابط الاجتماعى، فاننا نجد فى المجتمع الحديث ان عدم القدرة على الاكتفاء الذاتى بين الافراد غير المتجانسين ، تجعل كل منهم فى حاجة الى الاخر • ومن هنا كان لابد أن يتعاون مع مجموعة كبيرة من الافراد ، يقوم كل منهم بدور متخصص فريد ، وذلك حتى تتكامل العملية • وبهذا يغلب على المجتمع نوع من التضامن العضوى •

وعلى هذا ، يخلص دوركايم الى أن الفردية تعد ظاهرة اجتماعية لانها نتيجة مترتبة على الخصائص المورفولوجية للمجتمع • ولكن ما الذى يؤدى الى زياد تقسيم العمل ؟ ويجيب دوركايم على هـذا فى القسم الثانى من كتابه • ويرى أن الرأى الشائع بأن زيادة تقسيـم العمل ترجع الى اتجاه سيكولوجى نحو السعادة ، رأى غير صحيح ، ذلك لان الوقائع اثبتت أن السعادة تميل الى النقصان مع تقدم تقسيم العمل • ويتضح ذلك من زيادة عدد حالات الانتحار والاضطرابـات العصبية وعدم الرضا فى المجتمعات التى يشيع فيها التباين الاجتماعى عنه فى المجتمعات البدائية • ويرى أنه يجب أن نبحث عن أسباب تقسيم العمل فى الظروف الاجتماعية ذاتها • وسوف نجد أن أهم هذه الظروف هو زيادة السكان •

رابعا : الانتحـــار :

تحتل دراسة دوركايم عن الانتحار مكانة هامة فى الدراسـات السوسيولوجية الامبيريقية ، لانها تعـد أكثر من كونهـا دراسـة احصائية ، فهى توضح كيف تدعم البيانات التجريبية موقفا نظريـا معينا • ولقد دفعه الى اجراء هذه الدراسة امـور كثيرة منهـا أن الانتحار يمثل ظاهرة يمكن تعريفها بسهولة ، وأن الاحصاءات المتعلقة

بها فى متناول اليد ، وأنها تمثل ظاهرة هامة نتيجة لزيادة معـدلات الإنتحار خلال القرن التاسع عشر .

وتتضمن دراسته عن الانتحار Suicide عرضا لنظريته عـن القهر الاجتماعى ، فى أكثر صورها حدة . حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بتصوراته عن الضمير الجمعى . وفى ضوء ما أكده كيتلييه من أهمية الاساليب الكمية وضرورتها فى العلوم الاجتماعية ، حاول دوركايم ان يدرس بدقة معدلات الانتحار فى قطاعات مختلفة من سكان اوربا . وقد كان استخدامه لهذا التحليل الاحصائى ينطوى على هدفين : الاول يتمثل فى نقد النظريات التى حاولت تفسير تباين معدلات الانتحار بين الجماعات على أسس سيكولوجية أو بيولوجية (عرقية) أو تطورية أو مناخيـة أو جغرافية . وقـد حقق فى ذلك نجاحـا ملحوظا . أما الهدف الثانى فهو تدعيم تفسيراته النظرية والسوسيولوجية بشواهـد واقعية ملائمة (١) .

ان دراسة الانتحار ابرز مثال لاستخدام الاحصاءات الرسمية ، اذ حاول دوركايم ان يعطى تفسيرا اجتماعيا لما يبدو أنه سلوك فردى فى أغلب الاحوال ، لكى يحدد اولئك الذيـن أقدموا عـلى الانتحار وظروفهم . واستطاع دوركايم توضيح مجموعة من الافتراضات التى تدور حول اسباب الانتحار وملامحه وسماته معدلاته فى كل بلد وفى كل سنة . كما وضح دوركايم الصعوبات التى تواجه الباحث عنـد استخدام الاحصاءات الرسمية وغيرها من البيانات التى قام بجمعها باحثون غير اجتماعيين . وأول هذه الصعوبات ان هـذه الاحصاءات مصنفة فى فئات تخدم أهداف مكاتب الاحصاء ذاتها . وهذه تشكل صعوبة أمام عالم الاجتماع عندما يحاول استخدامها ، حيث لاتوضح الاحصاءات العوامل الخفية وراء قتل الانسان لنفسه ، وخاصة العوامل

(١) تيماشيف ، مرجع مذكور ، ص ١٨٣

الاجتماعية • كما أن هذه الاحصاءات لاتسجل الخصائص ذات الاهمية بالنسبة للاهداف السوسيولوجية (١) • فعالم الاجتماع يهتم بالعديد من الموضوعات التى قد لاتهم الحكومات التى تحدد نوعية احصاءات المكاتب التابعة لها • ولهذا فمن المهم ان يشارك عالم الاجتماع عمل هذه المكاتب • وتتمثل الصعوبة الثالثة للاحصاءات الحكومية فى أنها لاتمثل — احيانا — أية فائدة لعالم الاجتماع حتى اذا اعتمد على مختلف الفئات التى حددتها هذه الاحصاءات اذ قد يعتمد توزيع الخصائص على معيار معين لايتفق مع طبيعة الدراسة التى يقوم بها علم الاجتماع (٢) •

بدأ دوركايم دراسته هذه بمحاولة تعريف ظاهرة الانتحار بأنها تشير الى كل حالات الموت التى تجىء كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل سلبى أو ايجابى قام به المنتحر نفسه وهو يعلم نتيجته • ثم ناقش موضوع «معدل الانتحار» واعتبر أن المجموع الكلى لحالات الانتحار فى بلد ما يسمح لنا بحساب هذا المعدل الذى يطلق عليه اسم «ظاهرة اجتماعية» • وفى القسم الاول من كتاب «الانتحار» يفند العوامل السيكولوجية والكونية Cosmic ، ثم ينتقل الى دراسة طبيعة العوامل الاجتماعية أو النتائج المترتبة عليها • وينتهى بتوضيح الوسائل التى يمكن استخدامها لوقف تيار الانتحار (٣) •

وبالنسبة للعوامل السيكولوجية ، يرى دوركايم أن الاعتقاد القديم الذى يربط بين الانتحار والعاهة العقلية أو النقص العقلى أمر لاتؤيده الوقائع التجريبية • كما أن الاحصاءات لاتشير الى الارتباط بينهما • كما كشف دوركايم عن عدم الارتباط بين الانتحار وأدمان المشروبات الروحية • بل أن المناطق التى تتميز بأعلى نسبة

---

(1) Peter Worsley, Introducing Sociology, London, 1974, pp. 74-75.
(2) Ibid., p. 78.
(3) Don Martindale, op. cit.

من حالات الانتحار ليست هى تلك التى يشيع فيها أعلى نسبة مـــن المحاكمات بسبب ادمان الخمور • وقد وجد أيضا أن ليس ثمة علاقة بين الانتحار والعوامل التكوينية •

أما بالنسبة للعوامل التكوينية ، فقد وجد دوركايم عدم صـــدق القضية التى ترى أن الانتحار يزداد فى فصل الصيف ، بحيث يعتبر ارتفاع درجة الحرارة عاملا مؤديا الى ارتفاع معدلات الانتحار • ويرى دوركايم أنه لايمكن ان تكون الحرارة سببا فى دفع النـــاس الى قتل انفسهم بأنفسهم • كما وجد دوركايم أنه من الخطأ البالـــغ القول بأن ضوء النهار هو السبب المباشر للانتحار ، وانما يمكن القول فقط أن الانتحار يرتبط فقط بالنشاط الاجتماعى •

وينتقل دوركايم ، بعد تفنيد النظريات السابقة ، الى دراســـة الاسباب الاجتماعية والمواقف • ومن هنا حـــاول أن يقدم تصنيفـــا سببيا بأن وضع حالات الانتحار فى نماذج ثلاثة ، يتضمن كل واحد منها مجموعة من الاسباب التى تؤدى الى الحالات التى تندرج ضمنه، وهذه النماذج هى : الانتحار الانانى Egoistic والانتحار الغيرى Altruistic والانتحار الناتج عن فقدان المعايير أو الأنومى Anomic

١ ــ الانتحـــار الانانـــى :

انتهى دوركايم الى تحديد هذا النموذج من تحليله للعلاقة بين الدين والانتحار ، وما لاحظه من واقع الاحصاءات من أن الانتحار يزداد فى الدول البروتستانتية عنها فى الدول الكاثوليكية ، وذلك لنقصان الروابط الاجتماعية بين البروتستانت عنه بين الكوثوليك • وكذلك من تحليله للعلاقة بين الدين والتعليم ، وازدياد نسبة المتعلمين فى البلاد البروتستانتية • وكذلك من تحليله للعلاقة بين الانتحـــار والظروف السياسية ، اذ يقل معدل الانتحار فى فترات الاضطـــراب السياسى والحروب ، نتيجة لربط اجزاء المجتمـــع وازدياد درجة التماســـك

الاجتماعى فى هذه الظروف • كما درس العلاقة بين الانتحار والتكوين الاسرى ، وتبين له ان الروابط الاسرية تقلل من عزلة المتزوج ، وبالتالى تقل نسبة الانتحار بين المتزوجين عنها بين غير المتزوجين • واستنادا الى هذا التحليل يحدد النموذج الاول للانتحار والذى يرى بأنه يرجع الى اللاتكامل الاجتماعى • بحيث يقف الانا الفردى فى مواجهة الانا الاجتماعى ويفرض فيها ذاته •

٢ ـ الانتحار الغيرى أو الايثارى :

ويعد هذا النموذج نتيجة مباشرة للتضامن الاجتماعى • فاذا كان المنتحرون الانانيون يعتقدون أن الامر متروك لهم فى تحديد افعالهم، لان ارادتهم تنفصل عن ارادة الجماعة ،فان المنتحرون الغيريون يربطون ارادتهم بارادة المجتمع ، ويفعلون ما تمليه عليهم الجماعة التى ينتمون اليها • فهم على استعداد بأن يضحوا بأنفسهم فى سبيلها• ويشيع هذا النموذج فى المجتمعات البدائية • ومثال ذلك حالات الموت التى تتطلبها واجبات الطقوس أو انتحار النساء بعد وفاة ازواجهن أو انتحار العبيد نتيجة لموت أسيادهم • ولقد لاحظ دوركايم ارتفاع معدل الانتحار من هذا النموذج بين الجنود عنه بين المدنيين وتبين له أن هذا لايرجع الى ادمانهم الخمور ، ولا الى قسوة الحياة العسكرية ، لانه وجد أن الضباط الذين يعيشون حياة أفضل ـ نسبيا ـ من حياة الجنود ، يرتفع بينهم معدل الانتحار • وانتهى دوركايم الى أن ذلك يرجع الى أن الجنود قد تدربوا على أن يفدوا بأنفسهم فى سبيل الجماعة •

٣ ـ الانتحار اللامعيارى :

وينتج هذا النموذج عن تدمير مفاجىء للتوازن الاجتماعى والبناء الاخلاقى فى المجتمع ، كأن ترتفع معدلات الانتحار فى اوقات الازمات الاقتصادية أو الافلاس • وان كان هذا لايرجع الى الازمة الاقتصادية

فى حد ذاتها أو الى انتشار الفقر ، بل الى ما ينتج عن تحطيم للتوازن الاجتماعى • وهذا مادعمته الملاحظات من ارتفاع معدلات الانتحار فى فترات الانتعاش الاقتصادى • وبناء على هــذا يحدد مفهــوم الانومى بأنه فى حالة الثبات النسبى للمجتمع تكون مستويات الطموح محددة وواضحة لكل شخص ، ويعرف الناس امكانية تحقيق هــذه المستويات • أما فى حالة اضطراب المجتمع ، تتميز مستويات الطموح بعدم التحديد ، فيجد الناس هوة تفصل بين ما يطمحون اليه ، ومــا يسطيعون تحقيقه بالفعل ، فتؤدى هــذه الصدمة الى ارتفــاع فى معدلات الانتحار •

وعلى ضوء هذا كله يرى دوركايم أن الانتحار ظاهرة اجتماعية لان لها صفة العمومية وهى — لذلك لايمكن تفسيرهــا الا فى ضوء العوامل الاجتماعية التى انتجتها • وهذا يعنى أن العوامل المسببــة للانتحار لاترجع الى التكوين السيكولوجى للفرد أو الى الظــروف الكونية ، بقدر ما هى نتيجة للاختلافات فى البناء الاجتماعى وفى درجة التضامن الاجتماعى والامتثال للمجتمع •

خامسا : الديــــن :

يعرض دوركايم نظريته عن الدين فى كتابه «الصــور الاولية للحياة الدينية» الذى يعتبر آخر أعماله الهامة • ويحاول فى هــذا الكتاب أن يدرس اكثر الديانات المعروفة بدائية وبساطة ، فى مجتمع لايجاوزه أى مجتمع آخر فى بساطة تنظيمه •

انتقد دوركايم التعريف العام للدين الذى يتلخص فى الاعتقاد فى الله أو فى القوى فوق الطبيعية • فيرى أن الدين يضم مجموعــة من المعتقدات أو الممارسات فى نسق شامل يحقــق القداسة للاشياء المحرمة • وتوجد هذه المعتقدات بين الافراد والجماعات ، وبذلك فهى تخلق مجتمعا اخلاقيا • ويقوم هذا التعريــف على قسمــة الاشياء

والظواهر الى مجموعتين مختلفتين هما : المقدس Sacred والعلمانى Pro Fane

وعلى هذا حاول دوركايم تفنيد النظريات الفردية والسيكولوجية فى تفسير الدين ، وبخاصة النزعة الحيوية (الانيميزم) Animism عند تايلور وسبنسر اللذين لاحظا أن عبادة الارواح فى المجتمعات البدائية هى الصورة الاولية للدين • والنزعة الطبيعية Naturistic عند ماكس مولر Muller الذى رأى أن عباده القوة الطبيعية هى الصورة الاولية للدين • ورأى دوركايم أن هذ هالنظريات فشلت فى التمييز بين المقدس والعلمانى ، وأنها تفسر الدين على أنه ظاهرة غير عادية أو شاذة ليس لها أساس فى العالم الواقعى •

ومن ثم حاول أن يدرس أبسط الصور الدينية ليقدم نظريته الاجتماعية عن الدين ، ويختار لذلك قبيلة أريونتا Arunta الاسترالية، باعتبارها تمثل مرحلة أولية فى النمو التطورى ، وبالتالى أبسط صور الممارسات الدينية • فيدرس النزعة التوتمية Totemism فى هذه القبيلة التى تشير الى الاعتقاد فى قوة خفية ومقدسة توقع العقاب على كل من ينتهك التابو Taboo التوتمى • فتأخذ القبيلة موضوعا معينا ، وليكن حيوان أو نبات ، وتعتبره محرما ، تمارس بعض الطقوس والشعائر تجاهه ، ويعتبر رمزا للجماعة • ومن هنا يرى دوركايم أن الوظيفة الاساسية للدين هى خلق وتدعيم التضامن الاجتماعى • وينتهى الى أن التصورات الدينية تعد تصورات جمعية تعبر عن الحقائق الجمعية ، والطقوس هى طريقة للسلوك •

وبالرغم من أن كتاب «الصور الاولية للحياة الدينية» تتميز بقوة التحليل واصالة الفكر ، الا أنه لم يخل من الانتقادات • فبالرغم من أن دوركايم قد قرأ كل ما يتعلق بسكان استراليا الاصليين ، واعتمد على بيانات حصل عليها من الغير ، وقد تكون هذه البيانات ناقصة ،

الا ان نظريته تعتبر ناقصة لانه لم يجمع بياناته بنفسه . بالاضافة الى أن دراسة المعتقدات والممارسات الدينية عند أبسط المجتمعات ، لاتوصل الى فهم متكامل لطبيعة الدين فى المجتمعات الاكثر حضارة (١) كذلك لم يضع دوركايم فى اعتباره الديانات السماوية المنزلة .

(1) J.H. Abraham, op. cit., p. 99.

المبحث الثـــانى

ماكس فيبر (١٨٦٤ — ١٩٢٠)

ولد ماكس فيبر Max Weber فى ٣١ ابريل ١٨٦٤ فى ايرفورت Erfurt بالمانيا الغربية ، وكان أبوه محاميا من أسرة غنية ويعمـــل بالسياحة حتى أصبح عضوا بالبرلمان الالمانى — الريخستاج Reichstag — وزعيما بحزب الاحرار الوطنى • والتحق فيبر بجامعة هايدلبرج حيث درس القانون مثل ابيه ، وبعد أن أنهى الخدمة العسكرية التحق بجامعة برلين وجوتنجن حيث درس القانون فى ضوء المدرسة التاريخية التى كانت تسيطر على الجامعات الالمانية فى ذلك الحين ، وبعــد أن استكمل دراسته ، اشتغل محاميا فى برلين ، وأعد رسالة الدكتوراه فى عام ١٨٨٩ عن تاريخ الشركات التجارية فى العصور الوسطى • ومن ثم اشتغل بتدريس القانون فى جامعة برلين ، وفى عــام ١٨٩٢ عين استاذا لعلم الاقتصاد فى جامعة فرايبورج ، ثم شغل كرسى الاستاذية فى الاقتصاد بجامعة هايدلبرج • ولم يكن انتقال فيبر من تدريس القانون الى تدريس الاقتصاد أمرا غير منطقـــى ، فقد كان مهتمـــا بالاتجاه التاريخى ، كما كان مهتما بالعلاقة بين القانون والتنظيـــم الاقتصادى وظروف المجتمعات التى يدرسها • وأصيب فيبر فى عام ١٩٠٠ — بانهيار عصبى عاقه عن العمل أربع سنوات ، وكان مرضه شديدا حتى أنه أجبر على الاستقالة من منصب الاستاذية • ومـــنذ ذلك الحين لم يتمتع بصحة جيدة ، غير أن ذلك لم يعقه عن استئناف العمل • فقد عاش سنوات طويلة فى هايدلبرج يشتغل بالعلم دون أن يشغل وظيفة رسمية ، ولكنه استانف التدريس عـــام ١٩١٨ وأصبح استاذا زائرا بجامعة فيينا ، ثم استاذاللاقتصـــاد فى ميونخ حتـــى

توفى فجأة فى يونيو ١٩٢٠ عن ٥٦ عاما (١) .

ولم يتوقف نشاط فيبر على مجال العلم فقط ، بل كان يشـــارك بنصيب كبير فى السياسة . وارتبط تكوينه الفكرى ارتباطـــا وثيقا بالظروف العامة فى عصره وبخاصة الحركات الفكرية فى المانيا عموما . فلقد شهدت الفترة التى عاش فيها انتعاشا للفلسفة الكانطية التـــى تؤكد وجود هوة كبيره بين عالم الظواهر المادية وعالم الروح . وترتب على ذلك ظهور محاولات تسعى الى وضع تمييز منهجى بين العلـــوم الطبيعية والعلوم التى تعالج الفعل الانسانى . وحـــاول فيبر أن يتغلب على التعارض القائم بين العلم الطبيعى والعلم الروحى ، وأن يقدم نسقا سوسيولوجيا ، يحتفظ بأقيم العنـــاصر المتضمنة فى كلا الاتجاهين (٢) .

ولقد ترك فيبر مؤلفات متعددة ، قام بترجمتها الى الانجليزية من علماء الاجتماع أمثال تالكوت بارسونز ورايت ميلز وادوار شيلز وهانز جيرث . ومن هذه المؤلفات علم الاجتماع الدينى ، والكتابات السياسية ، والتاريخ الاقتصادى ، والسياسات الاجتماعية ، والنظرية العلمية ، والنظرية الاقتصادية .

كان فيبر عالما متعدد الاهتمامات ، ويمكن تقسيم دراساتـــه الى قسمين ، يمثل القسم الاول مجموعة المقالات النقدية التى هاجم فيها المبادىء التى سيطرت على المدرسة التاريخية فى علم الاقتصاد ، ولم تظهر هذه الدراسات الا بعد وفاته . ويمثل القســـم الثـــانى تلك الدراسات المقارنة فى علم الاجتماع الدينى وبدأها بمقاله المشهور :

---

(١) محمد عبد الله ابو على ، مدارس اجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٦٦ — ١٦٧

(2) Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, London, 1960, p. 377.

«الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية » وذلك بالاضافة الى كتاباته فى المناهج •

أولا — منهج البحث :

ان الظروف التى عاشها فيبر جعلته يدرس مجموعة من المقالات السوسيولوجية التى اعتبرها بمثابة الوسيلة التى تمكنه من اثبات العلاقة السببية فى نطاق العلوم الثقافية والانسانية كما هو الحال فى مجال العلوم الطبيعية • وأهم هذه المقولات فكرة «النموذج المثالى Ideal Type » الذى يعتبر مفردات فرضية Hypothetical محسوسة ، يحددها الباحث نفسه لكى تكون أساسا تنهض عليه المقارنة • وهو لايمثل تصورا عاما مجردا ، وانما يصف اسلوبا نموذجيا معياريا ، أو بناء عاما توصف على أساسه الحالات الواقعية • ويعتبر هذا النموذج مثاليا لانه يتحقق كفكرة • وتتمثل الفائدة الاساسية من هذا النموذج فى أنه أداة لتحليل الاحداث التاريخية الملموسة أو المواقف الواقعية (١) •

وتعد مقولة «الفهم» ذات أهمية منهجية عند فيبر وخاصة اذا ادركنا ان كل فعل انسانى لايخلو من معنى ، وفهم هذا المعنى ضرورى لتقديره • ويتخذ الفهم — لديه — شكلين أساسيين (١) : الفهم العقلى أو السببى ، والفهم الانفعالى أو التعاطفى الذى يقوم على أساس المعنى •

والواقع أن فيبر كان يسعى من هذا الى صياغة نماذج مثالية ، تمكنه من الوصول الى تعميمات ، وهذه النماذج تعد ضرورية لفهم الافعال الانسانية ، بحيث أنه اذا تم هذا الفهم على هذا النحو ،

---

(1) Ibid., p. 378.
(2) Ibid.,

تمكن العلم الاجتماعى من تفسير سببى للظاهرة موضوع الدراسة •

ويرى فيبر أنه من الصعب وضع منهج عام يخدم اغراض الدراسة الاجتماعية ، ويصلح أساسا للنظرية الاجتماعية فى مختلف الميادين • وذلك لان العلوم الانسانية تبرأ من الدقة التى تتوفر بكل كفاية فى العلوم الطبيعية ، ويرجع ذلك الى أنها عرضة لتدخل ارادة الانسان ، وخضوعها لمشاعره • ولذلك فمن الافضل ان يقتصر علم الاجتماع على الوصول الى نظريات ومبادىء عامة مجردة مستخلصة من دراسة التطور التاريخى للحقائق الاجتماعية • وقد استخدم هذه الطريقة فى دراساته المقارنة للبحث فى نشأة وقيام التنظيمات السياسية والاقتصادية • ولاشك أنه تأثر فى هذا الاتجاه بتكوينه وثقافته العلمية الاولى حيث بدأ بدراسة القانون وفلسفة التاريخ والتاريخ الاجتماعى (١) •

ثانيا — الفعل الاجتماعى والعلاقة الاجتماعية :

ولقد درس فيبر الاشكال الاجتماعية وردها الى شكلين أساسيين : المجتمع العام ، والمجتمع المحلى • غير أنه انتهى الى ما قرره استاذه (سيمل) من أن هذين الشكلين ليس لهما وجود واقعى قائم بذاته ، ولكنهما يعبران عن اتجاهين أو تيارين يسودان الحياة الاجتماعية وهما :

١ — اتجاه جماعى تسوده أفعال عاطفية ومظاهر سلوك لاشعورية •

٢ — اتجاه اجتماعى تسوده افعال ذات غائية عاقلة ومظاهر سلوك تقديرى •

---

(١) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث : المدارس الاجتماعية المعاصرة ، ١٩٦٦ • ص ٧٤

وحلل فيبر هذه الاشكال وناقش الدعائم التى تقوم عليها والظواهر التى تسودها • ودرس كذلك موضوعات كثيرة تتناول نظم الاستبدال والنقد ونظم الادارة والملكية والسلطة ومظاهر السيادة • وكان يسير فى هذه الدراسة على المنهج التجريدى الذى يقابل بين عنصرى الشكل والمضمون • ومن الموضوعات التى اهتم بها فيبر دراسة العلاقات ومظاهر السلوك الاجتماعى ، وردها الى أربعة أنواع : سلوك غائى ، وسلوك لاشعورى ، وسلوك عاطفى ، وسلوك تقليدى • ودرس العلاقات التى تنشأ عن هذه المظاهر المختلفة • وقرر أنه لاينبغى أن نوسع من نطاق هذا السلوك بل يجب أن يكون مقصورا على العلاقات والروابط الاجتماعية التى تنشأ • استجابة لنشاط أو سلوك مقابل • ولذلك فليست كل العلاقات الانسانية علاقات اجتماعية • ومن هنا تبدو اهمية تصنيف العلاقات ثم تحليلها وتجريدها حتى نصل الى مقوماتها الذاتية ، وهذه هى الوظيفة الحقة التى يتعين على علم الاجتماع أن يؤديها (١) •

ويمثل مفهوم الفعل الاجتماعى Social Action جوهر النظرية السوسيولوجية عند ماكس فيبر • اذ يجب أن يتضمن الفعل الاجتماعى معنى معينا فى اتجاهه نحو الاخرين • ومن هنا كان مفهوم «المعنى Meaning» يحتل مكانا بارزا فى تحديد فيبر للفعل بأنه : «كل سلوك انسانى يضفى عليه الفاعل معنى ذاتيا» • ويدعم تأكيد فيبر لأهمية المعنى ، اتجاهه الذاتى (٢) •

ان الفعل الاجتماعى الذى يتضمن كل من الفشل فى الفعل والاقتناع السلبى ، قد يرجع الى الماضى أو يفسر الحاضر أو ما يتوقع مستقبلا من سلوك الاخرين • ولهذا فقد يأخذ شكل الهجوم أو

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ — ٧٥

(2) Don Martindale, op. cit.

الدفاع ، وربما يكون الاخرين اشخـاص فرادى معروفين أو غـير معروفين • فالنقود كوسيلة للتبادل — مثلا — يوافق عليهـا الفاعل لانه يتوقع أن الاخرين يوافقون عليها كذلك (١) •

وليس من الضرورى أن يكون كل فعل اجتماعيا ، فالافعال قد توجه الى جمادات عديمة الحياة ، وبهذا لاتكون اجتماعية • بينمـا تتوجه الاتجاهات الشخصية الى الفعل الاجتماعى حيث تضع سلوك الاخرين فى اعتبارها • ولكل نوع من أتصال الكائنات البشرية خاصية اجتماعية ، حينما يكون لسلوك الفاعل معنى يرتبط بالاخرين • وبهذا يستخدم مفهوم «العلاقة الاجتماعية» ليشير الى سلوك الكثير مـن الفاعلين ، عندما يضع كل منهم الاخر فى حسبانه (٢) •

وبهذا فان الفعل لايتجه نحو غايات معينة فقـط ، وانما يتـم داخل نسق اجتماعى معين ، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف التـى يتم فى ضوئها تحقيق الغايات • ومعنى هذا أن العلاقة الاجتماعيـة تعنى «سلوك مجموعة من الفاعلين ، يضع كل فعل صادر من كل منهم فى اعتباره المعانى التى تتضمنها افعال الاخرين» •أى أن هناك مجرى وسياق للفعل الاجتماعى ، يتضمن بدوره وجود اتجاه متبادل للفعل بين الفرد والاخرين • وليس من الضرورى ان يكون المعنى الذاتى هو نفسه بالنسبة لكل أفراد الجماعة التى تدخل فى علاقة اجتماعية ، فالصداقة والحب والولاء والوطنية ، قد تقابل باتجاه مختلف تماما من جانـب الاخر • كما أن المعنى الذاتى للعلاقة قد يتغير ، اذ ربما تتحـول العلاقة السياسية القائمة على التضامن مثلا الى صراع حول المصالح•

---

(1) Lewis A, Coser & Bernard Rosenberg (eds.) Sociological Theory, N.Y., 1965, p. 66.

(2) Ibid., pp. 67-68.

ثالثا : البيروقراطيـــة والسلطـــة :

تعد كتابات ماكس فيبر التى ضمنها كتابه «الاقتصاد والمجتمع» والتى تناولت تحليل مبادىء البيروقراطية ، بمثابة البداية الحقيقية لدراسة التنظيمات الرسمية ، كما تمثل دليلا نظريا لكثيرا من البحوث والدراسات التى تتناول بناء السلطة وأشكال الضبط الاجتماعى .

واستعان فيبر بما أسماه النموذج المثالى لتحديد مجموعة مـــن العناصر التى يمكن أن تتوافر فى تنظيم بيروقراطى مثالى « فأعمـــال التنظيمات البيروقراطية تتنوع بأختلاف الاوضاع الاجتماعية باعتبارها واجبات ومهام رسمية . وتنظيم الاوضاع الاجتماعية — بدورها — فى بناء سلطة رئاسية بحيث يأخذ البناء شكلا هرميا . ويتضح هذا من خلال مسئولية كل موظف عن مرؤوسية وعن القرارات التى تصدر عنه» . وهو يرى أن البيروقراطية أكثر الصور كفاءة للتنظيم الادارى، لان الانجاز المنظم والمحكوم بقواعد محددة مع وجود نظام متسلسل للسلطة ، يؤديان الى وجود أعمـــال متسقة تسعـــى نحو تحقيـــق الاهداف التنظيمية (١) .

ويرتبط مفهوم البيروقراطية ارتباطا وثيقا بمفهوم السلطة Power أو القوة عند فيبر . اذ تعتبر السلطة عنصر من عناصرها . على أنـــه يجب أن نميز السلطة عن غيرها من صور التأثير الاجتماعى . فالسلطة تعنى وجود فاعل معين فى وضع اجتماعى معين ، يمكنـــه من تنفيذ ارادته أو رغبته الخاصة دون مقاومة . وكذلك ترتبط السلطة بالقانون كما أن السلطة بمثابة بعد هام فى التدرج الطبقى (٢) .

ويرى فيبر ثلاثة نماذج أساسية للسلطة يجب النظر اليها مـــع

(1) Don Martindale, op. cit., pp. 390-394.

(2) Ibid., p. 392.

تطورها التحليلى واستخدامها الامبيريقى ، ويمكن أن ينهض صـــدق ادعائها بالشرعية على الاسس التالية : (١)

١ — أسس معقولة Rational أو رشيدة تستند الى الاعتقاد فى شرعية القواعد المعيارية وأحقية أولئك الذين ارتفعوا الى مناصب السلطة فى ظل هذه القواعد ليصدروا الاوامر (السلطة الشرعية) .

٢ — أسس تقليدية Traditional وتستند الى اعتقاد قائـــم فى قداسة الاعراف أو التقاليد القديمة ومشروعية مكانة أولئك الذين يمارسون السلطة فى ظلها . (السلطة التقليدية) .

٣ — الاسس العظيمة Charismatic أو الملهمـــة (الكاريزما) وترتكز على الولاء الى البطولة والقداسة الخاصة والاستثنائيـــة أو الشخصية المثالية لاحد الافراد وللانماط المعيارية أو النظام الـــذى يرفضه ويرسم معالمه . (السلطة الكاريزمية) .

وبعد أن يحلـــل فيبر نمـــاذج السلطـــة ، يـــرى أن 'الادارة البيروقراطية (٢) هى الادارة الاكثر كفاءة ومعقولية فى ادارة التنظيمات ذات الحجم الكبير ، والتى قد ظهرت واعتمد عليها النظام الاجتماعى الحديث فى مجالات عديدة متباينة (٣) .

---

(١) على عبد الرازق جلبى «نماذج السلطة والبيروقراطية عند ماكس فيبر» ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع ، العدد الثانى، مايو ١٩٧٠ ، ص ص ١١٤ — ١١٥

(٢) تعتبر البيروقراطية نموذجا من نمـــاذج السلطة . وتتركب كلمـــة «بيروقراطية» من مقطعين : اولهما Bureau بمعنى المكتب ، والاخر Cracy وهو مشتق من الاصل الاغريقى Kratic بمعنى to be strong أى القوة ، بحيث تدل كلمة البيروقراطية فى مجملها على قوة المكتب أو سلطته .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦

رابعـا : الديـن والاقتصـــاد :

بالاضافة الى دراسة فيبر للعلاقة بين الافكار الدينية والاتجاهات نحو النشاط والتنظيم الاقتصادى ، فقد حاول الكشــف عن طبيعة العلاقة بين الظاهرتين ، بمعنى الاجابة على سؤال مؤداه : هل تؤثر الظاهرة الاقتصادية على الظاهرة الدينية كما يرى ماركس ؟ أم أن الظاهره الدينية هى التى تؤثر على الظاهرة الاقتصاديــة ؟ أم أن التأثير بين الظاهرتين متبادلا ؟

نشر فيبر بعض نتائج هذه الدراسة فى كتابه «علم الاجتماع الدينى» ، ويرى أن هناك تأثيرا متبادلا بين الظواهر الدينية والظواهر الاقتصادية ، ويترتب على ذلك أن أى تفسير يتحيز لاحداها ، انمـا هو تفسير خاطىء من أساسه . ولهذا تصبح نظرية ماركس خاطئة ، كم اتصبح النظرية العكسية خاطئة ايضا .

ولقد توصل فيبر الى هذه النتيجة بدراسته للدين ، محاولا كشف تأثيره على الاقتصاد ، وغيره من الظواهر . ولم يعالج فيبـر مختلف جوانب الدين بوصفه ظاهرة اجتماعية ، بل اكتفى بدراسة الاخلاقيات الاقتصادية للدين وبخاصة لديانات ستة عالمية هى : الكونفوشيه ، والهندوكية ، والبوذية ، واليهودية ، والمسيحية . والاسلام . ثم درس طبيعة الاخلاقيات الاقتصادية فى كل منها وآثارها على التنظيم الاقتصادى والحيــاة الاجتماعية للشعــوب التى تنتمى الى هــذه الديانات (١) .

ومن المفيد الاشــارة الى دراسته الشهـــيرة عن الاخـــلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية «التى اكتسبت أهمية كلاسيكية فى العلوم الاجتماعية . اذ ينتقد فيبر فى هذه الدراسة التفسير الماركسى

(1) Don Martindale, op. cit., p. 392.

الاقتصادى للتغير التاريخى • واوضح فيها علاقة الارتباط بين نشأة الرأسمالية وظهور البروتستانتية فى المناطق الهامة من أوربا الغربية • ويحصر فيبر الخصائص النموذجية المثالية للرأسمالية الحديثة فى المشروع الاقتصادى القائم على التنظيم العقلى والذى تتم ادارته وفقا لمبادىء علمية ، والثروات الخاصة ، وانتاج السوق ، ومن أجل المال ، والحماس المتزايد ، والروح المعنوية العالية ، والمبادأة والقدرة على الاختراع ، وترفض رفضا تاما النزعة التقليدية أو الخيالية أو اللاعقلية • وعلى هذا تختلف الرأسمالية الحديثة عن الرأسمالية القديمة أو رأسمالية العصور الوسطى (١) •

وهذا التنظيم الرأسمالى الحديث والذى يمثل ظاهرة نوعية فى المجتمع الغربى ، يتطلب وجود أفراد يتميزون بسيكولوجية معينة ، وسلوك معين ، وظروف اجتماعية معينة • بمعنى أن هذا التنظيم لايتحقق فى مجتمع يتسم افراده بالكسل ، ويتمسكون بمعتقدات خرافية • فاذا كانت الرأسمالية قد تحولت من تقليدية الى حديثة ، وكان كل تنظيم فيها يتطلب وجود أفراد يتميزون بهذه الخصائص ، فما هى الظروف التى أدت الى هذا التحول الذى طرأ على المجتمعات ؟

للاجابة على هذا التساؤل ، يرى فيبر أن الرأسمالية الحديثة قد نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية • فروح الرأسمالية هى نفسها روح البروتستانتية بما تتضمنه من سلوك وأخلاقيات عملية • وتوصل فيبر الى هذه النتيجة من تحليله الدقيق لاراء مارتن لوثر Luther وكالفن Calivin • اذ وجد أن العقيدة البروتستانتية تهتم اهتماما كبيرا بتنشئة الفرد عقليا ، وتمنح المهنة قيمة اخلاقية كبيرة ، كما أنها تقدس العمل وتعتبر تأديته بأمانة وحماس واجبا مقدسا ، كما أنها تعتبر جمع المال بطريقة شريفة نشاطا ذكيا • وبهذا

---

(1) Ibid.

أكد فيبر علـى أن روح الرأسماليـة الحديثـة هى بالضبـط روح البروتستانتية ، ومن هنا كان مفتاح فهم التطور الاقتصادى فى نظره، ليس اسلوب الانتاج كما ذهب الى ذلك ماركس ، وانما الاتجاهات السيكولوجية التى تشكل روح عصر تاريخى معين (١) •

ومن ناحية أخرى ، فان نظرية فيبر عن السلطة الكاريزمية هى فى جوهرها نظرية فى الدين • اذ أن سلطات القائد الكاريزمى (الملهم) تجعل اتباعه يعتقدون ان مصدرها الهى ، أو على الأقل فهى سلطات مقدسة • وتتمثل الكاريزما فى بعض الشخصيات مثل المسيح (عليه السلام) ومحمدا (ﷺ) كما يشير فيبر • ولاشك أن السلطة الكاريزمية من أهم أسباب التغير الاجتماعى • (٢)

خامسا : القـــانون :

وقد اتجهت اغلب اهتمامات فيبر فى الواقع فى بحث سلطان وأثر رجال القانون الرسميين ، وكذلك أثر وسلطان الهيئات السياسيـة والحكومية المختلفة على تطور القانون • وهو يرى فى هذا أنه كلمـا انحسر ظل الاعتقاد فى أثر القوى الحقيقية فى خلق القانون ، وحل محله الاعتقاد فى الدعوى المنطقية الدينية كأداة للتشريع ، فان سلطان الجهاز القضائى يزداد قوة يوما بعد يوم • كما يقوى دور الاساليب الاجرائية الشكلية ليظهر من خلال ذلك أيضـا تضارب المصالـح وتعارضها • ويرى فيبر أنه فى هذه الفترة الانتقالية فى حياة القانون تظهر طبقة من الناس لها مركزها القانونى الرفيع ، ومكانهـا وسـط بين سدنة القانون القدامى ورجال القانون الرسميـين المعاصرين • وتأخذ هذه الطبقة فى النمو حتى تصبح ذات أثر كبـير فى التطوير المنطقى الرتيب فى مجال الاجراءات الشكلية القانونية ، وتميل غالبا

---

(1) Ibid.
(2) Robert Nisbet, The Social Philosophers, London, 1974, p. 241.

الى تأخير وتعويق قيام أى تطور أو تقدم منطقى ينال مادة القانون ذاتها • أو بمعنى أدق أنهم يغالون فى التأكيد على أهميـة الشكل والاجراءات فى الوقت الذى يعمدون الى تعويق أى تطوير ينـال القانون فى مضمونه المادى المعبر عن تطور المجتمع •

يقول ماكس فيبر أن القانون كان أول الامـر فكرة يشوبهـا الغموض فى اراء السحرة ورجال الكهنوت ، وظلت تتطور حتى لبست قوالب المنطق الرتيب فيما بعد • ويمكننا أن نتبين هذا التطور مـن ظاهرات قانونية شتى تبدوا فى العلامات التى تميز بين قواعد القانون العام وقواعد القانون الخاص وهى علامات قامت فى الواقع مع قيام تطور الدولة والقواعد المنظمة لها ، وكل هذه التطورات التى نراهـا قانونية ترتبط اشد الارتباط بعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية ، معا ••

ويرى فيبر أن ذروة الجمود والتشديد على الشكل والاجراء فى حياة القانون يوجد فى الوقت الذى تلتقى فيه ارادة الدولة ، اذا رغبت فى الاستزادة من سلطات اجهزتها الادارية لتحقيق النظـام وتأكيد السلطة المركزية مع مصالح الطبقة الوسطى التى ترى فى الجمود على الشكل وعدم الانتقال فى يسر الى مراحل أخـرى متقدمة فى مـادة القانون ، ترى فى هذا حفاظا على مصالحها الاقتصادية التى يهمها أن تظل ثابتة لاتهزها عوامل التطور فى حياة المجتمع ، ومن بعدهـا فى حياة القانون •

ويرى فريدمـان W. Friedmann أن نظريـة فيبر فى اجتماعية القانون توجد فى النقطة التى يلتقى عندها اسلوب مين Maine فى الدراسة الفقهية القانونية التاريخية من ناحية ، وطريقة تنـاول ماركس Marx للامور من ناحية أخرى ، كما تؤكد دراساته ضرورة الاعتماد المتبادل ، بين القانون والقـوى السياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعية معا •

كما يصف جيرفيتش G. Gurvitch طريقة فيبر بأنها توفيق بين علم الاجتماع القانونى من ناحية وفلسفة القانون من ناحية أخرى ، وأنه حاول أن يقيم نوعا من التعاون بين العلمين •

سادسا : محددات الطبقة الاجتماعية :

لم ينكر ماكس فيبر أنه فى ظل ظروف اقتصادية معينة سوف يسعى بعض الناس لتحقيق مصالحهم الخاصة ، مما تنجم عنه قيم عامة بينهم (١) • ولكنه يؤكد على تعدد أبعاد الطبقة الاجتماعية وعدم قصورها على البعد الاقتصادى وحده ، اذ أضاف الى التعريف الماركسى للطبقة — والذى يعتمد على التشابه فى الوضع الاقتصادى — بعدين آخرين هما المكانة Status والحزب Party أو القوة Power وهو يرى أن كل من الطبقة والمكانة والقوة يتداخل مع الاخر • ولهذا نعرض لكل من هذه المفهومات الثلاثة •

١ — الطبقة الاجتماعية :

يستخدم فيبر مصطلح «الطبقة Class » ليشير الى الوظائف الاقتصادية التى تقوم بها داخل النظام الاقتصادى العام • ويعرفها بأنها «اية جماعة من الاشخاص الذين يشغلون نفس المكانة الطبقية» (٢) • وفى هذا يميز بين الطبقة المالكة Property class التى تتحدد مكانة الاعضاء فيها على أساس التمايز فى توزيع الملكية ، وبين الطبقة المكتسبة Acquisition class التى تحدد الوضع الطبقى عن طريق مدى استغلال الفرص المتاحة ، والطبقة الاجتماعية social class التى تتحدد على أساس مجموع المكانات الطبقية للافراد • ويرى أن هناك علاقة تربط أولئك المشاركين لنفس المصالح

---

(1) H.M. Hodges, Social Stratification, op. cit., p. 49.

(2) T. Parsons et. al., Theories of Society (eds.), The Free Press, N. Y., 1965, p. 573

والاهتمامات الطبقية من خلال النماذج الطبقية الثلاثة التى حددها •

وينتهى فيبر الى أن الطبقة عبارة عن أى تجمع لافراد معينين فى موقف طبقى واحد ، وأن اختلاف الطبقات علـى اساس الملكية لايعنى أنه عملية ديناميةً • كما أنه ليس نتيجة ضرورية للصراعات أو الثورات الطبقية • اذ قد يكون ثمة ارتباط تضامنى بين الطبقات وحتى اذا حدثت مثل هذه الصراعات ، فان فيبر لايرى ضرورة ايجاد تغيرات اساسية فى التنظيم الاقتصادى ، وانما يرى ان ذلك يحتاج الى اعادة توزيع الثروة مثلا (١) • فالمصلحة الطبقية — لدى فيبر — هى العامل الجوهرى فى الوجود الطبقى •

ومن ناحية أخرى فان التحولات من مكانة طبقية معينة الـى أخرى ، انما تختلف تبعا لدرجة المرونة التى تسمح لافراد معينين بالدخول فى الطبقة أو الخروج منها • وتنمو الملكية فى الطبقات ذات الطابع الخاص بطريقة ثابتة على أساس الملكية والدخل • وبهذا ينظر ماكس فيبر الى الطبقة من خلال الظروف التالية (٢) :

أ — حينما يكون تجمع الناس بغرض استغلال فرص الحياة •

ب — حينما يمثل هذا التجمع صفة الشمول عن طريق المصالح الاقتصادية • وذلك عن طريق الحصول على الدخل بالاعتماد عـلى امدادات السلع وفرص الحياة •

جـ — حينما تتمثل فى ظروف التجارة أو أسواق العمل •

وبهذا يشير فيبر الى «الطبقة» باعتبارها تجمعا لافراد موجودين فى موقف طبقى واحد • فهم يجتمعون فى السوق من أجل تبادل السلع

---

(1) Ibid., p. 574.
(2) Ibid., p. 574 & also : H.H. Certh & C.W. Mills, op cit, pp 181-183

وخلق فرص متنوعة للحياة • كما أن العبيد لايكونون «طبقة» بالمعنى الفيبرى ، ولكنهم عبارة عن «جماعة ذات مكانة معينة» •

أما مفهوم «الطبقة الوسطى» لدى ماكس فيبر فيتضمن الجماعات ذات الاشكال المحددة من الملكية وذات القدرة على التسويق عن طريق التدريب ، والذين يسمح لهم باستغلال منابع ومصادر الثروة • وقد يكون بعضهم من الطبقات القائمة على أساس التحصيل • وعلى ذلك، فأصحاب الاعمال يعدون ملاكا ايجابيون ، بينما يعد البروليتارية ملاكا سلبيون • ولا يضع ماكس فيبر نماذج أخرى مثل الفلاحين والحرفيين والموظفين ضمن هذه الفئة •

ان اختلاف الطبقات على أساس الملكية لايعنى أنه عملية ديناميةٍ، كما أنه ليس عملية ضرورية للصراعات أو الثورات الطبقية • اذ قد يكون ثمة ارتباط تضامنى بين طبقات الملكية الخاصة وبين العناصر غير الحرة • وذلك بالرغم من احتمال وجود بعض الصراعات التى قد تظهر بين الدائن والمدين أو بين ساكنى الحضر ومزارعى الريف • وحتى اذا حدثت مثل هذه الصراعات أو الثورات ، فان ماكس فيبر لايرى ضرورة ايجاد تغيرات جذرية فى التنظيم الاقتصادى ، وانما يرى أن ذلك يحتاج الى اعادة توزيع الثروة مثلا (١) •

وحينما يتحدث فيبر عن «طبقات التحصيل» فانه يرى ان أهميتها تتضح فى صورتين • فمن ناحية فانها تمكن بصفة عامة عن الوصول الى الزام المشرفين على عملية الانتاج برعاية أعضاء الطبقة ومصالحهم ومن ناحية أخرى ، تذهب هذه الطبقة الى تؤكيد ضمان وضعها الاقتصادى عن طريق مدى التأثير فى السياسة الاقتصادية للاحزاب السياسية وما يشابها من جماعات • ان أعضاء الطبقات التحصيلية ، أصحاب الامتياز الايجابى ، ملتزمون بهاتين الصورتين •

---

(1) Parsons et. al., op. cit., p. 574.

وفى ظل ظروف معينة يظهر نموذجين من أعضاء تلك الطبقات ، يطلق عليها : اعضاء المهن الحرة الذين لهم وضع خاص حسب قدراتهم وخبراتهم ، والعمال ذوى المهارات الخاصة ويطلبون وضعا معينا بغض النظر عن كونه نتاج الوراثة أو الخبرة . أما جماعات التحصيل ذات الوضع السلبى الخاص فيمكن تصنيف أعضائها على أساس : أعضاء مهرة ونصف مهرة وغير ماهرين .

ويمكن أن يتبلور نشاط الجماعات الطبقية تحت الظروف التالية : (١)

أ — امكانية التركيز على المقاومة والصراع ، حيث ثمة صراع مؤقت حول المصالح .

ب — وضوح المكانة الطبقية التى قد تتخذ شكل تجمهر كبير .

جـ — الامكانات الفنية التى تكفل الوجود الطبقى .

د — اتجاه القيادة نحو الاستعداد لتحقيق أهداف ممكنة .

وعلى ما يذهب فيبر فان المصلحة الاقتصادية الواضحة هى العامل الاساسى فى ايجاد «الطبقة» . وهو يرى أن هذه المصالح الاقتصادية سببا فى ايجاد «السوق» . ومن ناحية أخرى ، يرى أن مصطلح «المصلحة الطبقية» مفهوم غامض ، حتى ان كان موضوعا بغرض الاجراءات الامبيريقية ، طالما يفهم منه المرء شيئا آخر أكثر من معنى التوجيه الواقعى للمصالح المحتملة الارتباط بالموقف الطبقى . حيث أن الموقف الطبقى عبارة عن الاتجاهات التى يعمل الافراد من خلالها . ويعتبر الفعل الجمعى أو حتى العام المنبثق من الموقف العام ظاهرة عامة فى كل المجتمعات (١) .

---

(1) Ibid., pp. 574-575.

(2) H.H. Gerth & C.W. Mills, op. cit, p 183

٢ ـ المكانـــة الاجتماعيـــة :

ويشير مصطلح «المكانة» ـ لديه ـ الى تأثير الامتياز السلبى أو الايجابى الذى يحدد المنزلة الاجتماعية على أساس أسلوب الحياة وعملية التعليم الرسمية والميلاد والمهنة (١) • وتتأكد المكانة الطبقية من خلال المشاركة فى العيشـــ Commensabily واستغـــلال الفرص الاقتصادية • ويرى فيبر أن جماعات المكانة Status Groups لها صفة العموم زعم احتمال عدم امكانية تحديد شكلها • وعلى عكس «الموقف الطبقى» الذى يتحدد اقتصاديا بصفة عامة ، يطلـــق فيبر مصطلـــح «موقف المكانة» على كل نموذج يتكون من معايير يلتزم بها النـــاس فى حياتهم عن طريق الشهرة والمنزلة الاجتماعية (١) • كما أن تطور «المكانة» ونموها ينبنى على مـــدى اغتصـــاب Usurpation السلطة • حيث من السهل التحول من اغتصاب السلطة الى ممارستها شرعيا (٣) كما يعتبر احتكار السلع المادية والخدمات أو استغلال الفرص المادية وفرص الخدمات ، فى مصاف الشهرة أو المنزلة الاجتماعية الناجمـــة عن نوعية الممارسات والمحرمات والهوايات (٤) •

٣ ـ القـــــــوى :

ويقصد فيبر بالقوة Power الفرصة التى يستغلها الفرد لتحقيق ارادته ، ويصيغها فى صورة قرار أو سلوك ، حتى لو كانت هـــذه الارادة متعارضة مع السلوك المتوقع للناس • وليست القوة أساســـا للشهرة أو المنزلة اللتين قد يحددا القوى الاقتصادية أو السياسية (٤) ولذلك يشير مصطلح «النظـــام الاجتماعـــى Social Order

---

(1) Parsons, op. cit., p. 575.
(2) Gerth & Mills, op. cit., pp. 186-187.
(3) Ibid., pp. 187-188
(4) Ibid., pp. 190-191.
(5) Ibid., p. 180 & also : Bendix & Lipset, op. cit., pp. 63-57.

الى طريقة توزيع الشهرة والمنزلة بين مختلف الطبقات • وعلى ذلك فان الطبقات وجماعات المكانة والاحزاب عبارة عن ظواهر توضح توزيع القوى داخل المجتمع المحلى (١) • وهذا يبين أن فيبر يربط الاحزاب السياسية بالقوة كبعد طبقى ، ويربط الطبقة بالاقتصاد ، والجماعة ذات المكانة بالمكانة • ونظرا لان هذه التجمعات الثلاثة متبادلة الاعتماد ، فلقد اضاف فيبر الى التعريف الاقتصادى للطبقة — والذى استخدمه ماركس — بعدى المكانة والقوة (٢)

ان التدرج الطبقى فى ضوء «الشهرة» وأسلوب الحياة عباره عن صوره لجماعات المكانة فقط • ويرى فيبر أن لكل الجماعات مصالح معينة ومحددة فى نظام المكانة ، وهذه المصالح لاترتبط بالعوامل الاقتصادية الخالصة • وهو يرى أن «الجماعة المهنية» عبارة عن جماعة مكانة ، اذ ان لها شهرة اجتماعية معينة تتحدد عن طريق أسلوب حياة اعضائها الخاص • وقصد فيبر الاساسى من ذلك هو توضيح أهمية دور الشهرة أو المنزلة الاجتماعية (٣) •

ويرى فيبر أن الفعل العام للاحزاب انما يتجه نحو القوى • ذلك الفعل الذى يتحدد عن طريق الهدف الذى تضعه الجماعة بطريقة مخططة • وربما يكون ذلك الهدف عاما أو شخصيا ، وقد توجد الاحزاب فى ناد معين أو تكون موزعة فى الدولة ككل • وعلى أية حال فان الاحزاب تضع مصالح معينة منبثقة من «الموقف الطبقى» أو «موقف المكانة» ، لكنها لاتحتاج الى أحزاب من النوع الذى يعتمد على المكانة أو النوع الذى يعتمد على الطبقية • اذ قد تختلف الاحزاب تماما عن كل من «الطبقات» و «الجماعات ذات المكانة» وفقا لاختلاف

(1) Ibid., p. 181.

(٢) غريب سيد أحمد ، الطبقات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٠٥

(3) Gerth & Mills, op. cit., pp. 192-193.

وسائل بلوغ أهدافها من أجل الوصول الى مراكز القوى (١) .

هذا ، ويختلف البناء الاجتماعى للاحزاب على أساس نوعيـة الفعل المشاع العام ، كما يختلف تبعا لتدرج المجتمع المحلى سـواء على أساس المكانة أم الطبقات . كما أن ذلك البناء يختلف وفقـا لاختلاف الزمان ، فأحزاب العصور القديمة والوسطى تختلف عـن أحزاب العصور الحديثة (٢) .

خاتمـــة :

لو تأملنا الكتابات المنهجية فى علم الاجتماع المعاصر لادركنا أن جزءا كبيرا منها مشتق من الاسس التى أرساها ماكس فيبر ، وخاصة فكرته عن النموذج المثالى . فقد تركت هذه الفكرة أثرا عميقا فى عدد من علماء الاجتماع مثل ماكيفر وتالكوت بارسونز وهوراد بيكر وروبرت ميرتون .

ولقد كرس ماكس فيبر معظم جهوده للافتراضات التى وضعها الماركسيون عن الطبقة والوعى الطبقى ، فتوجهت كثير من أعماله — فى الواقع — الى بيان أن الماركسية تبدو كنظرية ذات مبدأ وحيد لايمكن الدفاع عنه (١) . ومن أجل ذلك حاول فيبر جاهدا تطبيق المنهج التاريخى بصورة تختلف عما ذهب اليه ماركس ، وذلك بقصد اعادة بناء العلاقات التاريخية والاجتماعية . فهو يرى أن ماركس باعتباره اقتصاديا قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الانثربولوجيين ، حينما اهتموا بالنظرة الجزئية مبتعدين عن العوامل العلية ، حتى بلغ بـه الامر الى بيان عامل وحيد للتدرج الطبقى هو العامل الاقتصادى . ولقد كان ماركس قليل الاهتمام بالتفرقـة بين القوى الاقتصاديـة

(1) Ibid., p. 194
(2) Ibid., p. 195.
(3) H.H. Gerth & C. Wright Mills, From Max Weber Essays in Sociology, Oxford University Press, N.Y. 1953, p. 46.

والقوى السياسية ، فى حين أن فيبر حاول التمييز بينهما بوضوح عند محاولته ربط الظواهر «الايديولوجية» بالمصالح والاهتمامات المادية للنظم الاقتصادية والسياسية من جانب ، ومن الجانب الآخر عند توضيح الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية على أساس المعتقدات الدينية ، حيث اعتمد على المرشدين فى جمع بيانات عن المعتقدات الدينية فى المجتمعات المحلية • كما أوضح أثر عمليات الهجرة على هذه المعتقدات الدينية ، وذلك فى دراسته عن الاخلاق البروتستانتية (١) •

كما أن مفهوم فيبر عن «البيروقراطية العقلية الرشيدة» بجانب التصور الماركسى «للصراع الطبقى» • وبالرغم من أنه لم ينكر الصراعات الطبقية ودورها فى التاريخ ، الا أنه لم ينظر اليها باعتبارها عملية دينامية تخضع لمنطق الديالكتيك (الجدل) •

والواقع أن فيبر — ايضا — لم يسلم من النقد • فقد تعرضت كل أفكاره لنقد العلماء وبخاصة فكرة النموذج المثالى ، وكذلك تصنيفه للفعل الاجتماعى ، ونموذج البيروقراطية المثالى الذى جاء خاليا من أية اشارة للعلاقات غير الرسمية التى كشفت عنها الدراسات التجريبية والحديثة • كما قوبلت دراسته للدين والاقتصاد بمجموعة من الانتقادات • ولكنها انتقادات لاتقلل من قيمة هذه الدراسات •

---

(1) T.B. Bottomore, Sociology : a Guide to problems & Literature, Unwin University Books, London, 1969, pp. 227-228.

المبحث الثالث

وليم جراهــام سمنر

١ ــ حيــاته
٢ ــ كتبــه
٣ ــ الطرائق الشعبية
٤ ــ الاعــراف
٥ ــ دوافع السلوك البشرى
٦ ــ النظم الاجتماعية
٧ ــ جماعتنا نحن ، وجماعة الاخرين
٨ ــ الاسرة
٩ ــ الطبقــات الاجتماعية
١٠ ــ الاعتداد بالجنس
١١ ــ الآراء السياسية والاقتصادية
١٢ ــ خاتمــة

المبحث الثالث

وليم جراهـــام سمنر

ولد سمنر Sumner فى باترسون Paterson عام ١٨٤٠م لأب انجليزى هجر موطنه الاصلى ، وقضى سمنر وهو فى العشرينات من عمره عددا من السنين فى اكسفورد • وفى عام ١٨٦٨ — بعد عودته من انجلترا — عين مدرسا بجامعة يل Yale وفى عام ١٨٦٩ عين فى وظيفة كنسية • وقرأ فى هذه الفترة — تقريبا مؤلف هربرت سبنسر «دراسة علم الاجتماع» • ورقى الى درجة الاستاذية بجامعة يل ، حيث ترك الدراسات المتصلة بالاديان ووجه عنايتـــه الى دراســـة السياســـة والاقتصاد وشئون الاجتماع ، وفى هذا الوقت — بالذات — اهتدى الى المذهب التطورى • وقد اختير رئيسا للجمعية الامريكية لعـــلم الاجتماع ، وظل فى هذا المنصب خلال العامين الاخيرين من حياته ؛ حيث توفى فى عام ١٩١٠م (١) •

وتبدو طريقته الجدلية اللاهوتية واضحة الى حد كبير فى كتابــه الرئيسى «الطرائق الشعبية» • وقد جمع سمنر الى قوة الحجة ووضوح البيان فى مباحث الدين ، التعمق والأصالة وسعة الافق فى مجــال معالجة شئون المجتمع ، وجاءت مقالاته وكتاباته نموذجا رفيعــا لفن النثر والكتابة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لاسيما أسلوبه كان موجز الفكرة شديد التماسك (٢) •

---

(١) انظر فى ذلك : — نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورهـــا ، ترجمـــة د. محمـــود عودة وآخـــرون ، مراجعـــة وتقديم د. محمد عاطف غيث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ •

ب — د مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعـــة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٧٨ •

(٢) د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ص ١٧٨

وبالرغم من المركز الذى شغله سمنر فى علم الاجتماع الامريكى غير أن اتجاهه الدينى ، كان مركب النقص أو نقطة الضعف فى اهليته، الاكاديمية • ولذلك انقسم معاصروه بصدد الحكم عليه الى مجموعتين: الاولى ويتزعمها البيون سمول Small وترى عدم وضوح مركز سمنر فى تطور وتقدم علم الاجتماع ولاسيما فى امريكا وان جهده غير محدود • والمجموعة الثانية ويتزعمها كيلر Keller وترى ان سمنر كان مبتكرا ومجتهدا فى كثير من الاعتبارات وكان استاذا فى المنهج (١) •

لقد كان اسهام سمنر فى علم الاجتماع التحليلى اعظم أهمية من تصوره لاصل الطرائق الشعبية واستمرارها • وقد دحضت العادات الضارة القائمة نظريته عن البقاء لاصلح العادات الاجتماعية • تلك العادات الضارة التى تؤدى الى انحطاط الجماعات التى تتبناها وتلتزم بها • هذا بالاضافة الى خطأ وجهة نظره التى تذهب الى أن الطرائق الشعبية بمثابة قوى مستقلة عن الناس • وذلك ما لايمكن تأييده • ومن المعروف الان ان ظاهرة نشوء العادات الاجتماعية واستمرارها قابلة لان ترد الى الانساق المركبة للفعل والتفاعل الانسانيين • ومن المعروف ايضا أن القانون يستطيع فى ظروف معينة ان يغير الطرائق الشعبية ذاتها (٢) •

وبالاضافة الى اسهامه هذا ، فقد اسهم — ايضا — فى فهم الجماعات الاجتماعية واسلوب حياتها • وذلك عندما ميز بين «الجماعة الداخله» و «الجماعة الخارجة» أو جماعتنا نحن وجماعتهم هم (٣) • كما تحدث سمنر عن الطبقات الاجتماعية وغيرها من

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٩
(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ١١١ •
(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩

موضوعات علم الاجتماع متبعا منهجا تطوريا تاريخيا عند عرضه لكل موضوع منها •

كتبـــه :

ان اعظم عرض بليغ فى انجلترا هو كتاب «الطرائق الشعبية ، Folkways الذى كتبه سمنر فى عام ١٩٠٦ • فهو عالم اجتماع وعالم اقتصاد مبتدع ، استخدم بطلاقه المادة العلمية والمعلومات الاثنوجرافية والتاريخية • لقد كتب سمنر بذكاء وأعطى أمثلة بحيوية وبوفرة (١) ولم ينشر هذا الكتاب الا بعد وفاته بثلاثة أعوام (٢) •

وقد كان ينظر الى مؤلف «الطرائق الشعبية» هذا بوصفه قسما متقدما من اقسام العمل العظيم «علم المجتمع The Science of Society الذى كان قد بدأه عام ١٨٧٣ ولم ينجره ، وانجزه تلميذه كيلر ونشره فى عام ١٩٢٧ • ويقع الكتاب الاخير فى أربعـــة اجزاء (٣) •

وبالاضافة الى هذين العملين فان أهم ما كتبه من مقالات تلك التى انجزها فى عام ١٨٨٣ بعنوان «أى الطبقات تدين الاخرى» (٤) وسوف نعتمد على كتابه الاول عند عرضه آرائـــه ووجهـــات نظره مستفيدين — بقدر الامكان — مما كتب عن سمنر فى بعض المراجـــع الاساسية لتاريخ علم الاجتماع •

(1) Kroeber, Anthropology, Oxford & IBH pub Co., New Delhi, 1972, p. 266.

(٢) د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٨٠

(٣) تيماشيف ، مرجع سابـــق ، ١٠٥ — ١٠٦ وكذلك د. مصطفـــى الخشاب مرجع سابق ، ص ١٨٠

(4) What social Classes are to each other ; 1883.

الطرائــق الشعبيــة :

يعتبر سمنر علامة مميزة فى علم الاجتماع الامريكى وخاصــة فى مراحله المبكرة • اذ يعتبر كتابه الرئيسى «الطرائق الشعبية» نقطة تحول فى هذا العلم • فلقد اعتنق مبدأ «دعه يعمل Laissez - Fairc مجاريا فى ذلك الصراع التنافسى الفوضوى للرأسمالية الصناعية المبكرة التى تدعو الى الحرية من أجل الجميع • ويــرى سمنر أن التطــور الاجتماعى مثل التطور البيولوجى • كان تطورا أعمى وآلى ، وغير متعذر تغييره • وان أية محاولة للعبث بهذه الحركة ، مثــل ما قــد يحدث عن طريق قرار حكومى ، كانت محاولة غير مفيدة وضد النظام الطبيعى للاشياء • وعلى أى حال فقد وصل المجتمع دائما عند درجة معينة للسلوك الاجتماعى الذى عن طريقه كان يتكيف دائما مع الصراع من أجل الحياة • وكان السلوك الاجتماعى على نوعين : الاول سلوك مألوف Customary غير شعورى الى درجة كبيرة ، حيث هو محدد عن طريق العادة والممارسات والدين ، بحيث تجعل سلطتها (العادة ــ الممارسات ــ الدين) مقاومة الافراد لها صعبة ان لم تكن مستحيلة • وقد أطلق سمنر على هذه العادات اسم «الطرائق الشعبية» أما النوع الثانى للسلوك الاجتماعى فان هذه العادات تصبح اعرافا Mores اخلاقيات Morals ، وذلك عندما يبــدأ الناس فى التفكير حــولها بوعى • وفى هذا المظهر ، تبدو الاخلاقيات فى الواقع على أنها تعقلات للعادات ، وهذا النوع من الاخلاقيات يربط الجماعة معا ، ويحدد مــا هو حسن وما هو سىء ،وما هو صواب ، وما هو خطأ • ومثلما توجد العديد من الاخلاقيات فان ثمة جماعات ، اذ تحاول جماعة ما الانتصار على غيرها على افتراض ان الاخلاقيات هى الاسمى (١) •

وبذلك فهناك مفهومين هامين فى تحليل ووصف الثقافة ، وهما :

---

1) J.H. Abraham, The Origins and Growth of Sociology, Hazell watson & viney LTD, London, 1973.

الطرائق الشعبية ، والاعراف (١) •وتشير كلمة الطرائق الشعبية — كما استخدمها وليام جراهام سمنر — الى مجموعة المعايير كلها ، بصرف النظر عن كيفية ما يجب أن تكون عليه من الزام او قهر • ولقد ميـز سمنر — هنا — الاعراف على أنها تلك الطرائق الشعبية التى يشعر بها على أنها هامة لرفاهية الجماعة • بحيث تكون الجزاءات صارمة • وبالاضافة الى ذلك ، ففى الاستخدام الاكثر حداثـة لايستخـدم مصطلح «الطرائق الشعبية» بصفة عامة بطريقة جامعة مانعة • وفى العادة تكون الاشارة الى الطرائق الشعبية — التى لم تكن اعرافا — اعراف السلوك التى لاتلزم حينما تكون الجزاءات واهنة (٢) •

وفى الواقع — كما يستخدم الآن — تمثـل الطرائق الشعبية والاعراف تمييزات دائمة • كما أن تصنيف درجة الالزام الى فئتين تشملان صعوبة وحتمية محاولة تصنيف جميـع الكائنات البشريـة على أنها طويلة أو قصيرة • ومع ذلك فسوف يمدنا تمييز الطرائـق الشعبية والاعراف بمفهومات وتصورات كثيرة للحديث عن درجـة الالزام المرتبطة بمعايير خاصة (٣) •

وكما يرى هو ذاته • فان الطرائق الشعبية هى طرائق الشعب وهى طرائق مجموع الجنس البشرى الغير تحليليه والغير جدلية ، انها طرائق لاتقوم على التحليل أو المناقشة • وباختصار فهى العـادات التى تؤدى الى كثير من القوة الدافعة ، ولكنها غير تامة من الناحيـة العقلية ، وربما يسبب عبورها اندلاع الخوف أو الغضب • أنها تنمو بطريق غير شعورى ، وليست نتاجا لهدف معين ، الا أنها اساس قوى

---

(١) «اعراف» ترجمة للمصطلح الانجليزى Mores ومفرده «عرف» Mos والاعراف كلمة لاتينية فى الاصل تعنى العادات ، وهى اصل كلمتنا «اخلاقيات» Morals

(2) RDL Sutherland, Wodward & Maxwell, Introductory Sociology, Oxford & IBH pub., New Delhi, 1961, p. 32.

(3) Ibid., p. 32.

المجتمع • وهى شيء أكثر من التصور الخاص لاستخدامهـا بالمعنى العام (١) • ومثلما رأى سمنر فان الطرائق الشعبية والاعراف ما هى الا عادات وممارسات وهى «تطور للخبرة» ، وقد تمكنت عن طريق «التقليد Tradition » بدون انعكاس أو هدف عقلى • ونحن لانوافق على أن عملية ايجاد العادة هى دائما غير عمدية كما قال سمنر • وانما هى مثل اغلب طرائقنا الشعبية السائدة ، ليست مبايعة شعوريـة لكى تصبح عادات • بل من الممكن انهائها عن طريق الافراد الذين ينظرون اليها على أنها حلول لمشكلات تواجههم (٢) •

وهكذا خلع سمنر اهمية بالغة على الطرائق الشعبية والاعراف فالاولى تحكم الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية تخلق الطرائق الشعبية وتطبقها • كما أن القوانين تعكس الاعراف ولابد للقوانـين أن اريدت قوية فعالة ، ان تنسق دائما مع هذه الاعراف • وحينمـا تصبح الطرائق الشعبية والاعراف نظما ، فانها تغير من طابعها (٣) • وكأن الطرائق الشعبية هى طرائق معتادة للسلوك التى ليس لها فى الغالب اهمية اخلاقية خاصة • وكأن الاعراف هى مجموعة العادات التى ينظر اليها بأهمية أكثر وبالزام أكثر • وبهذا تصبح النظـم نماذج منظمة وموحدة للطرائق الشعبية وللاعراف علـى السواء ، سواء بالنسبة للحسن أو السيء (٤) •

وقد اهتم سمنر بالنظم البدائية اهتماما دقيقا وموسعا ومـن خلال تطور نظرياته ، بدأ بحاجات الشعوب البدائية ومحاولاتها فى مقابلة تلك الحاجات • ويؤدى تكرار تلك المسالك الى تكوين طرائـق فى السلوك ، هى ما يسميها سمنر بالطرائـق الشعبية • والطرائـق

(1) Krober, op. cit., p. 266.
(2) Sutherland et al., Op. Cit., p. 32.
(٣) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٨
(4) L. Wilson K W. L Kolb, Sociological Analysis, Harcourt Brace & com., N.Y., 1949, p. 59.

الشعبية — اذن — هى «العملية الاكثر اتساعا وجوهريـة والاكثر أهمية التى من خـلالها تشبـع مصالح أو اهتمامـات النـاسـ فى الجماعات» (١) .

ولم تكن أصول الطرائق الشعبية معروفـة . فالطرائـق التى نشهدها الان قد جاءت من ازمنة ما قبل التاريخ . وأصولها المبكـرة هى كذلك ، بسبب أن وسائلها غير شعورية ، ولم تظهر بعد أية تغيرات هامة فى هذه الاصول على مر القرون . وتشمل الحيـاة الاجتماعية عملية ايجاد الطرائق الشعبية وعملية تطبيقها على السواء . ولذا لزم تعريف علم المجتمع بأنه دراسة للطرائق الشعبية . فالطرائق الشعبية هى نتاج اسلوب المحاولة والخطأ فى مقابلة الحاجات . وهى تتجه الى ان تصبح ثابتة حيث تنقل من جيل الى جيل . وبهذا تصبح تقليدية ، وهى تتطلب كل السلطة التى تصل من ذكرى الاسلاف . وحتى اشباح الاسلاف فهى تقوم بحراسة الطرائق الشعبيـة . وترتبـط الطرائق الشعبية بالاقناع بأنها ضرورية للرفاهية البشرية . وهذا الاقنـاع يعطيها قوة الاعراف وهكذا لم تكن الطرائق الشعبية وسيلـة ذات غاية للتقدم المأمون ولكنها طرائق لاشعوريـة لمقابلـة الضروريات السائدة ، انها محكومة بالاجيال الناجحة ، وهذا التحكم صارم ولايقبل المناقشة (٢) .

ويعتبر الطريق الذى من خلاله تصبح الطرائـق الشعبية ذات تأثير قوى ، ويصبح لها نفوذها فى المجتمع ، يعتبر طريقا تطوريا . والطرائق الشعبية هى ظواهر اجتماعية معزولة بادىء الامر ، الا أنه بدون تخطيط بشرى تصبح ذات قوى أكثر . أما الطرائق الشعبية

---

(1) Emory S. Bogardus, The development of social thought, David Mckay com., N.Y. 1964, pp. 327-328.

(2) Ibid., P. 328.

الحديثة فهى وحدها التى يمكن تغييرها بسهولة (١) •

وبالرغم من امكاننا ملاحظة عمليـــة تكوين الطرائـــق الشعبية واستمرارها خلال الزمن الا أن تحليل هذه العملية من الصعوبة بمكان• اذ تبدو كأنما توجد «عقلية» للحشد من الناس تختلف عـــن عقليات افراده • وقد تبنى البعض وجهة النظر هذه فعلا • ذلك انه عن طريق الايحاء الذاتى تعمل العقول القوية على انتاج افكار تنتقل بالايحـــاء من عقل الى آخر • ثم يتواتر تقليد ما يتفق وتلك الافكار من افعال• فيحدث الاخذ والعطاء من انسان لانسان وتلك هى عملية التطور (٢)، حيث تتوقف عملية الطرائق الشعبية على التكرار المستمر لافعـــال بسيطة تأتيها جماهير تتصرف بنظام واحد ، أو تسلك نفس السبيل على الاقل ، كلما واجهت نفس الحاجة • والدافع المباشر للسلوك هو المصلحة ، وعلى أساسه تنتج العادة Habit عند الفرد ، والعادات Customs لدى الجماعة (٣) •

وهكذا يخضع الناس فى الجماعات لظروف الحياة فلديهم حاجاتهم المتشابهة فى ظروف حياة متشابهة ، وتصبح علاقات هذه الحاجات بتلك الظروف عبارة عن مصالح يندرج تحتها دافع الجوع والحب والزهو والخوف • وجهود الاعداد من الناس التى تبـــذل فى وقت احـــد

---

(1) Ibid, P. 328 also.

(2) William Graham Sumner, Folkways, The New American Library, N.Y., 1960, P. 33.

ظهرت ترجمة عربية للفصول الثلاثة الاولى من كتاب سمنر هـــذا تحت اسم «مسالك الجماعات» ترجمة وصفى آل وصفى ، مراجعة رمزى يس ، دار الادباء • ومع أن هذه هى الترجمة العربية الوحيدة لهذه الفصول — على حد علمنا — فانها تحتاج الى مراجعة دقيقة وخاصة فيما يرتبط بمصطلحات علم الاجتماع والانثربولوجيا • ويبدو هذا واضحا حتى من مسمى الكتاب • ومع هذا فقد اعتمدنا عليها فى بعض الاشارات مع مراجعتها على الاصل الانجليزى ، لذا وجب التنويه •

(3) Ibid, PP. 18-19.

لاشباع تلك الرغبات ، تنجم عنها ظاهر جماهيرية ، بحيث تصبح الطرائق الشعبية بمثابة طرائق متماثلة ومتكررة ومجمع عليها ، وتصحب الطرائق الشعبية اللذة ، أو الالم ، حسبما أتفق مع أهدافها. ويؤدى الالم الى انعكاس وملاحظة نوع من العلاقة بين الافعال والرفاهة • وعند هذه المرحلة ، توحى الفلسفة الدنيوية الغالبة (ابتداء من الاعتقاد فى غيبيات الجن) بتفسيرات واستنتاجات ، ترتبط بأحكام قيمية على ماهو صالح • وأيا كان الامر ، فالطرائق الشعبية نعتنق فلسفة للحياة الحقة وسياسة للحياة السعيده • ومن ثم تصبح اعرافا يمكن أن تتطور عن طريق الاستدلالات المستمده من الفلسفة أو القواعد المستخلصة من محاولة اشباع الحاجات بدون ألم • فانها تخضع للتحسينات وتتجه الى الانساق فيما بينها (١) •

ولم يكن سمنر واضحا تماما فيما يتصل بالقوة التى تخلق الطرائق الشعبية ، ولكنه حاول ان يقدم ثلاثة اشكال مختلفة من التفسيرات • أولها ، التفسير فى ضوء المصلحة ولعله كان متأثرا فى ذلك بالبيون سمول • وثانيها ، التفسير فى ضوء اللذة والالم ومعروف جيدا سيطرة مذهب اللذه الذى بدأه جرمى بنتام G.Bentham فى مجالات الاخلاق والسلوك البشرى • أما الشكل الثالث فهو تفسير فى ضوء دوافع انسانية هى الجوع والجنس والزهو والخوف ، وهنا يسبق توماس فى هذا الصدد (٢) •

ومن ناحية مقابلة ، تؤثر الطرائق الشعبية فى الافراد عن طريق الايحاء كما سبقت الاشارة ، وترقى الى مرتبة المعايير فتكون اشد اثرا ، اذ تتضمن ايحاء بالرفاهية الاجتماعية ، ولربما رفض الفرد سلوكا ما أو افكارا معينة أول الامر نتيجة حكمه الخاص على قيمتها. بيد أن الايحاء المتكرر يحمله على اعتيادها ويؤثر عليه • وتعتبر

(1) Ibid, P. 45.

(٢) تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٧

موديلات الملابس واللهجات العامية أمثلة من الحـالات المألوفـة . فالموضة الحديثة للثياب تبدو أول الامر على أنها مبتذلة ، ثم لايكاد يمضى بعض الوقت حتى توهن هذه الانطباعات وتضعـف ، ويتقبل الجميع تلك الموضة الجديدة . وكذلك تبدو اللهجات العامية فى بادىء الامر سوقية فظة . ثم لاتلبث ان تستخدم وتستقر وتدوم (١) .

وفكرة الصواب كامنة — أيضا — فى الطرائق الشعبية . وليست شيئا خارجا عنها ، أو ذات أصل مستقل ، أو توضع موضع الاختبار . فالطرائق الشعبية صواب على أى وجه من الوجوه . وهى كذلك لانها نابعة من التقاليد ، ومن ثم فهى تتضمن فى ذاتها سلطة شبيهة بسلطة اشباح الاسلاف . وعندما نواجه الطرائق الشعبية فاننا نبلغ نهاية تحليلنا . حيث نجد فكرة الصواب هى نفسها كامنة فى الطرائق الشعبية كلها ، وأن اختلفت درجتها تبعا لاهمية المصلحة المعرضة للخطر (٢) .

ويفرق سمنر بين الطرائق الشعبية والنظـم على اسـاس أن الطرائق الشعبية هى الظواهر الاجتماعية الاولية التى تنتج عن السلوك الجمعى الذى حدث فى الماضى ولكنها تدخل مع تشكيل سلوك النـاس فى الحاضر وفى المستقبل . وان الانسان مضطر الى تقبلها والتمسك بها والتصرف بمقتضاها دون أن يدرك ذلك أو يشعر بتلك الخاصيـة القاهرة أو الملزمة التى تعتبر من أهـم خصائصهـا . أما النظـم الاجتماعية فانها علاوة على استمرارها واطرادهـا ، فان الانسان «يشعر» بفائدتها ، كما أن لها «بناء» معينا يتصرف الناس ويتعاونون داخل نطاقه تبعا لطرق وأحكام معينة مرسومة وفى اوقـات محددة بالذات وهذا معناه ان سمنر يفرق بين الطرائق الشعبية والنظم على

(1) Op. Cit., PP. 35-36.
(2) Ibid., P. 41.

اساس ان الاخيرة تطلب ما يسميه بالتعاون المقصود أو الشعورى (١)

الا أن سمنر يذهب الى ان الطرائق الشعبية هى «موضوع لتوتر الانسجام كل مع الاخر» مع ان التكامل الواقعى لايمكن الوصول اليه لان الوقائع التاريخية تبذل دائما تأثيرا مفعم بالقلـق والتوتر (٢) وهكذا تبدو اجزاء الثقافة (الطرائق الشعبية والاعراف) على أنهـا موضوع قائم للحن متسق كل بالاخر • (٣)

الاعـــــــراف :

عندما تتطور عناصر الحقيقة والصواب خلال مبادىء الرفاهة ترتفع الطرائق الشعبية الى مستوى جديد • وتصبح قـادرة على احداث النتائج ، وعلى التطور الى اشكال جديدة ، وعـلى امتداد تأثيرها ليشمل الانسان والمجتمع • ومن ثم نطلق عليها اسم «الاعراف» فالاعراف هى طرائق شعبية تتضمن تعميمات فلسفية وأخلاقية يراد بها رفاهية المجتمع ، والتى توحى بها هذه الطرائق وترتبط بها خلال نموها (٤) ومن هنا استنتج سمنر اساسا هاما عندما أكـد على أن بامكان الاعراف ايجاد أى شىء صوابا • فالاعراف تمنح الممارسات نظاما معينا وشكلا محددا ، وتحوطها بسياج يحمى آداب المجتمـع ويصونها • ويصبح جزاء الاعراف مفيدا وناجحا عن طريق الطبقـة التى تمتلك القوى فى سبيل الوصول الى نظام متين ، حتى ولو كـان ذلك بطريق غير شرعى أو غير عادل (٥) •

---

(١) د. احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى : مدخل لدراسة المجتمع ، جا مفهومات ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، الطبعة الثالثه ١٩٧٠ ، ص ١٣٢ •

(2) Wilson & Kolb, Op. Cit., P. 70.
(3) Sutherland et al., Op. Cit., P. 55.
(4) Sumner, Op. Cit., PP. 22-43.
(5) Bogardus, Op. Cit., P. 325.

أنها اساليب اداء موضوعات يتضمنها مجتمــع مــا ، لاشباع حاجات ورغبات بشرية • وتجمع بين المعتقدات والافكار والشرائع ومستويات الحياة الحسنة التى تلازم تلك الاساليب وترتبط بها ارتباطا اصيلا • وبفضل هذا العنصر الاخــير تكون الاعراف مجموعــة من السمات التى تطبع المجتمع بطابع خاص أو تميز حقبة زمنيــة معينة من تطوره • وهى تحكم اساليب الفكر فى جميع مطالب الحيــاة اذ تتحول من عالم التجريد الى عالم السلــوك لتهب الرشاد وتبعــث النشاط فى الحياة (١) •

فالاعراف هى طرائق شعبية تتضمن معتقدا ما بحيــث تكون مرغوبة بالنسبة للرفاهية الاجتماعية وبحيث يشعر الناس بأن اقرانهم يمتثلون لها ، رغم أن الاعراف ليست موجهة من قبل سلطة سياسية ، أنها ليست قوانين ، رغم أنها قد تعمل على انتاج القوانين ، طــالما أنها توضح المحرمات (٢) •

لقد عمل سمنر على توضيح الطرائق الشعبيــة والاعــراف باتجاهات متعددة ، حيث قدم وصفا (١) لتغيرهــا البطىء فى ظــل الحياة المتغيرة ، (٢) وتغيرها المفاجىء فى ظل الظروف الثورية (٣) ، وامكانية تغيرها عن طريق السلوك الثقافى (٤) والمشكلات المتضمنــة فى تكييف المرء لنفسه مع اعراف جماعة أخرى (٥) ، والصراعات بين أعراف مختلف الجماعات (٣) • ولذا فان المناقشــة العلمية لممارســة اجتماعية أو تقاليد أو نظام تتضمن تتبع علاقتها بالاعراف ، كما أن مناقشة الازمات والتغيرات المجتمعية تتضمن الكشف عن ارتباطهــا بالتغيرات فى ظروف الحياة ، أو التوفيق بين الاعراف وبين التغيرات التى تطرأ على هذه الظروف (٤) •

---

(1) Op. Cit., P. 66.
(2) Kroeber, Op. Cit., P. 266.
(3) Bogardus, Op. Cit., P. 334.
(4) Sumner, Op. Cit., P. 47.

فنحن نهدف الى دراسة نفسية الجماعات ، لنعرف كيف ظهرت ومدى قوتها وتأثيرها ، وأساليب عملها فى أعضاء الجماعة ، وخصائصها الخلقية . ان علم الاعراف البشرية Ethnology تعبير غير مألوف . وقد استخدم لتوضيح نمط من الاخلاقيات والتقاليد والاعراف السائدة فى الحياة . أما كلمة «أعراف» اللاتينية فيبدو انها بوجه عام أكثر ملاءمة لموضوعنا . بوصفها تعبيرا عن الطرائق الشعبية ، بالاضافة الى ما تتضمنه من مفاهيم الصواب والحق وما تنطوى عليه من معنى الرفاهية . ويكشف لنا التحليل والتعريف الذى حددناه آنفا ضرورة ادراكنا لما للاعراف من قوة دائمة خلال التاريخ ، اذ تعمل هذه القوة على تكوين حالة معينة لما يمكن ان يفعل وتحديد الوسائل التى يمكن استخدامها (١) وتعتمد الاعراف على الشعور باللذة أو الالم ، الذى تنتج عنه الافعال بطريق مباشر أو يستثير من الرغبات ما يدفع اليه (٢) .

واذا اردنا مناقشة الاعراف ، فهى تتضمن المعيار الذى يتحكم فينا ، سواء كان حكمنا لها أو عليها . فنحن نتعلم الاعراف بطريقة لاشعورية ، على غرار تعلمنا المشى والاكل والتنفس . والجماهير لاتعرف ابدا كيف نمشى ونأكل ونتنفس كما لاتعرف اطلاقا سبب وجود الاعراف على حال معين دون غيره (٣) . فالاعراف تنحدر الينا من الماضى . وكل فرد يولد فيها كما يولد فى الغلاف الجوى قبل أن يبدأ فى استنشاقه وكل فرد يخضع لتأثير الاعراف . ويتشكل عن طريقها قبل أن يتمكن من مناقشتها (٤) فالاعراف هى محركات ذات قوة للانتخاب الاجتماعى ، وتكمن الحقيقة الاكثر اهمية حول الاعراف فى القوى التى تمارسها على الفرد . ولم يعرف مصدرها . ويولد فيها

(1) Ibid., PP. 48-49
(2) Ibid., P. 20.
(3) Ibid., P. 81.
(4) Ibid, P. 80.

ويتقبلها فى سنوات حياته المبكرة بدون نقد وتتشكل عاداته وشخصيته بها . واذا ما تحداها عندما ينضج ، فانه ينبذ من جماعته ، ويسمى غير وطنى Unpatriotic وأحيانا يداس بالاقدام ، وتعمل الاعراف على تطوير الشعارات ذات القوة ، والقاب الازدراء والاستنكار تدفع الافراد الاكثر شجاعة واستقلالا نحو سلوك معين (١) .

ولايعى أى مجتمع اعرافه حتى يتصل بمجتمع آخر له أعراف مختلفة ، أو حتى يقرأ شيئا من الاعمال الادبية لحضارة راقية . على ان هذه العملية الاخيرة لاتؤثر الا فى الطبقات المثقفة وليست الجماهير، والمجتمع لايبحث بطريق شعورى فى اتجاه وضع الاعراف . وتكون الاعراف فى المراحل المبكرة مرنة ولينة ، ثم تصبح جامـدة ومحدده فيما بعد . وتبدو كأنها تنمو وتبلغ أقصى قوتها ثم تهـرم وتتداعى وتموت ، كما لو كانت عضوية . وهى تظهر فى مراحل متتابعة كانهـا ضرورة حتمية ، وكما لو كانت مستقلة عن عقل وارادة أولئـك الذين تأثروا بها ، الا أن التغيرات تحدث دائما لكى تحقق تطابقا أفضـل بين الاعراف وبين ظروف ومصالح المجتمع ، أو العنـاصر المسيطرة عليه ، والمجتمع لايسجل الاعراف الخاصة به فى تاريخه أو حولياته لانه لايلحظها ولايعنى بها (٢) ، وعلى هذا ليسـت الاعراف شيئا جامدا لايقبل التغير كما قد تبدو ، لانها تتجه باستمرار نحو التكيف التام مع الظروف والمصالح ، وكذلك أيضا نحو التناسق بينهما . ولم يحدث أبدا أن حافظت جماعة من الناس على تقاليد معينة ضـارة بمصالحها الخاصة . وان كانت كل جماعة قد ارتكبت فى الواقع اخطاء لاتحصى وهى بسبيل تحديد مصالحها وكيفية تحقيقها ، الا أنها كانت تهدف دائما الى خدمة هذه المصالح على خير وجه مستطاع . وهكـذا يتحدد موقف الدارس للاعراف . فجميع الاشياء التى تتضمنها يجب

(1) Bogardus Op. Cit., P. 334.
(2) Op. Cit., P. 82.

أن يستعرضها امامه بنفس الاهتمام • فهى جميعا تسهم فى بنـاء المعلومات وتحفز الى الانتباه كما أن لها جميعا نفس الارتباط بالقوى وبالرفاهية (١) •

وبهذا فثمة سهولة فى اجراء التغييرات التى تجارى الاعراف • اما اذا كانت هذه التغيرات معارضة للاعراف فهى تتطلب جهدا وصبرا طويلين ، ان لم يستحل هذا تماما • وتستطيع الزمرة الحاكمـة أن تستعمل القوى لتحويل الاعراف الى غاية معينة تختارها ، وخاصـة اذا وجهت جهودها الى النواحى الشعائرية فيهـا لا الى المبادىء نفسها وسارت فى ذلك ببطء (٢) وعندما يحدث تغير ما فى الاعراف على مدى الزمن ، فان ابناء الجيل المتأخر يجدون انفسهم على خلاف مع أعراف اسلافهم (٣) • وهنا يتصدى الفرد لمعارضة اعراف المجتمع بمحض ارادته واختياره • الا أن هناك حالات يجد فيها الفرد نفسه مضطرا الى معارضة اعراف المجتمع ، أو اعراف جماعة فرعية ينتمى اليها • فلو أن شخصا انتقل من طبقة الى أخرى • فان افعاله تبرز التناقض بين الاعراف التى نشأ فى ظلها وتلك التى وجد نفسه فيها (٤)

وتستمد اعمال التشريع من الاعراف • ففى الحضارات المتأخرة تكون جميع التنظيمات المجتمعية عادات ومحرمات مجهولة الاصل • وتظل القوانين الايجابية مستحيلة حتى تبلغ تلك المجمعات مستوى التدقيق والمراجعة والنقد • أما فيما يسبق هذه المرحلة ، فلا يوجـد غير القانون الشائع المتداول (٥) كذلك فان النظـم والقوانين هـى نتاج الاعراف • ويتكون النظام من تصور ومن بناء ــ كمـا سيلى تفسير ذلك ــ وليس البناء الا اطارا أو اداة أو ربما كان مجرد عدد

---

(1) Ibid., PP. 65-66.
(2) Ibid., P. 95.
(3) Ibid., P. 106
(4) Ibid., P. 105.
(5) Ibid., P. 63.

من الموظفين اقيموا ليتعاونوا بطرق مقررة على ارتباط معين • والبناء يحتوى على التصور ، ويقدم وسائل تجسيمها فى عـالم الحقـائق والسلوك بشكل يخدم مصالح الناس فى المجتمع • والنظم تكون أمـا قابلة للاضافة أو موضوعة • وهى قابلة للاضافة عندما تأخذ شـكل الأعراف فتنمو نتيجة للجهود الغريزية التى تنتج الاعراف • ومن ثم تتبلور الجهود وتتحدد من خلال الممارسة الطويلة • وتعتبر الملكيـة والزواج والدين ، أول النظم وجودا ، اذ كانت نشأتها كامنـة فى الطرائق الشعبية • ثم أصبحت عادات ومن ثم تطورت ، الى اعراف عن طريق اضافة فلسفة خاصة بالرفاهية ، مهما كانت هذه الفلسفة بسيطة • ثم ازدادت تحـديدا ووضوحا كمـا تبدو فى القواعـد والتصرفات المقررة ، والادوات التى تستعمل ، وقد انتج هذا بنـاء ونظاما مكتملا • أما الدساتير الموضوعية ، فهى نتاج الابداع والهدف العقلى • وهى تنتمى الى مستوى عال من الحضارة • وتعتبر المصارف نظما للائتمان ، تقوم على الممارسات التى يمكن تتبعها حتى عصـور البربرية • فلقد جاء وقت نسق فيه الناس الممارسات ونظموها حتـى أضحت شائعة ، مسترشدين بالتأمل العقلى الذى يقوم على الخبرة ، وهكذا وجدت نظم ائتمان ايجابية يحددها القانون وتحميها قوة الدولة وأنه لمن العسير الاهتداء الى دساتير وضعية خالصة ، قوية وناجحة ومن الصعب أيضا ابتداع أو خلق نظام ما من لاشىء ، تحقيقا لهدف معين • ومثال ذلك «الانتخاب» فى دستور الولايات المتحدة الامريكية• فى هذه الحالة نجد أن الاعراف الديموقراطية للناس تسيطر عـلى الابداع وتجعل منه شيئا آخر يختلف تماما عما خطط اليه مبتدعوه • وجميع النظم قد انبثقت من الاعراف • وان كان يعظم فيها احيـانا العنصر العقلى حتى لايمكن التأكد من أن اصلها قائم فى الاعراف الا عن طريق البحث التاريخى (١) •

---

(1) Ibid., PP. 61-62.

اذن ، يؤكد سمنر على ارتباط القوانين ارتباطا وثيقا بالاعراف ولكن ما هو وجه التمييز بينهما ؟ وكيف ترتبطان ؟ تختلف القوانين عن الاعراف — وفقا لما يذهب اليه سمنر — من حيث «العنصر العقلى والوعى بها» ففى حالة الاعراف يكون عنصر الاحساس والايمان لازما وضروريا : «أما القوانين فتعمل على تشكيل انماط السلوك بوعى وبطريقة عمدية . الا أن الناس على وعى بالعمليات التى تدخل فى الوجود . وفى حالة الأعراف لاتبدو انماط السلوك على أنها من وضع الانسان ، ولكنها ببساطة تدخل بالضرورة فى «طبيعية الاشياء» (١) بيد أن التشريع يكون محددا وتسنده الجزاءات . ويبدأ سن التشريعات عندما تتكون أهداف واعية ، ومن المعتقد امكانية صياغة تدبيرات معينة تحقق مثل هذه الاهداف فى المجتمع . ومن ثم تحل قوانين الحظر ايضا محل المحرمات ، وتسن العقوبات لتكون رادعة أكثر من كونها انتقامية (٢) واذا كانت القوانين فروض ايجابية ، فهى تلغى الاعراف طالما كانت مقبولة ويترتب على هذا ان الاعراف تقوم بعملها حيث تفشل القوانين والمحاكم (٣) .

دوافع السلوك البشرى :

من شأن العادات والتقاليد — كما يرى سمنر — توجيه المجتمع فى خطوط مرسومة ، كما انها تحد من الحرية . فالاطفال يشابهون آبائهم من حيث تقبل نفس العادات واطاعة نفس الاشخاص ويرون ان المسنين لهم حق التحدث بلسانهم ، كما أن لهم المرتبة الواضحة فى النظام السائد .ويضحى هذا قاعدة فى المجتمع .وعليه ينظر سكان مجتمع معين الى مجتمعهم على أنه جماعة داخله ينتمون اليها ، وغيره من

---

(1) Sutherland et al., op. cit., p. 34.
(2) Sumner, Op. Cit., P. 63.
(3) Ibid, P. 64.

المجتمعات يمثل جماعة خارجه بالنسبة اليهم (١) •

ويعتمد الاباء والمدرسون على الايحاء Suggestion فى تربية الاطفال ، كما يؤثر الاشخاص الذين يتمتعون ببروز ، اجتماعى تأثيرا ايحائيا سواء عن عمد أو بغير قصد فاعمالهم كلها موضع محاكاة (٢) ويكون الايحاء حيلة مشروعة اذا استعمل بامانة لاقرار المعرفة أو مبادىء السلوك • اى اذا استعمل للتعليم أو التربية بمعناها العام • والنقد هو العملية التى عن طريقها يتحدد الايحاء ويكون صوابا • وعن طريقه ايضا تكون ثمة حماية للفرد من السذاجة والانفعال والتضليل • وملكة النقد هى الملكة التى يجب أن تهتم بتنمية التعليم أو التربية • ومن الصعوبة مقاومة الايحاء بأن متهما بجريمة ما مذنبا حقيقة • وقد ينساق القضاة العرفيين لهذا الايحاء ، وخاصة اذا كانت الجريمة شنعاء مما تلهب العواطف ضد مرتكبها المجهول • وهنا يجب أن يتطلب الامر نوعا من النقد لمقاومة الايحاء (٣)ومنذ الافعال الاولى التى حاول بها الانسان اشباع حاجاته ، وكل فعل يقوم بذاته ، لايستهدف سوى الاشباع المباشر لتلك الحاجات ومن تواتر الحاجات تنشأ العادات الفردية عند الفرد والعادات الجماعية عند الجماعة ، الا أن هاتين النتيجتين لم تكونا ابدا شعوريتين أو تدركا أو ينظر اليهما مقدما • بل انهما لتخفيان على الملاحظة حتى تستقرا زمنا طويلا ، وتحتاجان الى وقت اطول قبل ان تصبحا موضع تقدير واعتبار (٤) •

---

(1) Lewis A Soser & Rosenberge, Sociological Theory, N.Y., 1965. PP. 269-270.

وسوف نوضح فيما بعد المقصود بالجماعة الداخلة والجماعة الخارجة ، حيث أن سمنر هو الذى وضع هذين المفهومين فى التراث السوسيولوجى •

(2) Sumner, Op. Cit., P. 35.

(3) Ibid, P. 37.

(4) Ibid, P. 19.

وهناك اربعة بواعث عظيمة لسلوك الانسان ، تعمل عملها عندما يدخل عدد من الكائنات البشرية فى ظروف حياة واحدة • وهى الجوع والانفعال الجنسى والزهو والخوف • وتكمن المصالح وراء هذه الدوافع• ذلك ان الحياة تقوم على اشباع تلك المصالح وما الحياة فى مجتمع الا عمل وجهد تتطلبهما البيئة المادية والاجتماعية (١) • وتعتبر هـــذه الدوافع فى نظر سمنر بمثابه القوى الاجتماعية الاساسية • وتمتد أصولها الى التاريخ العضوى • ومن خارج هذه الدوافع تظهر الطرائق الشعبية من خلال عملية تسير على النحو التالى : يوجد الان رأى مقبول وقد يكون صوابا بأن الناس قد توارثوا عن اسلافهم الحيوانات سمات نفسية فيزيقية ، وغرائز ، ومهارات وعلى الاقل توارثوا تنظيما مسبقا بحيث يهبهم العون فى حل مشكلات امداد الطعام ، واشباع الجنس والزهو • وتصبح النتيجة ظواهر جمعية ، واتجاهات متشابهة واتفاق فى الرأى ، واسهام متبادل ، وهذا بالتالى يعمل على انتاج الطرائق الشعبية (٢) •

١ — فالجوع يقود الانسان البدائى الى اختراع اسلحة وأدوات بسيطة مثل السهام ، والرماح ، ومن ثم ينتج ويدخر اشكالا معقدة من الثروة • والميزه القوية للثروه تتمثل فى تأثيرها على ما لديها من قوى خلق ، وتبدو على أنها أقوى من موجدها • وغالبا ما تدفعـــه الى الرق ، والى الاتجاه المادى وحتى الى الوجود المتركز حول الذات أو الاعتداد بذاته • ويصبح الصراع من أجل الوجود عملا مضايقا ومؤلما • بالاضافة الى أن العمل والثروة ، موضع مدح وثناء عندمـــا يستخدمان لارتقاء الرفاهية البشرية • وفى هذا أكد سمنر على حقيقة أن الثروة فى سبيل اتاحتها ، يجب أن يكون انتاجها فى ظـــل ظروف

---

(1) Ibid, PP. 32-33.

(٢) وسوف نعتمد فى عرض هذه الدوافع الاربعة على المرجع التالى :

— Boggardus, Op. Cit., PP. 330-335.

بنائية • ولكى يكون العمل موضع ثناء واطراء يجب أن تكون ممارسته بمثابة عون للافراد • وبمعنى آخر • اختبر سمنر استخدام الثروة والعمل بطريقة تامة •

١ — ويؤدى الاندفاع الجنسى Sex Passion الى اعراف جنسية تغطى العلاقات بين الرجال والنساء كل بالآخر ، قبل الزواج واثنائه ، وتتعهد الاشخاص المتزوجين ، وتلزمهم بالمجتمع الذى يعيشونه • وتعمل الاعراف الجنسية على تحديد طبيعة الزواج والطلاق • ويسخر سمنر من المساواة الجنسية • فللرجل جهاز عصبى متسق متزن أكثر من المرأة • فهو أكثر اعتدادا بنفسه ، وأكثر انانية وأقل لباقة • وطالما كانت للرجل قوة بدنية أعظم من المرأة ، فان المرأه قد تعلمت ، حتى فى الازمنة البدائية كيف تكيف نفسها مع القوة الجنسية ، وأن تكتسب جاذبية متطورة كلما كانت غير قوية ، وان عدم قوتها لايفقدها الامل • وهكذا يصبح الابتعاد والاستمرار عبارة عن سمتين مكتسبتين للمرأة • ولا يعتبر نكران الذات أو الفجور على السواء بطريق عادى للتحكم فى الاندفاعات الجنسية • فكلاهما يؤدى الى عواقب غير ضرورية فالفجور مثلا ، هو رغبة مدفوعة بلا حدود، ولاغايات ، ولقد تبنى سمنر موقفا معتدلا ومنتظما يقوم على أساس المعرفة والحكم •

٣ — ويتمتع دافع الزهو Vanity بقوة عالية • فالانسان يرغب فى ان ينفصل عن الحشد بما يعجب به ، ولا يرغب فى أن يتميز عنه من حيث مالايعجبه • ولاشباع دافع الزهو ، فالامهات البربر يشوهن اطفالهن بنموذج مرغوب فيه اعتقادا منهن بان ذلك يحمى جسمهم ، اما الاريستوقراطيون فيعظمون ملكية الاشياء التى يعجبون بها والتى لاتمتلكها الجماهير ويؤدى الزهو الى جميع نماذج السخافات وعدم الاحتشام فى الملبس فالمرأة الهندية — مثلا — تضع رباطا على جبهة طفلها لكى تجعل الجبهة عريضة •

٤ — والخوف دافع يحكم حياة البدائيين ، حيث يسود الخوف من الاشباح والارواح ويعتبر الوبــاء ، والهزيمة فى الحرب ، وألــم الجسم ، نتيجة لغضب الالهة • وتعتبر الظواهــر الجمعية للخوف هزيلة بصفة خاصة • فالمخاوف على جميع انماطها تحكم كل الجماهير، وينمو السحر ويسيطر لعدة قرون من حيث كونه قوة للخوف • وتعود الرحلات والحملات ايضا الى الخوف ، كما أن تخيل العفاريت والجن يرجع الى دافع الخوف • وعندما يصبح الخوف ثابتا فى الطرائــق الشعبية ، فانما يأخذ مكانة كقوة متحكمة فى كل شىء • ويرسخ فى مجال الاعراف ويصبح عاملا اساسيا فى طابع المزاج • وخلال الممارسات الدينية والعقائد الدينية فهناك اشارة الى «الجحيم» وان ثمة يد مخيفة تحكم الناس •

ويرى سمنر ان الدوافع الطبيعية الاولى قد ادت الى الانتاج والعمل وجمع الثروات • اذ ادت الدوافع الجنسية الى التنظيــم الاسرى الذى يعتبر أول دعامة من دعائم التنظيم الاجتماعى ، وأول النظم التى ارست المصطلحات والقوالب الاجتماعيــة وذلك مثــل العادات والعرف والتقاليد وآداب السلــوك والممارسات المتعلقــة بالزواج ، والطلاق والحقوق والواجبات الاسرية ، وعدم المساواة بين الزوجين وسيادة الرجل ومركبات النقص عند المرأة • أدت دوافــع الزهو الى حب الظهور والتعالى والغطرسة والتمايز الطبقى وسيادة الاتجاهات الانفرادية • ويرجع الى هذه الامور وما اليها أبعد الاثر فى نمو الارستوقراطية القديمة ونظم الاقطاع والانعزال المحلــى لبعض الطبقات والامتيازات الطائفية والمذهبية والعنصرية والاجتماعية وأدت ظاهرة الخــوف الى عبادة الارواح والشياطــين والاجــداد والاسلاف وارواح الموتى • ومن ثم نشــأت العبادات والطقــوس والاتجاه الى فكرة تأليه بعض الكائنات وتقديسها ثم تأليه الرمــوز

والافكار وأخيرا قيام فكرة الدين المجرد (١) •

وتعتبر المثل Ideals غير علمية تماما ، كما وضح سمنر أنها خيالات ترتبط بالحقيقة الى حد ما • وتشكل غالبا لتهدئة القلق ، أو للهروب من تساؤل يلوح فى الحاضر • فالفقير يتحدث عما يناله من ثواب منتظر فى الحياة الاخرى • والمتطرفون يحاولون تقبل الفضائل الدينية المرتبطة بالخشوع والتواضع • وتتمثل المثل — اساسا — فى العظات الدينية أو فى التعليم الذاتى عن طريق الايحاء الذاتى ، من أجل اشباع دافع الزهو ، والزواج • يؤكد سمنر على اليقظة الحقيقية للمثل دون أن يشك فى ذلك • ويستخف بالحقيقة السيكولوجية التى مؤداها ان المثل تتحول من مظاهر الشعور المؤثرة واقعيا والتى يمكن نبذها عقليا • الا أنه كان على صواب فى رثائه على الهوة التى وجدت بين المثل وبين الممارسات وفى توضيحه كيفية تحول المثل وتكييسها فى التراث وليس فى الاعراف • ولقد أكد اليونانيون ان الناس سوف يغرقون فى القاع عندما يتحدثون بفخر وزهو •

ويستنتج سمنر من هذا أربع قيم يهدف اليها النشاط الاجتماعى وهى : القيم الثقافية ، والخلقية ، والاقتصادية والطبيعية • وكل قيمة من هذه القيم مركبة ومعقدة • وتبدو القيم المجتمعية العليا على أنها نتيجة لامتزاج متجانس لهذه القيم الاربع والعضو الفاضل فى المجتمع وهو الذى تتمثل فيه القيم الثقافية والخلقية والاقتصادية والطبيعية تمثلا متجانسا الى حد ما • أما اللاأخلاقية فهى سلوك مضاد للاعراف السائدة خلال الزمن والمكان • فالعفة هى الامتثال للمحرمات السائدة فى العلاقات الجنسية والاحتشام هو التحفظ فى السلوك والاحساس • وحتى العراء ليس مخجلا عندما يكون لاشعوريا وعفويا • بمعنى عندما لايكون ثمة شعور أو وعى بالاختلاف بين الحقيقة الواقعة وبين القاعدة التى تحددها الاعراف •

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، مرجع مذكور ، ص ١٨٨ .

النظـــم الاجتماعيـــــة :

سبق سمنر بمناقشته للنظم المدرسية النظامية أو مدرسة النظم Institutional School • وهى اتجاه ينهض على فلسفــة تختلف تماما عن ميوله الدارونية الاجتماعية ، ويتكون النظام من فكرة Concept وبناء Structure ، والبناء هو اطار أو جهاز أو آلة ، أو عدد من الاوضاع الوظيفية التى تتعاون بطرائق معينة • ويتميز البناء بفكرة وبعدد من الوسائل الالية التى تظهره فى عــالم الحقائق ، ويعمــل بطريقة تخدم مصالح الناس فى المجتمع (١) • ولهذا تظهــر النظم والقوانين فى مرحلة متقدمة ، بعد أن تنبعث السنن والاعراف مــن الطرائق الشعبية • ويبدو أن سمنر قد اعتقد بأن الاسلوب غير العقلى لتطور الطرائق الشعبية يستبدل بالتدريج بميكانزم على درجة عالية من العقلية • يخلق نوعا من البناءات أو التنظيمــات ذات الاهداف المحددة التى تنطوى على أفكار معينة • ومع ذلك لم يفسر لنا سمنر هذا الخط من البحث (٢) •

وعلى عكس التنظيم الاجتماعى الذى يظهر عندما يعيش الناس معا فهناك تنظيمات تنشأ بطريق عمدى لهدف محدد • وقد وضــع سمنر تمييزا بين ما وسمه بالنظم الاجتماعية الرشيدة Cresive والنظم الاجتماعية المشرعة قانونا enacted (٣) اذ يميز بين نوعين من النظم الاجتماعية ، وهى النظم التى تنمو تدريجيا وببطء خلال مراحل التاريخ ، والنظم التى يسنها المجتمع عمدا وعن قصد • ويذكر لنا «الدولة» كمثال للنوع الاول من النظم ، والجماعات والمصارف

---

(١) تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٨
and also : Sumner, Op. Cit., PP. 61-62.

(٢) تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٩

(3) Peter M. Blua & W. Richard Scott, Formal Organization; A Comarative approach, Routledg & Kegan paul, London, 1969, P. 5.

كمثال للنوع الثانى • وان كان بعض الكتاب يرفضون هذه التفرقة ويرون أن النوع الثانى من النظم التى يعتقد سمنر أنها ظهرت فجأة نتيجة للتشريع ، سبقها بدون شك شعور بالحاجة اليها ظل فترات طويلة ، كما أنه كان يوجد قبلها نظم أخرى تقوم بنفس الوظيفة • والجديد فيها هو الشكل الذى تتخذه هذه النظم ، أى أنه ليس هناك «نظام» يظهر فجأة وبدون سابق تدبر أو شعور بالحاجة اليه (١) •

ويتضمن أى نظام اجتماعى ـ كما سبقت الاشارة ـ فكرة معينة أو مصلحة كما يتضمن بناء ناتجا عنه • وتعتبر الملكية والزواج والدين نظم أولية • وقد بدأت هذه النظم على أنها طرائق شعبية ، ثم اصبحت تقاليدا Costoms • وبامكان النظم الاجتماعية ان تتعدل فقط عندما تتغير الاعراف ، اذ تتطور الشعائر موضع الاحتفالات ، والتبجيل والقوة عندما لايبالى بها وعندما لاتجد نوعا من التفكير فيها (٢) •

ويؤكد سمنر على أنه بدون سبب محدد يوجد «الحق» ويستمر حتى الان • والحقيقة ان الملكية بدأت تمارس قوتها لا لمجرد كونها نظاما معينا وحسب • كذلك بدأ نظام الزواج والدين يأخذان قوتهما، الا أن عنصر العدالة فى وجود هذين النظامين لم يكن موضع سؤال حتى الان • وبالاضافة الى ذلك فلم يميز سمنر بين القوة باعتبارها وسيطا أو اداة ، وبين القوة كسبب أولى • ولم يميز بوضوح بين الكراهية والحب باعتبارهما عاملين ديناميين الى جانب السلوك الحاسم • ولم يضع بعد تمييزا بين القوى الجامدة والمادية والقوى القاسية ، وبين الشفقة والحب الروحى والعقلى (٣) •

(١) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الاول : مفهومات مرجع سابق ، ص ١٥٩

(2) E. Bogardus, Op. Cit., P. 333.

(3) Ibid, PP. 333-334

جماعتنا نحن وجماعة الآخرين :

يرجع وضع مفهومى «الجماعة الداخلة In - group » «الجماعة الخارجة Out-group » الى سمنر فى كتابه : الطرائق الشعبية ويرى أن الفرد ينتمى الى عدد من الجماعات تعتبر بالنسبة اليه جماعات داخلة ، حيثما تضحى ما عداها من جماعات خارجه بالنسبة اليه (١) .

وتتميز العلاقات فى الجماعة الداخلة بالامن والنظام والاستقرار ويبدو التعاون بين اعضائها والمساعدات المتبادلة واحترام الفرد لحقوق الاخرين . انهم يشعرون بالتضامن كما يشعرون بالاخوة والولاء الى الجماعة ، وهم مستعدون للدفاع عنها والتضحية من أجلها . الا أن اتجاهاتهم بالنسبة لغيرهم — أعضاء الجماعات الخارجة — تعبر عن شعور عدائى وعن كراهية . ويضعون فى اعتبارهم الخروج عن قيم الجماعة الداخلين فيها (٢) .

ويجب أن ندرك تصور «المجتمع البدائى» فى جماعات صغيرة متناثرة فى اقليم معين . تلك الجماعات يتحدد حجمها عن طريق ظروف النضال من أجل البقاء . ويتناسب التنظيم الداخلى لكل منها مع حجمها . ولربما قام بين هذه الجماعات من العلاقات (كالقرابة والجوار والتحالف والتزاوج والتبادل التجارى) وما يقارب بينها ويميز بعضها عن البعض . وهكذا ينشأ التمايز بين ذواتنا . أى «جماعتنا نحن We group » . أى الجماعة الداخلة ، وبين كل من عدانا من الجماعات الاخرى ، أو الجماعات الخارجة ، ويرتبط أفراد «جماعتنا نحن» كل بالاخر بعلاقة سلام ونظام وقانون وحكومة وصناعة . أما علاقتهم بسائر الغرباء أو الجماعات الاخرى فهى علاقة

---

(1) S. Koening, Sociology, Barnes & Noble, Inc., N.Y. 1964,. p. 207.

(٢) د. غريب محمد سيد أحمد ، المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦ — ٣٩

حرب وغزو لاتختلف طبيعتها هذه الا باتفاقات تعمل على تعديلها (١).

كما شرح سمنر احتياج الجماعة الداخلة الى الامن الداخلى وحسن التفاهم والاختيار . مقابلة غيرها من جماعات خارجه بكل قوة وقسوة وهجوم ، ولذلك فبين كل من الجماعتين كراهية وعداء (٢).

وليست الجماعات الداخلة والخارجة بذات حجم محدد ، وربما تكون فى الواقع ذات خصائص متعددة . اذ قد تكون الجماعة الداخلة صغيرة الحجم مثل الاسره أو كبيرة مثل جماعة العالم . والجماعة الخارجة — ببساطة — هى كل كائن فى الاسرة أو فى العالم والجماعة الداخلة — ببساطة أيضا — هى «جماعتنا نحن» والجماعة الخارجة هى «جماعتهم هم They-group » وحينما نقول «نحن» فانما نعنى أعضاء اسرتنا فقط ، اما غيرهم فيصبحوا فى جماعة خارجه عنا . وربما يكون عضو الجماعة الداخلة هو أى فرد يعيش فى المدينة التى نعيش فيها ، أو أى انسان ينتمى الى الجامعة التى نحن فيها ، أو أى كائن يحيا فى الدولة التى نحيا بها ، وهلم جرا .

وعليه فالجماعات الداخلة ، والجماعات الخارجة ليست جماعات فعلية ، حيث ان الشخص هو الذى يخلقها حينما يستخدم اللفظ «نحن» واللفظ «هم» والتمييز بينهما هام من الناحية الشكلية ، لانه يمكننا من وضع أساسين سوسيولوجين حين نحاول سبر أغوار الجماعة الداخلة والجماعة الخارجة (٣) .

وأول هذين الاساسين هو ان اعضاء الجماعة الداخلة يتجهون الى تنميط ذلك الذى يبدو فى جماعة خارجة . وهذه القضية تعنى

---

(1) Sumner, Op. Cit., P. 27.
(2) S. Koening Op. Cit., P. 207.
(3) R. Bierstedt, The Social order, Mac Graw-Hill Book com., N.Y., 1957, PP. 263-264.

اتجاه تقييم الشخصية ، وبيان من ذا الذى يكون فى جماعتنا الداخلة ومن يكون فى جماعة خارجة عنا • وباختصار فلكل جماعة داخله جماعات خارجة ، ويعد البعد الاجتماعى Social distance عاملا مشجعا أو معجلا لاظهار الاختلافات بين الافراد •

أما اساس التمييز الثانى بين الجماعة الداخلة والجماعة الخارجة فمؤداه ان أى تهديد — فعلى أو متخيل — من الجماعة الخارجة يتجه الى تهديد تجانس وتضامن الجماعة الداخلة • ويمكن تطبيق هذا الاساس على كل مستويات الجماعات واحجامها • فاذا ما أخذنا الاسرة كمثال ففيها يتشاجر الاخوة مع أخواتهم والاخوات مع بعضهن • واذا تشاجر احد خارجا عن حدود الاسره مع أحد أعضائها، سواء كان أخ أو أخت فسرعان ما يقف أعضاء الاسرة جميعا تجاه هذا الغريب •

وعلى هذا ، تنجم الجماعات الداخلة عن طريق أية علاقة — أولية أو ثانوية — تشعر بالتضامن والتوحد والصداقة والتعاون • وتتميز عن طريق تعبيرات مثل «نحن ننتمى» و «نحن نعتقد» و «نحن نشعر» و «نحن نفعل» تجاه الجماعات الخارجية ، حيث يكون لدينا احساس عميق بالارتباط Obligation أو الالتزام وخاصة فى المواقف المحرجة • وفى الجماعة الداخلة نعبر عن احساساتنا العميقة بالحب والتعاطف فنحن نشعر فى منزلنا بمن يحيطون بنا • ونحن على ألفة بطريقة عملهم وتفكيرهم بالنسبة الينا ، ونحن نتفهمهم حيث لغتنا هى لغتهم وكلماتنا هى كلماتهم (١) • أما الجماعة الخارجة ، فالعلاقات الشخصية التى نتلمسها قد نتجنبها أو لانميل اليها أو نتصارع معها • أنها الجماعة التى لايشعر الفرد تجاهها بالانتماء

---

1) Kimball Young & Raymond W, Mack, Sociology and Social life, American Book com., N.Y., 1959, P. 31.

والمعونة المتبادلة والتعاون أو التعاطف وأبعد منذلك يقف المرء منها موقفا معاديا .

الاســـــــرة :

يرى سمنر ان الطبيعة زودت الرجال والنساء بجاذبيـــة كانت سببا فى بقاء ودوام الجنس البشرى . وقـــد أدت هـــذه الجاذبية التلقائية الى قيام النظم الزواجية ، غير أن هناك عـــوامل أخـــرى تضافرت مع الجاذبية الطبيعية لخلق ظاهرة الزواج ، وأهمها غريزة حب البقاء ودوام الوجود الاجتماعى وحفظ النوع والتعاون عـــلى تحقيق مطالب واحتياجات الحياة . وفرق سمنر بين العائلة وبين الاسرة الزواجية . فالاسرة بمعناها العام صوره مصغرة لحيـــاه المجتمع ، انها هيئة يرتبط اعضاؤها معا فى المأكل والمسكن والعمل والخضوع لنظم كثيرة . أما الاسرة الزواجية فهى الوحده الاجتماعية التـــى تقوم على اساس الرضا والقبول المتبادل بين رجل وأمرأه ، وذلك من أجل التعاون على تحقيق ضرورات الحياة ولغرض انجاب الاطفال والمعاشرة الصحيحة فى نطاق الاطار الاجتماعى ، طالما كان ارتباطهما قائما ومستمرا (١) .

وتكلم سمنر فى مقومات الاسرة الحديثة من حيث الحرص على قوالب العرف والمعايير الاخلاقية والتربوية . وعرض لمظاهر انحلالها، وناقش فكرة الطلاق واسباب التوتر فى محيط الاسرة . ونص عـــلى التربية الاجتماعية التى يتلقنها مواطنوه فى زمانه لانها لاتعدهـــم للزواج ولاترغبهم فى الحياة الزوجية السعيدة ونادى بأن سياســـة الباب المفتوح فى الطلاق ستؤدى الى انحلال الروابط الاجتماعيـــة وفساد الحياة الاجتماعية كلها . وهذه السياسة اسوأ حالا من سياسة الاباحية فى العلاقات الزوجية ، ولذلك نراه يشدد على دعاة التحرر

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ .

فى شئون الاسرة ، وينادى بتدعيم الزواج الثنائى • أى نظام وحدانية الزواج • ويراه اشرف تجربة لانكار الذات (١) •

الا أنه يرى أن الحضارة اكتسبت من ثقافة الرجل • واذا ما تطور تطور هذا الموقف وساعد ثقافة المرأة ، فان هذا سيعطى نموذجا أرقى للحضارة • وفى ظل هذه الظروف نجد نسبة عالية من الزيجات تمثل «رفقة حقيقية للعقول المتشابهة» من أجل ايجاد تسلسلا وتتابعا فى النظر الى المرأة على أنها مخلوق مدلل (٢) • ومن الناحية الشكلية، فان النساء تحت ارادة الرجال • وعلى ما يذهب سمنر ، فقد أصبحت الحالة الزواجية — الآن — أحد الموضوعات التى لاتنتهى مناقشتها ، وأحيانا يستعصى على المرء الغاء جزء أو آخر للمؤثرات الغير مرضية عن الحياة وعن الشخصية ، ففى العصور القديمة تأخذ المرأة المهر لكى يعبر ازواجهن عن قيمتهن كثروة مستترة • وفى ظل نظام تعدد الزوجات Polygamy كان ينظر الى النساء نظرة شفقة واشمئزاز فى نفس الوقت ، من ناحية الرجال الذين لم تكن فى استطاعتهم — أو لم يرغبوا — فى أكثر من زوجة واحدة (٣) •

ويجب أن تظهر المرأة — بالضرورة — مشاركة غير متكافئة فى تحمل مسئولية الجنس والانجاب • وبالمثل يجب أن يظهر الرجال مشاركة غير متكافئة فى تحمل مسئولية الملكية ، والحرب والسياسات• والنماذج الاخيرة من الواجبات تعتبر معوقة بالنسبة للمرأة حيث أن عملها فى البيت وفى عمليات الولادة المرهقة التى لايتسم بها الرجال (٤) وعند هذه النقطة نتذكر توماس W.I. Thomas الذى ميز بين الجنسين على اساس الاختلاف الفيزيقى • فالرجل يتحمل كثيرا من

(١) المرجع السابق ، ص ١٩١ •

(2) E. Bogardus, Op. Cit., P. 332.

(3) Ibid, P. 331

(4) Ibid, P 331 - also.

الطاقة عن المرأة • وهو أفضل فى استخدام الطاقة • بينمـــا تمتلك المرأة قوة احتمال اكبر • والرجل من حيث بنائه يتجه نحو الحركة • بينما تتجه المرأة نحو التناسل ومن تم يبدو الرجل على أنه يحدد اتجاه المجتمع البدائى نحو العنف أو الاجهاد • وتقوم المرأة بالعمل الذى يتطلب انتباها دائما (١) •

الطبقـــــات الاجتماعيـــة :

لكل طبقة أو جماعة تعيش فى مجتمع اعرافها الخاصة • ويصدق هذا بالنسبة للمراتب الاجتماعية ، والمهـــن ، والطبقات الصناعيـــة والطوائف الدينية والمذهبية وسائر التقسيمات الفرعيـــة للمجتمع • وينتمى الافراد الى جماعتين أو أكثر من تلك الجماعات فى وقت واحد• فينشأ نتيجة لذلك نوع من التوافق والتوازن • وثمة أعراف أخرى شائعة فى المجتمع ككل • الا أن الاعراف تنتقل من طبقة الى أخرى • ولذا فانه من الضرورى ان نحدد فكرة الطبقـــات (٢) • هكـــذا يبدأ سمنر حديثه عن الطبقات الاجتماعية محاولا منـــذ البداية ربطهـــا بالاعراف السائدة فى المجتمع •

ويرى سمنر اننا لو اتخذنا القيمة المجتمعية Societal Value كمعيار لتصنيف المجتمع لامتاز هذا التصنيف بمسايرة مصالح ذات أهمية قصوى بالنسبة للتصنيف ، الا أن هذا المقياس فيه تعقيد • لانه ليس ثمة وحدة له • وبالتالى لانستطيع بحال من الاحوال ان نثبت صحته على اساس احصائى • وهو يعتمد بصفة عامـــة على القوى العقلية ، ولكنه يشتمل بالضرورة أيضا علـــى عنصر كبير من الاتجاه العملى والصحة والصداقة • وبالتحليل البسيط لهذا المقياس نجـــده يقوم على أربعة عوامل : العامل العقلى ، والخلقى ، والاقتصادى ،

(1) Ibid, PP. 331?332.

(2) W.G. Sumner, Op. Cit., P. 50.

والجسدى ، الا أن كل منها يعتبر عاملا مركبا • واذا توافر احدهـا بدرجة عالية ، ووجدت الثلاثة الاخرى بدرجة ضعيفة • فان المجموع يفقد انسجامه ولايعود ذا قيمة ونفع كبير (١) •

وهنا يعرض سمنر لتصنيف جالتون Galton للمجتمع • ويرى أن معيار هذا التصنيف لم يحدد بدقة • وقد اطلق عليـه جالتون «مستوى المواهب الطبيعية» ويمكن أن يفهم ذلك على أنـه القوى العقلية ، أو الشهرة ، أو النجاح الاجتماعى ، أو الدخل الناتج عن العمل فى المجتمع أو القيمة المجتمعية • وقد تناول آمون Ammon هذه الفكرة وعمل على تطويرها (٢) •

ويقسم سمنر المجتمع الى خمس طبقات رئيسية هى (٣) :

١ — فى القمة لدينا عدد قليل مـن العباقرة Genius وهـم أصحاب الاستعدادات والقدرات العقلية والفنية الراقيـة • لكنهم لايتحملون أية مسئولية اخلاقية أو صناعية •

٢ — يلى العباقرة الى أسفل السلم الطبقى قسم آخر يمثل ذوى المواهب Talent والانسان الموهوب له اتجاه عملى ، وصناعى • وهو انسان دؤوب ، ولديه اساس اخلاقى ، ويفيد المجتمع • ولذلك تقوم هذه الطبقة بأم الاعمال • وتشغل معظم الوظائـف فى المجتمـع • ويتوقف عليها نشاط المجتمع وتطوره ومبلغ تقدمه •

٣ — الطبقة الوسطى اجتماعيا ، واعضاؤها على معدل من المنفعة

---

(1) Ibid, PP. 50-51.
(2) Ibid, P. 50.

(٣) انظر فى ذلك :
أ — د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ .
ب — سمنر «مسالك الجماعات» مرجع سابق ص ٦٩ — ٧١ .
C Sumner, Op. Cit. PP. 51-52.
D. Bogardus. Op. Cit. P. 333.

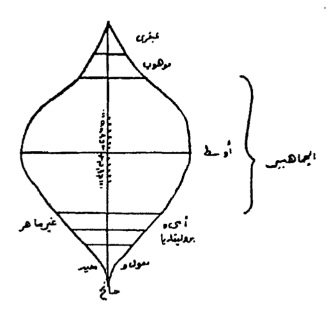
الاجتماعية ، وهى من أهم طبقات المجتمع وعماده • وتشمل هــذه الطبقة «الجماهير» التى تخدم المجتمع بأبنائها فقط • وليس لافراد هذه الطبقة أسلوب منتظم فى الحياة • ولكنهم لم يكونوا معولين فى الوقت الذى طبق فيه هذا التصنيف •

٤ ــ طبقة المعولين Defective والمعيبـــين Dependent وهـى طبقة غير منتجة وناقصة ، تعتمد على المجتمع ولكنها غير ضارة وغير شريرة • وتعلو هذه الطبقة مجموعة من البروليتاريا •

٥ ــ طبقة الجانحين Delinauent أو الطبقة المنحرفة وهى ضارة بالمجتمع بصفة عامة • وهى بمثابة عبء خطير على المجتمع ، لانهـا غير اجتماعية ، وتؤدى الى انحلال الروابط والعلاقات الاجتماعيـة ولذلك فهى تشغل قاع المجتمع •

ومن الخطأ التفكير فى طبقة الجماهير (الوسطى) على أنها تمثل كائنات فى قاع المجتمع • ولكنهم ينتمون الى جوهرة • أنها طبقة تحمل المحافظة والتقاليد وحدود الاعراف • أما الاقسام الدنيا من الجماهير فهى لاوزن لها لما تتميز به من جهل ومرض وجريمة • ولقد وضـع سمنر تخطيطا لهذه الطبقات على النحو التالى بحيث يضخم من قدر هذه الطبقة الوسطى •

واذا كانت الجماعة موضع التصنيف جماعة كبيرة ، وخاصة اذا كانت وحدة سلالية (جنس أو قبيلة ، أو شعب) فلن تصادفنا ثغرات فى التسلسل • فكل فرد يأخذ مكانة بفضل ما يمتاز به من خصائص مختلفة تميزه عن غيره • وكما أنه لاوجود للتشابه بـين اثنين من الناحية الانثربولوجية ، فاننا نستطيع ان نسلم بعدم وجود اثنـين متشابهين أو متساويين فى قيمتهما المجتمعية ،والواقع ان تشابه جميع الناس أو تساويهم على أى مستوى ، أمر مخالف لجميـع الحقائق



الطبيعية وظروف الحياة الانسانية (١) •

كما يعطى التصنيف فكرة الوضع النسبى لقسم أو لقسم فرعى ، فى الجماعة الكلية • وهذا ما يسمى بالاحساس الطبقــى • وتؤدى التمايزات النوعية الى فكرة الفرديـــة ، والشخصية ، امــا تصور «الجنس» طبقا لما يعنيه المصطلح الان ، يتلخص فى ان ثم ةجماعــة تضمها خاصية معينة • وكثيرا ما يحدث خلــط فى استخدام كلمــة «جنس» وذلك من جراء محاولة تعريف الاجناس عن طريق الاماكن التى تسكنها ، بينما يكون تفكيرنا متجها فى الواقع الى الصفــة أو الشكل • مثل لون البشرة وبهذا يعد التجانس والوحــدة والتضامن لمجموعة سلالية حقيقة ملفتة للنظر الى حد بعيد (٢) •

---

(1) Sumner, Op. Cit., P. 53.

(2) Ibid., P. 53.

وفكرة القرن الثامن عشر القائلة بأن الناس جميعا متساوون بطبيعة خلقهم انما هى فكرة معكوسة • لانهم أحرياء اذ ذاك ان يكونوا فى حالة طبيعية كتلك التى كانوا يتخيلونها • فهم لايستطيعون ان يكونوا مجتمعا ، وهم مضطرون الى التفرق والتجول غالبا فى صورة شخصين أو ثلاثة • ولايسعهم مطلقا أن يحرزوا أى تقدم فى فنون الحضارة • والاعتقاد السائد بأن الحالة الحضارة التى حققناها انبثقت من بعض هؤلاء الرحل ، وبفعل التطور التلقائى للقوى الكامنة ، انما هو اعتقاد يقوم على غير اساس على الاطلاق • لان جماهير الناس التى تتساوى تقريبا تغنى على مر الزمان أو يكون مصيرها هو الاستبعاد (١) •

وليست الجماهير طبقات كبيرة عند قاعدة هرم اجتماعى ، بل هى قلب المجتمع كما سبقت الاشارة • أنها عناصر محافظة تتقبل الحياة كما هى ، وتعيش على التقليد والعادة • وبتعبير آخر ، تحيا الجماهير التى تميز الغالبية العظمى فى أى مجتمع مجرد حياة غريزية على غرار الحيوانات تماما • ويجب الا تخدعنا الطوائف المحافظة والارستقراطية ، التى تقاوم تغيير التقاليد والنظم عن طريق الاحتفاظ بالقوى الاجتماعية ، حيث أن الاتجاه المحافظ للجماهير له نوعية مختلفة • أنها محافظة غريزية لاتقوم على اساس من المصلحة • أنها ترجع الى القصور الذاتى Inertia والتغيير يستلزم جهدا جديدا للحصول على حياة رتيبة وعلى العادة • أنه تغيير يستلزم جهدا شاقا • وعلاوة على ذلك ، فالجماهير تعوزها القدرة للسعى الى «التحسينات» أو رسم خطوات التغيير الذى يمكن أن يشبع الحاجات بطريقة أفضل • ومن الممكن أن تتميز أعراف أى مجتمع ، فى حقبة معينة • بمبادرة الجماهير الى محاكاة سلوك الطبقات (٢) وهكذا

---

(1) Ibid, P. 57.

(2) Ibid., P. 55.

يفسر لنا سمنر حقيقة الطبقة الوسطى مع أنه يضخم من حجمها . ومع أنه — ايضا — يراها طبقة اساسية فى البناء الطبقى للمجتمع .

واذا كانت الطبقات تتطاحن فيما بينها للفوز بالقوى الجديدة ، فان السلام ضرورى ، وبدونه لاتستطيع أى طبقة ان تتمتع بالقوى . ومن ثم يظهر التوفيق ، وتنسيق المصالح ، والتعاون المبنى على التنافس والتجانس ، وتصبح النظم عملية منظمة واداة تجعل الرفاهة تأخذ مكانها عن طريق النسق (١) .

والطرائق الشعبية هى التى تخلق المكانة الاجتماعية . فالعضوية فى الجماعة أو القرابة ، أو العائلة ، أو الجوار ، أو المرتبة أو الطبقة هى أمثلة للمكانة الاجتماعية ، ولقد كانت حقوق وواجبات كل رجل وامرأة تحدد طبقا لتلك المكانة . ولم يكن لاحد أن يختار المكانة التى ينتسب اليها أو لايختار (٢) فكأن المكانة الاجتماعية — هكذا — هى التى تعمل على ايجاد محددات الطبقة الاجتماعية وغيرها من جماعات ينتسب اليها الفرد . وكأن المكانة — ذاتها — هى من خلق الطرائق الشعبية . وهكذا نجد سمنر يربط بين الطبقات وبين الطرائق الشعبية ، مثلما ربط بين سائر موضوعات دراسته وبين هذه الطرائق .

ويرى سمنر ان الجماعة تنتخب — شعوريا أو غير شعورى — مستويات الحياة الفاضلة بالنسبة اليها . اذ ترسم خطط العمل الجماعى وتتبنى الاغراض التى تأمل ان تحقق ذاتية الجماعة . وتتبنى الطبقات التاريخية بتلك القرارات الى حدد خطط وسلوك الجماعة ، وتعمل على فرضها على الجماعة ذاتها (٣) . وهكذا تأخذ الطرائق الشعبية — وكذلك الاعراف — من المكانة الاجتماعية وتعطيها

---

(1) Ibid., PP. 72-73.
(2) Ibid., P. 58
(3) Ibid., P. 69.

أيضا • فالاشخاص يقيمون مكانتهم على أنها راقية • ومن ثم تصبح تلك المكانة محكومة بالطرائق الشعبية المؤثرة والمعروفة على أنهـا اعرافا (١) •

الاعتـــداد بالجنس :

وضع سمنر مفهوم «الاعتـــداد بالجنســـ Ethnocentrism » (٢) ليعنى به النظرة الى الاشياء التى عن طريقها تكون جماعة خاصـة من الناس مركزا لكل شىء ، وتكون غيرها بعيدة عن اطارها المرجعى ، وهناك افتراض بأنه حين يكون الاعتقاد بأن القيم واساليب الحياة والثقافة الكلية لجماعة معينة ، محور اهتمام الاخرين فان الطرائق الشعبية ومعايير الجماعة التى ينتمى اليها الانسان ، تلاحظ كما لـو كانت صوابا وثابتة بالنسبة اليه ، كما أنها تكون — ايضا — موضـع اجلال وتقدير • بينما ينظر الاخرون اليها نظرة احتقار ، أو أنهـم يحاولون ذلك • ويتضمن الاعتداد بالجنس مستويين اخلاقيين ، اذ يرى سمنر وجود نوعين من الاخـــلاقيات أو المعايـــير الى جـــانب الاصدقاء والغرباء • فقد ترغب الجماعة الخارجـة باتيان امـور لم ترغب فى اتيانها داخلها كالقتل أو السلب أو الاخذ بالثأر أو الخطف وما الى ذلك (٣) •

وتشعر الاجناس جميعا باعتداد الجنس • فكـل جنس يعتبر ذاته مركزا للنوع البشرى • ويحكم على بقية الاجناســ فى ضوء مستوياته هو ، وليس على اساس اعلى من المعطيات التى تمثل مصالح غالبية الاجناس ككل • والاعتداد بالجنس يجبر كـل جنس عـلى

---

(1) E. Bogardus, Op. Cit., P. 334.

(٢) الاعتداد بالجنس Ethnocentrism يترجـم احيانـا بالتمركز العنصرى أو التمركز حول العرق ، وهو مصطلح يعبر عن الزهـو والتفاخر بجنس معين دون آخر ، ولذلك أثرنا التعريب الاول •

(3) S. Koening. Op. Cit., P. 207

المبالغة من أهمية طرائقه الشعبية والاقلال من قيمة طرائق الاجناس الاخرى الشعبية . ومثال ذلك أن الرومان واليونان يطلقون على كل ماعاداهم اسم «البرابرة Barbarians » واليهود يعتبرون أنفسهم «الشعب المختار» ويرون الرومان واليونان وثنيون Pagans (١) .

ولقد أكد سمنر أن كل جماعة ، كبيرة أم صغيرة ، بدائيـــة أم متحضره ، فى الماضى أو فى الحاضر ، أنما تعتبر جماعة عنصرية وتريد كل قبيلة وكل وطن بأى وسيلة ممكنة ، ان تصل الى مركز عظيم ، وان تحتقر من يختلفون عنها . وفى ذات الوقت يفكر كل انسان فى نفسه على أنه قمة المجد وكأنه أعظم القيم وأسماها .

فالاعتداد بالجنس هو التعبير عن تلك النظـــرة الى الاشياء ، بحيث تصبح الجماعة التى ينتمى اليها الفرد هى مركز كل شىء ويقاس الاخرين ، ويرتبون طبقا لها . وتستجيب الطرائق الشعبية لها حتى تغطى كل من العلاقات الداخلية والخارجية ، اذ تعمل كل جماعة على تنمية كبريائها وزهوها ، وتتفاخر بسموها وتعظم آلهتهـــا ، وتنظـــر باحتقار الى الخارجين عنها . وتؤمن بأن طرائقها الشعبية وحدها هى الصواب ، واذا لاحظت أن الجماعات أخرى طرائق شعبية مغايرة فانها تقابلها بازدراء (٢) .

وهكذا قال سمنر أن أغلب القبائل البدائية — حوالى تسعـــة عشر منها — يرجعون أنفسهم عن طريق الاسم أو الانحدار وحسب سلسلة الانساب ، وفى المجتمع الحديث — كذلك — فمعروف جيـــدا الاعتداد بالجنس . ويتخيل كل وطن —كما يقول سمنر — نفســه كمحتوى للمدنية والحضارة ، ويعتقد اعضاءه ذلك اعتقادا راسخــا ولذلك يرى كل وطن نفسه كقائد للحضارة . وان سكانه هم الاعلون

---

(1) E. Bogardus, Op. Cit., PP. 328-329.

(2) Sumner, Op. Cit., PP. 27-28.

وهو علاوة على ذلك ، الاكثر حكمة وحرية ، ويعتبر البلدان الاخرى مناضلة له • وحسب وجهة النظر هذه نجد أن الكتاب المحدثين كل منهم متمركزا حول عنصر معين يوضح معالمه عند أول انعكاس له فى الجماعة ، ولذلك فانه يدور حول الجنس الذى ينتمى اليه (١) •

ويرى سمنر ان هناك عوامل كثيرة خففت من هذه الفكرة العنصرية والاعتداد بجنس معين • ومن هذه العوامل ما حدث من تزاوج بين الاجناس المتشابهة فى خصائصها والمتقاربة فى سماتها فقد ادت هذه العملية الى اختلاط الدماء ، ومن ثم اختفت الافكار التى كانت تثار حول «نقاء الدم» وما ارتبط بهذا النقاء من حرص على مقومات الحضارة • والملاحظ أن أقوى الشعوب فى الوقت الحاضر هى الشعوب التى اختلطت فيها دماء الاجناس عن طريق الاختلاط والتزاوج (٢) •

وتعتبر الافكار النازية اساس التفكير فى ضوء الاعلاء الجرمانى• ومع ذلك ، فانها كما ذهب جوبينو De Gobineau (١٨١٦ — ١٨٨٢) تعتبر اساس الاعمال والسلوك اللذين يتميز بهما الآريين والشعوب الجرمانية • لقد كان جوبينو كاتبا أدبيا وتاريخيا ، وقد قادته ملاحظاته فى عديد من الاقطار الى كتابة مقال عن التفاوت بين الاجناس البشرية فى عام ١٨٥٥ (٣) • وقد بدأ بافتراض مؤداه ان السؤال عن الجنس يعتبر أهم سؤال فى التاريخ • وبذلك بدأ فى اقامة نظريته عن الحتمية العنصرية ، وفى رأيه أن الجنس الآرى وحده هو الذى عمل على تقدم الحضارة وان الثقافة هى نتاج للجنس • وتتحدد الحضارة والثقافة عن طريق البناء القوى للشعب • وتعتبر الوراثة بمثابة مفتاح التقدم الاجتماعى • ويجب ان يظل الجنس الارى «نقيا» لان

---

(1) S. Koening, Op., Cit., P. 208.

(٢) د • مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ •

(3) Essay Upon the ineauality of the human races

الامتزاج بالاجناس الاخرى يعمل على الانحلال • ولقد نسب العقل والقيمة والطاقة الى الجنس الابيض • والتوسط الى الجنس الاصفر، والانفعال الى الجنس الاسود وقد وضع الالمان على قمـة الجنس الابيض بعد ذلك ، عمل سامبرلين H. Schamberlain على تهذيب وتعديل آراء جوبينو هذه فيما يتعلق بأفكاره عن الالمان • لان موقفه لايمكن الدفاع عنه علميا • اذ أوضحت جميع الاجناس امكانية تطور الحضارة والثقافة • وان هذه الخصائص لاتعتمد فقط على الوراثـة الاجتماعية ، وانما تعتمد كذلك على التعليم واتاحة الفرص (١) •

وفى الولايات المتحدة ، نالت نظرية التفوق الجنسى اهميتهـا عن طريق ايست R.M. East وغيره • وبينما كان العلماء يجمعون معطيات وثيقة الصلة بالموضوع من أجل منافسـة كاتب معين مثـل جوبينو ، فانهم شعروا ايضا بزيادة الاحساسات بالتحامل الجنسى والتعصب الجنسى بدون أى تبرير علمى • وقبل كل شىء أخذ التعارض الجنسى تبريره — فقط — من خلال عدوان وفضول شخصى ، فى ضوء صراع هدام ضد أعضاء جنس معين • الا أن هذه الاجراءات لم تكن محددة بخاصية معينة عن أى جنس بشرى (٢) •

الآراء السياسية والاقتصاديـة :

لم ينشر سمنر مؤلفات أصيلة فى البحث السياسى بالرغم من أنه كان استاذا لعلم السياسة • وقد جاءت شهرته فى ميدان النظريات السياسية والاجتماعية من قيامه بدراسة لبعض نظم الحكم • ويبدو أنه كان من أنصار نظام الحرية أو سياسة الباب المفتوح فى شئـون السياسة والاقتصاد • الا أنه كان يندد بما تنتهى اليه هذه السياسة فى نهاية مطافها حيث تصل الى الاحتكارية والامبراطورية • فكثـيرا

(1) E. Bogardus, Op. Cit., P. 329.
(2) Ibid, P., 329 also.

ما هاجم هذه الانحرافات لاسيما النظام الامبراطورى من حيث قيامه على الاستبداد السياسى وارتكازه على نظرية الحق الالهى المقدس (٣).

وإذا اردنا أن نلقى نظرة كلية على فكرة السياسى ، نجد أنه تأثر فى هذا الصدد بدراساته الاجتماعية الميدانية . ومثال ذلك أنه لايرجع الى التصورات المطلقة والمبادىء الكلية المجرد فى بحثه لاصل الدولة ، ولكنه وضع تصورات واقعية عملية فقد اعتبر الدولة شخصا اخلاقيا Ethical Person ، وهى ليست الا مجموع ذواتنا . انها فى الحقيقة عدد من الافراد اجتمعوا فى ظروف غامضة وبطريق المصادفة وامكنهم بفضل الاغلبية ان يضعوا من الانظمة ما يحقق خدمات هذا الكل (٢) .

فلا بد من قيام النظم لتحكم ضروب نشاط المجتمع ، وتنظيم المصالح المتعارضة والعدالة طبقا للاعراف السائدة . وتضع هذه النظم حدا للاستغلال . وتنسق بين المصالح فى ظل الحرية المدنية ولكن ماهو مصدر هذه النظم ؟ ان الجماهير لم تضعها أبدا فهى مشتقة من الاعراف التى يختارها القادة والطبقات التى تسيطر على القوى الجماعية للمجتمع وتوجهها نحو الانشطة التى تخدم المصالح التى يعتبرونها أكثر أهمية ، واذا ما وجدت تغيرات فى ظروف الحياة ، عملت المصالح أيضا على خدمة هذه التغيرات (٣) .

وعندما يتكلم عن أشكال الحكم ، نجده لايقرر افضلية شكل منها بصفة مطلقة . فهو فى هذا شبيه بمنتسكيو الذى قرر مبدأ النسبية فى تقييم النظم السياسية . وعلق على ذلك مبلغ رضاء الشعب عن مصيره . وهذا الرضاء هو مقياس مشروعية السلطة . لان الشعب هو الذى يقرأ فى نظام الحكم صورة لدرجة نموه السياسى

---

(١) د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ص ١٨٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(3) Sumner, Op. Cit., PP. 57158.

وحساسيته القومية والوعى الذى قطعه فى هذا الطريق • والحق أن ،، أفضل حكومة هى دائما أكثر أشكال الحكم تكيفا بالشروط الاجتماعية والاقتصادية والعقلية التى تحكم الشعب • وفى هـذا عقد سمنـر مقارنة بين الديمقراطية والجمهورية • فشكل الحكم الاول يرتكز على مبدأين هما : تحقيق المساواة وتحقيق مشاركة المواطنـين مشاركة فعلية مباشرة فى كل عمل حكومى • أما الجمهورية فترتكز على تحقيق الحريات المدنية • وقرر ان الديموقراطية خاطئة فى مبدأيها ، بيـد أن تحليله لها يشعرنا بأنه اقتصر على تصور الديموقراطيات المدنية القديمة التى سادت بلاد اليونان ، ولا ينطبق تصوره هذا — بعمق — على النظم الديموقراطية الحديثة (١) •

ويرى سمنر امكانية وصول القسم الوسيط من الشعب ، وهـو السواد الاعظم الى الحكم اذا كان ذا تنظيم مستقل عن بقية الاقسام فى الدولة الديموقراطية ، وهذا القسم هو الذى يتضمـن «الشعب» بالمعنى الفنى الخاص ،بحيث يؤخذ هذا التعبير بالمعنى السياسى وتنطبق عليه آراء «جيفرسون » عن «كلمة Wisdom » الشعب الا أن هذا القسم لايمكن أن يكون منظما تنظيما مستقلا ، بمعنى ان الشعـب لايوجد مطلقا كهيكل يمارس القوى السياسية • والقسم الوسيـط للجماعة يمكن أن يثار بدافع مطابق لسلوكه وأفكاره • وهـو يتعلق بالاشخاص ، ويحب الحكايات ، ويولع بالانفعالات ويفاخر بأخلاقياته واذا ظفر المرء من هذا القسم بشهرة شعبية فان تأثير اسمه لايقاوم• كما يتأثر هذا القسم الوسيط كثيرا بالرموز (٢) •

ولقد اعطى سمنر معنى جديدا لمفهوم الرق Slavery اذ ذهب الى ان «العباقرة محكومين فى العادة بخدمة بقية الطبقات • فهـم

---

(١) المرجع قبل السابق ، ص ١٨٧

(2) Op. Cit., PP. 59-60.

يقومون بالاختراعات والاكتشافات • وينظمون المعارك • ويكتبـــون المؤلفات ، وينتجون الفن » ولقد حزن سمنر للاتجاه الذى يجعـــل الناس غير متساوين ، وهو مايطلق عليه «الرق» اذ شعر بأن زواج الرقيق وتبادل الرقيق ، وخطيئة الرقيق ، كلها مصطلحات ترتبط — أيضا وبسهولة — بسخط الشعب (١) •

وعندما يتحدث سمنر عن الرق ، يعرض لاصوله والدوافع اليه• كما يؤكد على أن هناك بعض الناس يعملـــون فى خدمـــة الاخرين • بالاضافة الى الاستخدام الرمزى للرق • ويعرض لبعض صور الرق فى بربر شمال امريكا ، وجنوبها ، وفى بولينزيا وميلانزيا ، وفى الهند وآسيا واليابان • ويبين سمنر صور الرق فى الحضارة الراقية لـــدى اليهود ، واثناء الحروب الاهلية ، وخلال العصور الوسطى • كما يبين موقف الاسلام من الرق ، ومستقبل الرقيق والعلاقة بين الرق والاعراف والاخلاقيات (٢) •

ويتحدث سمنر عن النقود وكيفية التعامل بها داخل الجماعة أى بين مختلف الجماعات • كما يتحدث عن الملكية وكيفية تفسيرها فى ضوء الدوافع البشرية وخاصة دافع الزهو • ويعرض لتطور النقـــود ، مستدلا بأمثلة متعددة من مختلف المجتمعات والقبائل • متبعا فى ذلك المنهج التاريخى التطورى • ويبين سنمر أوجه استخدام النقود سواء فى الاجور أو الغرامات أو الجزاءات المالية أو ثمن العروس ••• وما الى ذلك موضحا انواع النقود كالصـــدف والخرز وعملات الفضـــة والاسلاك النحاسية والنقود الحلقية وما الى ذلك أيضـــا (٣) كمـــا

---

(1) Bogardus, Op. Cit., P. 330.
(2) Sumner Op. Cit., PP. 227-265.
(3) Ibid, PP. 132-145

يتحدث عن الثروة فى ضوء التغيرات التى تواجه ظروف الحياة موضحا الفرص المتاحة للحصول على الثروه • ومفسرا ذلك فى ضوء الطبقات الحاكمة ومستويات الحياة (١) •

(1) Ibid, PP. 149-156 .

خاتمـــة :

لقد القى علمـاء الانثروبولوجيا ضـوءا على طبيعـة الفكـر الاجتماعى وخاصة أولئك الذين اهتموا بدراسة الاصول الاجتماعية وعلى مدى أكثر من قرن من الزمان وهؤلاء الانثربولوجيون يبحثون جاهدون لجمع مادة علمية والوصول الى نظريات متقدمة تدور حـول أصل الانسان ، وعن اتجاهات الصراع والتعاون ، وعن الافكار المبكرة والنظم التى اتبعها الجنس البشرى • وساعدهم فى ذلك ما قدمه علماء الجيولوجيا وعلمـاء البليونتولوجـى (١) من بحـوث • كما قـدم الاثنوجرافيون والاثنوجيون — ايضا — اكتشافات لمادة علمية هامة • ان وجود مجموعات البحوث هذه ، بالاضافة الى ما ارتبط بها مـن تفسيرات وتحليلات ، اعطى اسهاما جوهريا متكاملا • وكانت ثمـة أعمال هامة لعلماء الانثربولوجيا امثال تايلور ومورجان وبيت ريفرز وهادون وفريزر وكين • كما قدم سمنر أفكارا متقدمة ، وخاصة فى مجال الثقافة وغيرها من قضايا علم الاجتماع والانثربولوجيا (٢) •

ولقد تطورت قضايا سمنر الاساسية عن طريق كيلر A.G. Keller الذى عارض الدارونية ومبادئها فى التنـوع والانتخاب والتحـول والتكيف مفسرا ذلك فى ضوء تصورات اجتماعيـة (٣) الا أن سمنر كان قد انتفع بالمادة العلمية عن المجتمعات البدائية • وذهب الى أن ثمة شبه اجماع بين علماء الانثربولوجيا على أن الانسان انحدر مـن فصيلة حيوانية راقية ، وهو فى نشأته وانحداره يمثل عملية تطورية بطيئة • ولعل فى خضوع الانسان لقوانين الوراثة الحيوانية ما يؤيد هذا الترابط • وسمنر فى هذا تلميذ أصيل لتعاليم داروين وسبنسر •

---

(١) علماء البليونتولوجى يهتمون بدراسة اشكال الحياة فى العصـور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية .

(2) Bogardus, Op. Cit., P. 324.

(3) Ibid., PP. 335-336.

ولكنه يضيف الى الحقيقة السابقة ان الانسان ولو أنــه انحدر مــن فصيلة حيوانية راقية غير أنه يمتلك قدرا من الخصائص والمقومــات الروحية التى لاتوجد أصلا فى الحيوانات الراقية • وبذلك يتعين أن يكون للانسان طبيعة جديدة مغايرة للطبيعة الحيوانية • وهذا التحفظ يقربه الى حد كبير من انصار النظرية الاجتماعية (١) •

وبرغم فشل سمنر فى ادراك اهمية المدخل السيكولوجى الكامل فى تحليل الطرائق الشعبية • فان وصفه لهــذه الظواهر المجتمعيــة تتضمن اسهاما فريدا وقيما فى الفكر الاجتماعى • ان الاتجاه الصارم لسمنر نحو الحياة الاجتماعية لم يسمح له بالدخول فى تفسير أكثر اتساعا للطرائق الشعبية فى ضوء المثل الشعبية • فلقد أهتم بما يجب ان يكون ورأى الماضى أكثر وضوحا والحاضر مجرد انعكاس للماضى• وان ليس ثم تشجيع يمكن من النظر أكثر من ذلك • وقد ابقى نظرياته فى عمل متصلب لقوانين التطور البيولوجى التى تتكيف اساسا عــن طريق اعتقاده فى المذهب الفردى وقوته (٢) •

ولذلك يعتبر كتاب سمنر «الطرائق الشعبية» كتاب وصفى حسى فى المقام الاول أكثر من كونه تحليلا مجردا • طالما ان الكتاب يعتبر اساسا — من وجهة النظر السوسيولوجية المتعمقة — تصنيفا للعادات والطرائق الشعبية وللممارسات والاعراف التى على اساسها تعتمــد تصورات الكاتب الاساسية عن الثقافة • ويعتقد سمنر ان الطرائق الشعبية تتراكم ببطء فى خبرة الجماعة عقب القرون • وتصبح بالتالى انماطا للعادات السلوكية التى ينبغى أن تتحول خلال الزمن الــى اعراف اذا ما اكتسبت أهميتهــا الاخلاقيــة أو اى انماط جزئيــة أخرى (٣) •

(١) د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ص ١٨٠ — ١٨١.
(2) Op. Cit., P. 335.
(3) Wison & Kolb, Op. Cit., P. 59.

والطرائق الشعبية محاولة تتبنى اسلوب الدارونية الاجتماعيـــة لتفسير الاصل التطورى للعادات الاجتماعية ، وطبيعتها ، ووظيفتها واستمرارها • وطالما ان العمل الاول فى الحياة هو الحياة ذاتها فـــان الناس يبدأون بالافعال وليس بضروب التفكير • وقد تم انتقاء الاصلح من أساليب الفعل المتعددة عن طريق المحاولة والخطأ وتكررت هـــذه الاساليب ، وترتب على هذا التكرار ايجاد العادة لدى الفرد والتقاليد لدى الجماعة • فالطرائق الشعبية هى أساليب لسلوك يقبله المجتمع بوجه عام • وهى تتطور بطريقة لاشعورية وتظهر دون أن يدرك الفرد زمان وكيفية ظهورها (١) وهكذا تصبح القوة التى تمارسها قوالـــب العرف مستمدة من قوتها الجمعية ومن كونها أصبحت اداة للاختيار الاجتماعى • ويعتبر التنافس والاتحاد شكلان للمشاركة فى الحياة ، اذ يتدخلان فى جميع المجالات العضوية وما فوق العضوية • ويؤدى اهمال هذه الحقيقة الى كثير من التضليل الاجتماعى • والاتحاد من جوهر التنظيم ، والتنظيم هو الاختراع العظيم الذى ادى الى القوى المتزايدة لعدد من الوحدات الغير متساوية والغير متشابهة والتـــى ترتبط من أجل هدف عام (٢)

---

(١) تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٧

(2) Sumner, Op, Cit., P. 31.

المراجـــع المستخدمـــة

أولا ــ مراجع عربيـــة :

١ ــ د• أحمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى : مدخل لدراسة المجتمع الجزء الاول : مفهومات ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ •

٢ ــ د• غريب محمد سيد احمد ، المدخـــل فى دراسة الجماعـــات الاجتماعية ، دار الكتب الجامعية ١٩٧٣ •

٣ ــ د• مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ •

ثانيا : مراجع مترجمـــة :

٤ ــ تيماشيف ، نيقولا ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ترجمة د • محمود عوده وآخرون ، مراجعة وتقديم د• محمد عاطف غيث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ •

٥ ــ سمنر ، وليام جراهام ، مسالك الجماعات ، ترجمة وصفى آل وصفى ، مراجعة رمزى يس ، دار الادباء ، القاهرة (بدون تاريخ) •

ثالثا : مراجـــع اجنبيـــة :

6 — Abraham J.H, The Origins and Growth of Sociology, Hazel Watson & Viney Ltd., London, 1973.

7 — Bicrsted, R., The Social Order, MacGraw - Hill Book Com., N.Y., 1957.

8 — Blau Peter M. & Scott W. Richard, Formal Organization : A Comparative Approach. Routledge & Kegan Paul, London, 1969.

9 — Bogardus Emory S., The Development of Social Thought, David Mckay Com., N.Y., 1964.

10 — Coser Lewis A., & Rosenberge, Sociological Theory, N.Y., 1965.

11 — Koening S., Sociology, Barnes & Noble, Inc., N.P. 1964.

12 — Kroeber, Anthropology, Oxford & IBH Pub. Com., New Delhi, 1972.

13 — Sumner William Graham, Folkways, The New American Library, N.Y., 1960.

14 — Sutherland R.L., Woodward J.L. & Maxwell M. A., Introductory Sociology, Oxford & IBH Pub. Com., New Delhi, 1961.

15 — Young Kimball & Mack R., Sociology and Social Life, Amer- & Com., N.Y., 1949

16 — Young Kimball & Mack R., Sociology and Social Life, American Book Com., N.Y., 1959.

المبحث الرابــع

تشارلز هورتون كولــى

١ ـ حياتــه
٢ ـ كتبــه
٣ ـ الجماعة الاولية
٤ ـ الذات الاجتماعية
٥ ـ المثل الاولية
٦ ـ النظم والشخص
٧ ـ العملية الاجتماعية
٨ ـ الطبقات الاجتماعية
٩ ـ الاتصــــال
١٠ ـ نظرية الرأى العام
١١ ـ نظرية القيــادة
١٢ ـ خاتمــــة

« تشارلز هورتون كولى »

ولد كولى Charles H. Cooley (١٨٦٤ — ١٩٢٩) فى مدينة آن اربور Ann Arbor بولاية ميتشجان ، حيث قضى طيلة حياتـه فى هذه المدينة باستثناء سنوات قليلة قضاها خارجها ، وكان ينفر من كل ما يزعج حياة التأمل والتفكير الهادى • وقد انعكس هذا علـى كتاباته ، حيث اتسمت بقدر كبير من الاتزان ، وتعلقه بقيم المجتمع الريفى الامريكى (١) •

تتلمذ على نظريات تارد واتباعه ، واتخذ الظواهر السيكولوجية اساسا لتفسير طبيعة المجتمع وطبيعة العلاقات والنظم الاجتماعية ، فالمجتمع مركب عضوى نفسى ، وهو يطبع أفراده على هذه الطبيعة النفسية ، لان الفرد لايولد مزودا بالطبيعة البشرية ، ولكنه يروض ويحصل عليها شيئا فشيئا من المجتمع ولذلك فان كلمتى « مجتمـع وفرد» فى نظره لايعنيان لفظين أو مفهومين منفصلين ، فهما حقيقة نفسية واحدة (٢) • فقد أعلن فى كتابه «التنظيم الاجتماعى» الذى نشره عام ١٩٠٩ فكرته المشهورة عن «الجماعات الاولية» وهى عبارة عن «جماعات المواجهة» ، حيث تقوم علاقات مباشرة بين الاشخاص وحيث تذوب الفرديات فى كلمة «نحن» • وفى رأيه أن شخصية الفرد نتاج لحياة الجماعة ، وبذلك يكون الفرد والمجتمع مظهرين لحقيقـة نفسية واحدة (٣) •

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرين ،مراجعة وتقديم د. محمد عاطف غيث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢٩ .

(٢) د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه : الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطبـاعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٠ .

(٣) أرمان كوفيليية ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة د. السيد محمد بدوى وعباس احمد الشربينى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ ، ص ٥٥

كما تأثر كولى ببعض الشخصيات الادبية مثل اميرسون Emerson وتورو Thorcau وجوته Gcethe ، وربما كان شافل Schaffle هو عالم الاجتماع الذى أثر فيه خلال المراحل المبكر من تفكيره (١) .

ولقد كان لتشارلز كولى أثره بدرجات متفاوتة فى كثير من العلماء مثل ريدبين R.Bain وفاريس E.Faris وفستنجر L.Festinger والتن مايو E.Mayo ، أما عن الذين أثروا فيه فمنهم وليم جيمس W.James وبولدوين J.M. Boldwin وديوى J.Dewey ويبدو أنهم أثروا فيه عندما تحدث عن ارتقاء الذات أو الانا (٢) .

وربما كان من أوضح العناصر التى وردت فى نظرية كولى تسربها من المناخ الثقافى والاجتماعى للمجتمع الامريكى فى أواخر القرن التاسع عشر ، ويتضح هذا فى قوله بأن النظره الكاملة لابد أن تأخذ الفرد فى اعتبارها ، معارضا بذلك اتجاه المدرسة الفرنسية فى دراسة المجتمع ، ونظريته بأن الشعور بالملكية و الاساس فى ارتقاء الانا . وقد كانت الملكية الخاصة احدى القيم الرئيسية فى الحضارة الامريكية فى ذلك الوقت (٣) .

يقول دون مارتندال : ان المذهب السلوكى الاجتماعى لدى كولى له متضمنات فهو يشرح الحوادث الاجتماعية على أساس تطبيقها على البناء الداخلى وليس على أساس خارجى ، فلم يحاول أن يشرح

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .
(٢) د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص ١٩٢
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٤ — ١٩٥

الحوادث الاجتماعية عن طريق البيئة الفيزيقية ، أو الوراثيـة أو العنصرية (١) ٠

كتبــه :

يرى بوجاردس أن كولى قد أضاف اسهامات الى علم النفس الاجتماعى دون استخدام مصطلحات معملية ، ففى عـام ١٩٠٢ ، نشر كتاب عن «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى» ويعتبر هـذا الكتاب موضحا لسلطة العلاقة التكاملية بين الذات الفردية والعملية الاجتماعية ٠ وقد تابع هذا الكتاب بآخر عن «التنظيم الاجتماعى» عام ١٩٠٩ ، وبثالث عن «العملية الاجتماعية» عام ١٩١٨ ٠ وتعتبر هذه الكتب الثلاثـة تطورا للاطـار المنطقى لتفكير كـولى النفسى والسوسيولوجى (٢) ٠ الا أنه قد نشر قبل هذه الكتب الثلاثة كتابا بعنوان «العبقرية والشهرة ومقارنة الاجناس» (٣) فى عام ١٨٩٧ ٠

ويعالج كتاب «الطبيعة البشرية» الذات من حيث ردود ، أفعالها مع حياة الجماعة ، ويشرح كتاب «التنظيم الاجتماعى» طبيعة الجماعات الاولية ، مثل الاسرة ، وجماعة اللعب والجوار ، وطبيعـة العقـل الديموقراطى ، والطبقات الاجتماعية ٠ بينما يحلل كتاب « العمليـة الاجتماعية» عناصر عديدة فى عملها على تحديد خصائص المجتمع ٠ والنقطة الجوهرية فى الكتب الثلاثة مؤداها ان الفرد والمجتمع همـا مظهرين لنفس الظاهرة ، فهما يولدان معاويندوان معا (٤) ٠

---

(1) Don Martindale, the nature and types of sociological Theory, Boston, 1960, p. 346.

(2) Emory S. Bogardus, the Development of social thought, David Mckay company, inc., N.Y., 1964, P. 492.

(3) Charles H. Cooley, Genius, Fame & the comparison of Races, 1897

(4) E.S. Bogardus, Op. Cit., P. 492

لقد رأى كولى — بحق — ان كل شكل للتنظيم الاجتماعى انما يتكون من خلال عملية التفاعل المتصلة الحلقات ، وسوف نستشف آرائه من خلال كتابيه «الطبيعة البشرية والنظـام الاجتماعى » (١) و «التنظيم الاجتماعى» (٢) •

الجماعـة الاوليـة : Primary Group

يعد كولى أول من درس الجماعـة الاوليـة ، فقد قـدم وصفا كلاسيكيا لها فى كتابه «التنظيم الاجتماعى» (٣) • ويرى أن الجماعات الاولية هى تلك التى تتميز بعلاقة المواجهة المباشرة (٤) والتعاون • أنها «أولية» من وجهات متعددة ولكن الاهم فيها كونها أساسية فى تكوين الطبيعة الاجتماعية والمثل Ideals الاجتماعية للافراد • كما تتمثل نتيجة العلاقة المباشرة — من وجهة النظر السيكولوجية — فى شكل خاص يتميز به الافراد فى الكل بصفة عامة ، حيث يصبح المرء فى ذاته هو حياة وهدف الجماعة المشترك ، وذلك لاغراض عديـدة • وربما تكون الطريقة الاكثر بساطة لوصف هذا الكل متمثلة فى القول بأنها تكون الـ «نحن We » ومتضمنة لروح التعاطف والتوحد المتبادل حيث يصبح «نحن» تعبيرا طبيعيا ، فيعيش المرء بشعور الكل ، ويجد أهدافه وارادته الاساسية ماثلة فى هذا الشعور •

ان أكثر التجمعات الانسانية شيوعا تلك الجماعة الاوليـة أو

---

(1) Charles H. Cooley, Human Nature and the social order, The Free Press, N.Y., 1956.

(2) Charles H. Cooley, Social Organization, A study of the large Mind, The free press, N.Y., 1956.

(3) Charles H. Cooley, Social organization, Op. Cit., pp. 23-31.

(٤) مصطلح «علاقة المواجهة المباشرة» ، ترجمة للعبارة
Face to face association.
والمقصود به : الجماعات التى يواجه فيها الاعضاء بعضهم البعض مواجهة مباشرة دون أن يكون بينهم وسيط أو رئيس او قائـد فهى علاقة الوجه للوجه .

الجماعة التى تكون فيها العلاقة وجها لوجه • والوحدة الاساسية فى المجتمع هى الجماعة لا الفرد • وأكثر أنواع تلك الجماعات شيوعا هى الاسرة وجماعة اللعب وجماعة الجوار وجماعة العمل وجماعات كبار السن فى القرية • يقول كمبال يونج : «هذه الجماعات أولية بمعان كثيرة فهى أول جماعات يكون فيها الفرد عاداته واتجاهاته • وهى أساسية لارتقاء الذات الاجتماعية والشعور الخلقى ، وهى التى تدرب الشخص على التماسك الاجتماعى والتعاون (١) •

ولم يفترض «النحن» أن وحدة الجماعة الاولية مجرد أى مظهر من مظاهرها ، ولكنها وحدة متميزه يتنافس الاعضاء فى الجماعة ، وسماحها لهم بتأكيد ذواتهم وتأكيد انفعالاتهم • الا أن هذه الانفعالات تصبح اجتماعية عن طريق التعاطف ، وتظهر — أو تميل الى الظهور — تحت نظام المضمون العام • وقد يكون الفرد طموحا ، وسوف يفصح الموضوع الرئيسى فى طموحه عن نفسه ، عند مخاطبته للآخرين والتحدث معهم • ويضحى هدفه الاساسى متمثلا فى احتلال مكانة مرموقة فى عقول الآخرين • وسوف يشعر بالولاء Feel allegiance لمستويات عامة من الخدمة أو اللعب ، ولذلك فالفتى قد يتنازع مع زملائه فى فريق اللعب ، الا أن ثمة تفاخر عام بفصله أو بمدرسته على الاقل •

وهكذا تتبلور المشاعر النفسية فى نطاق الجماعات الاولية المرتبطة فى نوع من الاتحاد أو الامتزاج بين الذوات الفردية ، فينتج عن ذلك كل مشترك لدرجة أن «الانا» الحقيقة للفرد تجاوز حدود فرديتها ورغباتها الخاصة ، وتتحد مع الحياة العامة للجماعة ، وتتمثل الرغبات الجماعية التى تسودها أى ان الفرد ينتقل من مجرد «الانا»

---

(1) Kimball yonug, Personality and problems of adutment, PP. 57. 58.

الى «النحن» ويصبح هذا المفهوم الاخير هو التعبير الصحيح عن الحقيقة الاجتماعية • فالفرد يعيش فى مشاعر الكل ، وشخصيته تذوب فى شخصية الجماعة والانا تتلاشى فى النحن • وعن هذا الطريق تتولد الغيرية وحب الخير والمشاركة الوجدانية ، والمثل المشتركة ، ومن ثم يتأصل فى نفوس الافراد احترام النظام الاجتماعى ، والقانون والحريات والعدالة • وهذا هو ما تقول به المدرسة الفرنسية الاجتماعية من أن الفرد هو نتاج الحياة الاجتماعية (١) •

وتبدو «الاسرة» على أنها أكثر الدرجات أهمية لهذه العلاقة المباشرة ولهذا التعاون أيضا • كما تبدو هذه الدرجات فى جماعات اللعب والجوار أو جماعات المسنين • ومن الناحية العملية فلهذه الدرجات صفة العمومية • ويكون الانتماء فيها متمثلا فى كل وقت وفى كل مرحلة من مراحل النمو وعلى ذلك فانها تكون الاسس العامة فى الطبيعة البشرية وفى المثل الانسانية • ولايشك أحد فى عمومية جماعات لعب الاطفال أو الاجتماعات غير الرسمية بمختلف أنواعها لدى الكبار • وهكذا تتضح أهمية تلك العلاقة فى تربية الطبيعة البشرية فى العالم الذى يحيط بنا •

وينبغى أن نبين أهمية جماعات اللعب (٢) حينما لاتكون موضوعا

---

(١) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ •

(٢) حينما أراد كولى أن يقدم نموذجا مصغرا للمجتمع — وذلك فى كتابه «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى ص ٦ ومابعدها ، طبعة ١٩٢٢» — اختار فريق كرة القدم ليمثل ذلك النموذج • ومفهوم الفريق يشير الى جماعة ينظم اعضاؤها نمط من العلاقات الاجتماعية المستقرة • ولذل مفهم دور متسق داخ لهذا النمط • ولهذا السبب ايضا نجد ان كولي حينما ارادان يعمم القول ، قرر أن هذ االكلام يصدق على الاسرة والمدينة ، والامة ، وهذه كلها وحدات اجتماعية مستقرة •

(د• مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص ١٨١)

للملاحظة العامة • وفى الواقع يعيش الاطفال — وخاصـــة الفتيان الذين يصلون الى الثانية عشر من عمرهم — كرفقاء Fellowships حيث ينشغلون أكثر بتعاطفهم وطموحهم وولائهم • وقد يتخذ هذا شكلا أكثر وضوحا عما لو كانوا فى أسرهم • ويمكن أن يأخذ أى منـــا نفسه كمثال على انتمائه لصبية — متكيفين أو غير متكيفين — أكثر من التجائه الى رفقه الوالدين أو المدرسين •

وربما حظيت جماعات اللعب أغلب اهتمامات الكتاب فى اوروبا، ولذلك نرى أن آدمز Jane Addams تشير الى أن العصابة Gang ذات صفة عامة فى العادة • كما أنها أجرت مناقشة لم تنته حول شرح نشاط العصابة ، اذ لاحظت أنه «فى الذرات الاجتماعية — كما يقال — يتعلم الشاب كيف يعمل معتمداعلى قدراته الخاصة » •

كما تلعب جماعات الجوار دورا هاما فى الحياة الاولية والمتعاطفة لدى الناس • وفى حياتنا الخاصة تحطم الولاء للجوار عن طريق نمو شبكة الاتصالات المعقدة والواسعة والتى جعلتنا كغرباء يعيشـــون فى منزل واحد • وقد حدث نفس الشىء تقريبا حتى فى الريف — بالرغم من قلة وضوحه — وذلك بتناقض الماديات والروحانيات عند ارتباطها بالجوار •

ان الجماعات الاولية ، أولية ، من حيث أنها تعطى الفرد خبرته الاولى والمركبة عن الوحدة الاجتماعية • وكذلك من حيث أنها لاتتغير بنفس الدرجة كما يحدث فى العلاقات المؤقتة • فهى تشكل المنبـــع الدائم والمتميز • ومع أنها لاتعتمد على المجتمع الاوسع ، فانها تعتمد على بعض الانعكاسات التى يحتويها • فهذه الجماعـــات هى ينبوع الحياة ، ليس فقط بالنسبة للافراد وانما للنظم الاجتماعية كذلك • ان جزءا منها فقط يتكون عن طريق التقاليد الخاصة ، وهى عموما تعبر عن الطبيعة العامة • ولذلك فقد يختلف شكل الحكومة أو الدين من

حضارة لاخرى ، الا أن جماعة الاطفال والاسرة ذات صفة عامة فى كل الحضارات •

هكذا يبدو ان الطبيعة البشرية ليست شيئا منفصلا عن الفرد ، ولكن طبيعة الجماعة هى الوجهة الاولى للمجتمع ، ولابد من الرجوع الى الجماعات الاولية (١) • ان هذه الوجهة هى العلاقة البسيطة والحالة العامة للعقل الجماعى • انها شىء أكثر من ذلك فمن ناحية هى أكثر من مجرد غريزة تولد فينا ، ومن ناحية أخرى فهى أكثر من كونها مجرد تطور لتجمعات من الافكار والعواطف التى نتخذها فى مواقف معينة • أنها الطبيعة التى تتطور ويعبر عنها ببساطة فى جماعات المواجهة المباشرة ، حيث تتشابه فى جميع المجتمعات مثل جماعة الاسرة وجماعات اللعب والجوار • وتتشابه هذه الجماعات فى الخبرة والافكار والعواطف التى تضفيها على العقل الانسانى وعلى هذا تصبح الطبيعة البشرية موجودة فى كل مكان ولا يمتلكها الانسان بمجرد مولده ، وانما من خلال رفاقه ولذلك يتأخر وجود الطبيعة البشرية فى حالة عزلة الانسان • وهذا يعنى — ببساطة — ان المجتمع والافراد وجهين لكل عام • وعند النظر الى حقيقة وجود فردين ، فلابد من النظر اليهما كحقيقة اجتماعية •

وللفرد طريقان فى الحياة يتحرك خلالهما ، احدهما يأتيه عن طريق الوراثة والاخر يأتيه عن طريق المجتمع • والخاصة الرئيسية للوراثة الانسانية هى قدرتها على التشكيل Plasticity أى مقدرتها على التعليم • ولايمكن تفسير عقدة الطبيعة البشرية والسلوك على اساس الغرائز كنوع من التخصص الذى لا يتطابق مع الواقع • وهذا لاينفى أن الطبيعة البشرية بيولوجية — كذلك من الناحية الاجتماعية، فالطبيعة البشرية هى طبيعة الجماعة المتطورة والتى يعبر عنها فى

---

(1) Cooley, social organization, Op. Cit., PP. 29-30.

الجماعات الاولية حيث ثمة نوع من المدنية لدى الناس سواء • وبهذا لاتكون الطبيعة البشرية متناقضة مع طبيعة الافراد • فالجماعات الاولية هى مربى الطبيعة البشرية (١) •

ونتساءل هل تتغير الطبيعة البشرية ؟ ان للطبيعة البشرية سمات تجعلها لاتتغير ومع ذلك فقد ذهب كولى الى امكانية اختفاء بعض هذه السمات ، كما يمكن التحكم فيها وبهذا يمكن تغيير الطبيعة البشرية •

ويتساءل كولى ، هل ثمة طبيعة بشرية توجد فى شىء أكثر من وجودها فى الجماعات الاولية ، ويجيب بقوله : انه لايوجد اضطراب بفضل خصائص الفرد المنسقة مثل التنافس والغرور والاستياء ، تلك الخصائص التى لايدركها العقل كاشياء منفصلة عن المجتمع ، واذا كانت هذه الخصائص منتمية الى الانسان ، فما نوع أو درجة الترابط بينها وما هو تطور هذا الترابط ؟ اننا لانستطيع افتراض عدم وجود انسان يجتمع بالاخرين ، وذلك لان التجمع وجه من وجوه المجتمع • ويزول هذا الوجه فقط عندما تسكن الطبيعة البشرية بصفة عامة • وباختصار فان الاسرة والجوار اساسيان بما لهما منأصول وجذور وليسلشىءآخر ولهذا فان أى دراسة للمجتمع يجب النظر فيها الى النوع الانسانى ككل دون اقسامه الفرعية • ويجب أن ننظر ونشعر بالحياة العامة للاسرة وللجماعات المحلية كحقائق قائمة • وربما نفعل ذلك معتمدين على خبراتنا من خلال ملاحظة حياتنا الخاصة • وسوف يساعدنا هذا على الوصول الى وصف مجرد لطبيعة الجماعة الاولية التى نما منها كل شىء اجتماعى •

ويقول كولى فى كتابه «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى» أن النظرة الشاملة المكتملة للمجتمع تضع فى اعتبارها الافراد جميعا •

---

(1) Edward C. Iandy, Charles Horton Cooley : his life and Social Theory, The Norwood press, N.Y. 1942, P. 174.

وعلى ذلك فمن الخطأ اعتبار الفرد والمجتمع ضدين متقابلين ، اذ الواقع انهما متكاملان • واذا تعمقنا النظر فى الافراد ، فاننا ننظر الى الحياة من حيث التشتت ، واذا نظرنا الى المجتمع ، فانما ننظر الى الحياة من حيث التجمع (١) •

ويمكن دراسة البناء بطريق مباشر ، كما يمكن بحث الاتجاهات عن طريق الثقافة ، وتحليل «التمثلات الجمعية» لفعـل الجماعة • فبينما نركز الانتباه الى هذه المظاهر الجمعية للسلوك البشرى ، فان الحقيقة لا تفقد الضوء بامكانية دوام حياة الجماعة من الماضى من خلال سلوك الافراد • ولقد عمل كولى على التأليف بين هذين المدخلين تأليفا قويا عن طريق توضيح ان الفرد والمجتمع ما هما الا وجهين مختلفين لحقيقة واحدة ، أو وجهين لنفس العملة ، فالشخص والجماعة ليسا متطابقين ولكنهما يوجدان معا ويرتبطان سويا (٢) •

لقد وضح كولى مفهوم «الجماعة الاولية» حتى وجد علمـاء الاجتماع ان ذلك يمكنهم من اضافـة مفهوم «الجماعـة الثانويـة Secondary Group بعكس السمات التى وضعها كولى للجماعـة الاولية (٣) • وعليه لم يضع كولى مفهوم «الجماعة الثانوية» (٤) •

ومن الجدير بالذكر أن مفهوم الجماعة الاولية والجماعة الثانوية من بين المفاهيم القليلة التى لاتزال محققة الفائدة فى بحوث علم النفس

---

(١) غريب محمد سيد احمد ، المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية ، دار الكتب الجامعية ، اسكندرية ١٩٧٣ ، ص ١٤٥ — ١٥١

(2) R.L. Sutheriand, J.L. Woodward & M.A. Maxwell; Introductory Sociology, Oxford & L.B.H. pub., New Delhi, 1961, P. 131

(3) Lewry Nelson et al., Community Structure and change, The Macmillan company, N.Y., 1964, P. 225.

(4) Bierstedt, The Social order, Ncgraw-Hill company, N.Y., 1957, P, 261 & also : Lewis A. Coser & Rosenberg, Sociological Theory, N. Y., 1965, P. 309.

الاجتماعى ، وخاصة الفرع المسمى حاليا باسم ديناميات الجماعة Group dynamics (١) • والذى يلفت النظر ان هذه الجماعات الصغيرة شبيهة بفرق كرة القدم — الى حد ما — وهو النموذج الذى اعتبره كولى شبيها بالمجتمع المستقر ومع ذلك فانه لم ير فى هذا الفريق اشكال السلوك جميعها (٢) •

لقد أضاف كولى الى نظرية الجماعة ما اسماه بالجماعات الاولية• مثلما وضع سمنر تمييزا بين الجماعات الداخلة In - groups والجماعات الخارجة out - groups • وهناك ثنائية فى المصطلحات أيضا بين علماء الاجتماع مثل جامبلوفيتز Gumplowiez الذى ميز بين نماذج الجماعة الاجتماعية المتسمة بالوحدة الاخلاقية على عكس النظام الاجتماعى • كما ميز تونيز Tonnies بين المجتمع والمجتمع المحلى • وكذلك قدم كولى تفسيرا يعتبر رائدا فى ميدان الجماعة ، اذ وضع مجموعة مفاهيم لها فى علاقتها بمفهوم الذات الاجتماعية ، وغير ذلك من الالفاظ المستخدمة فى المذهب السلوكى فى علم الاجتماع (٣) •

ولم يكن كولى غير حذر من ان الجماعات الاولية تضحى أكثر حشدا ضد الكل• وخلال العشرين سنة التى عاشها بعد نشر أفكاره هذه عن الموضوع ، واجهته مشكلة كبرى من جراء انهيار الجماعات الاولية• فان عدم نمو شخصية Impersonality العلاقات الاجتماعية — مثل انهيار الشعور بالجوار وانكاره ووهن العزيمة وعدم وحدة الاسرة ، وتغير جزء من العلاقات والاتصالات ، وازدهار التجارة ، وتغير كيفية قضاء وقت الفراغ بالنسبة للشباب ، ونمو الامن فى الطبقات العاملة —

---

(١) مصطفى سويف ، مرجع سابق ، ص ١٩١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٩

(3) Don Martindale, Op. Cit., P. 345.

فلقد رأى كولى نمو المرتبة وتطور اشكال التجمعات غير الاوليـــة التى أخذت مكانها أكثر وأكثر محل حياة الجماعة الاولية • متمتعة بهـــذه الاشكال المختلفة • وحينما كتب كولى هذا كان يعتقد ان هذه العملية المعقدة تتضمن التفكك والفساد ، والانكار بصورة كبيرة •

وبالرغم من ان المفهومات القليلة فى علم الاجتماع ترجـــع فى أغلبها الى مفهوم كولى عن الجماعات الاولية ، فان بعض الجماعات التى تصورها قـــد يستبعدهـــا بعض العلمـــاء • فماكيفر Maciver مثلا لايضع جماعة الجوار ضمن فئة الجماعات الاولية اطلاقا (١) •

الذات الاجتماعيــــة : The Social Self

ينظر كولى الى المجتمع على أنه ظاهرة عقلية ، بمعنى أنـــه يمثل العلاقة بين الافكار وبين الشخصية • فالمجتمع موجود فى أى عقـــل باعتباره تأثيرا متصلا ومتبادلا لافكار معينة • وهو يوجد فى كل عقل كما يوجد فى عقل الجماعة •

وهنا يطبق كولى على المجتمع نفس المدخل الذى اتخذه جيمس James فى تفسير النفس ، وليس غريبا أن يستجيب تصور كولى عن النفس مع ما أطلق عليه جيمس بالنفســـ الاجتماعيـــة أو الـــذات الاجتماعية Social self • اذ تتمثل شخصية الصديق فى عقلى على أنها ـــ ببساطة ـــ مجموعة من الافكار التى تصاحب رموزا معينة عنه (٢) وبالمثل توجد ذات الشخص ببعض الافكار ، مثلما بين جميس

---

(1) E. Janday, Op. Cit., P. 177.

(٢) استخدمت كلمة «الذات self » أو «الانا ego» لدى الفلاسفة وعلماء الاخلاق بمعان مختلفة . ونحن يناقشها هنا من وجهة النظر النفسية كمقابلة لما يطلق عليـــه «بالنفس الامبيريقية empiricalself» أى تلك القابلة للملاحظة . وبذلك فهى تعى حقيقة سيكولوجية تخضع للدراســة .

حينما فرق بين الفاعل I والمفعول Me • وعليه فالذات الاجتماعية هى بعض الافكار التى يشار اليها بضمير المتكلم المفرد مثل «أنا» فى صيغة الفاعل I والمفعول Me وياء الملكيـــة mine والذاتيـــة My self وتتضمن «الذات» تلك الرموز الفردية التى تنتمى اليهـــا بصفة خاصة • وتتكون «نواة الذات The Core of the self» من خلال شعور الذات المتمايز • وتتكون الذات الاجتماعية من عـــادة التخيل المتصلة بشعور الذات المتميز هذا (١) •

أما عن طبيعة «الانا» فهو شعور أو خبرة شعوريـــة يمكن أن نطلق عليها «شعورى أنا My feeling » أو الشعور بالملكيـــة • Sense of appropriation وهذه المشاعر غريزيـــة ، أى تولد معنـــا ، ووظيفتها الرئيسية هى توحيد ضروب نشـــاط الفرد ودفعهـــا الى الامام (٢) • ومع أن «الانا» يولد معنا الا أنه يظل مبهما الى حـــد كبير • ولا يتحدد أو ينمو الا من خلال الخبرات التى يمر بها الشخص فاذا به يرتبط بالاحساسات البصرية والعضلية ، كما يرتبط بادراكاتنا وأفكارنا (٣) • وأول شىء يرتبط به «الانا» لدى الطفل هو محاولات الطفل فى أن يتحكم فى الاشياء الواقعة تحت بصره • فيرتبط بمحاولاته للتحكم فى أعضاء جسمه ، ثم بمحاولاته للتحكم فى افعال المحيطين به• ويرتبط «الانا» بعد ذلك بأى نشاط عرضى يبذله الطفل • أى بأى نشـــاط يهدف الى تحصيل غرض معـــين (٤) • والمجـــال الرئيسى لهذه الافعال هو الحياة الاجتماعية •

على ان هذه الخطوات التى ذكرناها الآن لم تكن كافية فى نظر كولى للدلالة على أن «الانا» اجتماعى فى صميمه ، وانما كانت كافية

---

(1) Don Martindale, Op. Cit., P. 344.

(2) Charles H. Cooley, Human Nature and the Social order, the Free Press, N.Y., 1922, P. 169.

(3) Ibid., P, 171.

(4) Ibid., P. 177.

فقط للاشارة الى أنه ينمو داخل المجتمع مرتبطا بانفعال الفرد وبقدرته على التحكم فى انفعال الآخرين • بيد أن ما يجعله اجتماعيا فى جوهره سببلان : أولهما : ان هذا النمو بالصورة التى وصفناها داخل المجتمع يجعل فكرة الذات عبارة عن شعور بما يميز حياة الفرد عن حياة الاخرين • وثانيهما ، ان الضمير «أنا» كما يستخدم فى الحياة اليومية يتضمن الاشارة الى الاخرين • ومن المشكوك فيه اننا نستخدم مصطلح «أنا» أى استخدام دون تفكير فى شخص آخر • ومن المشكوك فيه — كذلك — أن يبرز لدينا الشعور بالانا فى أية لحظة دون ان يكون مصحوبا بشعور معين عن ذوات الاخرين ، بل اننا لانكاد نفكر فى شىء ونربطه بالانا الا على أساس أن له دلالة اجتماعية• حتى جسمنا اذا فكرنا فيه على أنه جزء من «الانا» الخاص بنا ، فذلك لان له فى نظرنا وظيفة اجتماعية • ومثال ذلك ، ان أقول : أنا اطول منك ، أو ان تشعر فتاة بأنها جميلة ، أو أن يشعر رياضيا بأن بدنه قويا ، وهذه جميعا تصرفات تتضمن التسليم بأن للجسم قيمة اجتماعية (١) •

تلك النظرة الشهيرة لكولى التى تتضمن كثيرا من العمق فى الملاحظة والتأمل عند تناوله للطبيعة الاجتماعية للذات والشخصية ، حتى أضحت نظرته بمثابة جزء أساسى للنظرية السوسيولوجية المتسقة فى التنشئة الاجتماعية (٢) •

يتساءل كولى : كيف يتعلم الطفل معنى كلمة «أنا» ويجيب على ذلك بقوله ، أنه يتعلم معانى الكلمات الدالة علىالعاطفة والانفعال ، مثل تعلمه الكلمات الدالة على الرجاء والاسف والاسى والاشمئزاز •

---

(1) Cooley, Ibid, 183.

وثمة عرض لكتاب كولى «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى» انظر مصطفى سويف ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ — ١٨٩ .

(2) L. Wilson & W.L Kolb, Sociological Analysis, Harcout Brace & comp., N.Y. 1949, P. 207.

وذلك أولا بممارسة الخبرة الشعورية نفسها التى تشير اليها أى كلمة من هذا القبيل ثم بأن يفترض وجود هذه الخبرة لدى الاخرين الذين يحيطون به ، وأنها مقترنة بتعبير معين • ثم بأن يستمع الى الكلمـة التى تصاحب دلالتها • وبهذا تنتج مختلف جوانب الانـا من خلال التعامل مع الاخرين (١) •

ومن أهم جوانب «الانا» التى تقع داخل نطاق اهتمامات عالم النفس الاجتماعى ، مايعرف باسم «الذات المنعكسة Reflected Self» وكأنما تنعكس الذات على سطح مرآة ، وهذه المرآة هى المجتمع • وتوضح الذات ـ هذه ـ ما تبدو عليه فى نظر الاخرين (٢) ، الا أن النظرة التحليلية تكشف عن ان هذه الذات تنطوى على عناصر ثلاثة هى :

أ ـ تخيلنا لما تبدو عليه فى نظر شخص آخر •
ب ـ تخيلنا لحكم الاخرين علينا •
ج ـ ثم ما يترتب على ذلك من شعور بالفخر أو بالمذلة •

والملاحظ أن معظم مظاهر سلوكنا فى مختلف المواقف الاجتماعية، تكون خاضعة لمقتضيات هذه الذات المنعسكة (٣) ولذلك يميز كولى بين الشعور الذاتى Self Consciousness والشعور الاجتماعى

---

(1) Ibid, P. 192.

(٢) ان قضية توماس Thomas عن مشكلة علـم الاجتماع علـى أنها احدى نتائج تأثير المجتمع والثقافة على الفرد ، أو الفرد على المجتمع والثقافة ، تطابق نظرية كولى حيث كانت هـذه المشكلة ماثلة لديه فى العقل وذلك حينما بين تأثير الجماعة الاولية فى ارتقاء الذات ، وحينما أوضح ايضا تأثير مثل الشخص فى التنظيم الاجتماعى والنظم الاجتماعية والرأى العام .

Don Martindale, Op. Cit., P. 349.

(3) Gooley, Human Nature & The Social order Op. Cit., P. 184.

Social consciousness والشعور العام Public Consciousness (١)

فالاول : هو ما أفكر فيه عن نفسى ، والثانى : هو ما أفكر فيه عن الناس ، والثالث : هو تجمع وجهات النظر عن الشعـــور النفسى والشعور الاجتماعى لكل أعضاء الجماعة المنظمة والمتكاملة فى جماعـــة ذات اتصال Communication Group وعلاوة على ذلك فان نماذج الشعور الثلاث انما هى اجزاء فى كل عضوى • حتى الحياة الاخلاقية للاشخاص ، فانها جزء من وحدة المجتمع العضوية ، ومن ثم تصبح المعرفة الاجتماعية اساسا للاخلاقيات ، وتصبح لها أهمية فى العملية الاخلاقية ذاتها •

حقيقة أنه يوجـــد بالفطرة شـــعور غريزى بالذات Self Feeling لكن لايمكن للانسان ان يكون واعيا بذاته Self consciousness الا اذا أصبح ذاتا اجتماعية Social self, فالمجتمع هو الذى يضفى على الفرد الشعور الحقيقى بالذات • وبفضل الحياة الاجتماعيـــة تتحول النزعة الفطرية المتعلقة بالذات الى تأكيد اجتماعى لذات الفرد• وبذلك يصل كولى عن طريق تحليل مشاعر الذات ومراحل تطورهـــا الى نوع من الواقعية الاجتماعية • ومعنى هذا أن الشعـــور بالذات يتضمن موقف الذات فى الحياة الاجتماعية من خلال العلاقـــات التى ينسجها المجتمع حول أفراده (٢) •

ان تصور كولى عن «مرآة الذات Looking Glass Self هو شكل خاص لما وصفه جيمس بالنفس الاجتماعية ، مع أن الاخير قد قدم تفاصيلا أكثر • ولقد تكلم كولى عن تطور علم الاجتماع منطلقا من فكرة جيمس عن الذات الاجتماعية • الا أن كولى اراد « بمرآة الذات» أن يطور النظرية العامة للمجتمع • كما توسع فى المذهـــب

---

(1) Emory S. Bogardus, The development of Social Thought, Op. Cit., P. 493.

(٢) مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣١

السلوكى فى علم الاجتماع عن طريق الاهتمــام بدراسة الجماعــات والتنظيم الاجتماعى (١) •

وبهذا يتضح الطابع السيكولوجى لعلم الاجتماع اكثر وأكثر فى أعمال كولى • فلقد شرح تلك القضية التى مؤداها ان الانسان يعمل على تطوير فرديته وتنميتها ، وأن «طبيعته» تكمن داخل المجتمع فقط فالذات Ego فى استعارته الشهيرة هى «ذات منعكسة على مرآة» على تطوير فرديته وتنميتها ، وأن «طبيعته» تكمن داخل المجتمع فقط• وبهذا الطريق ينمو «الوعى الذاتى» من «الشعور الذاتى» (٢) •

ويتحدث كولى عما اطلق عليه «نحن We » أو الذات الجماعية Group self (٣) وهى شــكل من أشكال نمو «الانا» يتحقــق اذا ما توافرت شروط معينة اهمها : عضوية الفرد داخل جماعة بعينهــا يسود التعاون اعضاؤها ، كما تتعارض مع غيرها من الجماعات • ومثلما يعتمد «الانا» فى ارتقائه على التحكم فى افعال الاخرين ، مما يمكنه من الشعور بامتلاك هذه الافعال ، كذلك «النحن» يعتمد على الشعور بما يشبه الملكية المتبادلة بين «الانا» والاخرين • ويمكننا على هــذا الاساس أن نتصور عددا من الذوات الجماعية يساوى عدد الجماعات التى يدخل الفرد كعضو فيها ، فهناك ذات اجتماعية مترتبة على عضوية الشخص فى جماعة من الاصدقاء ، وذات جماعية أخرى مترتبــة على عضويته فى ناد معين ، أو فى طائفة دينيــة معينة ، أو فى مدرســة فكرية بعينها •• وغير ذلك •

---

(1) Don Martindale, Op. Cit., P. 344.
(2) J.H. Abraham, The Origins and growth of Sociology, Hazell watson & Viney Ltd., London, 1973.
(3) Cooley, Human Nature & the social order, op. cit., P. 209.

المثل الاولية : Primary Ideals

ترقى الحياة فى الجماعات الاولية الى مرتبة مثل اجتماعية تنبع من تشابه الخبرات ويكون لها صفة العمومية بالنسبة الى الجنس البشرى ، وتحدث عملية الرقى هذه بطريق تلقائى كلما تحرك وارتقى التقدم والنمو الاجتماعى • ويجتهد الناس خلال كل الانساق الاجتماعية رغم عدم تبصرهم احيانا ، فى التحقق من الموضوعات القائمة فى هذه الانساق عن طريق خبراتهم المألوفة فى الحياة الاولية (١) •

فمن اين نحصل على افكارنا عن الحب والحرية والعدالة وما شابه ذلك ، لكى تطبق هذه الافكار على مختلف المواقف الاجتماعية ؟ اننا نحصل على الافكار ليس عن طريق الفلسفة التجريدية ، ولكن اعتمادا على الحياة الواقعية المستمدة من الجماعات الاولية كالاسره أو جماعة اللعب مثلا • والملاحظ أن الجنس البشرى يحقق ذاته من تلقاء نفسه خلال هذه الافكار وخلال هذه الجماعات الاولية ، اذ يرضى حاجاته الاساسية بطريقة ميسورة وحرة • وتختلف هذه الافكار وفق الجنس ونوع الحضارة السائد والنظم الاجتماعية • ومن هنا فثمة حاجة ضرورية الى رعاية خاصة للجماعات الاولية التى تمدنا بالافكار •

ولم تكن الجماعات الاولية مربى الطبيعة البشرية وحسب وانما هى ايضا منبع المثل الاولية التى بدونها نتساءل عن جوهر وحقيقة التجمع البشرى كالصدق والامانة والخدمات والشفقة واتباع القانون والحرية • وهذه النقطة بالذات لاتجعلنا نتأكد من اننا لانستطيع الوصول الى هذه المثل عن طريق الفلسفة المجردة ، فنحن نستوعبها فى العلاقات المباشرة • وللتأكيد فعلاقات الجماعة ليست موحدة من خلال التجمعات والاصول Races أو العادات ، فالجماعات الاولية منتشرة عن طريق الاحساس المتزايد بالوحدة الاخلاقية أو بشعورنا

---

(1) Cooey, Social organi zation, Op. Cit., PP. 32-50.

نحن . We فان هذه الروح القوية «نحن» تشعرنا بجزء أكبر من مجرد التكوين ، وبصفة أعم من خبرات الكثير منا ، حيث نرى بتوسع روابط كثيرة فى البلدة التى نعيش فيها ، والاصل Race الذى ننتمى اليه وحتى العالم الذى نحن جزء منه . وفى هذه الجماعات ينسى الفرد نفسه ، ويحصل على تعبير اعلى من ذلك ، يقول كولى «انها روح فقيرة للفرد الذى لايشعر بالحاجة ليعبر بنفسه عن هذه الجماعة الاكبر » (١)

فالجماعات الاولية التى تتميز بعلاقات الولاء والعلاقات الوثيقة، تعطى الخبرات الاكثر حيوية والاكثر أهمية بالنسبة للانسان ، وان المثل العليا عن الحياة كلها ممكنة ومحكومة عن طريق وجود هذه الجماعات (٢) .

ان المثالية هى نمو العلاقة المألوفة والافكار العادية حتى تصبح جزءا من الطبيعة البشرية ذاتها . وتضحى فى شكلها العام على أنها جزء من الكل الاخلاقى أو المجتمع المحلى الذى فيه تندمج العقول الفردية ، وتوجد قدرات الافراد على درجة عالية من التعبير المناسب. وتنمو المثالية لان تلك الافكار توضع فى عقولنا عن طريق تخيلاتنا عن أفكار واحساس اعضاء الجماعة الآخرين ، كما يحدث هذا فى الجماعة ككل . ولذلك نضع كثيرا من الاهداف كجزء من ذواتنا وبالتالى فانها تتوحد بشعور الذات عنها .

وبالرغم من عدم وضوح اية مثالية لدى الاطفال ولدى البربريين ، فانها تبدوا عندهم بقدر بسيط للغاية ، اذ يرون أنفسهم ورفقاءهم كأفراد متميزين ومختلفين عن غيرهم ، ويرغبون فى ان يكون «نحن» متجانسا وناضجا . فكيف أن الفرد ذو العواطف يدمج نفسه فى اسرة ورفاق شباب ؟ ربما يحدث ذلك عن طريق خبرته بكل شىء .

---

(1) E. Jandy, Op. Cit., P. 175.

(2) J.H. Abraham, Op. Cit.,

وبذلك يمكننا الشعور بتوسع هذا الكل فى مجتمعنا وجنسنا وعالمنـــا الذى نعيشه •

فحياة الاسرة المتجانسة نموذج قديم للوحده الاخلاقية ويعطى هذا النموذج الفاظا كثيره وتصورات متعددة ، يسمها بصفات عديدة كالاخوه والشفقة وما اليها • ويندمج الاعضاء بعلاقات محددة فى ذلك الكل الذى يشارك فيه كل سن وكل جنس بطريقته الخاصة • وكـــل يعيش فى اتصال قـــد يكـــون متخيلا فى عقـــول الاخريـــن ، كمـــا يوجد لدى كل منهم مستوى معين من الطموح والاحساس ، ولديـــه دراية بدرجات الصواب والخطأ وبدون جمود أو تزمت لهم وحدة سعيدة وحره ومنتعشة فى حياه عامة ، وتتجه هذه الوحدة الاخلاقيـــة نحو طموح عنيف • لكن هذا الطموح ينبغى ان يوجه من أجل نجاح الجماعة ، أو على الاقل ينبغى ألا يكون معوقا لها • فالوحدة الاخلاقية المثالية ، يضعها كولى موضع الام ، وهى هكذا بالفعل ، لكل المثـــل الاخلاقية (١) •

ويرى كولى ان السلوك البربرى أو المتوحش فى غالبيته قد يمجد مثالا معينا ، باستثناء حالات قليلة • الا ان الاكيد أن ثمة درجة من الولاء ومن الشفقة (٢) •

فالصدق ان الاحساس تجاه أعضاء الرفقة الاخرين ، انما لهمـــا صفة العمومية فى المثالية البشرية ، وهذه المثالية لا تتضمن اى حب مجرد للصدق فى حد ذاته ، بل أنها تذهب الى الاحساس بالوحـــدة من خلال الخدمة التى يؤديها الفرد مع رفاقه • واذا كـــان الهدف الاساسى لنشاط الفرد لايمكن أن يذهب أبعد من خدمة الكـــل فليس هناك أكثر من نظرة للشعور بأن الارادة موجوده حيثما يوجد الكل •

(1) Ibid, P. 35.
(2) Ibid, P. 37.

ويعرف الجنس البشرى كله «الشفقة» كقانون مشروع من حقوق الجماعة • وباشتراك العقول الفردية نجد مزيجا من التعاطف فكل جزء يسعى لتحقيق حياته وحياة غيرة ، حيث أن السعاده لذه ، والبؤس ألم بوجه عام • ان ذلك يعتبر تبسيطا وأكثر جاذبية ، وانتشارا فى المثل البشرية ، وعليه ينبع دورها من خلال الطبيعة البشرية ذاتها •

وعلى هذا الاساس ينظر الى المثال Ideal عن طريق الارتباط بين الحاضر والماضى ، ولدى جميع الناس • ونستطيع أن نستكشف ذلك من خلال حياتنا الواقعية فحينما يعمل الناس سويا فى الحرب أو فى الصناعة ، أو فى حفلات التكريس أو الرياضة أو لايفعلون شيئا، فهم يكونون علاقات اخوية أو علاقات صداقة وقد لايوجد مثل ذلك فى ايامنا هذه ، اذ ثمة اختلاف للانشطة علاوة على الشعور بذلك • ومن هنا أصبحت فكرة التعاون دون صداقة فكرة مألوفة •

والجماعة كالفرد ، تتضمن فيها دوافع خبرات الصراع • ومثلما يشعر الفرد بالحاجة الى تحديد ضرورياته حيث يشكل سلوكه كيما يضمن الاستقرار ، فهكذا الجماعة تحتاج الى قانون أو قاعدة من أجل تحقيق نفس الهدف ، وليس لكونه قوة فائقة تستعيد بها توازنها • الا أن تشابه جميع أعضائها يدعوها الى أن تضع مقياسا يحدد ما ينبغى أن يفعله كل عضو فيها • وثمة حقيقة سيكولوجية مؤداها انه حينما يوجد الكل الاجتماعى فيجب أن يعاقب على الاخطاء ، وأن الحاجة العامة هى التماسك من خلال القانون ، حيث ينبغى على كل فرد أن يمتثل ويطيع • وتختلف الحاجة الى تلك القواعد بأختلاف الدوافع ، ومع ذلك فهى تفصح عن ذاتها بصورة واضحة فى جماعة اللعب • وليس من شك فى أن لكل عضو افكاره عن العدالة التى قد تطورت منذ العاب طفولته — وأحيانا تتشابه افكاره مع ما يفعل بناء على خبراته

ويرسم الجميع من خلال خبراتهم مستويات الطموح الفردى ومحددات سلوكه •

وهناك احساس عام يختفى وراء قانون أو قاعدة ايجاد اساس ديموقراطية الطبيعة البشرية • ومع ذلك فالديمقراطية الصريحة ليست أولية أو عامة ، اذا ما قورنت بالحاجة الى القانون • الا أنها أبعد من كونها وسيلة تبين القاعدة المطلوبة ، كما أنها ليست أكثر من ان تكون خضوعا للسلطة من حيث طبيعتها (١) •

واذا ما نظرنا الى أشكال المذهب المثالى الذى يعطى تقييما لمعظم السلوك البشرى • فسوف نرى أن أساسياتها متمثلة فى المثل الاولية • وفى وقتنا الحالى — على ما يقول جاندى — نجد هذه الحقيقة متمثلة فى نسقين كبيرين وهما الديموقراطية والديانة المسيحية وان تطلع هذين الشكلين للجماعة الاولية والمثل الاولية أمر مقرر • وقد طرح كولى سؤالا هاما مؤداه : لماذا لاتكون الطبيعة البشرية أكثر نجاحا فى انجاز تطبيق هذا الشكل البسيط والمثل المعقولة على مجال واسع ؟ بكل تأكيد أن هذا ليس فى الامكان • ذلك لاننا لانريد توسيعها أكثر من ذلك • وليس ثمة حقيقة تبين يقظة الشيخوخة وحسب حيث اننا لانستطيع الحياة فوق مثلنا • فهناك صعوبة كبرى فى ايجاد التنظيم والنسق •

وبالرغم من النوايا الطيبة فى مواقفنا ، فان الكثير منها قاسى ومتوحش بالنسبة للافراد • وهكذا تتحطم المثل الاولية أو محاولة اجراء ذلك ، وسوف يظهر لنا ببساطة وضآلة بناء الجماعات ، حيثما يقابلها أقل اضطراب من ناحية اداء وظيفتها على الاقل • الا أن نسيج

---

(1) Ibid, P. 45.

العلاقات انما يتوسع ويتباين بكثرة (١) •

ان الحرية — ايضا — وجه من وجوه المثال الاجتماعى Social Ideal الذى يتضمن الفردية • فالكل الذى ننتمى اليه يتأثر بأختلاف آرائنا • كما أن دوافع الطموح والمدح لها أثرها عليه وتدخلها معه • فرغباتنا وأهدافنا التى تحددها الطبيعة يمكن أن تظهر أولا ثم تحكم فيها القيم • وهكذا نشعر بالحاجة الى التعاطف مع حاجات الاخرين المشابهة لحاجاتنا •

والآن ونحن بصدد تكوين هذا المبدأ الذى يختلف عن كل تقييم ، نرى أن المجتمع كل عضوى نام ، وليس هناك فرد يستطيع ان يقطع ذاته عن المجتمع • كما ليست هناك حرية منفصلة عن التنظيم، وليس هناك — ايضا — عقد اجتماعى يمكن أن يحدده الفلاسفة • فعند التطبيق تغيب عنا اشياء كنا نتخيلها من قبل • واذا كان حقيقيا أن الطبيعة البشرية تتطور من الجماعات الاولية التى فيها يتشابه كل فرد نستطيع أن نذهب الى نتيجة ونظرية عن تشكيل الحرية الطبيعية عن طريق التعاقد Contract .

ولم ينظر كولى الى حقيقة ان الجماعات الاولية هى موضوع لكلتا وجهتى الاصلاح والفساد ، ولذا تقتضى الضبط الدائم والتربية، وفى هذه الحالة كان واقعيا أكثر من غيره من الكتاب • وأن هناك بعض التلاميذ المنحرفين — على سبيل المثال — ومن هنا يمكن ادانة كولى ومذهبه المثالى فى الصورة التى اضفاها على الجماعة الاولية كالعصابة Gang الا أن الدراسة ذات المعنى — من وجهة نظر كولى — تبدو فى دور العصابة فى حياة جماعة اللعب بالنسبة للصبى ، والتى يظهر انه حينما يقف طبيعيا على أكثر تأثيرات بناء الشخصية فى

---

(1) Don Martindale, Op. Cit., P. 345.

الجماعات الاولية ، فانه يعرف انهـا يمكن أن تنقل المثاليـات غير الصحيحة •

النظـم والشخص : Institutions & The person

يتحدث كولى عن أثر النظم الاجتماعية فى الشخص ، ولذا يحاول توضيح حقيقة العلاقة بينهما • ويتحدد النظام ببساطة على أنه يعمل على تكوين شكل العقل العام • الذى لايختلف فى طبيعته عن الرأى العام ، بالرغم مما يبدو عليه من تعدد عاداتـه الدائمة والواضحـة والرموز المتبادلة الاعتماد من جهة والمتباينة من الجهة الاخرى •

وعادة ما تكون النظم الكبرى منظمة للافكار الانسانية الطبيعية التى تقوم حيثما تكون فى سن معينة على موضوع خاص ، وهى تحدد الاشكال التى من شأنها استمرار احساسنا ومعتقداتنا وعاداتنا والرموز التى نستخدمها • وتوجد حينما يكون ثمة اهتمام عميق وثابت يلفت انتباه الناس ، فاللغة والحكومة والمعبد والقوانين والعادات والاسرة والتعليم والصناعة ، بأنواعها ، كلها نظم ، لانها تعمل عن اشبـاع حاجات دائمة للطبيعة البشرية (١) •

لايمكن فصل هذه النظم حيث ان اشكالهـا العامة وأفكارهـا متجانسة ، رغم اختلاف اتجاهاتها ، وحيث أنها — كما يرى كولى — انساق حسية Opperceptive systems أو اتجاهات منظمة للعقل العام • ونحن نلاحظها كاشياء فى حد ذاتها ، بقصد التجريد فقط • والمعروف ان النسق الاجتماعى يعلو كل شىء • ويتمثل النظام لـدى الفرد فى كونه عادة يتبعها عقلا وسلوكا • ويتمثل له لاشعوريـا فى غالـب

---

(١) اعتمدنا فى عرض هذه الفكرة على :

Edgar F. Borgatta & Henry J. Meyer, Sociological Theory : Present - day from the past, Alfred Aknopf, N.Y., 1956, PP. 252-257.

الاحوال • وذلك لان النظام عام بين الجماعات جميعها • فهو يعبر عن التصور الذاتى لما نضعه من تعميمات • ولذلك فالنظام قائم بصرف النظر عن الزمان والمكان •

ويؤثر الفرد — عادة — فى النظام ، كما أنه يتأثر به ، فهو يضبط سلوكه من خلال التقاليد التى تغرس فيه منذ طفولته الا أنه — فى نفس الوقت — يتحكم فى شخصيته التى تتشكل عن طريق قوى أخرى لكى يتشابه مع غيره من الناس ولكى يسايرهم فيما يحدث لهم من تغير • هذا يعنى ان «الوراثة» تعتبر عاملا فى هذا التشكيل • وهذا العامل موجود فينا منذ الميلاد وحتى نتصل بالاخرين ونتأثر بهم ونؤثر فيهم ، كما يؤثر فينا عامل آخر وهو اختلاف المجتمع عن الشخصية الفردية • بمعنى العلاقة بين الطبيعة الفردية والكل الذى نعيش فيه ونكون اعضاء • أى البيئة التى نعيش فيها • أما العامل الثالث فليس متمثلا فيما بينه وبين المجتمع بصفة عامة من علاقة • وانما تلك العلاقة بينه وبين النظم الخاصة • ويعتبر هذا العامل أكثر العوامل تأثيرا فينا وتأثرا منا • فمنذ ميلاد الطفل وتأثير المجتمع عليه واضح للعيان • ويتمثل هذا فى عامل الاصل أو وراثة الحياة فى تناقضه مع عامل التقاليد والاتصال والتنظيم الاجتماعى • كما يتمثل ايضا فى عدم الخضوع لمجرد التطور البيولوجى للانسان ذلك التطور الذى يتناقض مع الكل الاجتماعى المتطور الذى ينتمى اليه الفرد • وفى هذا يورد كولى مثالا مؤداه أن الطفل لايضحك لمجرد المحاكاة ، وانما لانه يشعر بلذة وسعادة (١) •

وأثناء نمو الطفل وتطوره ، نستطيع أن نرى تفاعلا بين نموذجين كلاهما قديم وثابت ، مع ان تأثير كل منهما يختلف نسبيا حسب اختلاف الافراد ، وهذين النموذجين هما الوراثة والبيئة • ويتطور

---

(1) Ibid., P. 41.

الطفل بسرعة حيث يصبح شخصا وعضوا فى النظـــام الاجتماعى • ولذلك لايمكن فصل الفرد عن المجتمع فالعلاقة بينه وبين النظم السائدة علاقة قوية • ذلك لان النظام الاجتماعى يتسم بالنضـــوج والتميز كجزء من البناء الاجتماعى وهو موقوف على طبيعة الاشخاص والادوار التى يلعبونها ، فكل منهم يتخصص فيه كجزء منــه • ولذلك يمكن اعتبار الجانب القانونى خاصا بالمحامى والجانب الدينى لرجل الدين والجانب التجارى للتجارى وهكذا يمثل كل شخص جزءا أو جانبا منه• ومن هنا يمكن القول بأن الروابط هذه تعبر عن البناء الاجتماعى ككل وتكون هذه الروابط وتلك الاجزاء والجوانب حرة من حيث دوافـــع الطبيعة البشرية • ويتمثل كل شخص أكثر اتجاهات الطبيعة البشرية ذات الغايات الواضحة • ويبدو النظام الاجتماعى على أنه مسايرا للتطور أكثر من تحويله لاى شعور شخصى ، اذ يستطيع الفرد أن ينقد وقد يكون خاطئا وقد يهاجم وكثيرا ما يفشل ، الا أنه يحاول أن يأتى هجومه بتغيرات ممكنة (١) •

وبالرغم من وجود النظم بطرائقها العامة وبأشكالها الآلية فى الحياة ، فانها لازمة فى حد ذاتها كعنصر من عناصر الحرية الشخصية، وحتى يتسنى ان يدخل الفرد فى حياة نظامية يتكيف معها • ويعتبر الجيش نموذجا من تلك النظم الالية • وقد يكون واضحا ان نرى أن قوانين المحاكاة Laws of imitation لتارد تبين أن هناك من يخترع أو يبتدع أو يعارض العادة العامة معتمدا على اختلاف السن أو القوة •

وان الاتجاه نحو التغير يعتبر موضوعا للرأى العام أو لاى شكل من اشكال عقل العامة Public mind • فالتقاليد التى نحاكيهـــا تأتى الينا من الماضى ، بيد أن ثمة اختراعات تأتينا فى الآن ذاته • ولذا

---

(1) Ibid., P. 255.

يقال أن هناك محاكاة العادة Custom imitation ومحاكاه الموضة Fashion imitation . كما يستخدمها تارد احد علماء الاجتماع الفرنسيين فى محاولته الفصل بين السمات الاولية لمختلف المجتمعات (١)

ونظرة شاملة توضح ان المحاكاة والاختراعات ما هما الا مجرد تصورين لنقل الافكار ، وما الجماعات الاجتماعية الا نتاجا لهما . وقد يعتمد عقلنا على الوجه التاريخى لحادثة معينة لنعتقد أنها من ضروب المحاكاة وقد تعتمد على الوجه المؤقت الواضح فى الاختراع . ومع ذلك فالعملية واحدة فى اساسها . ويبدو التعارض بينهما — فقط — فى ظهورها من ناحية خاصة ، والنظر اليها من هذه الناحية بالذات دون الاخرى ، فكل التأثيرات مؤقتـــة على ان جذورهـــا تمتد الى الماضى (٢) .

ان تكيف الفرد مع النظم الاجتماعية السائدة . هو ما دعا كولى ان يتحدث عن الامتثال ، وعدم الامتثال (٣) . ويوضـــح ذلك بأن الامتثال ربما يعرف كمسعى يؤكد مستوى الجماعة . فهناك محاكاة اختيارية لاشكال السلوك الشائعة تلك المحاكاة المتميزة عن المزاحمة Rivalry والاشكال العدوانية الاخرى للمفاضلة Emulation عن طريق وجود اتجاهات سلبية نسبيا تهدف الى الحصول على شىء أكبر من مجرد ظهورها . وفى الجانب الاخر فهى تتميز عن المحاكاة غـــير الاختيارية عن طريق تركيز الانتباه على الجوانب الآليـــة . وهكذا فالتخاطب باللغة الانجليزية ليس متمثلا لكثير منا فنحن نتكلم ما نرغب قوله ، بالرغم من عدم اتاحة الاختيار لنا فى مسائل معينة .

ويعتبر «الاحساس» بمثابة المحرك الاساسى فى الامتثال وقد

---

(1) Ibid, P. 256.
(2) Ibid., P. 257.
(3) Ibid., PP. 433-435.

يكون هذا الاحساس واضحا بجلاء أو أقل وضوحا عندما يصاحب الالم أو التعب من عدم الامتثال . فهناك من الناس من يجد مشقة فى الذهاب الى العمل ليلا ، ويكون منبع الالم حينئذ ظاهرا من أن يكون شعورا مبهما لحب الاستطلاع الذى يتخيل الفرد اثارته . وقد يبتعد عن طريق ما لشعوره باضطراب الاخرين من رؤيته نظرا لمابينه وبينهم من بعد اجتماعى . وهكذا تعمل كل جماعة على الزام كل عضو من اعضائها على تمثل الحوادث التى تهدف الى اغراض خاصة محددة . والكلمة التى تفرض علينا التلفظ بها ، ما هى الا مجرد تعبير عما لدينا من دوافع وخاصة عندما لاندرك لها سببا .

انها تبدو فى ان عدم الامتثال يعتبر دافعا عدائيا وذلك لطرائق السلوك التى تعود الى جهل اخلاقى ، فنحن نعزز نسق العادات من خلال الافكار . كما يعتمد أى شىء نفصح عنه على النظرة الى الطريقة المرغوبة ، تلك النظرة التى تزعج فينا ما يسبب الاستياء . ولهذا يتمثل اتجاهنا الاول فى الافصاح عما يخصنا ، اذ نتعلم كيفية الاستمرار فيه حينما ينبغى ان نتعلم . وكذلك لانه يبدو ممكنا فى ايجاد سبب يبرر عدم تعارض هذا الاتجاه معنا . فالمبتدع أو المخترع Innovator بامكانه الاختراع والابداع ، ويستطيع أى انسان ان يكون مبتدعا ، وهناك عبارات اللوم التى توجه الى الاخرين ، وهى كثيرة الاستخدام كعقاب فى النسق الاجتماعى . وفى فترات سوء التنظيم Disorganization (١) والتغير Change يتعلم الناس السيطرة نسبيا على سلوكهم من خلال عدم تجنب المألوف وخاصة ما تسيطر عليه وجهات نظر متصارعة مع المعتقدات .

---

(١) يترجم المصطلح Disorganization فى العادة «بالتفكك» الا اننا نرى ان ليس ثمة تفكك يصيب البناء الاجتماعى كلية ، انما هناك «سوء تنظيم» فى مقابل التنظيم Organization الذى يدعو الى التوازن فى البناء ، ومع ان كلمة «سوء» عبارة معيارية قيمية ، الا انها اكثر ملاءمة لطبيعة ما يعنى به المصطلح .

فالامتثال هو روح التعاون واحدى وظائفه هى المقدرة الاقتصادية. وتعتمد هذه العملية بمختلف مستوياتها على الافراد ، كما تعتمد على تقييم انتاج الافكار والخبرات المتراكمة ، وحينما تقل هذه العملية فقد يكون لذلك تأثيرا على الكل . ولذا فوجود الامتثال ضرورى من أجل الحياة . ان العقل لايدرك ان احدا غير ضرورى لهذه العملية فاذا قلدت انا المخاطب فى طرائقه ، فان ذلك يتسلسل الى آخرين . ويكون لدى مقدرة عقلية أكثر للوصول الى اهداف أخرى . ولذا يقال ان الامتثال يعتمد على العبقرية Genius الا أنه يعتمد — كذلك — على الطبيعة البشرية . ويتحصل لنا ذلك عن طريق اختبار وتحصى الماضى ، ويتخذ مستويات عليا أو دنيا مستخلصة من النمو والتطور الاجتماعى. وقد يكون ثمة ما يدعو الى التحريض على انتهاك الامتثال ، ولكن هناك حالات تدعو الى الامتثال .

ويضع كولى مفهومان مرتبطان بعدم الامتثال ، **أولهما** « دافع التمرد Rebellious » أو التخمين الضدى Contrary suggestion الذى يقود الى تجنب توقعات مستويات روح التعارض ، دون الرجوع الى مستوى آخر . **وثانيهما** هو استئناف المستويات الحاضرة والعادية لتلك التى تبعد نسبيا وتكون غير عادية وغير مألوفة . ويعمل هذين التصورين معا . يقود احدهما الى تشكيل مختلف أوجه الحياة لما يذهب اليه الناس ويحددونه جزئيا عن طريق التناقض الذاتى أو عن طريق تخيل افكار وعمليات الاخرين الذين تختلف طرائقهم فى الحياة عنا . ويمكن النظر الى التصور الثانى على انه أقرب الى التمثل وأبعد من الامتثال . فالتمرد ضد التأثير الاجتماعى جزء من عدم الامتثال هذا . ومن يبدو على أنه خارج عن العملية الاجتماعية ، كان فى اتجاه آخر لفترة معينة . فاذا رفض الابن — مثلا — مهنة والديه واصدقائه، فانه سوف يفكر فى مستوى ارقى من مستواهم ، وينتمى الى عمل قد يكون غريبا عنه احيانا أو ضده احيانا أخرى ، مثل العمل فى الفن أو العلم . ويحدث هذا — فى الواقع عندما يحدد الفرد وضعا فى الحياة

لم يكن مرسوما له • الا أنه من خلال مصاحبته لرؤسائه ، أو من خلال قراءته لكتاب يعرف أو يسمع دقائق عمله • وتصبح البيئة من حيث مدى الاحساس بالتأثير الاجتماعى ، بعيدة عن كونها شيئا واضحا ومحددا ، وقد تكون مجرد افتراض سابق فقط •

وفى بيئتنا الواقعية تخيلات من هذا النوع ، غالبا ما تتمثل فى افكارنا ، وقد تكون فى حالة قوية وعنيفة تعمل على تنمية العقل • وهى اشبه بشىء مختلف عما هو فى احساساتنا • وتتحدد الجماعة التى ننتمى اليها ، ونخلص لها والتى نحاول الامتثال لمستوياتها ، تتحدد عن طريق تشابه اختياراتنا ، تلك الاختيارات التى تتضح من خلال التأثيرات الشخصية المعروفة لدينا • وأبعد من ذلك فنحن نختار أى مشاركين لنا فى وضوح وجلاء ، ومن هنا يتضح معنى عدم الامتثال •

ان الجميع غيرممتثل ، بمعنى ان التشابه أو البناء يجب ان يعمل عن طريق اختيار العلاقات البعيدة ، والتناقض السافر عنها ، وقد تكون هذه العلاقات غير مثمرة فتعنى لاشىء بجانب الشخصية الخاصة • ولذا فليس ثم خط محدد بين الامتثال وعدم الامتثال • وعليه فهناك خصائص وطرق غير عادية لاختيار المشاركين لنا وانضمامهم فى جماعات •

العمليــة الاجتماعية : Social Process

اجرى كولى تحليلا للعملية الاجتماعية • حيث ذهب الى انها ليست اعادة لاطائل تحتها ، أو صراعات قاسية ومخربة ولكنها نمو دائم ومتجه الى الامام بحيث تنجم عنها مخلوقات بشرية وعقلية ومتعاونة • وعندما يصبح عنصر الصراع مفيدا ، بحيث يعمل على يقظة وتوجيه الانتباه البشرى ، ومن ثم يقود الى الحيوية ، فانه يكون محدود بعامل مناظر هو عامل التعاون والتنظيم الذى بواسطته ينبغى أن يكيف المناضلون ذواتهم اذا ما أرادوا لانفسهم النجاح •

ويعتبر التدرج الطبقى الاجتماعى معوقا ، أنه يعزل الاتصال • ويلقى بالهيمنة الاجتماعية الى ناحية ثابتة ، وهى القلة التى علـى اتصال وتحجب الاغلبية فى شرك الغموض ويعمل كل من جماعـات الجوار والاباء الفاسدين والعلاقات العنصرية الرزيلة كلها تعمل انتاج التدرج الطبقى وازدياد مدى التعوق •

لقد رأى كولى انه فى العملية الاجتماعية يصبح العنصر النظامى أكثر اهمية مثل العنصر الشخصى • اذ تورث النظم موهبة الماضى الى الافراد • ويتسمون بعدئذ بالثبات • وفى نفس الوقت ، اذا كان ثمـة ضبط عقلى فأنهم يدعون حرية الطاقة من أجل ضمانات قليلة • ويؤدى نشاط الفرد بصفة عامة الى عدم رضاه عن وضعه فى النظم • وهكذا يبدو سوء التنظيم منبثقا من رد الفعل ضد شكلية النظام الذى يفصح عن ذاته بواسطة الاشخاص ذوى الطاقة • ومن الممكن ملاحظة ذلك عند عدم وجود اتصال بين الفرد والنظام • وتشير شكلية النظـام الى أنه فى حالات معينة يكون ثمة افراط فى عملية الاتصال (١) •

كما أن المفهوم الاقتصادى للقيمة قد اجرى تحليلـه فى ضـوء الاتجاه الفردى ــ حيث تنبثق الرغبات الاقتصاديـة من «العمـق الغامض للعقل الفردى الخاص» • وبالنسبة لهذا التفسير فقد أوضح كولى الرغبات والاهتمامات والقيم الاقتصادية على أنها ذات أصول فردية اساسا ، وأنها نتاج اجتماعى • وان التقييمات المالية نتـاج لظروف وانشطة الجماعة •

وقد رأى كولى انها كانت لدى العامة عقليا متمثلة فى العمليـة الاجتماعية ، وبينما كان مؤمنا بالطبيعة البشرية كما هى ، فقد تطلـع الى اليوم الذى يتاح فيه الاتصال والتعليم بالنسبة للافراد حتـى يتمسكوا بالمواقف الانسانية على اساس التمسك بالتعبير عن الاهداف

---

(1) E. Bogardus, Op. Cit., PP. 495-496.

الاجتماعية المؤثرة ويجب ان يحل التكيف اللاشعورى محل التوجيه الذاتى لكل جماعة من خلال خطوط التعاطف والثراء الثقافى المتسعة (١)

ويستحق كولى ان يوصف بانه مفكر سوسيولوجى يسير الحقائق بمعقولية وعمق • ولقد وجدت اسهاماته الى الفكر الاجتماعى فى الاوصاف الواضحة للعملية الاجتماعية التى من خلالها تنبثق الشخصيات والتنظيمات الاجتماعية • وفى تحليله المتعمق للاتصال على أنه عنصر اساسى فى التقدم ، وفى تأكيده على الضبط العقلى الرشيد للمستويات الاجتماعية (٢) •

الطبقات الاجتماعية :

يذهب كولى الى أن الطبقات الاجتماعية Social Classes هى أكثر الجماعات الاجتماعية شمولا وانتشارا • ويرى أن التدرج الطبقى وما يؤديه من وظائف فى المجتمع ، ظاهرة عامة ، ويعتبر التوريث Inheritance والمنافسة بمثابة عاملين يعملان على تحقيق بعض عناصر وسمات الطبقة الاجتماعية فى كافة المجتمعات ، وقد استطاع كولى أن يسبق بارك R. Park وتلاميذه • وبخاصة لويد وارنر L.Warner عندما اشار الى الطابع الطبقى الذى يميز الجماعات العنصرية فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فقد امتزج تحليله للتدرج الطبقى بقيمة الشخصية التى تمثلت فى تعاطفه الشديد مع الطبقات الدنيا ، وايمانه بالتقدم السريع نحو مجتمع مفتوح الطبقات (٣) •

وقد وضع كولى قائمة بثلاثة بنود ، يوضح فيها الظروف التى تعمل على صياغة بناء طبقى متبلور ، وهى :

---

(1) Ibid, PP. 496-497.
(2) Ibid., PP. 497-498.
(٣) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ •

١ — عدم تشابه الذين يكونون مجموع السكان كنتيجة للتمايز فى تجانس الشعب •

٢ — الوضع الحر للمجتمع بحيث يحدد الاساس الوراثى ادوار الافراد فى البناء الكلى •

٣ — الدورة الاجتماعية البسيطة بسبب الفرص القليلة المتاحة لمن يحتلون مكانة اجتماعية دنيا لضمان مستويات التعليـم المطلوبة ومصادر الثروة التى ترقى بهم الى وضع آخر فى تنافس مفتوح • ومن الواضح ان هذه الظروف الثلاثة متمثلة الان فى بعض المدن (١) •

الاتصــــــــال : Communication

يعتبر مفهوم «الاتصال» من المفهومات الاساسية فى الاطــار الفكرى الاجتماعى لدى كولى • والاتصال هو «الميكانزم الذى مــن خلاله توجد العلاقات البشرية وتنمو » • ولقد أكد كولى أن اللغــة وحدها لاتنشىء الرموز العقلية وحسب ، بل ان كل الموضوعات والافعال هى رموز عقلية ايضا • والاتصال هو الوسائل التى بواسطتها يعمل العقل على نمو الطبيعة البشرية الحقة • وان رموز بيئتنا الاجتماعية «تعطى حافز واطار نمونا» • وهكذا يمدنا مصطلح الاتصال باساس جوهرى لفهم الظواهر النفسية والاجتماعيــة التى يمكــن تسميتها بظواهر التخمين Suggestion والمحاكاة Imitation

وللشخصية اصولها فى الوراثة من جانب ، وفى تيار حياة الجنس البشرى من جانب آخر • وتوضح دراسة الاتصال ان العقل الفردى لم يكن ذا نمو منفصل ، ولكنه تطور متكامل مع العقل العام •

(1) L. Wilson & Kolb, Op. Cit., P. 463.

ويمكن ملاحظة تطور وسائل الاتصال فى القرن التاسع عشر على النحو التالى : (١)

١ ـ يمكنها ان تحمل بكفاءة ، التعبير عن مدى الافكار والاحساسيس •

٢ ـ ويمكنها انجاز عملية التسجيل •

٣ ـ وفى سرعتها •

٤ ـ وفى انتشارها على جميع طبقات الناس •

وهكذا يمكن للمجتمع ان ينتظم على اساس احاسيس ثقافية وعقلية ومتسقة أكثر من انتظامه على أساس السلطة والاوتوقراطية والطائفة •

فالعلاقات الحرة للافكار ، ى اتصال حر ولا يعترضه شىء ولا تنتج تماثلا • ويعمل الشعور الذاتى على ايجاد فرص اوسع للتعبير • وتنتعش الدرجة المتزايدة للاتصال لكى تجعل الوعى الفردى لجزء فريد يستطيع ان يعطى تحسينا لكيفية الكل الاجتماعى ، ومن ناحية أخرى تؤدى حرية الاتصال الى احداث «مرض العصر» الذى يسمى بمرض الافراط فى العمل ، والارهاق ، وتنافس الجنس البشرى بحيث لاتجد الناس يؤدون عملهم بكفاءة •

وعلى ما يذهب كولى ، ليس الرأى العام مجرد تجميع لاراء الافراد • ولكنه «نتاج تعاون الاتصال والتأثير المتبادل» انه عبارة عن تبلور الرأى المتناقض ، الذى ينتج ثباتا معينا للفكر • أنه ينتج عن المناقشة • وله اليد العليا من حيث مدى تأثيره ، أكثر من آراء الافراد متفرقين •

---

(1) Bogardus, Op. Cit., P. 494 From : Cooley, Human Nature & the Social order, Op. Cit., PP. 28-30.

وتضع الجماهير اسهامات جوهرية الى الرأى العام ، ليس من خلال صياغة الافكار وانما من خلال احساساتهم • ومن خلال الخبرة اليومية للجماهير يرتبطون بحقائق الطبيعة البشرية ولاتحدهم اهتمامات ادخار الملكية الخاصة التى تمنعهم من تقديم الثروة للمصالح العامة فى الحياة •وتصبح النتيجة الملفتة للنظر بشأن العملية الاجتماعاية متمثلة فى تطور الشخصيات • حيث تتيح العملية الاجتماعية فرص الدوافع والمطامح الفردية • وسوف يؤدى التعليم وظيفة مفيدة فى استغلال الافراد لمختلف الفرص • الا أن التعليم غالبا ما يفشل فى هذا بسبب تزايد المطامح وعدم كفاية المعرفة الرسمية فى تحقيق ما يصبو اليه الافراد من آمال (١) •

نظرية الرأى العام :

يرى كولى ان الرأى العام لم يكن مجرد تجمع لاحكام فردية مختلفة ولكنه تنظيم وسلوك تعاونى ، يتم عن طريقة الاتصال والتأثير المتبادل والمشترك ، وربما يختلف الرأى العام عن افتراض ان الافراد ربما يكونون فى تفكير معين كافراد منفصل الواحد منهم عن الاخر ، الا أن هذا يتلاشى عندما نرى الرأى العام بمثابة سفينة تبنى بواسطة مئات من الرجال لايستطيع واحد بعينة بنائها على انفراد (٢) •

وتوجد الجماعة كحقيقة واقعة ، يقوم كل فرد بتحقيق اهدافها المحددة ، فهى تركز الاهتمام فى حالات فردية ـ كهذه ـ تبحث عن شعورها من أجل افكار ثابتة ، واحساسات مترسخه فيعمل الفرد على ضوء الكل قبل ان يدرك فكرته الحقيقية عن الجماعة ذاتها • ويحدث هذا بصورة واضحة فى حالة الشعور بالوطنية • فالفرد عند اتيانه

---

(1) Ibid., PP. 494-495.

(٢) اعتمدنا فى عرض نظرية كولى عن الرأى العام ـ بصفة جوهرية ـ على :

Borgatta & Meyer, Op. Cit., PP. 257-260.

سلوكا معينا ، فانما يفسره فى حدود ماهو مستعد له فى ذاكرته أو فكرته وعن طريق الافكار المرنة لدى الاخرين الذين تفترق عقولهم عنه كذلك فكل فرد مزود بحقيقة معينة أو بفكرة بعينها أو بشعور خاص • الا أن تفكيره غير معروف لمن يحاولون تجزيئه أو تفسيره • وهكذا فليس ثم مجرد عقل فردى ، وانما هناك عقول ككل تبحث عن المادة الثابتة حتى تضعها فى تيار الافكار العا ممن أجل ان يستخدمها كل منهم • وبهذه الطريقة تضحى العقول فى اتصال مع الجماعة على أنها كل عضوى فريد • ولم تكن وحدتها هذه نتاج التشابه ، وانما هى نتاج العقل والحياة والافكار المترابطة •

وليس من الضرورى ان يكون ثم اتفاق ، وانما الشىء الجوهرى هو امتداد وثبات الافكار الناجمة عن الانتباه والمناقشة • وقد توجد آراء جد مختلفة ، الا أن هذه الاختلافات مسألة نسبية ، اذ سيكتب لها الانتهاء • ولذا يعرف الناس ما يفكرون فيه حقيقة حول حادث معين ، مثلما يفكر غيرهم فى نفس الحادث • فمقاييس الاحكام والخطابات والرموز المختلفة انما هى نتاج للتعبير وللتعاون ، وتحديد للتناقض انها تذهب كى ما تكون تنظيما نسبيا للافكار ، عن طريقها يضيف كل فرد أو جماعة شيئا ما الى طريقته الخاصة •

والذى يفهم الرأى العام يستطيع ان يميز بوضوح وجلاء بين الرأى الصادق أو الناضج ، وبين الانطباع المرغوب فيه وبين ما يتكون عن طريق الانتباه والمناقشة • مما قد يكون فى فترة معينة دون سواها وكذلك بين مايعطى معانى وأهمية لشىء ما حتى ولو كان خاطئا • فنادرا ما نلاحظ الحوادث التى تلفت النظر والاهتمام ، حيث تظهر تلك الحوادث بطريقة غير محددة • اما الانطباع المرغوب فيه فعلى العكس من ذلك ، انه انطباع سطحى ومؤقت اذ لايستخدم دائما فى وصف الفعل المرغوب فيه • وهو يماثل وجهات النظر التى لاتضع الفرد فى اعتبارها ففى تسع وتسعين بالمائة — تقريبا — من البشر ،

نجد آراء متناقضة كل يوم اذا قيست آرائهم على مدى شهر معين • ومرد هذا الى بحثهم عن عقولهم هم غالبا ، وقليلا ما يفكرون فى ذوى الاهمية الذين يؤثرون على افكار الاخرين • وليس من المعقول — على ذلك — ان نمزج كل ما يلاحظ الى الرأى العام والى الحكم الاجتماعى العام •

ويعتقد كولى بوجوب التعبير عما لدى العامة من فكر وسلوك ، وذلك فى صور سلوك ، أو عقل عام شائع • ويجب ان يحدث نفس الشىء — تقريبا — بين الجماعات بمختلف انواعها ، والحقيقة ، انها تمثلات أو تصورات تأخذ معناها وأهميتها من كونها شعور يغلب على الجماعة يبدو أنه محدد ومؤثر فى التعبير عن طريق الافراد وخاصة عند تنافسهم على التعبير •

ولم يكن الرأى العام بشىء له شكل جامد ، كما نستطيع ان نفترض للوهلة الاولى وانما له وجوه متعددة ومختلفة فقد نميز بين الرأى العام الذى فيه يصبح رأى كل فرد فى المجتمع مجرد جزء منه، وبين اختلاف الآراء الخاصة أو اختلاف آراء طبقات أو فئات معينة كالاسرة وجماعة النادى وجماعة الدراسة والاتحادات وما الى ذلك •

وثمة اختلاف — كذلك — فى نوع التفكير الذى يأخذه العقل العام ويحتويه • فقد يكون المحتوى على درجة عالية من الاهمية وهكذا يصبح للجماعات «مثل» ومعتقدات يمكن ملاحظتها من خلال العقيدة والتجاره والزراعة والزواج والتعليم وما على شاكله ذلك • واستنادا الى الاحداث التى احتواها العقل — فى الماضى — يوجد مستوى اهتمام قد يكون خفيا أو مستترا فى صورة قضايا معينة الا أنه حينما يفصح عنها وتنظم عن طريق المناقشة ، فانما تمزج بعناصر أخرى حتى تشكل الرأى العام •

وليست هذه الاختلافات الا مجرد انعكاسات للتنظيم المعقد

وللرأى الذى يفصح عن نفسه ، وللمناقشة التى تأخذ شكلا ايجابيا وخاصة اثناء فترات النمو والتطور ، بمعنى أنها تأخذ مكانها من خلال النسق ككل • وكذلك الحال لدى كل عضو • وقد يوجد الرأى العام بطريقة فردية ، دون نماذج خاصة من التفكير كما هو شأن الغوغاء التى تكون المجتمع غير العقلى وقد تعتمد على نموذج خاص ، فيه يتكلم الافراد عن ذواتهم فنرى ارشاد الرأى العام واختفاء المتضمنات الخاصة الناتجه والموقظة والمؤثرة على المظهر العام •

وللرأى العام مجال اقل من مجال التخيل العام • وتعتبر التساؤلات عن اتجاه الحكم العام للعامة ، بمثابة تغير عضوى اساسى أو اعادة للحكم مثل التساؤل عن تجميد الحكومة للصناعات • ومن هنا يتم اختيار الناس على اساس شخصياتهم المتميزة • فالمتخصصون — فى الجيش والمسنون والمحامون ورجالات الدولة وذوى الوظائف العامة — يحكمون عن طريق الفئات التى تعطى كثيرا من الآراء فى جماعاتهم الخاصة ، اذ لهذه الفئات تأثير قوى وفورى — ولو بصورة ضئيلة — على الرأى العام حيث تمثل آرائها فى ذاتها اعمالهم الممكنة • فقاعدة الرأى العام تعنى الجزء الاكبر من السلطة المستترة التى يمارسها العامة بمصاحبة ما يحدد وظيفته الخاصة • رغم ان هذه الفئات قد لاتتمكن من مشاركة الجماعة فى تفاصيل الاعمال التى يقوم بها العامة • ولهذا يضيف كولى : الاحساس والشعور العام المؤقت وذا الاتجاه العام فى هذه العملية التى يتم من خلالها اختيار القادة حيث يتبلور اتجاه الانسان كعضو من خلال احساسه بالجماعة التى يعبر عنها ».

نظريـــة القيـــــادة : Leadership

يرى كولى ان ثمة افتراض بأن نظرية القيادة أو النفوذ الشخصى Personal ascendency (١) تتضمن سؤالا عن التقييم النسبى للعقل نحو التخمينات الاتية اليه من عقول الاخرين • وتعتمد القيادة على نفوذ الانطباع الشخصى فى ايقاظ الشعور والتفكير اللذين يبدوان كموضوعين فى السكان • فهناك آخرون لانستطيع ان نفكر فيهم وهم فى الواقع يقودون المناقشة الى اعتقادات الجوار ، ولذلك فحياتهـم مؤقتة ، وربما لاجيال لاحقة عليهم • ويبدو سبب هـذا ان أى شىء يتجدد فى العلاقة بين الانطباع الشخصى للانسان وبين العقل الذى يتعقل هذا الانطباع ، واذا ذهبنا ابعد من ذلك لنكشف عما تصنعه التخمينات المحددة لتعاقب الاجيال ، فيجب القاء الضوء على القيادة • بالاضافة الى القاء بعض الاسئلة التى تدور حول الاتجاه الاجتماعى Social tendency وينبغى أن تكون هناك دراية بتلك النظرية عن أهمية قوى الحياة ، دون أن يكون ذلك فى صورة رياضية لتكويـن القياده ، وثمة بعض من العمق فى الاتجاه البشرى معروف لدينا ، الا أن هناك من يعرف أكثر أو أقل من معرفتنا بهذا الاتجاه • ومـع ذلك فهناك مشكلة الاختلاف فى الجنس والسن والاصـل والوراثة والنمو الشخصى • علاوة على أن الفكرة العامة عن التطور ، تقودنـا الى توقع الحياه واعطاء اتجاه معين أو وظيفة معينة للحياة السالفة عن الاصل •

وتظهر الحالة الاولى للنفوذ لدى الشخص فى صورة غير مباشرة• فهى ليست أكثر القوى اعتمادا علينا من المتطلبات الذاتية • فللعامل قدراته ، وعليه ان يعمل ، كما ينبغى أن يتطلب ارشادا معينا ، ويشكل التفكير ، وهذا ما يسهل من وظيفتـه • وتعتبر النظرة الى الحيـاة

(1) Edger F. Borgatta & Henry J. Meyer, Op. Cit., PP. 176-177.

نظرة جدلية ، حيث لا نعرف حقيقة ان الحاجة الاولية هى الحاجة للسلوك ، فلكل عضو مقدراته الخاصة ، ويجب ان يكون كذلك ، اننا نولد من أجل الفعل أو السلوك • وكذلك كيما تكون لدينا مقدرة على التخمين وتوجيه السلوك لقوى تأتينا بادى ذى بدء • ان الانتباه الى الطفل الجديد يبين لنا هذا الاتجاه خلال حركاته وكلامه •• الخ • فاهتمام الاشخاص والحيوانات بانفسهم مرده اختلاف دوافع الاحساس لديهم عن غيرهم من الموضوعات • فهم يتحركون ويتكلمون ويحضرون الطعام وما الى ذلك • وهذا يتطلب نوعا من المنزلة Prestige لعقل الطفل الذى يشارك فى الدوافع وفى ظواهر معينة • فقد يتلقى بعد ذلك بعض انواع ضبط السلوك والنشاط ، وقد يرحب بالغضب حينما يشارك فى شىء معين وخلال نموه ، فانه يعجب باشياء معينة يريد تفهمها عن كثب •

خاتمـــة :

لم يتأكد كولى من استخدام علماء الاجتماع الاوائل لمفهوم «الجماعة Group» ، كمدخل للتنظيم الاجتماعى فسمنر Sumner وجدنجز Giddings وسمول Small وروس Ross من الرواد الذين اعطوا المفهوم اهمية فى الفكر السوسيولوجى • كذلك ينضم اليهم كولى ، فمفهومه عن الجماعة الاولية يعتبر — الان — عاملا اساسيا فى أى تصنيف للجماعات • وقد طرحت بعض التساؤلات عن كيفية تحديد كولى ووصفه لجماعة معينة على أنها أولية • فما هى — اذن — تلك الجماعات الاولية وما هو المقياس الذى على اساسه نتعرف عليها ونميزها عن غيرها من الجماعات ؟ وما هو الدور الذى تلعبه فى تطور ونمو الطبيعة البشرية والشخصية ؟ (١)

---

(1) Edward C. Jandy, Charles Horton Cooley : his life and Social Theory, The Norwood Press, N.Y., 1942, PP. 172-173.

يمكن اعتبار الفرد عضوا فى كل اجتماعى ، والغرض من النظر اليه منفصلا انما هو وسيلة للوقوف على حقيقته وحقيقة المجتمع ، ونستطيع ان نلاحظ العلاقة بين الفرد عن الكل الانسانى Human Whole اذ أنه يعيش مع أعضائه ويستمد حياته من ذلك الكل (١) خلال مايتلقاه اجتماعيا ووراثيا انه لايستطيع ان يقتطع ذاته عن ذلك الكل ، فالوراثة والتعلم يدخلان فى كل وجوده • ومن ناحية مقابلة ، فان الكل الاجتماعى على نفس الدرجة اذ يعتمد على كل فرد لان كليهما يضيف شيئا الى الحياه العامة ، وليس ثمة أحد لايضيف • وهكذا فنحن كل «عضوى Organism » اذ نعيش ككل على اختلاف الوظائف التى يؤديها كل منا (٢) •

ويرى كولى ان ظاهرة التجمع الاجتماعى عرفت الان عن طريق علماء الاجتماع كموضوع له أهميته فى دراسة التنظيم الاجتماعى • الا أن هؤلاء العلماء نظروا الى عملهم على أنه علم لحياة الجماعة • ولذلك قالوا أنه من الافضل النظر الى الجماعات البشرية على أنها وجه أكثر عمقا من كل العمليات التجمعية الاخرى • واذا ما حاولنا تحليل مفهوم الجماعة تاريخيا فنجد أن ثمة اهتمامات غير قليلة لتطورها فى علم الاجتماع ، ابعد مما كنا نعتاد على مفاهيم أخرى مثل البناء Structure والوظيفة Function والعملية الاطرادية Process أو التجمع Society (٣) •

---

(١) يذهب ماكيفر وبييج الى ان «المجتمع نسق مكون من العرف المنوع والاجراءات المرسومة ومن السلطة والمعونة المتبادلة ، ومن كثير من التجمعات والاقسام ، وشتى وجوه ضبط السلوك الانسانى والحريات » .
انظر : «ماكيفر وبييج» ، المجتمع ، ترجمة على احمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ص ١٦ — ١٧ .

(2) Charles H. Cooley, Human Nature and the Social order, Op. Cit., PP. 35-FF.

(3) E. Jandy, Op. Cit., P. 172.

وفى هذا يذهب كولى الى أن المجتمع كائن عضوى ، حيث يمثل كيانا كليا حيا ، ويتألف من وجدات متمايزة ، تؤدى كل وحـدة منها وظيفة خاصة بها • فالمجتمع هو ذلك الكل المعقد الذى يتألف من الصور والعمليات التى تحقق وجودها ونموها من خلال تفاعلها مع بعضها ، وهى كذلك تؤلف كائنا كليا له وحدة مستقلة ، بحيث ان ما يحدث فى جزء منه تنعكس آثاره على بقية الاجزاء (١) •

وبهذا لم يلجأ كولى الى فكرة المماثلة العضوية كما فعل سبنسر أو شافل وانما كان اساسه — هنا — أن يوضح طبيعة العلاقة بـين الفرد والمجتمع • الا ان المجتمع — لديه — أكبر من المجموع الكلى للافراد الذين يدخلون فى تكوينه ، لأن وحدة المجتمع ترتبط بوحدة العقل الاجتماعى الذى يتكون عن طريق التنظيم •

ويمكن تلخيص اسهامات كولى فى تاريخ النظرية السوسيولوجية — كما يرى تيماشيف — فيما يلى (٢) •

١ — لم يضع كولى تعريفا اجرائيا للمجتمع Society ولكنه وقف على أن المجتمع كل عضوى ، وكيان نفسى • وقـد اطلق عـلى وجهة نظره هذه بالعضوية Organic ولكنها فى الوقت الراهن بمثابة المقدمة الرئيسية التى تقود الى اسس النظرية الوظيفية •

٢ — انكر بشدة وجود عامل منفرد يحدد كيان المجتمع أو تطوره ، ولم يفرد وحدة خاصة ، للمجتمع ، ما عدا الجماعة الاولية ، من أجل التحليل السوسيولوجى ، وربما كان هذا احد القيود الاساسية فى كتاباته والتى برغم جدتها واهميتها الا أنها غامضة ومبهمة •

٣ — ان تناول كولى للجماعة الاولية يضفى اسهامات اساسية

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ •

(2) N. Timasheff, Sociological Theory, N.Y., 1964, PP. 145-147.

الى كل من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى . فالجماعة الاولية فى هذه الايام — مقدمة عامة فى تصنيفات مختلف نماذج الجماعات الاجتماعية .

٤ — وبالرغم من أنه صاغ قضاياه فى ضوء الابستمولوجى المثالية Idealistic epistemology فان موقفه من مشكلة العلاقة بين الفرد والجماعة تبين وجهة النظر العامة فى عصره . وعلى العكس من سبنسر الذى وقف على أن الفرد هو الاساس ، والجماعة مجرد المجموع الكلى لاعضائها . وعلى عكس جومبلوفيتز ودوركايم اللذين اعطيا للجماعة اولوية على اعضائها الافراد ، يرى كولى انه ليس للفرد أو للجماعة أولوية فى التحليل السوسيولوجى ، لان ثمة عمليات تفاعلية التأثير المتبادل بينهما .

٥ — وكما رأينا فقد تناول كولى «الطبقة Class» « والطائفة Caste» وكان لهذا اثره فى تطور دراسات علم الاجتماع . فنظريته عن « النظم Institutions» باعتبارها نتاجا للحاجات الدائمة للطبيعة البشرية يتشابه الى حد كبير مع القضايا الوظيفية ، وعند مناقشته للنظم الاقتصادية تناول تفرعاتها الثقافية والاجتماعية مثلا .

٦ — وكباحث فى مناهج البحث ، فقد طبق مبدأ الفهم التعاطفى Understanding Intuation داعيا بأن التعاطف ضروريا فى أى بحث سوسيولوجى . وبينما كان يلاحظ حياة الجماعة التى تحيط به وخاصة جماعات لعب الاطفال كان يعتمد ايضا على « الحدس Sympathetic» . ولهذا يرى تيماشيف امكانية وضع كولى ضمن مدرسة الظاهرات Phenomenological School فى علم الاجتماع الحديث . وقد كان كولى مقتنعا بأن الاهتمام المبدئى لعلم الاجتماع يرتكز حول الظواهر الجماعية لفهم ما يتعمقه الفنان وما

يلاحظه العالم اذ نظـــر متشككا الى التجاوزات المتزايدة للاحصاءات
فى البحوث السوسيولوجية (١) •

---

(1) J.H. Abraham, Op. Cit.

المراجـع المستخـدمة

أولا — مراجـع عربية :

١ — د. غريب محمد سيد أحمد ، المدخـل فى دراسة الجماعـات الاجتماعية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣ .

٢ — د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث المدارس الاجتماعية ، الدار القومية للطباعـة والنشر ، ١٩٦٦ .

٣ — د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبـة الانجلو المصرية .

ثانيا : مراجـع مترجمة :

٤ — ارمان كوفيلييه ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة د. السيـد محمد بدوى ، وعباس احمد الشربينى ، دار المعـارف بمصر ، ١٩٦١ .

٥ — روبرت ماكيفر وتشارلز بييج ، المجتمع — ترجمـة د. عـلى أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .

٦ — نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة د. محمود عوده وآخرون ، مراجعـة وتقديم د. محمد عاطف غيث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

7 — Abraham J.H., The Origins and Growth of Sociology, Hazell Watson & Viney Ltd., London, 1973.

8 — Bierstedt R. The Social Order, McGraw Hill Co., N.Y., 1957.

9 — Bogardus Emory S., The Development of Social Thought, David

Mckay Company, N.Y., 1964.

10 — Borgatta Edgar F. & Meyer Henry J., Sociological Theory Present-day from the Past, Alfred Aknopf, N.Y., 1956.

11 — Cooley Charles, H. Genius, Fame & The Comparison of Races, 1897.

12 — Cooley Charles, H., Human Nature and the Social Order, The Free Press, N.Y., 1956.

13 — Cooley Charles H., Social Organization : A Study of the Large Mind, The Free Press, N.Y., 1956.

14 — Coser Lewis A. & Rosenberg, Sociological Theory, N.Y., 1965.

15 -- Jardy Edward C., Charles Horton Cooley : His Life and his Social Theory, The Norwood Press, N.Y., 1942.

16 — Martindale Don, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, 1960.

17 — Nelson Lewry et al., Comunity Structure and Change, The Macmillan Comp., N.Y., 1964..

18 — Sutherland R. L et. al., Introductory Sociology, Oxford & I.B.H. Pub., N. Belhi, 1961.

19 — Wilson L. & Kolb W.L, Sociological Analysis, Harcourt Brace & Comp. N.Y., 1949

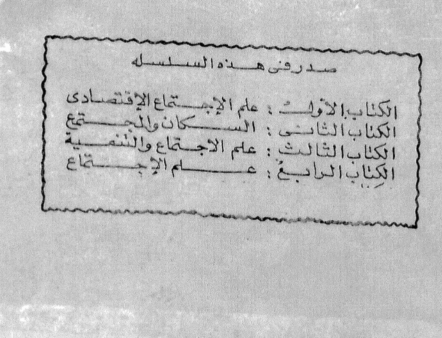
المحتويـــــات

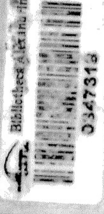
الفصل الرابـــع

مولد علم الاجتماع الحديث

الفصل الخامس

بعض رواد عـــلم الاجتماع


صدر فى هذه السلسله
الكتاب الأول : علم الإجتماع الإقتصادى
الكتاب الثانى : السكان والمجتمع
الكتاب الثالث : علم الاجتماع والتنمية
الكتاب الرابع : علم الإجتماع


Bibliotheca Alexandrina
0347316